

سَمَاءُ الْمَرْجِ الَّذِي آتَى النَّاسَ ظِلْمًا
الْبَيْتِكَ عَجَلَتْ قَوْلَ الْبَلَاءِ سَيِّئًا

مَرْهَى الْقَارِئِ

الجزء الرابع

سُورَةُ هُودٍ - سُورَةُ الْاِنْبِرَاءِ

دار الكتاب العربي



مِنْهُمُ الْقَارِئُ

سَمَاءُ الْمَرْجِ الدِّينِيَّةِ الشَّاهِدَةُ الْعَلِيَّةُ الْحَسَنَةُ
السَّيِّدَةُ مُحَمَّدَاتُهَا الْمَلِكَةُ الْعَرَبِيَّةُ

مِنْهُنَّ الْقُرْآنُ

الجزء الرابع

سُورَةُ هُودٍ - سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

دار القكارى

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الثانية

١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

-
- الكتاب: من هدى القرآن ١/ ١٢.
 - المؤلف: سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.
 - الطبعة: الثانية، تاريخ النشر: ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م، (طبعة محققة ومنقحة ومزودة).
 - إخراج وتنسيق: زكي حسن أحمد

■ zakiht@gmail.com

■ الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون: ٤١٣٢٥٦ / ٣ - ٩٠٢٩٤٤ / ٣

Email: dar_alkari@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ

سُورَةُ هُودٍ

* مكية.

* عدد آياتها: ١٢٣.

* ترتيبها النزولي: ٥٢.

* ترتيبها في المصحف: ١١.

* نزلت بعد سورة يونس.

فضل الشّورة

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ نُوحٍ وَكَذَّبَ بِهِ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَشُعَيْبٍ وَلُوطٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ السَّعْدَاءِ».

(مستدرک الوسائل: ج ٤ ص ٣٤١)

عن رسول الله ﷺ قال: «شَيْئَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾».

(وسائل الشيعة: ج ٦ ص ١٧٢)

عن الامام الباقر عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ هُودٍ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زُمْرَةِ النَّبِيِّينَ وَحُوسِبَ حِسَاباً يَسِيراً وَلَمْ يُعْرِفْ لَهُ خَطِيئَةٌ عَمِلَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(مستدرک الوسائل: ج ٦ ص ١٠٣)

الإطار العام

الاستقامة طريق الجنة

لعل (الآيات: ١١٢-١٢٠) في نهاية السورة تحدد الإطار العام لها، حيث تأمر الرسول بالاستقامة، والابتعاد عن الظالمين، وإقامة الصلاة، والصبر، والإحسان.

كما تذكره بدور بقية الله -ممن ينهون عن الفساد- في التاريخ، وكيف أن الله أنجاهم وحدهم، بينما أهلك الظالمين الذين اتبعوا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين.

وتبين أن الله لم يهلك القرى إلا حين انعدم الصلاح بينهم.

وأن الاختلاف سنة تاريخية بين الناس، وأن الله لم يخلق الناس ليعذبهم -بل ليرحمهم- بيد أنه قد قضى بأن يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين.

وأن القصص التي ذكرها الرب كانت بهدف تثبيت فؤاد الرسول، وبيان الحق، وتوفير الموعدة والذكرى للمؤمنين.

وتكاد تكون آيات سورة هود تفصيلاً لهذه البصائر المحكمة ببيان جوهر رسالات الله التي حملها النبيون ﷺ إلى الناس، وتحملوا -من أجلها- ألواناً من العناء، وأنجاهم الرب من بطش قومهم، وأنزل العذاب الأليم على الكافرين برسالاته.

وهكذا؛ أوضحت الرسالات هذه محور النجاة والعذاب، فمن اتبعها أنجاه الله، ومن خالفها لحقه العذاب واللعنة في الدنيا، والنار والشقاء في الآخرة.

إنَّ جوهر رسالات الله، وفي طليعتها رسالة القرآن التي أحكمت آياته ثم فصلت، هي توحيد العبودية لله، والإنذار والبشارة، والأمر بطلب المغفرة من الرب في الدنيا، والتوبة إليه لضمان حياة سعيدة (الآيات: ١-٣).

ثم اتقاء يوم البعث، والخشية من الله الذي يعلم سرهم وإعلانهم ويعلم كل شيء. أو ليس قد خلق السماوات والأرض في ستة أيام؟ والهدف هو ابتلاء الناس.

ولئن تم تأخير العذاب عن هؤلاء الذين كفروا بالله ورسالاته ويوم الدين، فلأنه يوم يأتيهم لا يؤخر عنهم (الآيات: ٤-٨).

وبعد بيان طبيعة الجزع عند البشر إلا المؤمنين منهم، يثبت القرآن فؤاد النبي ﷺ بأنه منذر. أما المنتقم فهو الله الوكيل على كل شيء، ثم يأمره بتحديثهم بأن يأتوا بمثل القرآن، وإذا يظهرون عجزهم فليعلموا أن القرآن أنزل بعلم الله (الآيات: ٩-١٤).

ثم يذكر القرآن بأن للعمل جزاءه، فمن عمل للأخرة فإن جزاءه يوفى إليه هناك، وفي الدنيا يُعطى له نصيب منه، ومن عمل للدنيا يُعطى كل جزائه في الدنيا وليس له في الآخرة إلا النار (الآيات: ١٥-١٦).

ثم يبين القرآن أن هناك فريقين من الناس؛ المؤمنون الذين هم على طريق هدى، والكافرون الذين تشتتوا أحزاباً مختلفين. وبينما المؤمنون هم على بينة من ربهم ترى الكافرين يفترون على الله الكذب ظلماً لأنفسهم، ولا بد أن يكونوا هم الأخسرين يوم القيامة (الآيات: ١٧-٢٢).

ثم يشير إلى أن عاقبة المؤمنين الصالحين الذين أختبوا إلى ربهم هي الجنة لأنهم أصحاب سمع وأبصار، بينما الكفار كالأعمى ولذلك فهم لا يهتدون سبيلاً (الآيات: ٢٣-٢٤).

وهكذا جاءت رسالات الله على لسان النبي نوح ﷺ، وكانت فصول الصراع بينه وبين قومه تعكس حالة العناد عند قومه، وقوة الاستقامة عند النبي نوح ﷺ، وانتهى الصراع بالطوفان، حيث أنجى الله نوحاً والذين آمنوا، وأغرق الظالمين، وبينهم ابن النبي نوح الذي لم يخن عنه أنه كان ابن نوح، لأن محور النجاة هو توحيد الله (الآيات: ٢٥-٤٩).

ومن بعد النبي نوح ﷺ جاء النبي هود ﷺ يدعو قومه عاداً بتلك الرسالات، فلم يستجيبوا له، وجرى بينهم صراع مشابه: عاندوا، فتحذاهم، وأيده الله وأهلكهم بعذاب غليظ (الآيات: ٥٠-٦٠).

وكذلك ثمود حين جاءهم أخوهم صالح ﷺ، وأمرهم بتوحيد عبادة الرب، وجاءهم بآية هي ناقته التي لم يلبثوا أن عقروها، فجاء أمر الله، ونجى عبده ورسوله صالحاً، وأخذت الذين ظلموا الصيحة (الآيات: ٦١-٦٨).

وهكذا؛ إبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام، وبالرغم من أن جوهر رسالات الله واحد، إلا أن هناك بعض التفاصيل المختلفة بسبب اختلاف الظروف نقرأها في (الآيات: ٦٩-١٠٠).

وبعد بيان كل تلك القصص يبين السياق العبرة منها، ويذكر بالقيامة، حيث أن عذاب الله في الدنيا، آية عذابه في الآخرة، كما أن رحمته ونجاته هنا آية نعيم الجنة التي وهبها للمؤمنين، وأن تأخير يوم القيامة ليس بلا حدود، بل إن هناك أجلاً معدوداً ينتهي إليه التأخير. فنحن نقرب إليه على قطار الزمن، وحيث يظهر سلطان الله، حيث لا تستطيع أي نفس أن تتحدث إلا بإذن الله، وينقسم الناس إلى سعداء وأشقياء (الآيات: ١٠١-١٠٨).

ثم تعالج الآيات فيما بعد قضية تكريس الإيمان بالآخرة في واقع الدنيا، فهي الرسول من الشك في ضلالة الكافرين فيما يعبدون من آلهة، وأنهم ليسوا أفضل ممن سبق من المشركين، وأن الله سيوفيههم جزاءهم العادل دون نقصان، ومثل هؤلاء إنما هو كمثل الذين اختلفوا في كتاب موسى فأعطاهم الله فرصة الامتحان بكلمة سبقت منه سبحانه، ولولاها لقضي بينهم بتأييد الصادقين منهم ضد أعدائهم، وذلك بسبب شكهم المريب في صدق الكتاب الذي اختلفوا فيه (الآيات: ١٠٩-١١١).

وبعد ذلك يذكر القرآن رسول الله ﷺ بضرورة الاستقامة، وهو الأمر الذي شيب الرسول ﷺ كما جاء عنه في حديث مشهور (الآية: ١١٢).

كما يبين الله لنا الموقف الإيماني السليم من الكافرين والظالمين، حيث تحرم مودتهم والركون إليهم، ثم الاستعانة بالصلاة والصبر وانتظار الفرج الموعود، وكذلك العمل على تشكيل جبهة الصالحين في إطار مقاومة الفساد المستشري (الآيات: ١١٣-١١٧).

في نهاية سورة هود يجيب القرآن الحكيم على هذا السؤال: لماذا الصراع؟ ألم يكن ربنا قادراً على توحيد الناس؟ فيقول: بلى، ولكن الدنيا دار عمل وانتظار، وسيبقى الناس مختلفين -إلا من رحم الله فهذه إلى صراط مستقيم- والتاريخ صورة لهذا الصراع الممتد، والله يقص علينا من أنباء الرسل ليثبت بها قلب الرسول وقلوب المؤمنين، وليوضح الحق، وليلقي بالمواعظ، وليذكر المؤمنين، فإله قد أعطى في دار الابتلاء فرصة لكل الناس، ليعملوا، والمؤمنون بدورهم يعملون، ولينتظر الجميع.

والله محيط علماً وقدرة بغيب السماوات والأرض وبما في مستقبل الأشياء وبحاضرها أيضاً، فعلى أن نعبد الله، وأن نتوكل عليه فالله ليس بغافل عما يعمله الناس، فعلمه وقدرته

محيطه بما يعملون (الآيات: ١١٨-١٢٣).

وهكذا ينهي القرآن سورة هود ببيان ضرورة التوكل على الله، وقد دارت أكثر آياته حول هذا المحور العام.

كتاب أحكمت آياته ثم فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرُّكُوبُ أَخَذَتْ أَيْشُهُ ثُمَّ قُضِلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَقْبِلُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْمَةٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۚ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾

هدى من الآيات:

ما هو الكتاب؟ إنه آيات محكمة قد اتفقتها حكمة الرب، ثم فصلتها وأوضحت الحقائق بها، والذي بعث بالكتاب هو الرب الحكيم الذي يمنع الفساد، ويخلق الصلاح، والخير العالم باللطاف الأمور سبحانه.

ومن محكمات آيات الكتاب التذكرة بالله، والأمر بأخلاص العبودية له، وأن الرسول نذير وبشير منه، وكلما ابعدت الخطايا والذنوب والغفلات البشر عن رحاب ربهم، فعليهم أن يستغفروه ويتوبوا إليه ابتغاء الحياة السعيدة في عاجل الدنيا حتى يبلغ أجله، وابتغاء فضل الله، وإذا استمر البشر في غيه، وتابع سيرة الضلالة والانحراف، فإنه يخشى عليه من عذاب يوم كبير، وغدا حينها يرجع البشر إلى ربهم، يبعثهم من جديد بقدرته الواسعة.. آنشد يحاسبون عند الله.

بيانات من الآيات:

[١] ماذا تحمل هذه الكلمات الثابتة المكتوبة ﴿الر﴾ في طياتها؟ إنها تحمل آيات تشير إلى

الحقائق، تذكر بها وتهدي العقول إليها.

﴿الرُّكْنُ أُنْكَبُ أَئِنَّهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ فالقرآن ليس أفكارا بل هو آيات تشير مباشرة إلى الحقيقة لكي يراها البشر فور ما تشير إليها، والآية بمعنى العلامة والكلمة مأخوذة من مادة (أوى) بمعنى الذهاب إلى البيت وكان العلامة تذهب بك إلى رحاب الحقيقة ذاتها، والقرآن هو ذلك الكتاب الذي يبصر بك بالحقائق.

وآيات القرآن محكمة ومفصلة، أما الأحكام فهو آت من حكمة الله، التي لا تدع ثغرة في كلماته، ولا سبيلا للباطل إليها، بل يصب الكلمات على مقياس الحقيقة دون زيادة بوصة أو نقص بوصة، أو فراغ في جزء، فهو يقول كل الحقيقة وبكل أبعادها، وأما التفصيل فهو تحديد تلك البصائر المحكمة ضمن واجبات ومحرمات فرعية، فالقرآن مثله مثل الشجرة راسخة الجذور منتشرة الفروع.

والإحكام بحاجة إلى حكمة، فمن لا يعرف الخطوط العامة لأنظمة الحياة، كيف يتسنى له أن يضع برنامجا متكاملًا لها، ويعطي رؤية صادقة، كما أن التفصيل بحاجة إلى خبرة ومعرفة سابقة لدقائق الأمور ولطائفها، والله حكيم خبير ﴿مَنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٌ﴾ وتلك الحكمة التي نشاهدها في الاطار العام للكون، وتلك الخبرة التي نراها في أدق الأمور، والطفها مثل صنع أوجه النملة ومفاصل أرجلها، أو في صنع الخلية الحية، أو صنع الذرة المتناهية في اللطف. إن كل ذلك شاهد على حكمة الله وخبرته، وأن خالق المجرات الحكيم وصانع الذرة الخبير، هو الذي أمر بحكمته إخلاص العبودية له، ووضع بخبرته برنامجا تفصيليا لهذه العبادة.

التوحيد وفروعه

[٢] ومن الآيات المحكمة الموجودة في الكتاب دعوته الصريحة إلى نبذ الشركاء من دونه ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ إذ أن التوحيد بصيرة عامة تتفرع عنها سائر الشرائع الإلهية، وبعدها تأتي الرسالة التي هي بدورها فرع من فروع التوحيد ﴿إِنِّي لَكُرْمَنُهُ تَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

[٣] واستغفار الله فرع ثان للتوحيد. إذ حينما يعمر قلب الفرد بإيمان صادق بالله، ويعرف عظيمته وكبريائه ونعمه التي لا تحصى، آتئذ يشعر الفرد بالصغار أمام الله، ويستغفره ويتوسل إليه، لذلك جاء في آية أخرى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩] حيث أن الاستغفار جاء بعد الإيذان بالله لأنه فرع متصل به، وبعد حالة الاستغفار تأتي مرحلة التوبة وهي العودة إلى الله وخلوص العبادة له وإخلاص العمل في سبيله، فلا يكفي

الندم على ما مضى من الذنوب، بل لا بد من إصلاح المستقبل.

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ وبالإستغفار والتوبة يوفر الرب لعباده حياة طبيعية هنيئة، إلى وقت محدود.

﴿يُمِيعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَتُوبَ كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلُهُ﴾ أي كلما زاد الفرد من تقربه إلى الله، واستغفاره له وتوبته إليه، كلما منحه الله فضلاً أكثر.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ من نوع عذاب عاد وثمود، حيث أنه في يوم واحد حطّم مكاسب دهر طويل. لذلك سُمي باليوم الكبير.

[٤] وبعده يعود الناس إلى الله، حين يبعثون في يوم القيامة إلى الله، وذلك بقدرته البالغة التي لا يقف في طريقها شيء ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ويبدو من هذه الآية ومن آيات أخرى أن أهم حاجز نفسي أمام إيمان الناس بالقيامة، هو عدم إيمانهم بقدرة الله على البعث الجديد، لذلك بذكرنا السياق -بعد ذكر القيامة- بقدرة الله.

إحاطة علم الله

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ^(١) صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا^(٢) مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ^(٣) يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ^(٤)﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْقَرَّهُا وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَنْتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَقْعُودَاتٌ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ^(٥) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ^(٦) مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِشُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ^(٧)﴾.

هدى من الآيات:

في الدرس الأول من سورة هود، بين القرآن بعض الآيات المحكمات واستعرض الخطوط العريضة للرسالة، وفي هذا الدرس يدخل الكتاب في التفاصيل، بدءاً بواقع كفر وجحود الناس، ويبدو أن أحد الأسباب الأساسية للجحود هو الجهل بإحاطة علم الله بهم، وبالدوافع الأصلية لكفرهم، فتراهم ينتون صدورهم ويعطفونها بهدف إخفاء حقيقتهم بينما الله يعلم أسرارهم حتى في لحظة تسترهم بالثياب.

وكل حي يدب في الأرض رزقه على الله، ويعلم أيام حياته، وميعاد موته. كل ذلك

(١) ينتون: أصل الثني العطف، والمقصود يطوونها على العداوة وعلى ما هم عليه من الكفر.

(٢) ليستخفوا: الاستخفاء طلب إخفاء الشيء.

(٣) يستغشون ثيابهم: يتغطون بثيابهم.

(٤) أمة: حين من الزمان.

مكتوب في الكتاب الواضح، والله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وكانت سلطته وقدرته مهيمنة على الماء المخلوق الأول الذي جعل منه كل شيء حي. وحكمة الخلق هي ابتلاء الناس ليعلم من هو الأحسن عملاً، فيجازى في الآخرة، بينما لا يؤمن البعض بالآخرة، ويزعمون أنها سحر مبین، الغاية من طرحه تمويه الحقيقة، أما لو أصر الله عنهم عذاب الدنيا الذي هو طريق آخر لتنبيههم فستراهم ينكرونه أصلاً، ويقولون: ما الذي يحبس العذاب عنا ما دمنا مستحقين له، ولا يعلمون أن العذاب لو نزل بساحتهم فلا يصرف عنهم، وسوف يحيط بهم ذلك الذي كانوا به يستهزؤون.

بيانات من الآيات:

إحاطة علم الله

[٥] الكفار يثنون صدورهم، استخفاء للحقيقة، فتراهم يسرون في قلوبهم وكأنهم يطوون صدورهم فوق الشر، ويعطفونها عليه، أو كأن المرء منهم حين يريد أن يقول سرّاً ينحني وينثني - تبعاً لذلك - صدره، ولكن هل ينفعهم ذلك شيئاً. كلا.. لأن الله عليم بسرهم وعلايتهم، وما يتداخل في صدر البشر من شهوات وأهواء وعوامل مختلفة للرفض والإنكار كالاستكبار والجهل واللامبالاة وحب الدنيا والدعة.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَفْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ في اللحظات التي يختلون بأنفسهم تحت غشاء الثياب، حيث يبقى الفرد ووجدانه ويحاكمه وجدانه على إنكاره للرسالة، وكذبه ونفاقه، والله شاهد آنذ عليه ﴿يَسْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يَعْلَنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

[٦] وعلم الله محيط بكل شيء وكذلك رحمته، فهو الذي يرزق كل دابة في الأرض، فكيف لا يعلم بها ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي يعلم حياتها وموتها.. أو في بيتها وفي رحلتها ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ مكتوب بوضوح وبتحديد.

الكفار بين عذاب عاجل وأجل

[٧] فالله محيط علماً ورحمة بها في الأرض من دابة، وقبل ذلك خلق السماوات والأرض في ستة أيام خلقاً بعد خلق، فارضاً هيمنته وسلطانه على الكون، وفي ذات الوقت ناشراً رحمته

وبركته في ستة أيام.

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾

يبدو أن عرش الله هو قدرته وسلطانه، ولأنه لم يكن آنذ شيئاً، غير مادة سائلة كالماء، فإن عرش ربنا كان مستويا على الماء والله العالم.

﴿ لَيْسَلُوكُمْ آيَتُكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ إن حكمة خلق البشر هي امتحان إرادته وعقله،

وهذه الحكمة لا تتحقق من دون الإيمان بالآخرة، ولأنهم يكفرون بالآخرة تراهم لا يخضعون للرسالة الإلهية.

﴿ وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا

سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ يبدو أن الكفار كانوا يتخذون موقفا سلبيا من الرسالة ومن توجيهاتها، ويعتبرون كل كلماتها تمويهات وتضليلا - كما السحر - فلا يفكرون فيها ليعرفوا صحتها، بينما لو تدبروا قليلا في خلق السماوات والأرض لرأوا آيات الحكمة، وأن تطور الكون وتكامله، وتحقيق كل جزء منه لغاية معينة، شاهد على أن البشر خلق أيضا لتحقيق هدف محدد، وأنه لا يكون إلا بالابتلاء، وتمام الابتلاء هو الجزاء في يوم البعث.

[٨] والجزاء آت عاجلا أم آجلا، وإن تأخيره ليس إلا لحكمة مثل الابتلاء، بيد أنهم

يتخذون من هذا التأخير مبرراً للكفر والجحود.

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِصُهُ ﴾ إن التأخير ليس

بلا خطة حكيمة وتقدير رشيد، إنما هو لوقت معين (أمة معدودة) ولكنهم يتساءلون عن سبب تأخيره، وكان التأخير دليل عدم العذاب، وهذا من أبرز نواقص البشر، أنهم يخشون الجزاء العاجل، ويكفرون بالجزاء الآجل، ولكن عليهم أن يعلموا.

﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ فلقد كانوا

يستهزؤون بالعذاب، وها هو محيط بهم، يحاصرهم دون أن يقدروا على رده، بينما استهزؤوا سابقا به.

الإنسان بين اليأس والفخر

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ ۝٩ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١ فَلَمَّا تَرَاكَ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَاقُ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مِنِّي أَسْتَطِيعُكُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٣ فَمَا لَوْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ۝١٤﴾

هدى من الآيات:

في هذا الدرس يذكرنا الله بما فطر عليه البشر قبل التربية والتركيب من صفات جاهلية. إنه يتعرض لليأس والكفر بالنعم إذا فقد نعمة.

أما إذا أصاب نعمة بعد شدة، يزعم أن هذه الحالة ستبقى عنده، فينغمس في غمرات الفرح والفخر، أما الصابرون الذين يقيمون الأحداث كلها السابقة والقادمة والحاضرة تقييماً سليماً فحالتهم مختلفة، فهم ليسوا بحيث تفقدتهم النعمة أو الشدة توازنهم ولذلك فلهم مغفرة وأجر كبير.

والرسول ينبغي أن يجسد أعلى الصفات الحسنة ومنها الاستقامة، فلا ينبغي له أن يهتز

للمواقف الجاهلية التي تنبع من هذه النفسية الضيقة الأفق، التي تطالبه بكنز ينزل عليه، أو ملك يساعده، أو ما يقولونه: إن الرسول قد افترى الرسالة، بينما يتحداهم القرآن بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات بمستوى القرآن في علمه وبلاغته، ويقارنوها مع القرآن، ويشهدوا على ذلك بمن شاؤوا ان كانوا صادقين في اتهام القرآن بأنه مفترى.

ولكنهم لا يستجيبون حتما لهذا التحدي ولا بد أن نعلم إن الذي أنزل إنما أنزل بعلم الله وهو صنعة ذلك العلم المحيط بكل شيء، وعلينا أن نسلم للقرآن بكل جوانحنا وجوارحنا. ويبدو أن هذا الدرس تمهيد لبيان حقيقة الرسالة وقصص استقامة الرسول ضد خرافات الجاهلية.

بيانات من الآيات:

بين النعماء والضراء

[٩] ما دامت النعمة من الله، فزوالها عن البشر لفترة أو وجودها عنده في وقت آخر ليس دليلا على بقائها أو زوالها إلى الأبد، إذ أن تلك القدرة التي منحت النعمة أو إزالتها إنما للحكمة بالغة، والله قادر على أن يعيدها وفق تلك الحكمة ومع توافر شروطها، لذلك لا ينبغي أن يحيط اليأس بالبشر عند افتقاد النعم، ولا يجوز أن يكفروا بسائر النعم التي أسبغها الله عليهم، ويلبسوا نظارة سوداء يبصرون الحياة من خلالها، فلا يرون شيئا إلا ملبسا بالسواد ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ﴾.

[١٠] وعند النعماء وهي حالة هبوط النعمة التي لو جاءت بعد الشدة والضراء لكانت أعمق أثرا في النفس ولذلك قد تفقد توازن الانسان، وبحسب أن الصعاب قد ودعته إلى الأبد، فيستبد به الفرح والسرور البالغ، ولا يرى أي نقص أو عجز في ذاته، بل يظل يركز نظره حول تلك النعمة ويفتخر لها ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْاءَ مَسْتَةٍ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

[١١] وسواء الكفر ونكران النعم، أو الفخر والغفلة عن النواقص، فإنها من صفات الإنسان قبل أن تزكبه الرسائل السماوية، التي تبين له أن النعمة إذا جاءت فهي محكومة بشروطها وأهدافها، والحكم التي ورائها، وكذلك النعمة، وأن على الانسان ألا ييأس مع زوال النعمة التي هي (رحمة الله) ولم تكن جزءا من ذات البشر. لأن هذه النعمة قد تعود إليه هي أو أحسن منها، ثم لأن هناك نعمة أخرى أعظم منها لا تزال قائمة عنده فبالإيأس والكفر سوف

تزول - لا سمح الله - تلك النعم أيضاً، فلا يخرجك الفرح عن طورك وتفتخر بالنعمة، فإن هناك نواقص كثيرة لا تزال تحيط بك، وعليك أن تعمل من أجل إصلاحها جميعاً. وهكذا تجد المؤمنين صابرين يقيمون الأحداث جميعاً، فيصرون في أيام شدتهم أيام رخائهم المنتظرة، ويتذكرون أيامهم الماضية، ويعلمون أن الحياة في تغير دائم، وأن سبب التغير المباشر وغير المباشر هم أنفسهم فعليهم إذن أن يعملوا صالحاً في أيام الشدة لكي لا تدوم، وفي أيام الرخاء لكي لا تزول، ولكي يبلغوا درجات أعلى منه.

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ يغفر الله ذنوبهم فترفع اسباب الشدة، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بسبب اعمالهم الصالحة فهم في تقدم مستمر.

إنما أنت نذير

[١٢] لأن رسالات السماء جاءت لتزكية البشر، فيجب أن يستقيم الرسل في إبلاغها حتى ولو عارضت أهواء الناس، وليس لهم أن يتركوا بعض الرسالة تنازلاً لرغبة الناس أو خشية من غضبهم لأنهم آنذا لا يقدرّون على تحقيق هدف الرسالة وهو إصلاح ما فسد من الناس، ولقد رأينا في الآيات السابقة كيف أن الإنسان بطبعه جاهل وعجول لولا التربية الإيمانية، إذ على الرسول الاستقامة في إصلاحه حتى يخرج من هذه النفسية الجاهلية.

﴿فَلَمَّا لَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ كلا عليك أن تبقى صابراً أمام ضغط أهوائهم ودعائياتهم التي منها: ﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ إنهم لا ينتظرون قليلاً حتى يروا أن تطبيق الرسالة كفيل بأن يفتح لهم أبواب الرحمة، وأكثر بكثير من مجرد كنز ينزل على الرسول، وأن انتصارات الرسول ﷺ أكبر من مجرد نزول ملك معه، لأن (روح القدس) - وهو أعظم ملك - يهبط معه، ولكنهم لا يفقهون هذه الحقيقة.

إن عملهم وليس أي شيء آخر يضمن مستقبلهم، وإنما دور الرسول هو التذكرة والتوجيه ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فالله هو الذي يوفر الحياة السعيدة بقدرته لمن يعمل بالرسالة، ويسلبها من يكفر بها.

فأتوا بعشر سور مثله

[١٣] ولا يسع الجاهليون إلا إنكار الرسالة واتهام الرسول ﷺ بأنه قد افتراه كذباً على الله تعالى، والقرآن يتحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثل القرآن افتراء على الله كذباً إن كانوا

صادقين ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَفْتَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾ .

[١٤] ولكنهم فاشلون حتما في ذلك لأن القرآن جاء بعلم الله تعالى المحيط بكل شيء، فيه قيم خالصة من شرك الجاهلية ومن عصيائهم، وقيم إنسانية سامية تتجاوز إطار القبيلة والعشيرة والقوم والأرض واللغة والدم، وسائر ما ابتلي به البشر منذ هبوطه إلى الأرض وحتى اليوم، وكل الكتّاب والشعراء والمفكرين كانوا خاضعين لهذه القيم إلا الرسل والمخلصون من المؤمنين، كما أن القرآن حمل إلى الناس برامج لكل حقول الحياة مما عجزت ادمغة الفلاسفة وفقهاء القانون والسياسة والاقتصاد عن أن تبلغ جزءاً منه في مطابقتها لأنظمة الحياة، وسنن الطبيعة، وفي تناسقها ومتانة علاقاتها بطبيعة البشر، ودوافعه ودواعيه ونقاط ضعفه و... و... فهل يقدر البشر على مثله؟! .

﴿فَاِذَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا اَنَّهَا اَنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ وأن الإله الذي يجب أن يطاع، وتتبع مناهجه ورسالاته هو الله تعالى وعلى البشر أن يسلم نفسه لله ﴿وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ﴾ .

الإنسان بين الدنيا والآخرة

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْنِهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦).

هدى من الآيات:

من الشبهات التي تحوم حول قلوب الكفار ضد الرسالة، ما يرونه من تقدم ظاهر في معيشتهم في الدنيا، والله يذكرنا في هذا الدرس بأن للعمل جزاءه، فمن عمل للآخرة فإن جزاءه يوفّر إليه هناك وفي الدنيا يعطى له نصيب منه، ومن عمل للدنيا فإن كل جزائه يعطى له في الدنيا دون أن يبخس منه شيء، ولكن ذلك يعني في المقابل أن جزاءهم في الآخرة هو النار، لأن ما عملوه في الدنيا من خير قد احبط وبطل، فلم يبق إلا أعمالهم السيئة ومسؤولياتهم التي لم يقوموا بها.

بيانات من الآيات:

ما له في الآخرة من خلاق

[١٥] كثيراً ما يتجذع البسطاء من الناس ما يرونه من ازدهار وتقدم للكفار والمنافقين سواء لمجتمعاتهم أو لأفرادهم، ويزعمون أنه لو كانت الرسالة صحيحة وأنها على حق، وأعداؤها على باطل إذن لم يتقدم أعداء الرسالة في الدنيا؟ وينسى هذا الفريق الساذج من الناس حقيقتين:

الأولى: إن دار الدنيا دار ابتلاء واختبار، وإن الله لم يقدر الجزاء العاجل فيها لحكمة ابتلاء

(١) لا يبخسون: البخس نقصان الحق.

الناس بما يفعلون، واختبار وعيهم وعقلهم وإرادتهم وحسن أو سوء اختيارهم، ولو عجل ربنا في عقاب الكافرين أو ثواب المؤمنين، لانعدمت فرصة ابتلائهم، وكما جاء في الحديث عن الامام علي عليه السلام في موضوع الأنبياء إنه: «لَوْ كَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَا تُرَامُ، وَعِزَّةٍ لَا تُضَامُ، وَمُلْكٍ يُمَدُّ نَحْوُهُ أَغْنَاكَ الرَّجَالَ، وَيُشَدُّ إِلَيْهِ عُقْدُ الرَّحَالِ لَكَانَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الْإِخْتِبَارِ وَأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الْإِسْتِكْبَارِ، وَلَآمَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ، أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ، فَكَانَتْ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً، وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً»^(١).

الثانية: إن طبيعة عمل الكفار صلاح ظاهره وفساد باطنه، فهو كشجرة مسوسة أو بناء أنيق يكاد يتهدم بسبب تزلزل قواعده. وكل جزاء يرتبط بظاهر العمل، وصورته الخارجية، فإنه يجعل لهم دون نقيصة، بينما يبقى الجزاء الحقيقي الباقي لأولئك الذين يصلحون واقع عملهم.

فالشجرة المسوسة تعطيك البهجة والظل، ولكنها لا تعطيك الثمر، وهكذا العمل الذي يفقد عنصر الإيمان والصدق مثل الذي يراعي الناس في أعماله، يكسب بعض الشهرة عندهم، ولكن الصلاة التي يقيمها رياء لا تعرج بنفسه في سماء الفضيلة والتقوى، وكذلك المجتمع الكافر الذي يعمل من أجل الرفاه فقط فإن حياته المادية العاجلة سوف تتحسن ظاهراً، ولفترة محدودة إذ أن الذنوب والمعاصي، وظلم بعضهم لبعض، وظلمهم لسائر المجتمعات كل ذلك يصبح كالسوسة التي تنخر في أعماقهم حتى ينهار بناؤهم الأنيق، ويكون مصيرهم مصير عاد وثمود وأصحاب الرس وأصحاب الأيكة، الذين انهارت حضاراتهم التي اغتروا بها، وزعموا أنها خالدة ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾.

[١٦] ولكن مثل هذا الفريق مثل الشاب الذي يستنفذ كل طاقاته في أيام صحته وفراغه وقوته، فاذا حل بساحة الشيب لم يجد شيئاً ينفعه.. أمواله صرفت، طاقاته استنفذت، وإمكاناته أنفقت، كذلك المجتمع الذي يفكر في لحظته لا يفكر في القيم ولا في المجتمعات الأخرى، ولا في مستقبله. إنه لا حظ له في الآخرة، بل إن أعماله السابقة تبطل لأنها لم تكن قائمة منذ البدء على أساس ثابت ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لقد بنوا حضارتهم على قاعدة الاعتداء والظلم والفساد، فهي على شفا جرف هار، تنهار بهم في نار جهنم.

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٩٢.

الخسارة عاقبة الكفار

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَتْرِفٍ مِّن رَّبِّهِ. وَتَلَّوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ
 كَتَبَ مُوَسًى إِمَامًا وَرَحِمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَمَن يَكْفُرْ بِهِ، مِّن
 الْأَحْزَابِ قَالَتِ النَّارُ مَوْعِدُهُ. فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ ^(١) مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ
 كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ ^(٢) هَؤُلَاءِ
 الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ
 يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ^(٣) وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾
 أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ ^(٤) فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ
 مِن أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا
 يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ ﴿٢٢﴾ ۝

هدى من الآيات:

هناك فريقان في الناس لو قارنا بينهما لعرفنا إلى أي واحد منهما ينبغي الانتهاء.

أولاً: المؤمنون الذين هم على طريق هدى بيّنه لهم ربهم، ويقودهم شاهد من الله هو
 الرسول والإمام، وهم على خط تاريخي ذي تجربة غنية، حيث موسى الشاهد جاء بكتاب بيّن

(١) مرية: الشك.

(٢) الأشهاد: جمع شاهد.

(٣) عوجاً: العوج العُدول عن طريق الصواب.

(٤) معجزين: الأعجاز هو الامتناع عن المراد بما لا يمكن معه ايقاعه.

إماماً ورحمة.

ثانياً: الكافرون الذين تشبثوا أحزاباً مختلفين، والنار موعدهم ومصيرهم فهل يبقى شك في أن الحق هو الذي يؤمن به المؤمنون، بيد أن أكثر الناس لا يؤمنون!

وبينما المؤمنون هم على بينة من ربهم، ترى الكافرين يفترون على الله الكذب ظلماً لأنفسهم، وغدا يعرضون على ربهم ليشهد عليهم الشهداء ويميزوهم، ويقولوا: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، وهؤلاء هم الظالمون، ألا لعنة الله على الظالمين.

ومن صفاتهم أنهم يصدون عن سبيل الله، ويريدونها منحرفة مثل مجتمعهم الزائف ونفوسهم المعقدة، ويكفرون بالآخرة، ولكن أين يهربون، وهل يقدرّون على الخلاص من عذاب الله، وهل هناك من ينصرهم ويمنع عنهم جزاء ربهم؟ كلا.. بل يضاعف لهم العذاب بقدر قدراتهم السمعية والبصرية التي لم يستفيدوا منها للهداية، والواقع أنهم خسروا أنفسهم، وما خولهم ربهم من طاقات وإمكانات، وأما مفترياتهم وأكاذيبهم فقد تبخرت ولا بد بالتالي أن يكونوا هم الأخسرين في يوم القيامة لأنهم لا شيء يملكون. اللهم إلا جبلاً من الذنوب!

بيانات من الآيات:

ومنهم من يؤمن به ومنهم من يكفر

[١٧] أي الناس أفضل حياة، وأرقى هدى: النموذج الإيماني أم الكافر؟

قبل أن تختار طريقاً انظر إلى مجمل حياة الذين سلكوه، فهناك المؤمن الذي يسير في طريق واضح المعالم بين الجوانب، أقام الله الحجة عليه، فهو واثق من طريقه، عالم به.. ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّهِ﴾، وهناك شاهد قد اكتملت شخصيته الإيمانية بوحى الله وهو الرسول أو الإمام يتبعه، يشهد له بصحة طريقه، ويديره ويوجهه حتى لا يضل ولا يغوى، وهذا الشاهد هو من عند الله، مبارك بالله، مؤيد بنصره، مسدد بنوره ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾.

وأكثر من هذا إن هذا الخط قديم قدم الإنسان وقد جربته البشرية عبر العصور، وكان أروع مثال للفلاح. وقد جاء في حديث عن أحمد بن عمر الحلال قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴿ فَقَالَ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الشَّاهِدُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى يَتْنِ مِّن رَّبِّهِ» (١).

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ فكتاب موسى كما القرآن كان بينة وطريقاً سويلاً لا عوج فيه لمن أراد أن يسير عليه، وموسى شخصياً كان ذلك الشاهد الإلهي على قومه السائرين على نهج الرسالة، وبالتالي كان كتاب موسى إماماً ورحمة، فهو من جهة هدى واستقامة وعلم وعرفان ومن جهة ثانية حياة وسعادة ورفاه.

﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ فأولئك الذين هم على بينة من الله يؤمنون بالله وكتابه، وهذا هو نموذجهم، وهناك نموذج آخر هو نموذج الأحزاب المتفرقين في الدنيا المجتمعين في النار ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾.

فأمامك أحد النموذجين، عليك أن تتجاوز الشك بعقلك وإرادتك وتؤمن به لأنه الحق ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عليك ألا تبعاً بهذه الأكثرية الضالة التي لا تؤمن بالله، بل تبعد الشك عن نفسك وتؤمن به وتثق بعقلك.

[١٨] الله هو ذي العرش الذي يتغني كل الناس السبيل إليه والاتصال بهداه، ولكن بعض الناس يسرون في الطريق الصحيح فيبلغون مرادهم، والبعض تضلهم الأهواء، فيفترون على الله الكذب، ويدعون كذباً أنهم على سبيل الله، ولكن كم سيكون ذنب هؤلاء كبيراً وظلمهم لأنفسهم وللناس عظيماً. إذ أنهم يجرمون الناس وأنفسهم من نور هدى ربهم؟! ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

صفات ادعياء الدين

[١٩] ما هو الأثر السلبي للتشريع البشري الخاطئ وللثقافة المادية الكافرة، أو للافتراء على الله؟ إنه يتلخص في ثلاثة:

أولاً: منع الناس عن السير في سبيل الله الذي يهدي إليه العقل والفطرة، ويذكر به الوحي ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فلولا الثقافات المنحرفة، التي ينسبها ادعياء الدين إلى الله زوراً وبهتاناً، إذن لا هتدى الناس بالتذكرة.

ثانياً: طرح سبيل منحرفة للناس والادعاء بأنها هي سبيل الله ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

ثالثاً: تحديد نظر الإنسان في الدنيا، وقتل طموحه الروحي، وتطلعه الفطري إلى الآخرة.

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

ويبدو أن هذه الصفات الثلاث هي أيضا سمات أدعياء الدين الظاهرة التي يعرفون بها، فهؤلاء يمنعون الخير، ويجعلون من أنفسهم حجر عثرة عن تقدم الناس ورفاههم، ويعقدون الأمور، ويبغضون الرسالة إلى الناس، كما أنهم لا يذكرون الناس جديا باليوم الآخر.

[٢٠] ولكن أين يهرب هؤلاء الخونة بدين الله؟ وهل يقدرّون الخروج عن سلطان الله؟ وهل هناك من ينصرهم من دون الله؟ كلا.. بل إن عذابهم مضاعف بسبب عملهم وقولهم الفاسد الذي انحرف به الناس.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ علماء السوء وأدعياء الدين يحتالون على الدين وكأنهم يفرون من أحكام الله، ومن فطرتهم وعلمهم، فهل يقدرّون على الهرب أيضا من عذاب الله؟!.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ إن هؤلاء يغيرون الدين طمعا في استمالة الناس، وجمع المزيد من الأتباع، ولكن هل ينفعهم هؤلاء شيئا؟ كلا بل إن إغواءهم للناس يسبب تحمل أوزارهم مضافة إلى أوزار الذين أضلوهم.

﴿يُضَاعَفْ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ لقد فسرت هذه الكلمة الأخيرة على وجهين:

الأول: إنه يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع فلا يسمعون، وبما كانوا يستطيعون الإبصار فلا يبصرون عنادا، وبتعبير آخر: لأنهم كانوا قادرين على السمع والإبصار بما وهب الله لهم من نعمة العلم والقرب من مصادر الهداية فلم ينتفعوا بها.

الثاني: إنه لاستغفالهم استماع آيات الله، وكراحتهم تذكرها وتفهمها، جروا مجرى من لا يستطيع السمع والإبصار.

[٢١] وهل ربح هؤلاء شيئا، وهل يسمى الذين يخسرون مستقبلهم ومجمل فرصهم رابحين حتى لو اكتسبوا بضع دراهم أو مجموعة انصار؟!.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الأراجيف التي جمعوا حولها الناس غرورا، فلا بقيت تلك الأفكار الباطلة التي زُيّنت لهم ولا أولئك المغرورين بها.

[٢٢] إِنْهُمْ لَا يَدْرُونَ أَنْ يَكُونُوا الْآخِرُونَ مِنَ النَّاسِ لَأَنَّهُمْ لَمْ يَتَفَعَّلُوا بِمَوَاهِبِهِمْ، وَعَوَظُوا مِنْ أَنْ يَكُونُوا فِي مَقَامِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّدِيقِينَ بِعِلْمِهِمْ وَهَدَاهُمْ، وَيُؤْجِرُونَ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً بِعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ، وَمَرَّةً بِمَا اهْتَدَى النَّاسُ بِهِمْ، أَصْبَحُوا يَعَذِّبُونَ عَذَابًا مُضَاعَفًا بِعَمَلِهِمُ الْفَاسِدِ، وَيَا ضِلَالُ الْبَشَرِ ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ﴾ أصل الجرم القطع، ولا جرم تقديره لا قطع قاطع عن ذاء، فهذه هي نهايتهم التي اختاروها لأنفسهم.

وكلمة أخيرة: حين نقارن هذه الآيات بالآية الثالثة عشرة نستفيد مقياساً مبيناً للتمييز بين صاحب الرسالة الحق الذي لا يتنازل قيد أنملة عن رسالته برغم ضيق صدره، وازدياد الضغوط عليه، وبين الذي يضل الناس عن الحق طمعاً في ولائهم أو رغبة في هدايا السلاطين.

أنؤمن لك واتبعك الأرذلون

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْبَحِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْبَاسِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَنْبَاءَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا ^(١) بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا زَيَّ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ بِقَوْمِهِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبَغٍ مِنْ رَبِّي وَمَآئِنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾

هدى من الآيات:

يبدو أن السياق القرآني يشرع منذ هذا الدرس في سرد قصص الرسل في انذارهم الشديد لقومهم، الذين كانوا يرفضون قبول الرسالة فيأخذهم الله بعذاب شديد، وذلك لعدة اهداف منها تذكرة الناس بأن هذا القرآن واحد من النذر، وأن من يعرض عنه يصاب بما أصاب أولئك، (وتشير إلى ذلك الآية الأولى من هذا الدرس).

ومنها تثبيت قلب الرسول والمؤمنين برسالته لكي يستقيموا كما أمروا، ولا يركنوا إلى الظالمين. جاء في الآية العشرين بعد المائة من هذه السورة: ﴿وَكَلَّا نَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ

(١) أراذلنا الرذل الخسيس والحقير من كل شيء والجمع أرذل ويجمع على أراذل.

مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

إن عاقبة المؤمنين الصالحين الذين اطمأنوا إلى ربهم هي الجنة خالدين فيها، لأنهم أصحاب سمع وأبصار، بينما الكفار كالأعمى والأصم لا يتدرون سبيلا.

وقصة نوح مع قومه تكشف هذا الفرق بين الفريقين.. المؤمنين والكفار. حين أرسله الله إلى قومه لينذرهم أن لا يعبدوا إلا الله، وحذرهم إنه في غير هذه فسوف ينزل عليهم عذاب يوم اليم، فقال الملأ الذين كفروا من قومه: أنك واحد مثلنا، وإن الذين اتبعوك هم من الطبقات السفلى من مجتمعنا، وإنه لا فضل لكم بالرسالة بل نظنكم كاذبين، فحذرهم نوح عليه السلام مرة أخرى قائلاً: ماذا لو كنت صادقاً، وإن عندي بينة من ربي وأنا مهتد بها إلى الصراط السوي، وآتاني رحمة من عنده، بينما أنتم لا ترون الطريق السوي، أو يمكن أن ألزمكم به وأنتم له كارهون؟

وفي الدروس القادمة يتلو علينا القرآن سائر فصول القصة.

بينات من الآيات:

هل يستوي الفريقان؟

[٢٣] حين يكون الإيمان مستقراً في القلب، مستوياً على عرش النفس، فإن المؤمن يشعر بالاطمئنان والسكينة والرضا، فلا يعمل إلا من أجل الله، ويهدف تحقيق مرضاته سبحانه، وجزاءه عند ربه الخلود في جنات الله الواسعة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الإخبات: الطمأنينة، وأصله الاستواء من الخبت، وهو الأرض المستوية الواسعة، فكأن الإخبات خشوع مستمر على استواء فيه، ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

[٢٤] الفريقان المؤمن المخبت والكافر، نموذجان مختلفان يعرف واقعهما بالمقارنة بينهما فهذا كما البصير السميع الذي يسير وفق عقله وهدى الوحي، بينما يتخبط الثاني كما الأعمى والأصم ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

والمسألة ليست بحاجة إلى المزيد من البحث، بل هي حقيقة واضحة معروفة لمن يلتفت

إليها.

شيخ الانبياء وقومه

[٢٥] ويضرب القرآن أمثالا عديدة يقارن فيها بين الفريقين، وعاقبة كل واحد منهما، كما يبين من خلال هذه الأمثال -حقائق أخرى تمت التذكرة بها في بداية السورة-.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ الملاحظ بالتدبر في هذه الآية إن نوحاً ﷺ أرسل إلى قوم كان منهم، وكان ذلك أبلغ في بيان الرسالة لهم، وأبعد عن العصبية، كما إن أهم بنود دعوته كان الانذار، وهو أبلغ أثرا في النفوس باعتبارها قد فطرت على الدفاع عن الذات، وإبعاد كل مكروه محتمل، والإنسان مفلطح على الدفاع عن ذاته أكثر مما هو مفلطح على جلب المنفعة لها.

[٢٦] وخلاصة دعوة نوح وهدف رسالته كانت عبادة الله وحده، ونبذ الشركاء، وحين ينبذ الشركاء تسقط السلطة السياسية، والمنهاج الاقتصادي والثقافي والسلطة الاجتماعية وكل ما يقوم على أساس عبادة الأوثان والشركاء.

﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ إن مجرد الخوف من ذلك اليوم الذي ينشر فيه العذاب حتى يصبح اليوم ذاته أليما. حيث أن كل لحظاته تصبح ميعادا للعذاب، أقول: إن مجرد الخوف من ذلك اليوم يكفي البشر دافعا نحو الإيمان بحشا عن الخلاص.

[٢٧] أما جواب قومه فقد كان متوغلا في التحجر والمادية والطبقية.

أولاً: زعموا بأن صاحب الرسالة يجب أن يكون من غير البشر، وكأن البشر هو المخلوق العاجز عن حمل الرسالة، وهذا نوع سخيف من التحجر الجاهلي.

ثانياً: قاسوا الرسالة بمن يحملها أو من يبادر بالإيمان بها. ولم ينظروا إليها ذاتها باعتبارها قيم فاضلة، ودعوة إلى العدالة والهدى، وهذا نوع من المادية وتشبيء القيم.

ثالثاً: نظروا إلى تابعي الرسالة من المستضعفين نظرة ازدراء بسبب تكبرهم وطبقتهم.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنِكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنِكَ إِلَّا اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكُلِّ بَشَرٍ كَيْدًا﴾ الملائكة هم الأشراف وعلية القوم، ولأنهم كفروا بالرسالة شأنهم شأن أغلب الذين هم من طبقتهم ولأنهم كانوا فاسدين، وكان من الصعب عليهم الخضوع لمن هو مثلهم، مما يدل على انحطاط نفوسهم، وانعدام الثقة فيها، لكل ذلك نعتوا

المؤمنين بأنهم من الطبقة الدنيا، وأنه من ينظر اليهم يعرف منهم هذا النعت ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾.
﴿وَمَا زَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ غافلين عن أن الرسالة ذاتها فضل كبير.

﴿بَلْ نَقُذِّرُكُمْ كَذِبِيك﴾ وكان هذا الفريق يتبعون الخيال والظنون، ويرمون الأفكار الجديدة التي تخالف مصالحهم بأنها كذب، انطلاقا من عنجهيتهم وتكبرهم.

[٢٨] وأجاب نوح عليه السلام على شبهاتهم:

أولاً: بأنه على بينة من ربه، فهو بالرغم من بشريته فإنه يملك ما لا يملكون وهو الهدى،
والحجة من ربه عليه.

ثانياً: إن المال الذي يفقده يعوض بما يؤتيه الله من رحمته الواسعة، التي هي أهم من
المال. إذ أن الثروة لا تحمل كل المشاكل بعكس رحمة الله التي تقضي على أكثر الصعاب.

ثالثاً: إن ظنهم الفاسد بكذبه عليه السلام، أت من عماهم، وعدم تفكرهم الجدي، وفي هذه
الحالة لا يجبرهم نوح على الرسالة، وهذا الكلام قد يكون رداً على قولهم: ﴿وَمَا زَرَىٰ لَكُمْ
عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾.

حيث كانوا يزعمون: إن الرسول كالملك، يجب أن يملك قوة مادية قاهرة تفرض على
الناس خطأ معيناً، بينما الرسول جاء من أجل الهداية التي لا تأتي من دون الاختيار والحرية
﴿قَالَ يَتْلُوا آيَاتِي إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّي وَءَانْتُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْ عِنْدِي فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي خفيت
هذه البينة، وربما البينة هي الصراط السوي أو الحجة الواضحة ﴿أَنْزَلْنَاهَا وَأَنْشَرْنَاهَا
كَذِبُون﴾.

وما أنا بطارِد الذين آمنوا

﴿وَيَقُولُ لَا أَسْتَلْعِمُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِن أُجْرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ
وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكَيْفَ أَرْكُمُ قَوْمًا
يَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي
مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي ^(١) أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الْظَالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

هدى من الآيات:

قوم نوح عليه السلام كما المستكبرين في كل عصر ردوا رسالة الله بسبب الظنون والشبهات، وشرع نوح عليه السلام في هذا الدرس بيان واقع الرسالة ورد الشبهات والظنون الباطلة، فلقد زعم أولئك الجاهلون بأن نوحا يريد أن يتسلط عليهم، أو يغنى على حسابهم، وأزال نوح عليه السلام تخوفهم وقال: إنه لا يريد منهم مالا، ولكنه في الوقت ذاته لا يجعل المال مقياسا لتقييم الناس، فيطرد المؤمنين لأنهم فقراء، بل يقول: إن حسابهم على الله، وإنهم سيلاقون ربهم، أما قوم نوح فقد كانوا يجهلون، ويتخذون القيم الزائفة مقياسا لتقييم الناس، وهذا تقسيم باطل لا يرضى به الله، والذي يطرد المؤمنين اعتمادا على مثل هذه القيم، بعيد عن رحمة الله، وغير منصور أيضا.

ثم رد نوح عليه السلام شبهة أخرى حيث بين أنه ليس برجل خارق يملك خزائن الله، أو يعلم الغيب، وأنه خلق من نور كالملائكة.

(١) تزدري: الازدراء الاحتقار، يقال زريت عليه إذا عبته.

ثم عاد وأكد ﷺ على أنه لن يطرد المؤمنين الذين يقلل من شأنهم قومه

لأن الله أعلم بما في أنفسهم، فإن كانوا صادقين وافاهم أجلهم وأعطاهم الخير، فكيف يطردهم نوح فيصبح ظلما لهم.

بينات من الآيات:

الرسول وأولياء الرسالة

[٢٩] لأن الملا من قوم نوح، وكذلك الملا المستكبرين من كل قوم يستغلون الناس، ويستثمرون طاقاتهم، فلا يسمعهم النظر إلى الأحداث إلا من خلال واقعهم الطبقي، لذلك يتهمون الرسل بأنهم إنما يريدون الثروة من وراء دعوتهم، وينفي الرسل بكل قوة هذه التهمة ليفصلوا بين دعوتهم الإصلاحية وبين دعوات الملا التي تهدف المزيد من استغلال المستضعفين.

﴿وَيَقْوِرَ لَا أَشَلُّكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ فنوح -شأنه شأن كل البشر- يطلب أجرا ويعمل لهدف، ولكنه لا يطلبه من الناس بل من الله، وبذلك أثبت نوح -مرة أخرى- الطابع الغيبي لرسالته.

ولأن نوحا ﷺ لا يريد الانتفاع بعلمه ليصبح رقما جديدا في قائمة الملا يتقاسم معهم المكاسب الآتية من ظلم الناس واستغلالهم، كما كان يفعل علماء السوء، لذلك فهو يقف إلى جانب المظلومين ويقول بصراحة: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

وقد يكون للطبقة السفلى التي تهرع إلى الإيمان بعض السلبات المترسبة فيهم بسبب الجاهلية، أو بسبب تعرضهم للظلم، فرسالة السماء ليست مسؤولة عن سلباتهم، وعدم طردهم لا يعني أبدا أن رسول الله يزيحهم تماما، بل إن حسابهم عند الله ﴿إِنَّهُمْ مُلْقَوُا رَبِّهِمْ﴾ بيد أن الملا من قوم نوح لم يزالوا على ضلالتهم التي تقسم الناس على أساس المال أو الدم ﴿وَلَكِنِّي أَزْكُرُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾.

[٣٠] الطبقة الدنيا التي بادرت بالإيمان دخلت حصن الله، والله يحمي الذين يتحصنون به، ولو أراد أحد طردهم، وأراد الله نصرهم فإن إرادة الله هي الغالبة، ولا يملك من يطردهم قوة يرد بها غضب الله عليه ﴿وَيَقْوِرَ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ وفي هذه الآية دليل على أن احتفاظ رسول الله بالمؤمنين من الطبقات الدنيا ليست بهدف الانتصار بهم أو تكثير العدد

حول نفسه، بل لأنهم مؤمنون، والله يحب المؤمنين ﴿أَفَلَا نَذَكَّرُونَ﴾ فالمسألة بحاجة إلى تذكرة، ولفت نظر حتى يعرف الإنسان أن الأمور بيد الله، وأن ربنا لا ينظر إلى الغنى والجاه بل إلى الإيمان والعمل الصالح.

إني بشر مثلكم

[٣١] وعاد نوح عليه السلام يبين أبعاد رسالته التي هي أيضا أبعاد رسالة كل رسول وكل مصلح يتبع خط الرسل.

أولاً: إن الرسول يدعو الناس إلى الله وإلى الحق الذي تعرفه فطرتهم، وهذا هو رأسه، ولا يدعوهم إلى نفسه باعتباره صاحب ثروة طائلة ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ بل خزائن الله موجودة في ذات الإنسان، وفي الأرض التي أعطى الله البشر القدرة على تسخيرها بالإيمان والعمل الصالح.

فالفكرة المتخلفة التي تنتظر من صاحب الرسالة (تفجير الأرض بالينابيع، واستخراج كنوز الحياة، وتقديمها لهم بل عمل) إنها فكرة خاطئة.

ثانياً: إن الرسول لا يدعي الغيب إلا بقدر ما يوحى إليه ربه عبر رسالته، ولذلك فهو لا يعد الناس بالرفاه، وإنه مثلاً يأخذ بأيديهم ويدلهم على معادن الذهب والفضة ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾.

ثالثاً: إنه لا يدعي امتلاكه لقوة قاهرة، باعتباره من عنصر الملائكة ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾.

رابعاً: إنه لا يتعالى على الناس ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾. بل إن الخير والشر هما من الإنسان نفسه، من عمله النابع عن نية صالحة، ولا يعرف ذلك إلا الله ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الْغَالِينَ﴾.

وما أنتم بمعجزين

﴿ قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعُدُّكَ
 إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ٢٢ ﴾ قَالَ إِنَّمَا بِأَيِّكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا
 بِمُعْجِزٍ ٢٣ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ
 أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٤ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ
 قُلْ إِنْ افْتَرَيْنَاهُ فَعَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُحْيَىٰ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ٢٥
 إِنْ نَحْنُ أَنَا لَنْ نُبْرِيَنَّكَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا لَبْسَ فِيهِ ٢٦ بِمَا كَانُوا
 يَفْعَلُونَ ٢٧ وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَلَا تُلَاحِظْ بِنِي فِي الَّذِينَ
 ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّخْرَفُونَ ٢٨ وَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرْءًا عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ
 قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ
 ٢٩ فَسَوْفَ نَعْلَمُوكَ مَنْ بِأَيِّهِ عَذَابٌ مُّخْزٍ وَمَنْ لِّهِ عَذَابٌ
 مُّفِيءٌ ٣٠ ﴾

هدى من الآيات:

وظل نوح عليه السلام يسعى جاهدا حتى أتعب قومه، و﴿ قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا ﴾
 وطالبه قومه بإنهاء مرحلة الكلام والبدء بتنفيذ ما يوعدهم به، غافلين عن أن نوح ليس إلا
 رسولا ومبلغا عن ربه، وحين يشاء الله عذابهم لا يقدرّون على الفرار من حكمته وسلطانه،
 ومهمة التبليغ التي يقوم بها نوح تختلف عن الهداية. فالله هو الهادي المضل، وإذا شاء إبقاء قوم
 على الضلالة بسبب كفرهم بنعمة الرسالة، فإن الرسول لا يقدر على هدايتهم، وهكذا فإن
 رسالات الله ليست من صنع الأنبياء وإنما هي من وحي الله، وإذا كان الرسول هو الذي افترى

(١) الابتاس: حزن في استكانة.

الرسالة كذبا على الله فإنه يتحمل مسؤولية عمله، أما إذا كانت صادقة فهو لا يتحمل مسؤولية كفر قومه به بل هو بريء منهم.

أوحى الله إلى نوح أن مدة تبليغه قد انتهت، إذ أن قومه لن يؤمنوا أكثر من هذا بعد اليوم، فلا يحزن بما يفعلون، وبدأت مرحلة الإعداد ليوم العذاب. إذ أمر الله رسوله بصنع الفلك وأن لا يخاطب ربه حول الظالمين من قومه، فيحاول الشفاعة لهم لأنهم مغرقون لا محالة، وكان نوح عليه السلام يصنع الفلك، ويمر عليه المستكبرون من قومه فيسخررون منه، ولكنه كان يقول لهم: لنا يوم نسخر منكم كما تسخرون بنا اليوم، وفي ذلك اليوم ستعرفون: إن عذاب الخزي سيكون من نصيبكم.

بيانات من الآيات:

لن يؤمن من قومك إلا من آمن

[٣٢] من أبرز الصفات الرسالية التي كان الانبياء العظام يتمتعون بها هي الاستقامة والاستمرار في الدعوة دون كلل.

فنوح عليه السلام أتعب قومه من كثرة جداله معهم. حتى طالبوه بما وعدهم من العذاب، وزعموا أن نزول العذاب بهم أفضل من هذه الدعوة التي تلاحقهم في كل وقت وفي كل مكان ﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأُنَايَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾.

لقد دعا نوح قومه ليلا ونهارا، سرا وجهارا، ولبت فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدق مسامعهم بكلماته البليغة، وإنذاره الشديد حتى سئموا منه ولم يسأم، وهكذا ينبغي أن يكون الرساليون على مر العصور، الاستقامة على الدعوة أنى كانت الفترة طويلة.

[٣٣] ولم يترك نوح كلامهم الآخر من دون جواب. بل نبههم مرة أخرى إلى أن الله وليس هو يأتيهم بالعذاب، وأنهم لا يقدرّون آتئذ على الفرار ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ وهذه سمة ثانية وهامة في رسالات السماء حيث أن الأنبياء عليهم السلام لا يدعون لأنفسهم شيئا، ويذكرون الناس بأن دورهم فقط دور المبلغ، وأن الأمر بيد الله.

[٣٤] وتأكيدا لهذه الحقيقة ذكر نوح قومه بأن النصيحة لا تنفع إلا بإذن الله. إذ الهدى والضلالة إنما هي بأمر الله وإذنه، وإذا كفر أحد بنعمة العقل، فإن ربنا قد يسلبها منه فلا يستفيد من النصيحة ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

في المفردات: الغي: جهل من اعتقاد فاسد، وذلك أن الجهل قد يكون في الإنسان غير معتقد اعتقادا لا صالحا ولا فاسدا، وقد يكون في اعتقاد شيء فاسد، وهذا النحو الثاني يقال له: غي، وقد يكون هذا الغي يشير إلى أن الله تعالى قد يسلب من البشر نعمة العقل، فيعتقد بالباطل حقا.

[٣٥] هكذا رسالات الله جميعا، التي أنزلت على نوح والتي أنزلت على محمد ﷺ سبيلها واحد، فهي من الله. والرسول يعلم مدى الخيانة التي يرتكبها من يفترى على الله، ولكن جريمة من لا يهتدي بالرسالة ليست بسيطة هي الأخرى، وليس من السهل أن يسترسل الفرد ولا يستمع لرسول الرسالة بمجرد احتمال كذبه لأنها جريمة كبيرة أيضا.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي وَأَنَا بِرَءٌ مِّمَّا يَجْحَرُونَ ﴾

جاء في تفسير مجمع البيان: «قيل إنه يعني بذلك محمدا ﷺ. والمراد أيؤمن كفار (قوم) محمد بما أخبرهم به محمد ﷺ من نبأ قوم نوح، أم يقولون: افتراه محمد من تلقاء نفسه، وقيل: يعني نوحا، وإنه يقول على الله الكذب»^(١). بيد أنه يمكن أن يفسر القرآن على أكثر من وجه فيكون المراد ليس فقط رسالة محمد ﷺ وإنما رسالة نوح أيضا.

[٣٦] ولم يترك نوح ﷺ الجدال مع قومه إلا بعد أن أوحى إليه ربه أنه يستحيل إيمان قومه بعد الآن، وإن عليه ألا يحزن عليهم، وألا يعيش حالة البؤس بسبب أفعالهم ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَتَّبِعِ الْبَاقِيَ كَمَا كَانَوْا يَفْعَلُونَ ﴾.

إن رسل الله ﷺ يتمحورون حول الله، ويصبحون شعلة من الحركة والاندفاع من أجل تبليغ رسالة الله، حتى يكادوا يهلكون أنفسهم حزنا بسبب عدم إيمان الناس، وجاء في القرآن: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿١﴾. وجاء: ﴿فَلَعَلَّكَ نَجْعٌ لِّنَفْسِكَ عَلَىٰ ءَآثَرِهِمْ إِنَّ لَكَ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾. وهذا نوح ﷺ يبلغ حالة البؤس والاستكانة بسبب ما يفعله، ولكن الله ينهائهم عن ذلك، ويأمره بمتابعة دربه.

إنهم مفرقون

[٣٧] وتبدأ رحلة الجزاء التي بدأت بصنع السفينة ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا ﴾.

كان نوح ﷺ لا يقوم بخطوة إلا حسب المنهاج الذي رسمه له ربه، تحت مظلة واقية

(١) مجمع البيان: ج ٥ ص ٢٦٩، بتصرف.

من حماية ربه.

﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ ولم تزل في قلب نوح بقية أمل تدعوه إلى التضرع إلى الله ليمنع عن قومه العذاب في آخر لحظة. ولكن على الرسول - بعد أن يأس من إيمان قومه - ألا يشفق عليهم لأنهم يستحقون العذاب.

[٣٨] وأخذ نوح يصنع الفلك في الفلاة القاحلة استجابة لأمر الله وإيمانا بأن وعد الله حق، وكان ذلك أبسط دليل على أنه لا يتبع هواه، ولا يقول على الله كذبا. لأنه لو كان كذلك فما الذي دعاه إلى صنع الفلك في الصحراء؟!.

إن أنبياء الله ﷺ يقومون بأعمال يحسبها الناس من حولهم نوعاً من الجنون، لأنها لا تتناسب مع معلومات وأفكار العصر، ولا مع ما يجري حولهم من أحداث أو يتوقع من احتمالات. هذا بذاته دليل واضح على أنهم يتبعون الوحي، وقد لا يعرف النبي لماذا يأمر بعمل ما للشهادة على مدى خلوصهم في الله، وتجردهم لرسالته الغيبية.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ إن استهزاء الناس بنوح ﷺ شاهد على أنه كان رسولا لا يتبع المألوف والشائع في ظروفه، بل كان يتحدى كل ذلك بسبب إيمانه بالغيب ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

[٣٩] واندبرهم نوح بالعاقبة السوأى التي تنتظرهم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ بِأَيِّهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ويفضحه في الدنيا عبر التاريخ، ﴿وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِيمٌ﴾ دائم في الآخرة.

بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ^(١) التَّنُورُ^(٢) قُلْنَا أَخْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ^(٣) ۖ وَقَالَ آرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجْرُهَا وَمُرْسَتْهَا^(٤) إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ^(٥) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَقَرٍّ يَتَّبِقُ آرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ^(٦) قَالَ سَتَأْوِي^(٧) إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي^(٨) مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ^(٩) وَقِيلَ يَتَّزِشْ آلُيَاسَ^(١٠) وَمَنْ آمَنَ قُلْنَا إِنَّا لَمُتَّقُونَ^(١١) ۖ وَغِيضَ الْمَاءَ وَفُضِيَ الْأَمْرُ عَلَىٰ الْجُودِيِّ^(١٢) وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(١٣) ۖ

هدى من الآيات:

بقي نوح ينتظر أمر الله، مستعداً لتنفيذ واجباته حتى إذا جاء أمر الله، وتفجّر التنور

(١) وفار: الفور الغليان، وأصله الارتفاع.

(٢) التنور: تنور الخبز المعروف.

(٣) مرساها: الإرساء إمساك السفينة بما تقف عليه.

(٤) سآوي: من آوى يأوي إذا اتخذ مأوى ومحلًا، أي سارجع إلى مأوى.

(٥) يعصمني: يمتنعني.

(٦) أقلمي: الإقلاع إذ هاب الشيء من أصله حتى لا يرى له أثر، يقال أقلمت السماء إذا ذهب مطرها حتى لا يبقى شيء منه، وأقلم عن الأمر إذا تركه رأساً.

(٧) الجودي: اسم جبل.

(الذي كان في بيت عجوز حسبا جاء في بعض الأحاديث) أوحى الله إلى نوح أن يركب السفينة، ويحمل فيها معه من كل زوجين اثنين من سائر ما خلق الله، ويحمل معه أيضا أهله إلا الكفار منهم وهما زوجته وابنه اللذان اغرقا أيضا، ويحمل معه كل المؤمنين الذين كان عددهم قليلا، وتوكل نوح على الله مطمئنا بأن حركة السفينة ووقوفها بإذن الله ورعايته، وتلاحقت أمواج الطوفان كأنها جبال، وصاح نوح بابنه الذي جلس في ناحية، ودعاه إلى الركوب معه وإن يترك الكفار، ولكنه زعم بأن الطوفان فيضان عادي وأن صعود الجبل ينجيه منه، ولكن نوح حذره من أنه لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم الله، وقبل أن ينتهي الحوار جاء الموج وأغرق ابن نوح.

وجاء صوت غيبي يصدر الأوامر الحاسمة للأرض بأن تبتلع الماء، وللسماء بأن تكف عن المطر. وغاض الماء وانتهت القضية الحاسمة ووقفت السفينة فوق جبل وأبعد القوم الظالمون.

بيانات من الآيات:

وما آمن معه إلا قليل

[٤٠] إن تلك اللحظة التي كان أبناء الرسالة يتوعدون بها، وكان الكفار يستهزؤون بها قد حانت اليوم واصبحت الحقيقة التي أنذرت بها الرسالة واقعا لا مهرب منه، فلقد أصدر ربنا أمره، وفار الماء من التنور الذي يبقى عادة بعيدا عن الماء، وأمر الله رسوله نوحا بأن يحمل معه في السفينة من كل حي زوجين اثنين، وأن يحمل أهله الذين لم تسبق عليهم كلمة العذاب بسبب كفرهم كزوجته وابنه، وأن يحمل معه الذين آمنوا وهم قليلون ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

في الحديث المأثور عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كَانَ التَّنُّورُ فِي بَيْتِ عَجُوزٍ مُّؤْمِنَةٍ فِي دُبُرِ قَبِيلَةِ مَيْمَنَةِ الْمَسْجِدِ فَقُلْتُ لَهُ فَإِنْ ذَلِكَ مَوْضِعُ زَاوِيَةِ بَابِ الْفِيلِ الْيَوْمَ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ وَكَانَ بَدْءُ خُرُوجِ الْمَاءِ مِنْ ذَلِكَ التَّنُّورِ، فَقَالَ عليه السلام: نَعَمْ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحَبُّ أَنْ يُرِيَ قَوْمَ نُوحٍ آيَةً، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَرْسَلَ عَلَيْهِمُ الْمَطَرَ يُفَيِّضُ فَيُضَا وَفَاضَ الْفُرَاتُ فَيُضَا وَالْعُيُونُ كُلُّهُنَّ فَيُضَا فَفَرَّقَهُمُ اللَّهُ عَزَّ ذِكْرُهُ وَأَنْجَى نُوحًا وَمَنْ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ، فَقُلْتُ لَهُ كَمْ لَبِثَ نُوحٌ فِي السَّفِينَةِ حَتَّى نَضَبَ الْمَاءُ وَخَرَجُوا مِنْهَا، فَقَالَ عليه السلام: لَبِثُوا فِيهَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيهَا»^(١).

[٤١] وحين ركب نوح عليه السلام وقومه الصالحون السفينة تجلت عندهم روح الإيمان الخالص، وتوكلوا على ربهم متذكرين اسمي الغفران والرحمة - الله - فبمغفرته يحط ذنوبهم وبرحمته ينزل عليهم بركاته وفضله ﴿وَقَالَ آرَتُكِبُوا فِيهَا بِأَسْمِ اللَّهِ يُجَرِّدُهَا وَمُرْسَهَا﴾ فكل شيء في الكون موجود بالله وقائم بالله، ويتحرك أو ينمو أو ينطق باسم الله. بيد أن هناك حوادث يتجلى فيها التدبير المباشر لله تعالى أكثر، مثل سفينة نوح التي صنعها بأمر الله دون أن يعرف منذ البدء ابعاد العملية، ولا يعرف أين تجري السفينة، وأين تقف وفي أية فترة، إنها توكل على الله فيها، لعلمه أنها في اطار تدبير الله وهيئته المطلقة على الكون ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

[٤٢] وبين لحظة واخرى تحولت الصحاري إلى بحار مواج، وتلاطمت الأمواج الهائلة وكأنها جبال متحركة، ولاحظ نوح ابنه واقفا في معزل عن الناس فناداه ليركب معه، وربما أخذته شفقة الأبوة أو رحمة النبوة، ولكن الابن السيء الحظ رفض لانعدام توكله على الله، ولاعتماده على المادة الجاهلية، بسبب تعلقه السابق بها، وقال سوف التجئ إلى جبل يحفظني من الطوفان ﴿وَمِنْ تَجَرَّى بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنُؤْ آرَتُكِبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾.

[٤٣] كان ابن نوح ويقال إن اسمه كنعان، من جملة الذين اعتزلوا المعركة الساخنة بين الحق والباطل، وأراد ألا يتدخل في القضايا الرسالية، شأنه شأن الكثير من الجبناء الذين لا يملكون شجاعة الإقدام في سبيل الله. بيد أن مثل هؤلاء سوف يكونون مع الكفار لأن الإيمان وحده هو الذي ينقذ البشر ﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جِبَلٍ يَمُوسُ مِنْ أَلْمَاءَ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُضْرَقِينَ﴾.

[٤٤] بين عشية وضحاها تبدل وجه الأرض وهلك القوم الظالمون، وإذا بهاتف الحق ينادي: ﴿يَتَأَرَضُ أَبْلَغِي مَاءَكِ﴾، فعادت مياه الأرض التي تفجرت ينابيع إلى مخازنها تحت الأرض، وتفشعت السحب التي كانت تسيل ماء بأمر ربها، فأقلعت عن الانهار وغاض ماء الارض، وتحولت بقية المياه إلى الأنهار والبحار كما جاء في حديث^(١)، وانتهت القصة كلها، حيث استقرت السفينة على أرض مرتفعة.. وخلت الأرض من الظالمين الذي لعنوا وطردها منها بقدره الجبار.

(١) راجع: بحار الأنوار: ج ١١ ص ٣١٢.

﴿وَقِيلَ يَتَّأَرْضُ أَبْلَعِي مَاءَكَ وَنَسَمَاءُ أَقْلِي﴾ أي توقفي. قال البعض: «إن الماء الذي سال من السماء بقي فوق الأرض لأن الله قال للأرض ابلعي ماءك، ولم يطلق بالقول الماء»، بيد أن هذا القائل ينسى أن كل المياه في الواقع من الأرض ﴿وَعِضَ الْمَاءُ﴾ وهبط الماء أو رسب في الأرض ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ لقد نفذ أمر الله بهلاك الظالمين، ونجاة المؤمنين، وتحقيق الجزاء لكلا الفريقين في عاجل الدنيا ﴿وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

إن العاقبة للمتقين

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَخْكُمُ الْمُتَكِبِينَ﴾ (٤٥) قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْثَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَنْتُوخُ أَهَيْطَ بِسَلْمٍ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأَمَّمْ سَمُوتَهُمْ ثُمَّ يَمَشُّهُمْ مِنَّا غَدَابٌ أَلَيْسَ (٤٨) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٩).

هدى من الآيات:

وقبل هبوط نوح عليه السلام إلى الأرض تساءل عما انتهى إليه مصير ابنه الغريق وذلك بسبب جاذبية الشفقة التي اودعها الله في قلب كل أب، ولو كان الأب شيخ المرسلين، تلك الجاذبية التي جعلت سيدنا نوحا يدعو ربه في ابنه ولكن الله وعظه وذكره بأن المقياس عنده العمل الصالح وليس الانتساب إلى هذا أو ذاك، وهكذا عرف نوح أن سبب انحراف البشر ليس فقط وجود بيئة فاسدة أو تسلط الظالمين، إذ قد يكون السبب كامنا في نفسه فدعا ربه بأن يغفر له وأن يرحمه فيعصمه من الزيغ ومن دون رحمة الله ومغفرته يكون البشر خاسرا. وهكذا الحال بالنسبة إلى الذين كانوا مع نوح في السفينة، والذين أهبطهم الله الأرض بسلام وبركات، ولكن عوامل الانحراف نزلت معهم أيضا، فبعضهم انجرف مع هذه العوامل وبعضهم صمد أمامها واعتصم بهدى الله.

وفي نهاية قصة نوح يذكرنا القرآن بالعبرة فيها وهي الصبر والتقوى فإن العاقبة للمتقين ولكنها بحاجة إلى الصبر والاستقامة.

بيانات من الآيات:

التسليم لقضاء الله

[٤٥] في بعض الأحاديث المروية: إن الشيطان دخل سفينة نوح متسللاً^(١)، والواقع إن الحكمة في خلق البشر هي ابتلاؤه، ووجود الشيطان جزء من معادلة الامتحان، وانحراف البشر ليس دائماً لوجود ضغوط خارجية عليه، بل إن الهوى والشهوة، والانجذاب إلى مظاهر الحياة الذي اودعه الله في كيان كل شخص هو الآخر جزء من معادلة الامتحان وحكمة الحياة.

وهكذا نجد آدم عليه السلام - أبا البشر - أول من ارتكب الخطأ بدافع الملك والخلود، قبل أن تدركه رحمة الله وتعصمه من الزلل.

ونجد نوحاً وقد خرج من محنة الصراع منتصراً على الجبت الداخلي والطاغوت الخارجي، ولكنه لا يزال بحاجة إلى مغفرة الله ورحمته. يحتاج إلى رحمة الله حتى يعصمه من تكرار الزلل، وهكذا دعا نوح ربه بلباقة أن يفي بوعدته بإنقاذ أهله، ولكن الله أجابه بصراحة: إنه ليس من أهلك لأن رابطتك الحقيقية هي مع الذين يعملون الصالحات، وهذا الابن لا يملك مقياس العمل الصالح ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾.

[٤٦] ﴿قَالَ يَنْتُحِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ربما توحى هذه الآية بضرورة الرضا الكامل بالاقدار التي لا يعرف المرء حكمتها، والتسليم المطلق للأوامر التي لا يفهم البشر فلسفتها.

[٤٧] إن درجة تسليم الأنبياء عليهم السلام ولأوامره وأقداره تصل إلى القمة، بسبب تأديب ربنا لرسله الكرام، ولذلك نجد نوحاً عليه السلام يستعين بعصمة ربه لكي لا يسأل ربه ما ليس له به علم، ولا يقترح عليه ما لا يعلم أنه في صالحه وصالح رسالته وأمته.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾.

(١) عَنْ مُضْعَبِ بْنِ يَزِيدَ عَمَّنْ ذَكَرَهُ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «جَاءَ نُوحٌ عليه السلام إِلَى الْجِمَارِ لِيَدْخُلَ السَّفِينَةَ فَاُمْتَنَعَ عَلَيْهِ، قَالَ: وَكَانَ إِبْلِيسُ بَيْنَ أَرْجُلِ الْجِمَارِ، فَقَالَ: يَا شَيْطَانُ ادْخُلْ، فَدَخَلَ الْجِمَارُ وَدَخَلَ الشَّيْطَانُ.....». بحار الأنوار: ج ١١، ص ٣٢٣.

إن مغفرة الله ضرورة حياتية للبشر لتزيل آثار الذنوب والسقطات التي يتعرض لها الإنسان أبدا.. فمن دونها تتراكم هذه الآثار حتى ترسي على قلبه، وتحجب عقله، كما أن رحمة الله ضرورة أخرى لاستمرار بقاء الإنسان نظيفا، ولكي لا يدعوه الضعف والعجز إلى ارتكاب المعاصي، وقد جاء في الدعاء: «اللَّهُمَّ اغْنِنَا بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَبِطَاعَتِكَ عَنْ مَعْصِيَتِكَ، وَبِفَضْلِكَ عَنْ سُوءَاتِكَ...»^(١)، فرحمة الله هي التي تعصم البشر من الذنوب، لا فرق بين الرسل وغيرهم.

[٤٨] وهبط نوح بأمر الله يحمل معه هديتين إلى الأرض: السلام والبركة، ويعني السلام المحافظة على النعمة القائمة والموجودة فعلا، وبالتالي رفع الضرر الذي يهدد بزوال النعم، بينما تعني البركة زيادة النعم والتقدم في حقول الحياة ﴿قِيلَ يَنْتُحِ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ والسلام والبركة هما من الله بسبب رسالته. لذلك يسلبان عن لا يعرف قيمة الرسالة فينحرف عنها، لذلك خصص القرآن أحما دون أخرى للسلام والأمن قائلا:

﴿وَأُمَمٌ سَتُغْنِي عَنْكَ الْإِيمَةُ﴾ وذلك بسبب أن هذا النوع الثاني من الأمم ينحرفون عن الرسالة، ويبدلون دين الله.

وربما توحى هذه الآية بأن سنة الحياة الأولية هي السلام والبركة لو لا انحراف البشر فيها.

خلاصة القصة

[٤٩] تلك كانت قصة نوح وقومه، والعبرة التي نستفيد منها اثنتان.

أولاً: إن هذه الرسالة امتداد لتلك الرسالة حيث لم يكن أحد من قوم الرسول محمد عالما بقصة نوح، أو لا أقل بتلك التفاصيل الدقيقة التي تسجل حتى الحالات النفسية، والأسباب الاجتماعية، والعوامل الطبيعية التي ساهمت في صنع وقائع القصة، فجاء ذكرها جميعا شاهدا على صدق رسالة النبي محمد ﷺ.

ثانياً: إن كل رسالة تتعرض لتحديات جاهلية، وعلى حاملها أو حملتها التسلح بالتقوى، والصبر انتظاراً للعاقبة.

(١) مصباح الكفعمي: ص ١٧٠.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ فحتى

رسول الله لم يكن محيطاً بعلم ما جرى لنوح، مما يدل على أن ما لديه من علم، إنما هو من عند الله، لا من عبقريته وذكائه.

﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُنْقِصِ﴾ والواقع إن صبر نوح عليه السلام كان طويلاً وشاقاً وكان

بالتالي ذا أثر حاسم في هلاك أعدائه.

هود: إني توكلت على الله

﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال ينقوم أعبُدوا الله ما لكم من
إله غيرهِ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ينقوم لَا اسْتَلَكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ
أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وينقوم اسْتَغْفِرُوا
رَبَّكُمْ ثُمَّ قُومُوا إِلَى اللَّهِ يَرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٥٢﴾ وَيَزِدْكُمْ
قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ
وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٤﴾ إِنْ
نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ ﴿٥٥﴾ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا
أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٦﴾ مِنْ دُونِهِ، فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ
﴿٥٧﴾﴾ إِنْ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَنِي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا
إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ
إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
حَفِيفٌ ﴿٥٩﴾﴾.

هدى من الآيات:

وجاء هود مرسلًا من عند الله إلى قوم عاد، ودعا قومه بذات النبوة الإيمانية التي وجدناها
عند سلفه الصالح نوح عليه السلام.

١ - أمرهم بعبادة الله حيث لا إله ولا معبود سواه، ويبيّن أن عبادتهم للطغاة أو الأصنام

(١) مدراراً: المدرار الكثير التابع على قدر الحاجة إليه دون الزائد المفسد المضر.

(٢) اعتراك: من قولهم عراه يعروه إذا أصابه.

افتراء وضلالة.

٢- وَيَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ لَا يُطَالِبُهُمْ بِأَجْرٍ، وَأَنَّهُ أَجَرَهُ عَلَى اللَّهِ الَّذِي فَطَرَهُ أَفَلَا يَعْقِلُونَ فَيَعْرِفُوا الْفَرْقَ بَيْنَ الرَّسُولِ الصَّادِقِ، وَبَيْنَ أَوْلَئِكَ الطُّغَاةِ وَالْكُهَنَةِ الْمُفْتَرِينَ الَّذِينَ يَهْدِفُونَ السُّلْطَةَ وَالْاِسْتِكْبَارَ فِي الْأَرْضِ!.

٣- وَطَالِبُهُمْ بِإِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ، وَالْعُودَةِ إِلَى تَعَالِيمِ اللَّهِ لِتَرْدَادِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَلِيَزْدَادُوا قُوَّةً إِلَى قُوَّتِهِمُ الْحَالِيَةِ، وَفِي غَيْرِ هَذِهِ الْحَالَةِ فَهُمْ يَصْبِحُونَ مُجْرِمِينَ مُخَالِفِينَ لِلَّهِ وَلِرِسَالَتِهِ، وَيَسْتَحِقُّونَ الْعَذَابَ.

ولكن قوم هود ردوا دعواته الثلاث، فقالوا: إنك لا تملك بينة كافية على صدق رسالتك، وإننا لن نترك آلهتنا، وإننا لن نعطي أزمة أمورنا بيدك، بالرغم من أنك لا تطالب بأجر، وزعموا أن كلامه نوع من الجنون الذي مسه بسبب غضب الآلهة عليه، فميز هود نفسه عن قومه وتبرأ من شركهم، وأشهد الله على ذلك، وتوكل على ربه، وتحداهم جميعاً، وأمرهم بالألا يمهلوه بل يكيدون له ليعرف مدى ضعف كيدهم، لأنه يعتمد على الله الذي يملك كل دابة ويدبر أمورها، وهو على صراط مستقيم.. يدعوا إليه ويجريه بقوته، ويبيّن لهم هود أنه قد أنهى مسؤوليته ببلاغ الرسالة، وأن الله سوف يبدلهم بغيرهم دون أن يضره شيئاً، وأن الله على كل شيء حفيظ.

بيانات من الآيات:

رسالة هود وأبعادها

[٥٠] أرسل ربنا إلى عاد واحدا منهم يسميه ربنا بأخيهم لكي يكون أقرب إلى قبول الرسالة، وأوضح بياناً، فأمرهم بعبادة الله ونبذ الشركاء، وفضح منذ اللحظة الأولى كذب ودجل الشركاء من دون الله. شأنه شأن سائر الرسل التي لا تمهادن في دين الله أبداً.

﴿وَالِإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَنْتَرْتُ إِلَّا مِثْرَتَكُ﴾ أي إنكم تفترون على الله الكذب، بادعائكم أن هذه الآلهة تمثل الله في الأرض، وربما تدل هذه الآية على أن انحراف البشر الاسامي يكون عادة في تبديل جوهر الدين لا إطاراته الخارجية، فيفسر ذات النص الديني (الأمر بعبادة الله، ونبذ الشركاء) بمفهوم متناقض ليصبح داعياً إلى عبادة الشركاء افتراء على الله، مثلاً: يفسر قوله سبحانه: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، بأن معناه إطاعة كل حاكم ظالم متجبر بمجرد تسلطه على الناس الذي يناقض تماماً فكرة التوحيد، وإطاعة الله هكذا حدث عند المسلمين أما عند

عاد فقد حدث شبه ذلك، حيث أطاعوا الشركاء باسم أنهم مستخلفون من قبل الله، وأطاعوا الأصنام باسم أنها شفعاء عند الله.

[٥١] وإذا كانت الكهنة مدنة معابد الأصنام، وعلماء السوء المحيطون ببلاط المستكبرين يبيعون علمهم على من يشتري، ويستطيّلون على الضعفاء، فإن هودا عليه السلام لم يطالبهم بأي أجر، وكفى ذلك شاهداً ودليلاً على صدق رسالته، فلماذا إذن كان يعرض نفسه لكل تلك الصعاب، إن لم يكن صادقاً، وهو لا يطالب الناس بأجر ولا بهدف الوصول إلى غاية خاصة؟ **﴿يَنْقُورِ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾**.

[٥٢] وطالب هود قومه أن يصلحوا أنفسهم بطلب المغفرة من الله تعالى، وإظهار الندم من الذنوب السابقة، وبعدئذ العودة إلى تعاليم السماء وتطبيقها **﴿وَيَنْقُورِ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾** فإذا فعلوا ذلك فإن الله سوف يفتح لهم أبواب رحمته بإنزال قطر السماء بغزارة، وإعطائهم المزيد من القوة والمنعة **﴿وَيُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾** وفي غير هذه الحالة يعتبرون مجرمين خارجين عن القانون ويستحقون العذاب **﴿وَلَا تُلَاقُوا بِمُجْرِمِينَ﴾**.

[٥٣] ورفض قوم هود رسالة الله، وادعوا أنهم لم يقتنعوا بأدلتهم وحججه، ولكن كذباً إذ أن دافعهم الأصلي في رفضهم لها كان تمسكهم بالأعمى بالتقاليد وعبادتهم للآلهة التي رفضوا تركها اعتماداً على كلام هود، وربما كان هناك سبب آخر لرفضهم للرسالة. هو استنكافهم عن التسليم لهود. ويوحى إلى ذلك تعابيرهم التي كرر فيها (الخطاب) ونسبت الرسالة إلى شخص هود، بينما لم يكن هود سوى رسول حامل للرسالة. تدبروا في الآية: **﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِشَارِكِيَّ إِلَهِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾** وقد زعموا أن إيمانهم، إنما هو للرسول وفي منفعة، بينما كان الواقع غير ذلك تماماً.

[٥٤] ولكي يبرروا جهلهم بواقع الرسالة، ويغطوا على نقاط الضعف في كلامهم نسبوا الرسالة إلى حالة مجهولة غيبية، اعترت الرسول -مما لا يعرف أبعادها- **﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾** وهكذا اعترفوا ضمناً بخطأ أقوالهم السابقة، وزعمهم بأن هوداً إنما يدعوهم لنفسه. وهنا عرف هود أن العصبية العمياء تحيط بقلوب هؤلاء القوم فيرفضون الحق بلا تفكير لذلك **﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّكُمْ تَشْهَدُونَ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾** وبدأت مرحلة جديدة من الصراع هي مرحلة المواجهة الساخنة حيث أعلن هود براءته من أفكارهم، وانفصاله عن مجتمعهم الفاسد.

المواجهة الساخنة

[٥٥] وأعلن هود عن استعداده للمواجهة الآن ومن دون مهلة، وتحذاهم لو عندهم كيد فليكيده به ﴿مِنْ دُونِيۚ فَكِيدُونِيۚ جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُون﴾ ﴿فما دام الكيد من دون الله، وبعيد عن الاستعانة بالله فهو فاشل لا محالة.

[٥٦] هل كان يملك هود قوة يعتمد عليها في مواجهته مع جميع قومه؟ بلى قوة الله الذي آمن به وحمل رسالته، وهذا أكبر شاهد على صدق دعوته.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ ﴿أي ما من حي يدب فوق الأرض إلا وربنا سبحانه يملك توجيهه كمن يأخذ بمقدم رأس أحد يوجهه أنى شاء، ولكن الله لا يُسِيرُ الكون عبثاً أو لعباً، وإنما يسيره بعدالة وعبر صراط مستقيم﴾ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿فكما يُسِيرُ الله كل ما في الكون في طريق مستقيم، فإنه سبحانه يُسِيرُ الذين يتوكلون عليه عبر ذلك الصراط الأقرب إلى الهدف.

[٥٧] وأنذرهم هود حين لم ينفعهم التبشير وقال: إذا توليتم عن قبول الرسالة، فقد أدبت مهمتي وهي إبلاغ الرسالة، وإن الله سوف يهلككم ويأتي بآخرين مكانكم دون أن تقدروا على إلحاق الأذى بي ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾ ﴿فهو يحفظ الأشياء بهيمته عليها وتسلطه، فإذا تركه هلك، لأن بقاءه مستمد من الله سبحانه وتعالى.

أَلَا بُعْدًا لِعَادِ

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ءَادٌ جَعَلُوا بَيِّنَاتٍ رَّبِّهِمْ وَعَصَوْا
رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ
الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ ءَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

هدى من الآيات:

وكذب قوم هود برسولهم وجاء أمر الله بنجاة المؤمنين من عذاب غليظ، وإهلاك الباقين
ولم يبق منهم سوى العبرة، فهي هي عاد جعلوا بآيات ربهم، وعصوا رسله، وأطاعوا أمر
الجبارين المتكبرين الجاحدين، فلحققتهم اللعنة والبعد عن رحمة الله في الدنيا والآخرة. كل ذلك
بسبب كفرهم بالله وبرسالته ورسوله.

بيانات من الآيات:

أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ

[٥٨] وانتظر هود والذين آمنوا أمر ربهم لأنهم منذ البدء توكّلوا عليه - سبحانه - ولم
يعتمدوا في دعوتهم على أنفسهم أو على قبيلتهم أو أية قوة مادية أخرى، وبعد أن أعطيت
لعاد فرصة كافية ليهتدي من يهتدي منهم بوعي، ويضل من ضل بحجة. بعدئذ جاء أمر الله
تعالى الذي هو فوق العادات والسنن المعروفة للناس، والدليل على أن العذاب الذي أخذ
عادا كان خرقا للقوانين الطبيعية المعروفة، إن العذاب لم يشمل المؤمنين والكافرين الذين كانوا
متواجدين في مكان واحد، بل أخذ الكفار وحدهم بينما العذاب الطبيعي كالوباء والزلازل
والمجاعة لا يميز المؤمن من الكافر ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا

وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ هو ذلك العذاب الثقيل المتراكم الذي أخذ الكفار.

[٥٩] لماذا عذب الله عادا بذلك العذاب الغليظ؟ لأنهم بعد أن عرفوا آيات الله جحدوا بها، وبعد أن عرفوا رسولهم الذي أرسل إليهم للطاعة عصوه، واتبعوا أمر كل جبار عنيد يتصف باستخدام العنف ضد الناس. فهو ظالم مستبد برأيه، لا يحكم بالشورى ولا يتبع الهدى ﴿وَقَالُوا لَا تَزِدَّ عَلَيْنَا كَذِبًا إِلَّا ظُلْمًا ۚ وَقَدْ آتَيْنَا آلَ هَارُونَ الْكِتَابَ فَأَصْبَحُوا شُرَكَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَنَنْصَلِبُ عَنْهُمْ صَوْلَجًا ۖ وَتِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ الَّتِي يُبَيِّنُ لِقَوْمٍ يُهْتَدُونَ﴾

[٦٠] ولانحرافهم الفكري ولانحرافهم السياسي والاجتماعي لحقتهم لعنة الأبد، وأبعدوا عن رحمة الله فعذبوا في الدنيا والآخرة. كل ذلك لكفرهم بالله وبرسول الله هود ﴿وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾

صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْذِرُ قَوْمَهُ

﴿وَالَّذِي نُنَادِيهِمْ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ۝٦١﴾ قَالُوا بِصَالِحٍ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا ۝٦٢ قَبْلَ هَذَا أَتَنهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٦٣ قَالَ يَنْقُورِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ صُحِّتُمْ عَلَىٰ بَيْتِهِمْ مِنْ رَبِّي وَهَآتَيْتُمْ مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُمْ هَٰذَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ۝٦٤﴾ وَيَنْقُورِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُّوهُا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ۝٦٥﴾

هدى من الآيات:

أَهْلَكْتَ عاد، وبنيت ثمود مدينتها فبعث الله إليهم واحدا منهم ﴿صَالِحًا﴾ ودعاهم إلى توحيد الله ونبتد الشركاء من دونه، وبين لهم إن مدينتهم ليست من عمل الشركاء بل من نعم الله، فهو الذي أنشأهم واستعمرهم في الأرض، وإن عليهم أن يستغفروه، ويصلحوا أخطاءهم الماضية، وأن يتوبوا إليه فيعملوا في المستقبل بهداه فإنه قريب يسمع استغفارهم، ومجيب يحقق طلباتهم، ولكنهم رفضوا رسالة صالح لا لأنهم شكوا فيه وفي أمانته وأخلاقه، ولا لأنهم لم يفقهوا أبعاد الرسالة، بل لأنهم تعصبوا لأبائهم، وقال صالح: إنه على بينة واضحة، وإن الله سبحانه قد منح له فضلا منه ورحمة فهو لا يترك ربه لسمع كلام قومه الذين لا يزيدونه غير خسارة وضرر. وحين طالبه قومه بآية قال لهم: هذه ناقة الله. إنها آية لكم فاتركوها تأكل في

(١) مرجوًّا: رجي وترجي أي أمل.

(٢) تخسير: خسران.

أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب.

هكذا كانت رسالة صالح إلى ثمود على نهج رسالات الله إلى قوم نوح وعاد، داعية إلى توحيد الله، وكان جواب الجاهلين واحداً وهو التعصب للأباء ولأفكارهم الباطلة، أما العقوبة فهي واحدة، كما سيأتي في الدرس القادم (إن شاء الله تعالى).

بينات من الآيات:

ركيزة الحضارة

[٦١] من ميزات رسالات الله، إنها تأتي بلغة الذين تهبط لهم، وعلى يد واحد منهم ليكون أبلغ في التأثير، وأبعد عن العصبية.

﴿وَالْأَن تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ يقال بأن ثمود قوم عرب عاشوا في القرى بين الشام والمدينة.

﴿قَالَ يَنْفُورُ أَغْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾ ونزلت هذه الكلمة على رؤوسهم كالصاعقة لأنها استهدفت تغيير مسار تفكيرهم، ومنهج حياتهم وقيم سلوكهم، ونظام مجتمعهم السياسي والاقتصادي.

عبادة الله يعني القبول بمناهجه وقيمه. عبادة الله تعني نبذ المسلمات الثقافية التي يؤلفها الناس، ويعتبرونها مقدسة لا يحوم حولها ريب، ولا يقترب إليها التفكير، ولا يتناولها النقاش، تلك المقدسات الموجودة في كتب الكهنة، والتي يُحكم على من يخالفها بالخروج عن المجتمع، ويجازى بأشد العقاب.

وعبادة الله تعني بالتالي رفض سلطة رؤساء العشائر ووجهاء البلد، وأصحاب الثروة والقوة، لذلك كانت ردود الفعل الأولية لهذه الدعوة، هي الرفض المطلق خصوصاً وأن المستكبرين والمفسدين يوهمون الناس أبداً بأن التقدم والرفاه والأمن والازدهار وحتى الرزق الطبيعي الذي يوفر لهم كل ذلك جاء نتيجة الكيان الاجتماعي والثقافي، والنظام السياسي والاقتصادي الذي يشرفون على تسييره، فلو تزلزل الكيان وانهدم النظام فإن كل الخيرات مهددة بالزوال هي الأخرى. لذلك ذكرهم رسولهم صالح عليه السلام بأن الخيرات إنما هي من الله الذي أنشأهم، وجعلهم قادرين على عمارة الأرض.

﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ فالله هو الذي أودع في البشر الطموح وإعطاء

القدرة، وطوع له ما في الأرض، وتلك هي شروط عمارة الأرض وبناء المدينة، وليس النظام الفاسد سوى سارق لخيرات الناس، وهاد لهم إلى الهلكة. ولولا رفض الناس للنظام الفاسد، وعودتهم إلى الطريق المستقيم فإن المدينة مهددة بالقضاء.

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ فمن أساء الله الحسنی، وكذلك من نعمه الكبرى هي أنه سبحانه وتعالى فتح أمام الناس باب الاستغفار والتوبة، وأعطى الناس القدرة على تصحيح مسيرتهم الضالة، وتطهير آثار الماضي الفاسد، كما أعطاهم الفرصة لفتح صفحة جديدة مع الله، ومع سنن الله، ولنا في هذه الآية وقفتان للتدبر:

الأولى: إن ما في عالم اليوم من مدينة مزدهرة، ليست بسبب الأنظمة الجاهلية الحاكمة هنا وهناك، وليست بسبب النظام المادي ولا حتى بسبب فصل الدين عن السياسة، أو الانفصال عن الجذور التاريخية، وإنما السبب وراء المدنية والتقدم هو السعي من أجل عمارة الأرض عبر الالتزام بسنن الله الصالحة، كالعمل والاجتهاد والتعاون والتطلع، وما دامت هذه الشعوب ملتزمة بهذه السنن فهي تحافظ على مكاسبها، وحين تنحرف وتعوض عن السعي بالفخر، وعن الاجتهاد بالغرور، وعن التعاون والتطلع بالمفاخرة والاستغلال، فإنها مهددة بفقدان مكاسبها، وهذه الحقيقة تدعونا إلى الاعتقاد بأن الأنظمة المادية، والعادات الجاهلية السائدة على الشعوب المتقدمة سوف تضيع مكاسبها وتفسد مدنياتها، وإن بداية الضياع هو تحجير جهود الناس ومسايعيهم لمصلحة فئة الأغنياء المتسلطين في بعض البلاد، أو حزب المستكبرين الحاكم في بلاد أخرى.

الثانية: إن الحضارات البشرية تبدأ بتطبيق سنن الله في تسخير الحياة كالسعي والتعاون ولكنها تنسى دور هذه السنن في تقدمها، وتتوجه إلى الأصنام وتزعم أنها هي واهبة التقدم والرفاء، وهذا الانحراف عادة بشرية تكاد تكون سنن ثابتة لولا حرية البشر التي تتحداها، ولولا رسالة الله التي تذكر البشر بهذه الحرية، ومن هنا لا يعترف الإسلام بحتمية الانهيار في الحضارات، بل يضع لها فرصة الاستمرار عن طريق إصلاح نفسها، والتوبة إلى سنن الله، وهذا ما تشير إليه هذه الآية التي تعطي المزيد من الأمل في الاستمرار في نهايتها وتقول: إن الله قريب مجيب، أي أن إصلاح الفاسد، وتجديد الحضارات (بالاستغفار والتوبة) أيسر مما يزعم البشر.

ضلالة الآباء أم هدى الرسالة

[٦٢] وكان قوم صالح غارقين في الماضي يعتزون بأبجادهم الغابرة، ويقلدون آباءهم، ولذلك عادوا صالحاً بالرغم من ثقتهم بشخصه.

﴿قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ ولقدسية الماضي في أعينهم ارتابوا في الرسالة سلفا ومن دون تفكر، وقالوا: ﴿وإِنَّا لَنِفْيُ شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ ربما تشير الآية إلى أن قوم صالح لم يكتفوا بالشك فيه، بل اتهموه بالباطل ردا على تجهيل آبائهم، ورميهم بالضلالة.

[٦٣] ودافع صالح عن نفسه، وبيّن سبب استقامته على هدى الرسالة رغم ضغوطهم، وضرب لهم مثلا بعمله هذا، لكي يقاوموا ضغط الماضي، ويتحرروا من قيوده، فبيّن إنه على سبيل واضح بيّنه له ربه، وقد انتهى به السير في السبيل إلى تحقيق مكاسب عملية من الهدى والطمانينة .. وأنه يخشى ربه إن عصاه، وأنهم لا يقدرّون على تقديم العون له.

﴿قَالَ يَنْفَوِرُ أَرْءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْفَرٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ فلماذا لا تشكون في طريقتكم، وتفكرون بأن هذا الطريق قد يكون صحيحا؟! لا سيما وهناك خوف الضرر.

﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ إن البشر يفكر في تغيير طريقته لو أحس بالخطر وخاف منه، ولذلك ينبه القرآن إلى احتمال الخطر في حالة عدم التفكير في صدق الرسالة.

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ فبالإضافة إلى احتمال الخطر، هناك احتمال الضرر والخسارة، وانعدام الربح والكسب.

[٦٤] وكأخر محاولة لهدايتهم، ولقطع حججهم، وبعد أن طالبوه بالآية الواضحة، أخرج الله لهم ناقة، وقال لهم صالح عليه السلام: ﴿وَيَنْفَوِرُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾.

الآبَعْدَا لثَمُودَ

﴿فَمَقَرُّوْهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ
وَعْدُ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ
آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ
الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّبِيحَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ
جَنَازِمَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَتَوَفَّيْهَا إِلَّا إِنْ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا
لِثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾

هَدَى مِنَ الْآيَاتِ:

انتهى وضع ثمود بمواجهة الرسالة وعقروا الناقة، وحانت ساعة الجزاء الشديد، حيث
أمهلهم الله ثلاثة أيام فأناهم وعد الله غير مكذوب، ونجى الله صالحا والذين آمنوا معه نجاة
نابعة من رحمته، وانقذهم من خزي ذلك اليوم المعيب، وتجلت صفتنا القوة والعزة لربنا الجليل،
فبقوته قدر على إهلاك الأعداء ونجاة المؤمنين، وبعزته فعل ذلك، وكان نوع العذاب صيحة
أخذت الذين ظلموا فأصبحوا كأنهم هامدين في ديارهم، وانتهى كل شيء، ولم يبق من ثمود
أي أثر كأنهم لم يكونوا هنا، ولم يتمتعوا بالرفاه وإن ذلك كان جزاء كفرهم الذي سببه إبعادهم
عن رحمة الله.

بيانات من الآيات:

جزاء السكوت

[٦٥] جاءت نهاية ثمود التي انحدروا إليها شيئا فشيئا بسبب استكبارهم عن الحق،
وذلك حينما عقروا الناقة، الآية الألهية التي طالبوا بها، والتي لم تكن تضرهم شيئا، بل كانت

تنفعهم، ولم يعقر الناقة سوى اشقاهم وهو شخص واحد، إلا أن رضا الجميع بفعله وسكوتهم عنه جعلهم شركاء في الجريمة، ونسبت الخطيئة اليهم جميعاً.

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ إن السلطة السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية الفاسدة هي التي بادرت بعقر الناقة في جو من الاستسلام الساذج، وكانت تلك النتيجة الطبيعية للجمود والتقليد والاعتزاز بالمكاسب، وهكذا كان شأن كل الأنظمة الجائرة والمستبدة عبر التاريخ، إنها تُنَوِّم الناس على أنغام المكاسب الظاهرة فتسلب منهم قدرتهم على التفكير السليم بعدئذ تقوم باستغلالهم واستثمار طاقاتهم حسب ما تشاء، وتوردهم المهالك من دون أي خوف من التمرد أو المقاومة.

[٦٦] وهكذا فعلت السلطات المستكبرة بقوم ثمود، ولكن ثمود هي التي فعلت بنفسها هذه الجريمة حين سكنت في أول الأمر عن تلك السلطات. إن الرضا بالأنظمة الجائرة والمستبدة هي الخطوة الأولى إلى المجزرة، لأن هذه الأنظمة تسلب أعز شيء عند الإنسان هو عقله وتفكيره.. فيكون ضررها أكبر من نفعها مهما كان نفعها كبيراً. لذلك جاء الأمر الإلهي الخامس.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا مِن خَزْئِ يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ العزة هي مظهر القوة في الحقل الاجتماعي، والله لا يدع قيم الحق قائمة في النفوس والعقول وبين أضلع الكتب والخطب، بل يجسدها في ضمير الواقع فإذا بالظلم يتحول إلى ظلمات، والجريمة إلى عقاب، والفساد إلى خراب.

[٦٧] وإذا بالسكوت عن الظلم، والرضا بالجريمة، والاستسلام أمام الفساد يتحول كل ذلك إلى صيحة مدمرة. هي صيحة الحق الذي سكتوا عنه، وهي عقاب الجريمة التي رضوا بها، وهي نهاية الفساد الذي استسلموا له.

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴾ لقد كانت الصيحة في لحظة واحدة بحيث أسكتت حناجر الساكنين عن الظلم، وأهدت حركة المغرورين بمكاسبهم، وجعلتهم يسقطون على وجوههم (في حالة الجثوم) تلك الوجوه التي استكبرت عن قبول الحق.

[٦٨] أين تلك الديار التي تمتعوا بها وأقاموا دهرافيهـا؟! أين الصخب والحركة، وأين العمارة والأثاث؟! لقد شمل التخريب الساحق كل زاوية من زوايا ديارهم، وكأنها كانت خالية من السكان.. ﴿ كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا ﴾ أي لم يقيموا فيها. ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ

أَلَا بُعْدَ الْإِثْمُودَ ﴿٦٥﴾ لَقَدْ كَفَرُوا بِعِبَادَةِ اللَّهِ وِبرسَالَتِهِ، وِبرسُولِ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ لِيُطَاعَ بِإِذْنِهِ، وَلَكِنْ كَفَرُوا هَذَا كَانَ - فِي الْوَاقِعِ - مُتَوَجِّهًا مُبَاشِرَةً إِلَى رَبِّهِمْ جَلَّ جَلَالُهُ، وَهَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ الْكُبْرَى الَّتِي يَنْسَاهَا أَوْ يَتَجَاهَلُهَا الْبَشَرُ فَيَفْصِلُ بَيْنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ، وَيُرِيدُ أَنْ يَكْفُرَ بِالرِّسَالَاتِ كَفَرًا عَمَلِيًّا وَيَحْتَفِظُ بِإِيْمَانِهِ بِاللَّهِ، وَهَذَا هُوَ التَّنَاقُضُ الْبَعِيدُ وَالْمُسْتَحِيلُ.

إِنْ ثُمُودَ بَعُدَتْ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَعَنِ الذِّكْرِ الْحَسَنِ، وَعَنِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ بِسَبَبِ مُحَاوَلَتِهَا الْفَصْلُ بَيْنَ اللَّهِ وَرِسُولِهِ. فَهَلْ نَكْرَرُ التَّجْرِبَةَ؟!.

اتعجبين من أمر الله؟

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَنبَذٍ ۝٦٩ فَلَمَّارَةً أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ ۝٧٠ مِنْهُمْ خِيفَةً ۝٧١ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٢ وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةً فَضَحِكْتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝٧٣ قَالَتْ يَتُولى أَئِذَا وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي ۝٧٤ شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٥ قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ۝٧٦﴾

هدى من الآيات:

يتابع السياق القرآني قصة الرسالة في عهد إبراهيم عليه السلام، ويلخص قصته التي تتصل بقوم لوط. ويبدأ الحديث بجو السلام والبشارة التي يختلط بها الخوف، لقد جاءت رسل الله وملائكته إلى إبراهيم عليه السلام يزفون إليه البشارة بأبنائه -الذين كانوا يشكلون امتدادا لخطه- وهلاكاً لأعدائه.

فجاء إليهم إبراهيم بالطعام وكان عجلاً مشوياً، ولكنهم لم يلمسوه فتوجس منهم خيفة، وأثير عنده سؤال: لماذا لا يأكلون؟! فطمأنوه وقالوا: إنا رسل الله وقد أرسلنا إلى قوم لوط، وبينما كانت امرأته قائمة تصلي أو تقوم بخدمة الضيوف ضحكت تعجباً وفرحاً بهلاك قوم لوط فبشرها الله بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، ولم تتمالك من شدة التعجب فصاحت: كيف

(١) أوجس: الإيجاس الاحساس، ويقال أوجس خوفاً أي أضمر.

(٢) خيفة: خوفاً.

(٣) بعلي: البعل الزوج وأصله القائم بالامر.

ألد وأنا عجوز وبعلي شيخ طاعن في السن؟! فرد عليها الرسل قائلين: لماذا تعجبين من أمر الله. إن رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت لأن الله يفعل ما يحمد عليه وهو رفيع المقام سبحانه؟! هكذا مهد الله لقصة أصحاب لوط الذين كانت رسالة إبراهيم عليه السلام نازلة لهم أيضا.

بيانات من الآيات:

إبراهيم عليه السلام والبشارات الثلاث

[٦٩] ظل إبراهيم يقاوم ويقاوم. ولم يرق إلى قلبه السامي اليأس أو الشك، وحانت الآن ساعة البشارة المنتظرة. لقد أرسل الله إليه رسله بصورة رجال حسان الوجوه تعظيما له وتكريما لجهاده الطويل، فجاؤوا يبشرونه:

أولاً: بأن الله أذن له بالنصر.

ثانياً: بأن اعداء الرسالة سيهلكون، ألا وهم قوم لوط الذين بعث الله إليهم أول المؤمنين برسالة إبراهيم.

ثالثاً: بأن الله سوف يرزقه - بعد طول المعاناة واليأس - أولاداً يتابعون دربه..

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ تبادل رسل الله - أول ما التقوا مع إبراهيم عليه السلام - التحية معه، وربما كانوا الوحيديين من ضيوف إبراهيم الذين أخرجوا الشيخ الذي أكلت سنون النضال عمره المبارك من غربته الروحية في رحم الصحراء. لذلك بادر إبراهيم بإحضار الطعام السمين إليهم وهو عجل مشوي.

﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ العجل: ولد البقرة، والحنيذ: المشوي.

[٧٠] انتظر إبراهيم ضيوفه ليأكلوا أو حتى ليبادروا إلى التهام العجل الحنيذ على عادة الراحلين عبر الصحراء، ولكنهم لم يفعلوا، فأنكرهم كيف لا يأكلون؟! وخاف منهم لأن الضيف الذي لا يأكل يضر الشر، ولكنهم سرعان ما بددوا خوفه الذي أحس به، وأظهروه على حقيقة الأمر، وأعلنوا أن مهمتهم هي البشارة بهلاك قوم لوط بعد طول عنادهم ﴿فَلَمَّارَةً أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِيرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَزِيلَنَّا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾.

[٧١] وظهرت في الصورة المرأة الصبورة التي رافقت زوجها إبراهيم في جهاده الطويل وهي سارة بنت هاران ابنة عم إبراهيم، وزوجته ورفيقة دربه، فإذا بها تضحك من بشارة

الرسول وهي قائمة تصلي، أو تخدم الضيوف.

﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ وهنا بادر الرسول بإطلاق البشارة الثانية والأعجب حيث بشروها بإنجاب الأولاد... ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَآئِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾

[٧٢] وتعجبت كيف تلد وهي عجوز وزوجها شيخ طاعن في السن ﴿قَالَتْ يَنْوِتْلَنِي إِلَهُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

[٧٣] وعاد الرسول يبشرونهم بثالثة البشارات وأعظمها وهي مرضاة الله التي تتجسد في الرفاه والخير والرحمة من الله، وفي الانتشار والتقدم والتعامل، وبالتالي البركات من جهة ثانية، لأنهم أهل بيت الجهاد والإيمان ولأن الله حميد مجيد ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ إن ربنا يحمده الناس بكرمه وفضله الواسع.

جعلنا عاليها سافلها

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ^(١) وَجَاءَهُ الْبُشْرَىٰ يُبْشِرُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ^(٢) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ ^(٣) مُنِيبٌ ^(٤) ^(٥) يَتَّبِعُهُمُ الْغَرَضُ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمَاتِهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُورٍ ^(٦) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا بِهِمْ ^(٧) وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ^(٨) وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ^(٩) ^(١٠) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَعِيفِ النَّاسِ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ^(١١) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ^(١٢) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ^(١٣) ^(١٤) قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ نَبْصِلَا إِلَيْكَ فَانْهَارْ بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ ^(١٥) مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْهُوتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ^(١٦) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا

(١) الروع: الإفزع، ويقال راعه يروعه إذا أفرعه، وارتاع ارتياحاً إذا خاف.

(٢) آواه: كثير الدعاء.

(٣) منيب: راجع إلى الله سبحانه في جميع أموره.

(٤) يسيء بهم: ساءه معيبتهم.

(٥) ذرعاً: طاقةً ووسعاً.

(٦) عصيب: الشديد في الشر، وأصله من الشر يقال عصبت الشيء أي شدته.

(٧) ركن: الركن معتمد البناء بعد الأساس.

(٨) شديد: الشدة تجتمع يصعب معه التفكك.

(٩) يقطع: القطع القطعة العظيمة تمضي من الليل، وقيل نصف الليل كأنه قطع نصفين.

حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ^(١) مَنضُودٍ ^(٢) مُّسَوَّمَةٌ ^(٣) عِندَ رَبِّكَ وَمَا
هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ

هدى من الآيات:

وبعد أن ذهب عن إبراهيم الروح بسبب خوفه من الملائكة المرسلين، وتلقى منهم البشرى، هنالك أخذ يتضرع إلى الله لنجاة قوم لوط. حقا كان إبراهيم قمة في الحلم. حيث لا يزال يرجو نجاة قومه. وقد اكتسب ذلك بعلاقته بربه العظيم. بيد أن الله أخبره أن أجل قوم لوط قد أتى، وأن لا مرد لعذاب الله.

في الجانب الآخر من الصورة نجد لوطا عليه السلام يضيق ذرعا بالمرسلين لعلمه بفساد قومه الذين أخذوا يهرعون إليه، استمرارا لعاداتهم السيئة. وطلب منهم لوط أن ينكحوا النساء اللاتي هن أظهر لهم من الشذوذ. ورجاهم ألا يتعرضوا لضيغه. وانتخاهم وقال أليس فيكم رجل رشيد؟

فرفضوا، وعرف لوط ألا ملجأ له إلا الله ذا الركن الشديد. هنالك كشف الرسل عن أنفسهم، وطمانوه وأمروه بأن يترك المدينة ليلا، لأن ميعة العذاب قريب عند الصباح. وهكذا جعل الله مدن قوم لوط عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود. سجلت باسمهم. وكانت جزاء الظالمين. وهلكوا وبقيت منهم عبرة للتاريخ.

بيانات من الآيات:

إبراهيم عليه السلام ينيب إلى الله

[٧٤] حين سكنت نفس إبراهيم عليه السلام من المفاجآت، وبشر بالنصر، عاد إليه حنانه المتدفق نحو إنقاذ الناس من الجاهلية، وأخذ يجادل ربه في قوم لوط ويتضرع إليه أن يؤتوا فرصة أخرى للهداية ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾.

[٧٥] ويشهد جدل إبراهيم عليه السلام ودفاعه المستميت عن الناس على مدى اهتمام الرسل بالناس، وإن دعوتهم ليست من أجل مصالح ذاتية، بل من أجل حبهم العميق للآخرين.

(١) سجيل: الحجارة الشديدة.

(٢) منضود: متتابع في الإرسال أي بعضه يلاحق بعضاً، والمنضود من نضدت الشيء بعضه على بعض.

(٣) مسومة: المسومة من السيماء وهي العلامة.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَعَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ فبحلمه العظيم صبر على اذى قومه، على أمل أن يهتدوا في يوم من الأيام، ولا يزال يتظر هدايتهم لا هلاكهم، ولأنه دائم التضرع إلى الله، وقلبه متصل أبدا بالله عن طريق المناجاة نراه يدعو الله لكي ينقذ قوم لوط، ويعطيهم فرصة أخرى للهداية دون أن يعلم الغيب، وإنه لا أمل فيهم أبدا، ولذلك فهو أواه، بيد أنه يسلم لله الأمر وينيب إلى ربه ولا يجعل الدعاء إذا لم يستجب سببا لعدم رضاه من الله فهو إذا منيب.

[٧٦] ولأن إبراهيم منيب تجده يعود عن قراره بطلب الخلاص لقوم لوط، وذلك حين قال له ربه: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمَاتِهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ فما دام الأمر لم يصبح جديا ومحتما يجوز أن يسعى الفرد لتغييره، بالعمل أو بالدعاء، وأما إذا قضى الله أمرا فلا يمكن تغييره.

في ضيافة لوط عليه السلام

[٧٧] وانتقل رسل الله من عند إبراهيم عليه السلام إلى بيت لوط عليه السلام، وحدثت هناك المفاجأة الثانية حيث ضاقت الأزمة لتفرج، واشتدت لتحل.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ إن لوطا حسب أن هؤلاء الرسل الذين جاؤوا إليه في صورة فنية حسان الوجوه، حسبهم أنهم ضيوفه وكان قومه يفعلون الفاحشة بالضيوف، لذلك استاء منهم وضاق ذرعا بحضورهم، ورأى أن ذلك اليوم شديد عليه، وأنه لا حيلة له في عمل شيء أبدا، لأنه وحيد بين قوم طغاة لا يؤمنون بدين، ولا يدينون بشرف.

[٧٨] ولما رأى قومه الفنية أسرعوا إلى بيت لوط عليه السلام ليفعلوا ما اعتادوا عليه من الفاحشة، ودعاهم لوط عليه السلام إلى ترك الشذوذ الجنسي والعودة إلى سنة الله في الحياة بالزواج من البنات.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ مُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يسرعون إلى بيته ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ قَالَ يَنْقُورُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قالوا: بأن لوطا عليه السلام طالبهم بزواج البنات من أمته ومن بناته بالأبوة الروحية والرسالية، أو كما قالوا: بأنه عرض عليهم بناته ليتزوجوا منهن، وكان ذلك العرض السخي من أجل نبيهم عن المنكر، بأي وسيلة ممكنة.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وهكذا أمرهم بتقوى الله، وترك العادة السيئة، بعد أن أوضح لهم الطريق السوي لإشباع الشهوة الجنسية، وطالبهم لوط برعاية الشرف ﴿وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي﴾، فإن

لم يكن لكم دين فلا أقل من التمسك بالعرف الذي ينكر طبيعيا اغتصاب الضيوف ﴿الْيَسَّ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾.

[٧٩] وكان جواب قومه بالغيا في الميوعة والرعونة: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ﴾ أي فيما يتصل بقضية البنات، لابد أن نتزوجهن والزواج حق نعمل به ونمشي على هداه، أما الآن فنحن نريد تلك اللذة التي لا توجب علينا تكاليف ومسؤوليات ﴿وَأِنَّكَ لَلْعَلُّ مَا نُرِيدُ﴾.

ربما كان قوم لوط قد استصعبوا قوانين الزواج على أنفسهم واستكثروا من أعبائها المالية، مما دفعهم إلى إشباع الغريزة بالشذوذ، وربما كان لوط يدعوهم إلى التخفيف من قيود الزواج مما قد يدل عليه قوله ﷺ: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ وقولهم: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ﴾.

[٨٠] وقطع لوط أمله منهم، واستبد به اليأس من كل شيء، وقال بكلمات تتفجر أسى ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ تمنى لو كانت لديه قوة قادرة على مواجهتهم، أو كانت لديه عشيرة تمنعه منهم.

اليس الصبح بقريب

[٨١] هكذا اشتدت الأزمة وضافت عليه المشكلة، وعندها ترجى رحمة الله، وهكذا أظهر الضيوف الذين حاول الجاهليون الاعتداء الخلفي عليهم، أظهروا واقعهم وبينوا أنهم ملائكة الله ﴿قَالُوا بَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾.

وجاءت الأوامر متلاحقة صارمة:

الف: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ بعد أن يسدل الليل ستاره ويذهب ردى منه وتمهجم العيون، وتآوي النفوس إلى مضاجعها.

باء: ﴿وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهُمَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ لا ينظر إلى ما وراءه ليعرف كيف سيكون حال قومه، بل يبقى منفصلا عنهم نفسيا لكي لا يشاركهم العذاب، ولذلك أصاب امرأة لوط ما أصابهم من العذاب بسبب اتئانها النفسي والقلبي إليهم.

ثم جاء الأمر الإلهي الصارم على لسان الملائكة ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

[٨٢] ماذا صنع الله بقوم لوط؟.

لم يفعل بهم إلا ما فعلوه بأنفسهم. أنهم غيروا سنن الله، وحولوها عن وضعها العادي فإذا بهم يأتون الرجال شهوة من دون النساء، فقلب الله مدينتهم على رؤوسهم تنكيلاً ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ وأنهم لم يقبلوا وصايا الله، ومواعظ الأنبياء التي تستمطر الرحمة، فإذا بهم يتعرضون لعذاب الله الشديد يمطر عليهم من السماء بدل البركات ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُورٍ﴾ ربما يكون معناه الحمم المتلاحقة وكأنها منضودة بها يشبه حجارة البراكين المتفجرة، والله أعلم.

[٨٣] وقد قدر الله تلك الحجارة لمثل هذه الطائفة المنحرفة، وكأنها قد وضعت عليها علائم خاصة تقول هذه هؤلاء ﴿مُسَوَّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

بينات من الآيات:

لا لنقص المكيال والميزان

[٨٤] في طرف الجزيرة العربية كانت مساكن مدين تلك القبيلة التي وسع عليها الله الرزق فبطروا، وأخذ بعضهم يظلم بعضا، ويحاول البعض الإنقاص من البعض، وأن يفسد ما في الأرض.

فجاء شعيب رسولا من قبل الله إليهم وأمرهم بعبادة الله، وتنفيذ تعاليم السماء، ونهاهم عن عبادة ذواتهم، أو عبادة الثروة الزائلة، كما نهاهم عن الإنقاص في المكيال والميزان لأنه نوع من الظلم والعلاقة الفاسدة بين أبناء البشر والتي سوف تؤدي إلى زوال الخير، وحذرهم من يوم يحيط بهم عذابه فلن يجدوا مفرًا منه.

﴿وإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ربا كانت مدين كغيرها من الشعوب الجاهلية، تدعي الإيمان بالله ظاهرا، ولكنهم لا يطبقون واقعا رسالة الله، فلذلك أمرهم شعيب بعبادة الله وتحكيم سيادته التشريعية على واقعهم الاجتماعي، دون أن يكتفوا بترداد اسمه سبحانه، بينما يتخذون آلهة أخرى للعبادة، كالكهنة والطفافة والأشراف وأصحاب المال.

﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي إني أجد حياتكم المادية مرفهة، ولكن هذه الحياة قد تزول في أية لحظة بسبب الظلم الاجتماعي الذي تمارسونه ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحْشَرُونَ﴾.

عوامل الانهيار

[٨٥] وأمرهم شعيب بأن يوقفوا رحلة الانهيار التي بدأت في حضارتهم المزدهرة عبر ثلاث ثغرات هامة وجدت فيهم وهي:

أولاً: الاستهانة بالمقاييس الاقتصادية التي كانت موضع ثقة الجميع كالمكيال والميزان فإذا بخسوا فيها فإن النظام الاجتماعي ذاته يصبح مهدداً بالزوال. إذ إن النظام يقوم على أساس الثقة والتوافق الاجتماعي عليه، ولا ثقة ولا توافق مع الاحتيال على المقاييس والقيم التي يجب أن تكون ثابتة ومعتمد عليها.

ثانياً: تبديل العلاقة الاجتماعية السابقة التي كانت تعتمد على احترام حقوق الآخرين، والتنافس البناء من أجل الحصول على خيرات الأرض بتعاون الجميع وثقتهم ببعضهم، ولكنهم بدلوا ذلك بعلاقة الصراع ومحاوله كل فرد أو كل جهة أو جماعة السطو على حقوق الآخرين، مما يهدد محور المجتمع، وأساس المدنية.

ثالثاً: تبديل علاقة الإنسان بالطبيعة من علاقة الإصلاح والتعمير والبناء، والانتفاع المعقول إلى علاقة الإفساد والهدم، والإسراف في الانتفاع أو الشذوذ فيه.

هكذا جاءت رسالة الله لأهل مدين على يد شعيب في لحظة التحول. حيث كانوا أخرج شيء إلى الهداية. فقال لهم شعيب **عَلَيْكُمْ السَّلَامُ**: ﴿وَيَقُومُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي احترموا المكيال والميزان، وليكن كيلكم ووزنكم بالعدل التام ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ سواء كانت مادية أو معنوية، وليكن همكم أداء حقوق الآخرين واحترامهم، والاعتراف بمنزلتهم وكرامتهم دون أي نقص في ذلك، ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

توجيه المستقبل

[٨٦] وأضاف شعيب **عَلَيْكُمْ السَّلَامُ** في توجيهه لقومه الجاهلين توجيهها هاما يعتبر ضمانا لاستمرار الحضارة وحفظها من أسباب التدهور والزوال، وهو التسامي عن جاذبية المادة، والتحليق في سماء الإيمان، والاعتقاد العملي بالمستقبل، وبالتالي التسلح برؤية بعيدة فقال: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

ما هي بقية الله؟ إنه رضوانه وثوابه.

والسؤال هو: كيف يمكن لقوم مثل قوم شعيب الحصول على الباقيات الصالحات؟ إلا بترك الموبقات التي ذكرت في الآية السابقة، ثم العمل في سبيل الله بإطعام المساكين، وأداء حقوق الفقراء، وبناء المساجد والمرابط، والإنفاق من أجل بناء السدود والقنوات والطرق و... وكلها هو في سبيل الله. أليس كذلك؟!.

والعمل بكل ذلك يوجب استمرار الحضارة في الازدهار للمستقبل، وعدم الإسراف في استهلاك المكاسب الآن، وكل حضارة تقوم بالازدهار في بداية تكونها ولكنها تتوقف عن الازدهار، ثم تبالغ في الاستهلاك أنها تنتهي وتزول، أما إذا استمرت الحضارة في العمل للمستقبل، وفي إيجاد علاقة إيجابية وبناءة مع الناس ومع الطبيعة، فإنها سوف تبقى وتستمر، لذلك اعتبرنا هذا الأمر الإلهي الذي أظهره شعيب ضمانا لاستمرار الحضارة. وتشير بعض

الآيات القرآنية الأخرى إلى هذه الحقيقة مثل قوله سبحانه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ثم قال شعيب: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي لا تقفروا: بأن القائد قادر على منع العذاب عنكم من دون أن تفعلوا شيئا صالحا، أو تغيروا ما بأنفسكم، بل عليكم أنتم المسؤولية أولاً وأخيراً، وربما أشارت الآية إلى حالة حضارية اعترت قوم شعيب كذلك التي تعري الشعوب المتخلفة فيلقون كل المسؤولية على قياداتهم.

[٨٧] ولكن قوم شعيب ظلوا على وضعهم الفاسد وعيروا شعيبا ﴿قَالُوا يَسْخَبُ أَصْلَوْثُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ وكان عبادة الأصنام تحولت عندهم إلى دين مقدس لأنه من عمل الآباء، ولا يجوز أن يعارضها شخص مؤمن كشعيب، وكما عادة الأصنام كذلك سائر الأنظمة كالملكية الفردية المطلقة ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ ونكسب المال بطريقة مشروعة أو غير مشروعة، سواء نظلم الناس أو بالبخس عنهم، وأن نصرف المال في أي وجه نشاء صلاحاً كان أم فساداً.

﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْعَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ ولست بشاب طائش يخالف تقاليد الآباء أو يعترف بحقوق أصحاب المال ومزاياهم، ويبدو من حديث قوم شعيب أنهم قد ضلوا ضلالاً بعيداً حتى رأوا المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، وأصبح الفساد ديناً مقدساً عندهم وليس فقط سلوكاً شاذاً، لذلك لم تنفعهم نصيحة شعيب ﷺ.

شعيب عليه السلام: لا يجرمنكم شقاقي

﴿ قَالَ يَنْقُورُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ الْفَكْمَ إِلَىٰ مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ٨٨ ﴾ وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ٨٩ ﴾ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَابِعُوا إِلَيْنَا إِنْ رَبِّي رَجِمَهُ وَدُودٌ ٩٠ ﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ ٩١ كَثِيرًا مِّمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْمُكَ ٩٢ لَرَجِمْنَاكَ ٩٣ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ٩٤ ﴾ قَالَ يَنْقُورُ أَرَهَطِي أَعِزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَتَّخِذُكُمْ وَرَاءَ ظَهْرِي ٩٥ ﴾ إِنْ رَبِّي يَمَآ تَعْمَلُونَ مُخِيطٌ ٩٦ وَيَنْقُورُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوِّفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا ٩٧ ﴾ إِنِّي مَعََكُمْ رَقِيبٌ ٩٨ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَنِيحًا ٩٩ ﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا بَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعْدَتْ لُحُودُ ١٠٠ ﴾

(١) نفقه: الفقه في اللغة هو: فهم الكلام على ما تضمنته من المعنى.

(٢) رهطك: الرهط عشيرة الرجل وقومه.

(٣) لرجمناك: الرجم الرمي بالحجارة.

(٤) ظهرياً: الظهري جعل الشيء وراء الظهر حتى ينسأه، ويقال لكل من لا يعبا بأمر قد جعل فلان هذا الأمر بظهره.

(٥) وارتنوا: وانتظروا.

هدى من الآيات:

لقد انتهى الدرس السابق في الوقت الذي كان قوم شعيب يجادلونه في خرافاتهم واصنامهم، أما شعيب فهو لا يزال يقاوم ضلالتهم ويحتج عليهم.

أولاً: بأنه قد هداه الله، وجعله على بينة واضحة.

ثانياً: إن حياته الشخصية على خير وجه.

ثالثاً: إنه أول من يتبع مناهج ربه التي يأمرهم بها.

رابعاً: إن هدفه هو إصلاح الوضع الفاسد بكل ما أوتي من مقدرة.

خامساً: إنه لا يهجم الفشل، كما لا يستبد به اليأس لأنه يرى أن توفيقه من الله، وأن عليه سبحانه لا على نفسه أو على الناس توكله واعتماده ومعاده، وحذرهم من أن عنادهم ضده وتحديهم له قد يوقعهم في ذات المهلكة التي وقعت فيها الشعوب الضالة سابقا، مثل قوم نوح وقوم صالح وقوم لوط القريبين منهم زمانا أو مكانا أو كلاهما.

ثم أمرهم شعيب مرة أخرى بالاستغفار والتوبة إلى الله فإنه رحيم ودود، ولكنهم حين لم يجدوا جوابا قالوا له: لا نفهم كثيرا مما تقول، وإن مقياسنا في تقييم كلامك ليس ذات الكلام بل ذات الشخص المتحدث، وإنا لنراك ضعيفا فينا، ولولا وجود أصحاب لك وعشيرة. إذن لرجناك، فقال لهم: هل إن عشيرتي أعز عندكم من الله خالقكم وخالقي المحيط بكم، والذي تركتم مناهجه.

ثم تحداهم وقال لهم: اعملوا ما شئتم أما أنا سأعمل وسوف تعلمون من يأتيه عذاب الحزني، وهل أنا كاذب أم أنتم، وانتظروا إني معكم رقيب وشاهد، وجاء أمر الله فأنجى الله شعيبا والمؤمنين معه برحمة منه بينما أخذتهم الصيحة فأصبحوا جاثمين في ديارهم كما لو لم يقيموا هناك، فأبعدهم الله ولعنهم كما أبعد ثمود من قبلهم.

بينات من الآيات:

شخصية الرسول

[٨٨] يظل الأسلوب الرسالي، هو ذلك الأسلوب الذي ينير القلوب، ويتحدث إلى الوجدان بعد أن يرفع عنه الصدا، ويكشف عنه الحجب، وهكذا فعل شعيب حيث بدأ من

نفسه ووضع أمام قومه واقعا جديدا هو سلوكه: ﴿قَالَ يَنْقُورِ أَرَأَيْتَ إِذْ كُنْتُ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ رَيْبٍ﴾.

ماذا لو أكشف سلامة رؤيتي، وصواب طريقي، وإنني على بينة واضحة أعطها الله لي؟ أفلا يكون من الخطأ عدم التفكير في ذلك أساسا ورده رأسا؟!

﴿وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ فأخلاقه الفاضلة، وسلوكه الحسن، وإرادته الصلبة، وصحته الجسدية، وتكامله المعنوي بالإضافة إلى رسالات الله التي لا يشك أحد في أنها نعمة كبرى. كل أولئك شواهد على أن سبيله مستقيم.

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾ فانا أول من يطبق الرسالة كدليل على صدقي، وقناعتي بها، وعدم تكلفي فيها.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ فبالرغم من اختلاف الناس في مفهوم الصلاح والفساد في بعض الأبعاد التفصيلية، فإن أكثر الناس يعلمون أن تقريب القلوب، وتأليف التقوى، والوفاء بالمكيال والميزان، والإهتمام بالمحرومين والمستضعفين، كل ذلك صلاح، وأن الرسول يقوم شخصا بفعل الصلاح، ويضرب بذلك مثلا على حقيقة رسالته.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إن نسبة نجاح خطط الرسل تفوق كل النسب، مما يكشف عن عامل غيبي غير معروف للنجاح، وهو توفيق الله وسلامة الرؤية الرسالية، وهذا بدوره دليل على صدق الرسالة، كما أن وضع الخطط التي تعتمد على الغيب وتأخذ الغيب كعامل هام في معادلة الخطة، دليل آخر على صدق الرسالة وهذا هو التوكل، والرسول رجل غيبي ليس في تصرفاته وإنما أيضا في إنابته إلى الله، وضراعه الدائمة، وصلاته الكثيرة، ورشده وحلمه، وكان شعيب عليه السلام من أكثر الأنبياء إنابة إلى الله حتى قالوا: إن كريمته قد ابيضت من كثرة البكاء خشية من الله، وشكرا له.

إرهاصات العذاب

[٨٩] وحذر شعيب قومه من العناد، ومخالفة الرسالة لمجرد تحدي شعيب، وحاول أن يفهمهم بضرورة التفريق بين الفكرة وبين قائلها، فلو كانت سلوكيات الداعية أو أساليبه الإعلامية تثير فيهم الغضب، فلا يجوز أن يظلموا أنفسهم بمخالفة الفكرة الصحيحة، لأن ذلك سوف يسبب لهم متاعب كبيرة.

﴿وَيَقُولُ لَا يُجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أي لا تدعوكم مخالفتي إلى التورط في المشكلة ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾

[٩٠] ثم أمرهم شعيب بإصلاح أنفسهم والاستغفار من ذنوبهم لكي لا تكون الذنوب السابقة سببا لمعاداة الرسالة، ومخالفة أوامر الله ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ إذ قد يسبب تعود البشر على الأفعال القبيحة، وظنه بأن الله قد تركه، وبالتالي يأسه من روح الله، قد يسبب استرساله في الكفر تبريرا لأعماله الفاسدة، من هنا دعا شعيب قومه إلى مخالفة العادة، ورجاء رحمة الله.

[٩١] وجاء دور قوم شعيب يردون حجج شعيب فانظر ماذا قالوا؟ وكيف أنهم قد انطلقوا في رفض الرسالة. من قاعدة الجهل والعناد، والتمسك بالماديات، والغرور بما لديهم من قوة ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أي لولا عشيرتك لقتلناك شر قتلة ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

[٩٢] وسفه شعيب أولئك الأغبياء الذين يعاندون ربهم ويخشون رهط شعيب ﴿قَالَ يَقُولُ الرَّهْطُ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فأنى تعملون فلا تخرجون من إطار قدرة الله، وحدود مملكته سبحانه.

[٩٣] وجاءت مرحلة التحدي الفاصلة حيث نابذهم شعيب العداء، وأمرهم بأن يعملوا على حالهم. بينما يعمل هو بما أمره الله والكل ينتظر ما يحمله المستقبل من مفاجآت ﴿وَيَقُولُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِيبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ وهكذا جاء دور انتظار الفرج من قبل شعيب، بعد الجهاد وتوفير عوامل النصر الظاهرة، وانتظار الفرج يعتبر من أفضل الأعمال. ففي الحديث النبوي: «أَفْضَلُ أَعْمَالِ أُمَّتِي أَنْتِظَارُ الْفَرَجِ»^(١).

[٩٤] وكل آت قريب، فجاءت العاقبة تكشف الحقيقة المظلومة لتستقم من المعاندين ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيمِينَ﴾.

[٩٥] وكان أحدا لم يكن في هذه الديار ﴿كَانَ لَرِيعَتَا فِيهَا أَلَا بَعْدَ لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ شُعُودٌ﴾.

وما أمر فرعون برشيد

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ
 فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾
 يَقْدُمُ ﴿٩٨﴾ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَلْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٩﴾
 ﴿١٠٠﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ، لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَلْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿١٠١﴾
 ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَىٰ نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَابَهُمْ وَحَوِيدٌ ﴿١٠٢﴾
 وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي
 يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠٣﴾
 وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَىٰ وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ
 شَدِيدٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ
 لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٥﴾﴾

هدى من الآيات:

لقد أرسل الله موسى بآياته البينات ويسلطان مبین. الآيات كانت تلك القيم التي دعا إليها موسى، وتلك الحقائق التي ذكر بها، وتلك الفطرة المنسية التي استثارها في قلوبهم. وتلك المعرفة التي جهلوا، فأعادها إلى ذاكرتهم..

(١) يقدم. يقال قدمت القوم، إذا مشيت أمامهم واتبعوك.

(٢) الورد المورود: ورود الماء الذي يورد، وأصل الورد الإشراف على الدخول وليس بالدخول، أي: شس الماء الذي يردونه عطاشى لإحياء نفوسهم، تلك النار التي يردونها.

(٣) الرfid المرفود: العطاء المعطى لهم.

(٤) تتبیب: من تبیت يله أي خسرت.

وجاء موسى فرعون وملاه بسلطان مبین، إلا أن الملأ لم يتبعوا ذلك السلطان، بل اتبعوا أمر فرعون غير الكامل، وغير البالغ مستوى الرشد، لأنه يقود قومه إلى بشس المقام وهو النار كما أن اللعنة تلاحقهم، في الدنيا والآخرة، بشس العطاء، وبشست الضيافة والقرى.

هل ظلمهم الله؟ كلا.. إنما ظلموا أنفسهم حيث اتبعوا فرعون وسائر الآلهة من دون الله سبحانه، فلم تنصرهم الآلهة حين نزل عليهم عذاب الله، وكان أخذ الله شديدا وأليها.

فمن خاف عذاب الآخرة اعتبر بأبناء القرى، ومن لم يخف يوم القيامة حيث يجمع الناس وتشهده الملائكة فما عسى تنفعه الآيات والعبر؟.

بينات من الآيات:

[٩٦] الأنبياء ﷺ يأتون إلى الناس لكي يستأدوهم ميثاق فطرتهم، ويثيروا في أنفسهم دفائن العقول. ولا يحتاج الأنبياء إلى أن يأتوا إلى الناس بسلطان مبین، أي معجز خارق، ولكنه مع ذلك ترى أن رحمة ربنا سبحانه وتعالى، تأبى إلا أن تتم الحجة على العباد بصورة قاطعة، ولا يعذبهم إلا بعد أن تتم الحجة عليهم كاملة. ولذلك يقول ربنا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ذلك السلطان كان الثعبان الذي ابتلع حبال أولئك السحرة، مما دعا السحرة أصحاب الحبال، إلى أن يسجدوا لله رب العالمين، ويؤمنوا بإله موسى وهارون، كما كان السلطان أيضا اليد البيضاء التي كانت لموسى ﷺ معجزة خارقة.

ولكن فرعون الذي أرسل إليه موسى وإلى ملئه الذين أحاطوا به، رفض الرسالة.

[٩٧] ﴿إِنِّي فِرْعَوْنُ وَمَلَأْتُ بِنِيءٍ فَأَتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ اتبع أولئك القوم أمر فرعون الذي كان يعبد من دون الله ولم يكن أمر فرعون قائما على أساس العقل ولا على أساس التجربة، إنما كان قائما على أساس الهوى والشهوات. وكم يكون الإنسان ظالما لنفسه حين يتبع من لا يتبع إلا شهواته. فإذا كانت الشهوات هي مقياس الطاعة، فأولى بك أن تتبع شهواتك من أن تتبع أهواء الآخرين.

المقياس في الطاعة للغير هو أن يكون ذلك الغير أكمل عقلا، وأفضل تجربة. أما إذا كانت أوامره أوامر طائشة، قائمة على أساس الانعكاسات المرحلية الآتية، ولم تكن قائمة على خطة عقلانية إيمانية سليمة، فكيف يمكنك أن تطيعه.

يقول ربنا: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.

[٩٨] لماذا؟..

لأن فرعون لم يكن يرى الحياة إلا محدودة بإطار الدنيا، لم يكن يعلم شيئا عن الحياة الآخرة، لذلك فإن كل أفكاره، وكل قراراته كانت خاطئة. لأن فهمه الأساسي للحياة كان فيها خاطئا.

لذلك تراه يقود قومه الضالين إلى النار، ويئس ما يقودهم إليه ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيئسَ الْوَرْدَ الْمَوْرُودُ﴾.

[٩٩] أوردتهم في نار لا رحمة فيها ولا نعمة فيها ولا راحة فيها ولا نهاية لها. نار حرها شديد وقعرها بعيد ونورها ظلام والواردون فيها حطبها ووقودها.

بالإضافة إلى العذاب المادي المباشر الذي كان فرعون سببا له، عرض قومه إلى عذاب آخر هو عذاب السمعة المفقودة، واللعنة التي ظلت تلاحقهم إلى الأبد، وها هو القرآن نقرأه بعد آلاف السنين من هلاك فرعون وقومه، وهو يلعنهم. أفليس في ذلك عبرة..

﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ نَعْنَةً﴾ في الحياة الدنيا، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أيضا اللعنة تلاحقهم، بالإضافة إلى العذاب ﴿يئسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ تلك كانت الآثار المادية ﴿الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ هذه هي الآثار المعنوية ﴿الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ إذن ينبغي أن لا يطيع أحد أمر من لا يرشده بل يغويه ويضله.

[١٠٠] ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ هذه القرى التي لا تزال قائمة، سوف لا تبقى إن كانت ظالمة لنفسها. أما تلك القرى التي حصدت وانتهت، حصدت كما يحصد الحقل فلا يبقى منها شيء، تلك القرى ذهبت لتورثنا عبرتها.

عبرة القرى

[١٠١] عبرة القرى التي حصدت هي ما يقول تعالى في الآية التالية: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ عبرة تلك القرى أن ربنا سبحانه وتعالى، وفر الحياة الكريمة السعيدة لهم. وفر فرصة الهداية، وفي المنعطقات الخطيرة التي كانت تهددهم، أرسل ربنا إليهم المصلحين، وبذل هؤلاء المصلحون كل ما بوسعهم، فبشروا وأنذروا وحذروا وذكروا بالآيات وأثاروا فيهم دفائن العقول.. وكل ما كان بإمكانهم فعلوه إلا إجبارهم على الهداية، فلم يستجب أولئك لفرصة الهداية، فعاندوا وتحذوا واستكبروا وظلموا أنفسهم.

وأساس ظلمهم وانحرافهم هو أنهم اتبعوا الآلهة التي تُعبد من دون الله، وهذه الآلهة لم تغن عنهم في لحظة الحسم وساعة العذاب الشديد شيئاً..

﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَعَلَّاهُمْ آمُرُ رَبِّكَ﴾ أمر الله لم يكن مدفوعاً ولا مرفوعاً عنهم بسبب الآلهة. ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيْبٍ﴾ إنما زادت الآلهة العطين بلة والعذاب شدة.. هلاكاً وتباباً.

[١٠٢] ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وكانت عبرة القصة كلها تلخص في أمرين:

الأول: إن أخذ الله شديد في قوته، أليم في مدى تأثيره، ولا يجوز لنا أن نستهين بأوامر الله، ونستخف بعقابه.

[١٠٣] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾

الثاني: إن عذاب الدنيا على شدته وعظيم ألمه، دليل المؤمنين إلى عذاب الآخرة، الأشد والألم.

وإن المؤمن يهتدي بما في الدنيا من ألم إلى يوم الجزاء الأكبر حيث يجمع الناس، كلهم، ويشهده الناس والملائكة وعلينا أن نعيش بوعينا ذلك اليوم الرهيب لتتقيه أشد التقوى.

عاقبة البشر بين شقاء النار وسعادة الجنة

﴿ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ۚ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ
نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۚ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ
لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۚ ﴿١٠٦﴾ خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ
وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ
سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ
رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ ۚ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ ۚ ﴿١٠٩﴾ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ
مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُفَوِّدُهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ
مَنْقُوصٍ ۚ ﴿١١٠﴾ ۝

هدى من الآيات:

انتهى الدرس السابق بالتحذير من يوم القيامة المشهود، وتأكيداً لذلك يبين هذا الدرس بأن تأخير يوم القيامة ليس بلا حدود، بل هنالك أجل محدد ينتهي إليه التأخير، فنحن نقرب إليه على قطار الزمن، وحينئذ يظهر سلطان الله حيث لا تستطيع أي نفس أن تتحدث إلا بإذن الله، وينقسم الناس إلى سعداء وأشقياء، أما الأشقياء فهم بين الموت والحياة في النار لهم شهيق وزفير، بسبب سوء حالهم، ويبقون في النار ما دامت السماوات والأرض، إلا أن يشاء الله، أما السعداء فهم في الجنة خالدون ما بقيت السماوات والأرض إلا أن يشاء الله، وتلك الجنة عطاء لا ينقطع من قبل الله.

(١) زفير وشهيق: الزفير إخراج النفس من الصدر، وقيل: الزفير أول صوت الحمار والشهيق آخر صوته، والشهيق رد النفس إلى الصدر.

(٢) غير مجذوذ: غير مقطوع.

(٣) مرية: الشك.

بينات من الآيات:

فمنهم شقي وسعيد

[١٠٤] لماذا يؤخر الله العذاب؟ لأنه سبحانه قد حدد سلفاً أجلاً معدوداً، وأعطى بحكمته ورحمته فرصة الابتلاء للناس ضمن هذا الأجل، فمن آمن وأصلح عمله، نفعه عمله ولم ينش أجله. ومن قَصَرَ خسر فرصته التي لا تعود، ومتى ما استخرج المرء كل ما عنده من قابليات الخير أو الشر، بسبب تطور الزمان، فإنه ينتهي أجل إمتحانه، ولا بد أن يستعد لمغادرة قاعة الامتحان وهي الدنيا إلى حيث جزائه في الآخرة ﴿وَمَأْوِجُورَةٌ إِلَّا لِلْأَجَلِ مَعْدُورٌ﴾ أي لسبب وجود أجل معدود أخرجه الله للبشر في الدنيا.

[١٠٥] وإذا جاء ذلك اليوم الرهيب يعم الصمت المهيب ويقف الناس أمام ربهم ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذن الله مما يدل على إحاطة سلطان الله عليهم ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

وينقسم الناس على أنفسهم فريقين: شقي استنفذ فرص حسناته في الدنيا فلم يبق له حسنة هناك فتمحض في السيئات بأعماله السيئة فأصبح من أهل النار، وسعيد أخلص لله عمله حتى تمحض في الخير فأصبح من أهل الجنة ﴿فِيْنَهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

[١٠٦] أما جزاء الأشقياء فهم في نار لا يموتون فيها ولا يحيون، بل يكابدون ألوان العذاب، ولذلك تراهم يحرون الأهات الخفية حيناً بسبب ضعفهم، والعالية حيناً بسبب شدة الألم، فهم بين زفير وهو أول صوت الحمار، وشهيق وهو آخره ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنْفَذُونَ النَّارَ لُهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.

[١٠٧] ويبقى هؤلاء خالدين في النار ما دامت السماوات والأرض التي تحيط بالنار من فوق ومن تحت ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾.

والسؤال الذي وجهه المفسرون إلى أنفسهم هو: لماذا استثنى القرآن بمشيئة الله؟ وتعددت إجاباتهم حولها، وأعتقد أن الجواب الأقرب هو: أن الله يفي بوعدته الصادق ولكنه لا يحتم عليه شيء، بسبب ارتباط ذلك كله بمقام الربوبية، فالصلاة لأنها كانت لله فهي ذات ثواب عظيم، وكذلك ترك الصلاة أصبح عملاً قبيحاً ذا عقاب شديد بسبب ارتباطه بمقام الله العزيز المتعال. لذلك فهو الذي يحدد مداه وقدره، ومتى نهايته، وربما يشير إلى ذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَاعَلٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

[١٠٨] أما السعداء فهم في الجنة ما دامت الجنة موجودة بأرضها وسماؤها. ولكن مشيئة الله فوق كل ذلك، فلربما شاءت إرادته التي لا تحد أن يعطي للجنة استمرارا أكثر ليعطي للمؤمنين فرصة أكبر للبقاء ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ويشير إلى هذا المعنى الذي ذكرناه للمشيئة قوله سبحانه: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ﴾ أي أن عطاء ربك غير مقطوع.

ولعل ذلك إشارة إلى الخلود في الجنة ولكنه لا بمعنى تبدل ذاتي يحصل في الكون، فتتحول طبيعته من طبيعة فانية إلى طبيعة خالدة. كلا. بل بمعنى إن الله شاء أن تبقى الجنة خالدة (والله العالم).

[١٠٩] بسبب إصرار الكفار على باطلهم، وعنادهم في ضلالتهم قد يعتري المؤمن شك في سلامة خطهم، أو وجود نسبة من الحق إلى جانبهم. بيد أن ربنا ينهانا عن هذا الشك، ويأمرنا بعدم الريب في بطلان عبادتهم ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءُ﴾ فعبادتهم باطلة لا ريب في ذلك.

وأنهم يقلدون آباءهم الذين كانوا على ضلالة، وكما أن الله أعطى جزاء آبائهم بإنزال العذاب عليهم، فإنه سوف يعذبهم أيضاً ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ﴾ نصيبهم غير منقوص.

فاستقم كما امرت

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَشَكُّ مِنْهُ مُرِيبٌ ۚ وَإِنَّ
كُلًّا لَمَّا لِيُوقِنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلُهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَاسْتَقِمْ
كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾

هدى من الآيات:

انتهى الدرس السابق موضحاً إن المقياس هو الشفاء أو الفلاح في يوم البعث، أما هذا الدرس فقد جاء ليكرس الإيمان بالآخرة في واقع الدنيا، فهي الله الرسول من الشك في ضلالة هؤلاء فيها يعبدونه من آلهة، وأنهم ليسوا أفضل ممن سبق من المشركين، وأن الله سيوفيههم جزاءهم العادل دون نقصان.

ومثل هؤلاء إنما هو كمثل الذين اختلفوا في كتاب موسى فأعطاهم الله فرصة الإمتحان بكلمة سبقت منه سبحانه، ولولاها لفضي بينهم بتأييد الصادقين منهم ضد أعدائهم. وذلك بسبب شكهم المريب في صدق الكتاب الذي اختلفوا فيه.

إن هذه الفرصة ليست دائمة بل محدودة بيوم انتهاء فرصتهم ومهلتهم، حيث يعد عليهم الله أعمالهم وهو خبير بها.

وعليك أيها الرسول أن تستقيم كما أمرت، وعليكم أيها المؤمنون أن تستقيموا كما أمرتم، ولا تطغوا فالله بما تعملون بصير.

بينات من الآيات:

فاختلفوا فيه

[١١٠] لقد أنزل الله الكتاب ليختلفوا إليه، ويجعلوه قاضياً بينهم، فاختلفوا فيه، وحملوه

أهواءهم، والسبب أنهم لا يؤمنون حقاً بالكتاب بل بأهوائهم، ولولا أن الله جعل الدنيا دار ابتلاء وفتنة. إذن لأيد الفريق المؤمن بالكتاب وخذل المفسرين له بأهوائهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴿١١٠﴾ حَيْثُ قَضَىٰ بَتَاخِيرِ الْجَزَاءِ يَوْمَ الْبَعْثِ، أو ليوم انتهاء مهلة القاسقين ونصرة المؤمنين عليهم.

﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي بأسلوب آخر غير تنزيل الكتاب الذي لم ينفعهم، ولم يوحدهم على الهدى بسبب طغيانهم واتباع أهوائهم، والاختلاف في الكتاب دليل الشك فيه ﴿وَلِئَلَّيْكُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾.

[١١١] والله لا ينظر إلى التبريرات التي يقدمها البشر لأعماله الضالة، والتخريجات الدينية التي يتعبد نفسه في تركيبها على أهوائه، وبالتالي لا يعبأ بالتفسير الباطل للكتاب الذي يخدع نفسه به، إنما ينظر ربنا سبحانه إلى حقيقة أعماله، فيوفيه إياها وهو محيط علمها وبخلفيتها ﴿وَلِإِنْ كُنَّا لَنَافِقِينَ رَبَّنَا بِمَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا فِيهَا وَأَنْ نَكْبَهُمْ﴾ إن التأكيدات المتتالية في هذه الآية لدليل على أن البشر يخدع نفسه بالكتاب كما يخدعها بغيره، وأن الله سبحانه يذكره بأن خداعه سراب، وأن عمله هو الباقي وحده.

فاستقم كما أمرت

[١١٢] ولماذا يختلف الإنسان في الحياة أساساً؟

لأنه لا يرضى بحدوده وحقوقه، بل يطغى ويحاول أن يتجاوز حدوده، ويعتدي على حرمان الآخرين، وحين يطغى الفرد يحرف بطغيانه القيم الإلهية التي وضعت في طريقه، ويحاول أن يفسرها حسب أهوائه لكي يجعل قيم السماء جزءاً من معاملاته الفاسدة.

من هنا كان من الصعب جداً على الناس مقاومة ضغط الأهواء باتجاه تفسير الكتاب حسب أهوائهم، والاستقامة في خط الكتاب، وتكييف أنفسهم حسب مقاييسه، وجاءت كلمة القرآن حاسمة لتؤكد هذه الحقيقة.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ وبِعصمة الله، وبحسن التوكل عليه استقام الرسول، أما المؤمنون فإن معضلات الفتن ضغطت عليهم، وحرفت مسيرتهم، ولكنهم سرعان ما تابوا إلى الله فاستقاموا ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾.

أما سبب الانحراف وتفسير الكتاب حسب الأهواء، وبالتالي الاختلاف فيه فهو

الطغيان ﴿وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إن علينا أن نتبع هدى الله دون زيادة أو نقصان.. فإنه طغيان.

وجاء في الحديث عن ابن عباس: ما نزل على رسول الله آية كانت أشد عليه ولا أشق من هذه الآية، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: أسرع إليك الشيب يا رسول الله: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ»^(١).

(١) وسائل الشيعة: ج ٦ ص ١٧٢.

لكي نضمن الاستقامة

﴿وَلَا تَرْكَبُوا^(١) إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَسْخَبُوا لَهُمْ الشَّارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ^(٢)﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ^(٣) وَزُلْفَا^(٤) مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ^(٥) وَأَصِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ^(٦) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ^(٧) يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا^(٨) فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ^(٩) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ^(١٠)﴾.

هدى من الآيات:

تلك كانت قصص الظالمين من عاد وثمود واصحاب الأيكة و...، وتلك كانت نهايتهم الأليمة بينهما القرآن في الدروس السابقة، وفي هذا الدرس بالذات يبين لنا الموقف السليم، كما يبين العبرة من الدروس السابقة ومن نظائره والذي يتلخص في:

أولاً: حرمة مودة الظالمين وطاعتهم، وبالتالي منع الركون اليهم لكي لا يحترق الراكن اليهم بنارهم، فلا ينصره الله، ولا يكون منتصراً من قبل غير الله.

(١) ولا تركبوا: الركون إلى الشيء هو السكون إليه بالمحبة له، والإنصات إليه، ونقيضه النفور عنه.
(٢) طرفي النهار: صباحاً وعصراً، فإن صلاة الصبح في الطرف الأول وصلاة الظهرين في الطرف الآخر منه.

(٣) وزلفا: الزلف هي الساعات الأولى من الليل.

(٤) أولوا بقية: البقية ما بقي من الشيء بعد ذهابه.

(٥) أترفوا: أي تعودوا الترف بالنعيم واللذة.

ثانياً: الاستعانة بالصلاة والصبر وانتظار الفرج الموعود من الله.

ثالثاً: تشكيل جبهة من الصالحين الذين لم يفسدوا بالنظام المنحرف، والاعتماد عليها في مقاومة الفساد.

ويبين القرآن: إن ما يقود الظالمين في حياتهم هي النعم الوافرة التي أترفوا فيها، ويجرمون بحق الناس من أجلها، ويفسدون في الأرض غروراً بها، والله لا يهلك قرية صالحة - حاشا ربنا عن الظلم - إنما يهلكهم لفسادهم.

بينات من الآيات:

ولا تركنوا إلى الذين ظلموا

[١١٣] ليس الظالم وحده مجرم في المجتمع. بل الساكتون عنه أيضاً مجرمون، والمتعاونون معه شركاء في الظلم، والله سبحانه ينهانا عن الركون إلى الظالمين بالمودة القلبية، وتقديم المشورة الفكرية لهم، أو طاعتهم ودعمهم مادياً، لأن كل ذلك سوف يسبب في اشتراكنا معهم في الجريمة، وبالتالي نيل نصيبنا من العذاب الذي إذا جاء عم الجميع ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ والركون ضد النفور وهو السكون إلى شيء، والاعتماد عليه عن رضا. لذلك يجوز السكوت عن الظالم ظاهراً، تحيياً للفرصة المناسبة للإطاحة به.

﴿وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ إن المجتمع الذي يسكت عن الظلم، أو يسكن إلى من يمارس الظلم بحقه لا يجد ولياً ولا نصيراً لا في الأرض ولا في السماء، فلا الله ينصر هذا المجتمع الراضي بالظلم لأنه يأمره بالتمرد على الظالمين، ولا أولياء الله الذين ينتظرون تحرك المستضعفين ضد الظلمة حتى يتدخلوا إلى جانبهم. أما أن يحاربوا بديلاً عنهم فلا ولا كرامة.

واستعينوا بالصبر والصلاة

[١١٤] ولكي تقاوم إغراء السلطة والثروة اللتين يعتمدهما الظلم، وتقاوم ضغوطهما الشديدة، ولكي تبقى نفوسنا صامدة أمام التضليل، ونمتلك ثقة بقدرتنا على التحدي، بل وأيضاً لكي نستعيد ثقتنا بأنفسنا، ونكفر عن الذنب العظيم الذي ترتكبه عادة الجموع المستضعفة، وهو يأسهم من روح الله، وتأليهم للطغاة الظالمين، واعتقادهم بأنهم لا يقهرون، لكل ذلك لابد أن نستعين بالصبر والصلاة، كما قال ربنا سبحانه في سورة البقرة ﴿وَأَسْتَعِينُوا

بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ [البقرة: ٤٥].

ذلك لأن الصلاة تربط العبد بربه وتعطيه الطمأنينة وتحفظه عن السيئات.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ أي الصباح قبل طلوع الشمس، وبعد انبلاج الفجر الذي هو أول النهار، وأيضاً بعد الظهر حين يصلي المسلم صلاتي الظهر والعصر. ﴿وَزُلْفَاءِ مَنَ اللَّيْلِ﴾ أي بعد ان يمضي وقت من الليل، وهي صلاة المغرب والعشاء اللتين قال عنهما رسول الله ﷺ: «المغرب والعشاء زُلْفَتَا اللَّيْلِ»^(١).

وهكذا يبقى على المؤمن أن يصلي صلاته في الأوقات المحددة لها، كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الاسراء: ٧٨].

وهذه الصلوات تذهب بالسيئات، فإذا لم يركن قلبك إلى الظالم، ولا أعنته فإن صلاتك اليومية سوف تعيد إليك إيمانك المفقود وتذهب بالآثار السلبية الباقية في قلبك من تأييدك للظالم.

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ ولكن ليس كل صلاة تذهب بالسيئة، بل الصلاة التي تتخذ ذكرى ومادة لتطهير القلب من الغفلة. أما الصلاة التي أصبحت عادة، أو الصلاة رياء وسمعة فإنها لا تنفع شيئاً. لذلك قال ربنا: ﴿ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكَّارِينَ﴾.

وجاء في الحديث عن عليٍّ عليه السلام في معنى الآية قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَاءِ مَنَ اللَّيْلِ﴾ وَقَرَأَ الْآيَةَ كُلَّهَا.

وَقَالَ ﷺ: يَا عَلِيُّ وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَقُومُ إِلَى وُضُوئِهِ فَتَسَاقَطُ عَنْ جَوَارِحِهِ الذُّنُوبُ فَإِذَا اسْتَقْبَلَ اللَّهَ بِوَجْهِهِ وَقَلْبِهِ لَمْ يَنْفَتِلْ عَنْ صَلَاتِهِ وَعَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ شَيْءٌ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ فَإِنْ أَصَابَ شَيْئًا بَيْنَ الصَّلَاتَيْنِ كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ حَتَّى عَدَّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ.

ثُمَّ قَالَ ﷺ: يَا عَلِيُّ إِنَّمَا مَنْزِلَةُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ لِأُمْنِي كَنَهَرٍ جَارٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ فَمَا ظَنَّ أَحَدُكُمْ لَوْ كَانَ فِي جَسَدِهِ دَرَنٌ ثُمَّ اغْتَسَلَ فِي ذَلِكَ النَّهْرِ خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ أَكَانَ يَبْقَى فِي جَسَدِهِ دَرَنٌ فَكَذَلِكَ وَاللَّهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ لِأُمْنِي»^(٢).

(١) بحار الأنوار: ج ٧٩، ص ٣١٨.

(٢) بحار الأنوار: ج ٧٩، ص ٢٢٠.

[١١٥] وكما أن الصلاة تعطي قدرة على المقاومة، وحصانة كافية ضد التأثير بسلبيات النظام الفاسد، فكذلك الصبر وتحمل الصعاب. انتظارا للمستقبل حيث لا يضع الله أجر المحسنين، وهذا هو جوهر الصبر، حيث أن الثقة بأن العمل الصالح يستتبع الجزاء الحسن عاجلا أم آجلا تسلي النفس عن الشهوات وعلى الصعوبات ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

[١١٦] ومقاومة الفساد تهدف - فيما تهدف - إيجاد مجموعة من المؤمنين يكونون تيارا رافضا للفساد ﴿حَنِيفًا مَّسْلُومًا﴾ [آل عمران: ٦٧].

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لم تبق إلا مجموعة باقية لم تفسد من أبناء المجتمع. لأن عملهم كان هو النهي عن الفساد، ومقاومة الانحراف ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ لقد كانت هنالك فعلا مجموعة بسيطة من هؤلاء أنجاهم الله سبحانه، بينما أهلك الله الآخرين.

كيف فسد الظالمون؟

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ لقد اغتروا ابتلك النعمة التي وفرها الله لهم، حتى اتبعوا مسيرة تلك النعمة، وضيعوا أنفسهم، وتوحي هذه الآية بأن فساد الناس بالنعمة إنما يتم بسبب ظلم الناس لبعضهم البعض، وتعليقهم على حقوق الآخرين، كما أن نوع الفساد يرتبط بنوع النعمة المتوفرة لديهم، ففساد الثروة غير فساد القوة أو فساد العلم، والفساد يؤدي إلى الجريمة وهي الاعتداء الصارخ على حقوق الناس، والانتهاك العلني للقيم والحرمان.

[١١٧] وحين يعم الفساد يهلك الله القرى، ولكن إذا تحرك أولو بقية من أهل القرى في طريق الإصلاح، فإن الله سيرحمهم ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ أما إذا فسدت القرية إلا قليلاً عن عصمهم الله، فإن الله سوف ينقذ هؤلاء، ثم يهلك الآخرين، كما فعل بعاث وشمود.

وجاءك في هذه الحق

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾
إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا
نُثِّتُ بِهِ، فُؤَادَكَ ۖ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ
﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا
إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ
فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِفَعْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

هدى من الآيات:

في نهاية سورة هود يجيب القرآن الحكيم على هذا السؤال: لماذا الصراع؟ ألم يكن ربنا قادرا
على توحيد الناس؟ فيقول: بلى، ولكن الدنيا دار عمل وانتظار، وسيبقى الناس مختلفين - إلا
من رحم الله فهداه إلى صراط مستقيم - والتاريخ صورة لهذا الصراع الممتد، والله يقص علينا
من أنباء الرسل ليثبت بها قلب الرسول وقلوب المؤمنين، وليوضح الحق، وليلقي بالمواعظ،
وليذكر المؤمنين، فالله قد أعطى في دار الإبتلاء فرصة لكل الناس، ليعملوا، والمؤمنون بدورهم
يعملون، وليتتظر الجميع.

والله محيط علما وقدره بغيب السماوات والأرض وبها في مستقبل الأشياء وبحاضرها
أيضا، فعلى أن نعبد الله، وأن نتوكل عليه فالله ليس بغافل عما يعمله الناس، فعلمه وقدرته
محيطه بما يعملون.

(١) فؤادك: الفؤاد هو القلب.

وهكذا يُنهي القرآن سورة هود ببيان ضرورة التوكل على الله، وقد دارت أكثر آياته حول هذا المحور العام.

بيانات من الآيات:

سُنة الصراع

[١١٨] الصراع سنة الحياة التي يجب البحث أبداً عن سبل إنهائه، ولكن لا ينبغي السأم منه، أو الالتفاف حوله خشية مجابته، فهو كالموت المعلق يمكن تجنبه، كالتخلف والمريض، وكالفقر وككل المشاكل الحضارية للبشرية التي يجب السعي من أجل تخفيف وطأتها أنى استطعنا من دون السأم منها.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فلو شاء الله لخلق الناس مؤمنين منذ البدء كما خلقهم خلقاً سوياً، فجعل لهم عينين ولسانا وشفيتين، ولكنه اركز فيهم قوتين مختلفتين ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]. وكلفهم باقتحام العقبة بأنفسهم ﴿فَلَا أَفْنَحُمُ الْعُقَبَةَ﴾ [البلد: ١١].

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ دون أن يكون الاختلاف مطلوباً من الله، ولكن ضعف العقل الذي لم يقسم بين العباد أقل منه، وقوة الشهوات التي زينت لهم كل ذلك يكرسان الاختلاف فيهم.

[١١٩] ويبقى الناس مختلفين إلا الذين رحمهم الله بهداه فانتفعوا به، واعتصموا بحبله جميعاً، فألف بين قلوبهم بدينه ونوره، لو انفقنا ما في الأرض جميعاً ما ألفنا بين قلوبهم.

إذن فالوحدة هدف إنساني سام يسمى من أجله البشر، وهو في ذات الوقت غاية الخليفة، فالله لم يخلق الناس ليعذبهم بل ليرحمهم، ويجعل بعضهم أخوة بعض، ولكنه سبحانه حملهم مسؤولية تحقيق هذا الهدف التشريعي السامي بعد أن هيا لهم كل أسباب تحقيقه، من رسل وقادة وكتب وشرائع.

﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أما إذا استمروا في ضلالتهم، وخالفوا الشريعة فإن الله سوف يعذبهم عذاباً شديداً لأنهم لم يتحملوا مسؤوليتهم.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ إذن الصراع طبيعة أولية، والوحدة غاية تشريعية، والاختلاف واقع فاسد يجب إزالته، وإلا فالنار جزاء آت لا ريب فيه.

شهادة التاريخ

[١٢٠] والقصص التي تليت من صراع الحق والباطل عبر تاريخ الأنبياء وقومهم الضالين جاءت لتؤكد هذا الصراع، وتعطينا قدرة على احتمال صعوباته ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ وأنباء الرسل تؤكد أيضا على أن الرسالة حق، وأنها منتصرة فعلى البشر أن يعمل بها، وأن يستثير عقله بذكرها.

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي جاءك في هذه الأخبار من تاريخ الرسالات كلمات الحق ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

خلاصة السورة

[١٢١] والتاريخ بعيد نفسه. ذلك لأن سنن الله واحدة في الماضي والحاضر والمستقبل، ولذلك فإن الزمن يمر في صالح الرسالة ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي اعملوا على طريقتهن ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾.

[١٢٢] ﴿وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ فنحن واثقون من إن الحق منتصر، وأن صراع الحياة سوف يختم في صالحنا بإذن الله.

[١٢٣] وفي هذا الصراع الممتد عبر التاريخ يتزود الرساليون بالإيمان الصادق بالله، وبأنه محيط علما ومقدرة بها في غيب السماوات والأرض، وأن إليه مصير الأمور، فهو مالك سره وخبيثته، وهو مالك مصيره ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ﴾ من صفات الأمور وكبائرها، ومن وحي هذا الإيمان يأتي إخلاص العبودية والطاعة لله، وأيضا التوكل عليه والعمل من أجله ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِفَعْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

سُورَةُ يُوسُفَ

• مكية.

• عدد آياتها: ١١١.

• ترتبها النزولي: ٥٣.

• ترتبها في المصحف: ١٢.

• نزلت بعد سورة هود.

فضل السورة

قال النبي محمد ﷺ: «عَلِّمُوا أَرْقَاءَكُمْ سُورَةَ يُوسُفَ فَإِنَّهُ أَيُّهَا مُسْلِمٌ تَلَاهَا وَعَلَّمَهَا أَهْلَهُ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ هَوَّنَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ وَأَخْطَاءُ الْقُوَّةِ أَنْ لَا يَحْسُدَ مُسْلِمًا».

(مستدرک الوسائل: ج ٤ ص ٣٤٢)

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ يُوسُفَ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَوْ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجَمَالُهُ مِثْلُ جَمَالِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَا يُصِيبُهُ فَرْعُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَكَانَ مِنْ خِيَارِ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ».

(وسائل الشيعة: ج ٦ ص ٢٥١)

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لَا تُعَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ يُوسُفَ وَلَا تُقْرِءُوهُنَّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُنَّ فِيهَا الْفِتْنَةُ وَعَلِّمُوهُنَّ سُورَةَ النُّورِ فَإِنَّ فِيهَا الْمَوَاعِظَ».

(الكافي: ج ٥ ص ٥١٦)

الاطار العام

الحاكمية لله

تكاد قصة النبي يوسف عليه السلام نعم هذه السورة التي سميت باسمه، بحيث لا تدع مجالاً للسؤال عن سبب التسمية.

إن معاناة الرسل الشديدة في الحياة، وتحديهم للضغوط المختلفة، معراجهم إلى حمل رسالة الله إلى الأرض. وفي قصة النبي يوسف عليه السلام بيان تفصيلي لأنواع من المعاناة التي تخضت عنها شخصية النبي يوسف الرسالية، التي كانت في الأصل مختارة لهذا المنصب، وذلك بسبب خصاله الذاتية، ولكن بعد المعاناة التي كانت بمثابة التدريب العملي له.

إن الإنسان غافل عما في الرسالة من ذكر وبصائر، حتى ينزل الله استشارة للعقل، بهدف دفع الناس باتجاه التفكير والتعقل، ويستفيد القرآن من القصص التاريخية النافعة والجذابة في هذا المجال لتكون أقرب إلى مدارك البشر، فيذكّر بها من هو غافل عنها.

وبالتالي؛ فإن العبرة التاريخية ليست مما يفترى، لأنها إشارة إلى حقائق خارجية يمكن لكل إنسان التعرف عليها إن استخدم عقله أو شعوره، فأيات القرآن الكريم إشارات واضحة إلى ما في الكون من حقائق ملموسة (الآيات: ١-٣).

إن هذه السورة المباركة مليئة بالعبر التاريخية (التي نقرأها في تفاصيل القصة التي تتضمنها الآيات: من ٤ إلى ١٠٢) التي تكشف اللثام عن خبيثة النفس البشرية بما تمتلك من عقل وإرادة وعلم تجلت عند يوسف عليه السلام، أو من حسد وكبر وحيلة تجلت في إخوته، ومن شهوة عارمة وتسلط وظلم وبطر تجلت في امرأة العزيز وزوجها، وإن الله عليم بكل ذلك، وإنه هو الذي يصرف الأمور لصالح المؤمنين أخيراً، وهو الذي ينقذهم من الموبقات بعد أن أخلصوا أنفسهم لله، فاستخلصهم لنفسه.

إن النبي يوسف عليه السلام كان صديقاً أيقن قلبه أن جماله من الله، وهو الذي أعطاه القوة ومكنه في الأرض، وأن من كفر بأنعم الله لا يفلح، وبسبب إيمانه الصادق بهذه الحقائق، فقد أدركه في ساعة المحنة إيمانه، وبلورت المعاناة شخصيته التي عجنت بروح الإيمان والتقوى، فظهر له برهان ربه وحجته البالغة في لحظة الصراع الشديدة مع طبيعته ومجتمعه المتمثل في قوة ربة بيته أو محيط السجن أو إغراء الملك أو تعقيدات الإدارة الاقتصادية.

وهكذا المؤمنون يتذكرون ربهم كلما تعرضوا لتجربة صعبة، فيتركون المعصية ويتحدون المصاعب، بينما يغط غيرهم في غفلة وميوعة.

وتنتهي قصة النبي يوسف عليه السلام، وتبقى عبرتها المتمثلة في طبيعة البشر المعاندة للحق، فأكثرهم - رغم حرص الرسول وأصحاب الحق - ليسوا بمؤمنين، ويحسبون الدين خسارة، بينما هو ذكر، وتوجيه للعاملين إلى الحق الذي غفلوا عنه (الآيات: ١٠٣-١٠٤).

وكم هي الآيات المنتشرة في السماوات والأرض يمرون عليها دون أن ينتفعوا بها، بل هم معرضون عنها. إن إيمان أكثرهم مخلوط بالشرك، وبالتالي فهو ليس بإيمان. ولا يُدرى هل هم قد أخذوا صك الأمان من عذاب الله الذي يشملهم إذا جاء، ومن الساعة التي تأتيهم فجأة في الوقت الذي هم لا يشعرون (الآيات: ١٠٥-١٠٧).

ولكن الرسول يدعوهم إلى سبيل واضحة هي الدعوة إلى الله على بصيرة ورؤية واضحة له ولمن يتبعه، وهي بصيرة توحيد الله وتنزيهه عن أي نوع من أنواع الشرك (الآية: ١٠٨).

وهذه كانت رسالة الله من قبل، التي نزلت على رجال من أهل القرى، فلماذا لا يسيرون في الأرض ليروا ماذا كانت نهاية أولئك السابقين، وليعرفوا أن الدار الآخرة أفضل للمتقين، فلماذا لا يعقلون والحقيقة واضحة (الآية: ١٠٩).

وقد أرسل الله للناس رجالاً، فبلغوا رسالات الله، فلم يستجيبوا لهم، حتى إذا بلغوا درجة اليأس، وظنوا أنهم قد كذبوا فعلاً، جاء النصر الإلهي، فنجى ربنا من شاء، بينما لم يستطع أحد ردّ بأسه سبحانه عن المجرمين (الآية: ١١٠).

وإن هذه هي عبرة قصص السابقين التي لم يستوعبها سوى أولي الأبواب والعقول، وليس حديثاً يمكن أن يُفترى، إنما هو كلام حق يصدق الأحاديث السابقة، ويفصل كل شيء، ويهدي المؤمنين (الآية: ١١١).

أحسن القصص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّيُّنَاكَ مَا بِنْتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝﴾

بينات من الآيات:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كل شيء قائم بالله، وكل شخص حي بالله، وكل تقدم وتكامل يتحقق باسم الله، ويتنفيذ ببرامج الرسالة التي أوحى بها الله، وتكامل شخصية الرسل يكون باسم الله. ذلك لأنه لولا التوكل على الله لما استطاع الرسل التغلب على مشاكل الحياة..

الهدف من الكتاب

[١-٢] ﴿الرَّيُّنَاكَ مَا بِنْتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ لقد أنزل الله الكتاب الذي يبين أحكام الله، ومناهج الرسالة. (وآيات الكتاب هي هذه - الألف واللام والراء - التي ترمز إليها) أنزله الله ليقرأ على الناس، ويقرؤه الناس بلغتهم العربية، التي تعرب عما في ضمائرهم بوضوح، والهدف من الكتاب أن يكون مساعدا لعقل البشر، مثيرا لدفائته ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

[٣] والله يلقي الضوء على بعض الأحداث التاريخية، ويقصها علينا باعتبارها أحسن القصص، وأكثرها فائدة للناس، والوسيلة هي الوحي الذي لولاه لبقى البشر في ضلال بعيد، وغفلة شاملة ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أي القصص الحسنة، وبأسلوب حسن أيضا.

﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الرسول -لولا رسالة الله وهدايته- واحد من البشر، وهذا بالذات سر عظمة الرسل، لأنهم متصلون مباشرة بالله سبحانه، ولذلك يبقى الرسول غافلا حتى يأتيه الوحي، كما يبقى البشر غافلا، ناسيا لما عنده من مواهب معنوية ومادية حتى يهديه الله بالرسول.

رؤيا تبشر بالمستقبل

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَؤُ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ
عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾
وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ ^(١) رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكَ وَعَلَى مَالٍ يَكْفُوفٍ ﴿٦﴾ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ
إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴿٧﴾ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ ^(٢)
لِلْعَالَمِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَمَا مَنَا وَنَحْنُ
عُصْبَةٌ ^(٣) إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾ أَفَنُؤْلُوا مِنْهُ أَوْ اطْرَحُوهُ
أَرْضًا ^(٤) يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ^(٥) وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾
قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْنَلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ ^(٦) يُلْقِيهِ
بَعْضُ السَّيَّارَةِ ^(٧) إِنْ كُنْتُمْ فَعِلَالِينَ ﴿١٠﴾﴾

هدى من الآيات:

ما هي أحسن القصص التي تثير العقل، وترفع حجاب الغفلة والتي بشرت بها آيات

(١) يجتبيك: الاجتباء هو الاختيار والاصطفاء لمعالي الأمور.

(٢) آيات: عبر.

(٣) العصبية: الجماعة التي يتعصب بعضها لبعض ويعين بعضها بعضاً.

(٤) اطرحوه أرضاً: القوه في أرض بعيدة.

(٥) يخل لكم وجه أبيكم: تخلص لكم محبة الأب، وتملكون قلبه.

(٦) غيابت الجب: الجب هو البئر وغيابة الجب هو شبه طاق فوق ماء البئر.

(٧) السيارة: الجماعة المسافرين، سقوا بذلك لأنهم يسرون في البلاد، وقيل هم مارة الطريق.

الدرس السابق؟.

ها هي قصة يوسف واحدة من أحسن القصص، وهي أطول قصة قرآنية ذكرت جملة واحدة عن قص يوسف رؤياه على والده يعقوب عليه السلام كيف رأى في المنام أحد عشر كوكبا، والشمس والقمر يسجدون له جميعا، ففسره والده رأسا بأن الله سوف يصطفي يوسف من بين إخوته ليكون وارثا لرسالة الله التي أتاه الله من قبل إبراهيم وإسحاق عليهما السلام وليكون فاتحا لعهد جديد في حياة الأسرة بفضل نعم الله التامة عليه، وليكون عالما بعواقب الأمور وبالوحي، ولكم حذر يعقوب يوسف عليه السلام من نقل رؤياه لأخوته من قبل أن يفسرها له لأن الشيطان عدو مبين للإنسان، فيدفع إخوته ضده بخططه السوء.

إن حسد إخوة يوسف كان سابقاً لرؤياه. لذلك جلسوا يتآمرون ضد سلامته وقالوا: إن أبانا لفي ضلال مبين حيث يحب أخانا الأصغر يوسف، بينما يتركنا نحن الكبار المتحدين مع بعضنا، فلا بد إذن من التخلص من يوسف بقتله أو نفيه عن هذه الأرض ليخلوا لهم وجه أبيهم خالصاً دون منافسة يوسف، وحن قلب واحد منهم، ونصحهم ألا يقتلوه بل يرموا به إذا أرادوا به شراً في غيابت الجب لتلتقطه بعض القوافل السيارة في ذلك الطريق.

ببينات من الآيات:

الرؤيا بصيرة المستقبل

[٤] كان يوسف الثاني عشر من أبناء يعقوب (إسرائيل) وهو حفيد إبراهيم الخليل، وابن إسحاق، وكان بالرغم من صغر سنه الأكفأ بين أخوته، ولذلك اختاره الله ليكون وريث الرسالة إذ أن: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقام ذات صباح مسرعاً إلى أبيه يقص عليه خبر رؤياه العجيبة. وهو آنئذ غلام مراهق مضى من عمره اثني عشر ربيعاً.

ماذا رأى؟ رأى أحد عشر كوكبا كما رأى الشمس والقمر، ثم كانت دهشته كبيرة حين رآهم كأنهم يسجدون له ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

[٥] أول نصيحة قدمها يعقوب لابنه وقبل أن يفسر رؤياه هي التحذر من أخوته ألا يحسدوه ﴿قَالَ يَبْنِي لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي يدبروا لك سوءاً،

والسبب أن نوازع الشر موجودة لدى البشر، والشيطان يدغدغ هذه النوازع ليثيرها ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

ولأن يوسف الأخ الأصغر لأخوته، ولأنه من أم أخرى يقال أن اسمها (راهيل)، وكان يحن عليه أبوه لتعويضه عن الحنان الأمي المفقود فكان الجو مهيناً لتنامي الحسد فيهم. لذلك حذره، منهم يعقوب عليه السلام.

وجاء في حديث إن تظاهر يعقوب بحب يوسف كان السبب في إثارة أخوته عليه، بينما المفروض أن يخفي الأب شدة حبه لأحد أولاده عن أنظار الآخرين لكي لا يحسدوه، وربما كان السبب في تظاهر يعقوب في حبه لابنه يوسف إحترامه للخصال الكريمة التي كانت عنده، وذلك بهدف تشجيع الآخرين على التحلي بها.

على العموم كان يعقوب يعرف مدى حسد أخوة يوسف تجاه أخيهم النابه ويتحذر من إثارة الحسد.

[٦] ثم فسر يعقوب رؤيا يوسف، وبين أنها تدل:

أولاً: على أن الله سوف يصطفي يوسف، ويرزقه علماً بعواقب الأمور التي سماها بتأويل الأحاديث. أي معرفة ما يؤل إليه الأحاديث وكيفية جريانها.

ثانياً: إنه سوف يتم نعمته عليه بنصرته على أعدائه كما فعل بآبائه الصالحين ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

يعلم ما يخفيه الناس وما يظهرونه من نية وعمل. فيؤتيهم بصلاح نياتهم وأعمالهم. لذلك فهو قد اجتنب يوسف بحق، وبقيّة القصة تدل على ذلك.

[٧] لقد كان في قصص يوسف، وقصص أخوته الذين كادوا له في البدء ثم تابوا وأصلحوا كان للناس فيها آيات تهديهم إلى طبيعة الإنسان في كبوته أمام الشهوات، ثم تعرضه للآلام، وأخيراً توبته وإصلاح نفسه، ولكن هذه العبرة ليست لكل الناس بل للسائلين منهم الذين يبحثون عن الحقيقة لإحساسهم بمدى الحاجة إليها.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ﴾ فما هي تلك الآيات؟ سوف نجد نوعين من العبر التاريخية في قصة يوسف وأخوته:

الأولى: إن العاقبة للمتقين، وهذا النوع يتبين لنا في نهاية القصة فقط.

الثانية: آيات تكشف نفسية البشر، وطبيعة القوى المتناقضة في ذاته، وكيف يعين الله عباده في الأوقات الحرجة، وما أشبه من العبر التي تستوحى من اللحظات الحساسة في القصة. لذلك علينا أن نلاحظ في تدبرنا لقصة يوسف هذين النوعين من الآيات المفيدة للسائلين.

المؤامرة

[٨] جلس أخوة يوسف يتآمرون وقالوا: إن يوسف وأخاه من أمه أحب إلى قلب أبينا منا، بينما نحن أكثر عددا منهم، وينبغي أن نكون نحن الوارثين لأجساد أبينا، فأبونا إذا في ضلال مبين ﴿ إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ قال بعض المفسرين ما يلي: «أي في ذهاب عن طريق الصواب الذي هو التعديل بيننا في المحبة»، وقيل معناه: «إنه في خطأ من الرأي في أمور الأولاد والتدبير الدنيوي، ونحن أقوم بأمور مواشيه وأمواله وسائر أعماله، ولم يريدوا به الضلال عن الدين لأنهم لو أرادوا ذلك لكانوا كفارا، وذلك خلاف الإجماع»^(١).

ويبدو أن الضلال المقصود إنما هو الضلال عن الطريق القويم في معاملة أبنائه.

[٩] وإذا كان الأب في ضلال فلا بد أن يعارضوه ويقاطعوه، ولكنهم كادوا ليوسف -أخيهم البري- وتآمروا على أن يقتلوه، أو ينفوه في أرض بعيدة يموت فيها.

والسبب: أن منطلقهم الفكري كان (العنصرية) التي اوحى اليهم بأنهم ما داموا عصابة فهم أفضل من غيرهم، وهذا هو منطق القوة الذي يتكلم به كل الطغاة، وإذا كان أخوة يوسف يقيمون أنفسهم وفق المقاييس الرسالية لعرفوا بأن صفات يوسف الرسالية أحسن من صفاتهم، فهو أحق بقرب والدهم منهم لذلك قالوا: ﴿ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ طَرْحُوهُ أَرْضًا يَخِلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ إن إخوة يوسف حاولوا الجمع بين الدين والدنيا، بين الحق والباطل، فمن جهة أثارهم حسدهم ونظرتهم العنصرية إلى أنفسهم نحو قتل أخيهم البري، ومن جهة ثانية فكروا في أن يصبحوا صالحين في يوم من الأيام.

[١٠] وأدرك أحدهم حنان الأخوة: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ غيابة الجب شبه طاق فوق ماء البئر، ويقال: إن

(١) مجمع البيان: ج ٥ ص ٢٧٣.

قائل هذا القول هو (روبييل)^(١) من إخوة يوسف، ويقال: إنه كبيرهم^(٢) الذي رفض مواجهة أبيه عندما أُخِذَ أخاهم منهم عندما اتهمه يوسف بالسرقة خدعة، وهكذا انصرفوا عن قتل يوسف وأجمعوا على أن يجعلوه في إحدى الفجوات المحيطة بالبئر ليأخذه بعض المارة لقيطاً.

وهؤلاء إخوة يوسف الذين تأمروا عليه حُرِّموا النبوة، بالرغم من توبتهم أخيراً، وأنهم الأسباب الذين أنحدرت من نسلهم الأنبياء ذلك لأن النبوة لا تعطى لمثل هؤلاء الذين يقومون بمعاصي كبيرة في حياتهم، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

(١) بحار الأنوار: ج ١٢، ص ٢١٨.

(٢) وقيل: يهودا، وقيل لاوي. راجع: بحار الأنوار: ج ١٢، ص ٢٢٠.

مؤامرة الحاسدين

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا^(١١) عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ^(١٢) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعِ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ^(١٣) قَالَ إِنِّي لَخَشِئْتُ أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ^(١٤) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَافِرُونَ^(١٥) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ، وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْحَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَى لَيْسَ لَتُنِتْنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ^(١٦) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ^(١٧) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ^(١٨) وَجَاءُوا عَلَى قَبْرِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ^(١٩)﴾.

هدى من الآيات:

أحكموا الخطة، وجاؤوا إلى أبيهم ليلاً طالين منه أن يبعث معهم يوسف في الصباح ليمشوا وليعبوا، وتساءلوا لماذا لا يؤمنهم على يوسف؟ أو ليسوا أخوته وهم له ناصحون؟! فقال يعقوب إن غياب يوسف يشير حزني، كما يشير خوفي من الحاق ضرر به، كأن يأكله الذئب حين تغفلون عنه، ولكنهم أصرروا على طلبهم، وتعهدوا ألا يغفلوا عنه. كيف وهم جماعة؟! إن ذلك فقدان لعزهم وكرامتهم ولعصبيتهم، فلما ذهبوا به إلى الصحراء أجمعوا أمرهم على أن يجعلوه في طرف البئر من داخلها وجاءه الوحي يخبره بأنه سوف يتغلب عليهم ويذكرهم بهذا اليوم في الوقت الذي لا يشعرون.

(١) لا تأمنا: لا تثق بنا.

وتأخروا في العودة حتى جن الليل. وتصايحوا بالبكاء وادعوا لأبيهم أنهم راحوا يتسابقون وتركوا يوسف يحرس متاعهم، فلما عادوا وجدوا الذئب قد أكل أخاهم وجاؤوا بقميص يوسف عليه دم كذب، ولكن الدم كشف كذب أحدوئتهم، فقال يعقوب لهم كلا.. إن ذلك أمر سولته لكم شهواتكم فإنني أصبر صبرا لا جزع فيه، ولا خروج عن القيم، واستعين بربي في دفع المكاره..

بيانات من الآيات:

[١١] جاء اخوة يوسف إلى أبيهم وطرحوا عليه سؤالا محرجا ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنُصْخُونُ﴾.

يبدو أن يعقوب كان يخفي عنهم علمه بحسدهم ليوسف لكي لا يسبب ذلك إعطاء شرعية لهذا الحسد، ولكن كان يباشر أمور ابنه الصغير بنفسه، ولا يدعها عند إخوته ومن هنا كان السؤال محرجا إذ ادعى أخوة يوسف أن قلوبهم صافية تجاه أخيهم!

وعلى نبي الله الذي جاء رحمة لعباده ألا يقول لمن القى إليه السلام لست مسلما، لهذا رد عليهم يعقوب بلطف، ولم يقل أنه لا يثق بهم - وهو لم يكن يثق بهم فعلا -.

[١٢] ثم بعد أن هبوا الجو طالبوا أباهم بأن يثبت لهم عن حسن ظنه بهم، ويبحث بيوسف معهم في اليوم الثاني ليفرجوا عن همهم، ويتمشوا في الصحراء وليلبسوا ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ ثم أكدوا له أنهم سوف يتولون حراسته وحفظه ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

[١٣] فبرر يعقوب عليه السلام ابقاء يوسف عنده لأنه شيخ كبير، يستأنس بيوسف، ويحزن لغيابه عنه، كما قال: بأنه يخشى عليه من الذئب، وبين لهم أنه قد يحدث ذلك وهم عنه غافلون، فلا يمكنهم الوفاء بوعدهم لعدم قدرتهم على ذلك ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ جاء في الحديث^(١) إن إخوة يوسف لم يخططوا لأبعاد المؤامرة جميعا، بيد أن يعقوب عليه السلام أعطاهم بأقواله تبريرا لفعالهم، فعرفوا أن المنطقة يرتادها الذئاب، وأن بإمكانهم ادعاء الغفلة، مما يدل على ضرورة التحذر في الحديث مع الكاذب.

(١) عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ بَنِي يَعْقُوبَ لَمَّا سَأَلُوا أَبَاهُمْ يَعْقُوبَ أَنْ يَأْذَنَ لِيُوسُفَ فِي الْخُرُوجِ مَعَهُمْ قَالَ لَهُمْ إِنِّي أَخَافُ: «أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ» قَرَّبَ يَعْقُوبُ لَهُمُ الْعِلةَ اغْتَلَوْا بِهَا فِي يُوسُفَ عليه السلام. بحار الأنوار: ج ١٢، ص ٢٨٣.

[١٤] عادوا وأكدوا بشرفهم ويعصبتهم أنهم سوف يحافظون على يوسف، وقالوا كيف نسمع لأنفسنا أن يتلطح شرفنا بهذا العار، فلا نستطيع أن نحافظ على أخينا الصغير من الذنب إنها خسارة لسمعتنا الغالية ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَيْرُونَ﴾.

[١٥] فذهبوا بيوسف وأجمعت إرادتهم وعزائمهم على أمر واحد هو جعله في داخل البئر، دون أن يلقوه في مائها ليغرق، بل ليلتقطه بعض السيارة - كما أوصاهم أخوه روبيل -.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ﴾ هناك أدركته رحمة ربه حيث جاءه الوحي يبشره بأنه منصور، وأنه سيأتي يوم بعيد تكون الأيام قد أنست هؤلاء فعلتهم القبيحة، فيخبرهم يوسف بهذا الأمر الفضيع وهم لا يشعرون ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنْتَهِمَ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وبالرغم من أن محنة يوسف قد ابتدأت منذ تلك اللحظة إلا أن يد الغيب هرعت إليه لتكون بديلاً عن حماية إخوته الخائنين به، وهكذا تشتد الأمور لتتفرج بإذن الله، ويأتي بعد العسر يسر من فضل الله.

جاء في الحديث عن الامام الصادق عليه السلام قال: «لَمَّا طَرَحَ إِخْوَةُ يُوسُفَ يُوسُفَ فِي الْجُبِّ دَخَلَ عَلَيْهِ جَبْرِئِيلُ وَهُوَ فِي الْجُبِّ فَقَالَ: يَا غَلَامُ مَنْ طَرَحَكَ فِي هَذَا الْجُبِّ فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ إِخْوَتِي لَمَنْزَلَتِي مِنْ أَبِي حَسَدُونِي وَلِذَلِكَ فِي الْجُبِّ طَرَحُونِي قَالَ: فَتَحِبُّ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا. فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ: ذَاكَ إِلَى إِلَهٍ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، قَالَ: فَإِنَّ إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ يَقُولُ لَكَ: قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْحَنَّانُ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ أَمْرِي قَرَجاً وَخَرَجاً وَارْزُقْنِي مِنْ حَيْثُ أَخْتَسِبُ وَمِنْ حَيْثُ لَا أَخْتَسِبُ، فَدَعَا رَبَّهُ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْجُبِّ قَرَجاً وَمِنْ كَيْدِ الْمَرْأَةِ خَرَجاً وَأَعْطَاهُ مُلْكاً مِصْرَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُ»^(١).

[١٦] ولترك يوسف تحوطه يد الرحمة الإلهية، وتربيته في غيابات الحب، ويأتي أحد إخوته بطعام له، ولنعد إلى البيت حيث نجد يعقوب ينتظر بفارغ الصبر عودة ابنه الحبيب، ويتأخر إخوة يوسف أكثر من العادة، فلما أسدل الليل ستاره جاؤوا إلى أبيهم لعل ظلام الليل يغطي بكاءهم الكاذب ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾.

[١٧] وقبل أن يسألهم يعقوب عن يوسف الذي لم يجده بينهم بادروه بالكلام ﴿قَالُوا يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ ولكن بسبب كذبهم وعدم إيمانهم بما يقولون بدرت منهم كلمة أظهرت ما أخفوه فقالوا: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا

(١) تفسير القمي: ج ١ ص ٣٥٤، بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٢٤٧-٢٤٨.

وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١١﴾ ولو كانوا صادقين فعلا لكانت الشواهد الواقعية هي التي تكشف عن صدق حديثهم، ولم يكونوا بحاجة إلى هذا الكلام.

[١٨] وذبحوا ذبيحة لطحوا قميص يوسف بدمها، ناسين أن دم البشر يختلف عن دم الحيوان حتى بعد تخثره، والخير يميزه بسهولة، كما أنهم نسوا تمزيق قميص يوسف مما عرف أن العملية كذب باعتبار الذئب لا يخلع ثوب ضحيته ثم يأكله ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ﴿١٢﴾ وجاء في الحديث: «إِنَّ يَعْقُوبَ قَالَ حِينَ رَأَى الْقَمِيصَ: لَقَدْ أَكَلَتْ ذَنْبٌ رَحِيمٌ، أَكَلَ لَحْمَكَ وَلَمْ يَشُقْ قَمِيصَكَ»^(١).

وجاء في حديث آخر: «تَبَّ يَعْقُوبُ عَلَى أَنْ الذَّنْبَ لَوْ أَكَلَهُ لَمَزَّقَ قَمِيصَهُ، لِذَلِكَ لَمَّا ذَكَرَهُمْ بِذَلِكَ قَالُوا: بَلْ قَتَلَهُ اللَّصُوصُ، فَقَالَ: فَكَيْفَ قَتَلُوهُ وَتَرَكَوا قَمِيصَهُ وَهُمْ إِلَى قَمِيصِهِ أَخْرَجَ مِنْهُمْ إِلَى قَتْلِهِ»^(٢).

من هنا عرف يعقوب أن كيد إخوة يوسف قد أحاط به، فقال: ﴿فَصَبِّرْْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي أصبر صبراً جميلاً بالاستعانة بالله فيما أصابني من خيانة أبنائي بي وبأخيهم، وكذبهم علي وتأمرهم ضدي.

(١) مجمع البيان: ج ٥ ص ٢٨١.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٨٢.

يوسف يتحدى الفساد

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ^(١) فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَى
هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرَوْهُ^(٢) بِضْعَةٍ^(٣) وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ^(٤) وَشَرَوْهُ
بِمَنْحَرٍ بَخْسٍ^(٥) دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ^(٦)
وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي^(٧) مَثْوَاهُ^(٨) عَسَى أَنْ
يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ
مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ^(٩) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ رَاسَيْنَاهُ^(١٠) حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ^(١١) وَزَوَّجْنَاهُ^(١٢) آلَى هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ^(١٣)
الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ
لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ^(١٤)﴾.

هدى من الآيات:

وبقي يوسف في الحب حتى جاءت قافلة تسير في ذلك الطريق. فبعثوا واحدا منهم
يجلب لهم الماء، فأدلى دلوه في البئر، ولما ثقل الدلو بسبب تعلق يوسف به استبشر خيرا به، وزعم

(١) واردهم: الوارد الذي يتقدم الرفقة إلى الماء ليستقي.

(٢) وأسروه: أخفوه.

(٣) بضاعة: البضاعة المال الوافر يقتنى للتجارة.

(٤) بخس: البخس النقص من الحق، يقال بخسة في الكيل أو الوزن إذا نقصه من حقه فيهما.

(٥) الإكرام: إعطاء الشيء على جهة الإعظام.

(٦) مثواه: المثلوى موضع الإقامة.

(٧) وغلقت: التغليق إطباق الباب بما يعسر فتحه، وإنما عدّد ذلك لتكثير الإغلاق أو المبالغة في الإيثاق.

بأنه بضاعة حباها الله له ولكنه أسر بها لكي لا يكتشف أنه غلام حر والله عليم بعملهم.

ولكي لا يفتضح أمره بادر ببيعه بثمن بخس دراهم معدودة، وكان الجميع يحذرون من شرائه لعدم معرفة واقع أمره، وجاؤوا به إلى مصر حيث اشتراه عزيز مصر الذي قال لزوجته أكرمي مثوى هذا الغلام واحترمي، فلربما ينفعنا في حياتنا الاجتماعية، أو نتخذه ولدا في حياتنا الشخصية، وتلك كانت من إرهابات يوسف حيث مكنه الله في الأرض ابتداء من بيت ملك مصر بما أعطاه الله من علم بعواقب الأمور، بينما أكثر الناس لا يعلمون.

وبلغ يوسف مرحلة البلوغ، فأتاه الله النبوة والعلم بسبب إحسانه السابق، وحين بلغ مبلغ الرجال طلبت منه صاحبة البيت الفاحشة، وهيات وسائلها بخلق الأبواب، وتهيئة فرصة الفاحشة ولكنه أبى بشدة واستعاذ بالله من الشيطان، وقال بأن الله الذي رباني وأحسن مثواي لا أعصيه وأن الظالمين لا يفلحون.

بيانات من الآيات:

فأرسلوا واردهم

[١٩] كم بقي يوسف في الحب؟.

ثلاثة أيام أم أكثر، وماذا كان طعامه؟ هل كان يأتيه أحد إخوته بطعامه أم كان يكتفي بالماء، أم أن جبرائيل كان ينزل عليه الطعام لا ندري بالضبط! إنما المهم أن الله سبحانه هيا أسباب نجاة يوسف ونأديب إخوته، فجاءت قافلة سيارة ربما كانت تجارية، فأرسلوا واحدا منهم يرد الماء قبل الآخرين على عادة القوافل، خشية مفاجأة غير سارة، فلما أرسل دلوه في البئر تعلق به يوسف، فنظر فاذا هو بغيلام ما أجمله فاستبشر به خيرا ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ﴾ لقد كان يوسف في غاية الحسن حتى جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «أَعْطَىٰ يُوسُفُ شَطْرَ الْحُسْنِ وَالنَّصْفُ الْآخَرُ لِسَاتِرِ النَّاسِ»^(١).

ولم يبد الوارد للسيارة أنه قد التقطه من البئر لكي لا يجري عليه حكم اللقيط بل اتخذه بضاعة وكنتم الحقيقة عن رفاقه، بيد أن الله يعلم أن يوسف ليس عبدا، وهو يحافظ على حرية.. ﴿وَأَسْرُوهُ بِضَعَّةٍ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

[٢٠] باعوا يوسف بثمن قليل، دراهم معدودة لقلتها، وإنما يعد الشيء القليل، وزهدوا

فيه بالرغم من حسنه المفرط، وربما السبب محاولة التخلص منه مخافة أن يفضحهم، ويبين أنه ليس بعبد فيخسرون حتى هذا الثمن القليل ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾.

كانت ملامح العبد وصفاته النفسية تختلف عن ملامح يوسف الذي كان كما يقول الرسول فيما روي عنه: «الكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ»^(١). لذلك زهد فيه الناس تهيأ أو مهابة، ولكن لتنظر عاقبة هذا الغلام الذي ينبذه إخوته في البئر ويزهد فيه السيارة، كيف يصبح سيدا ورئيسا.

التمكين

[٢١] جاؤوا بيوسف إلى مصر حيث اشتراه سيد مصر ومليكهم ليكون مساعده في شؤونه، أو من ولده وولي عهده ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِأُمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أي اجعلي مكانته كريمة وسامية عندك، فلا تستخدميه كأبي عبد آخر، بل حاولي أن تربيته وتكلفيه الأعمال الهامة ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وهكذا أصبح الغلام الطريد الذي زهدوا فيه إبننا لعزیز مصر، وهكذا مكَّنه الله في الأرض ماديًا، أما معنويًا فسوف يُعلِّمه من تأويل الأحاديث حتى يعرف عواقب الأمور، وسنن الحياة وأنظمة الكون ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

يزعم الناس أن حوادث الزمان تجري على غير هدى، ولا يعلمون أن وراء ما يسمى بالصدف إرادة حكيمة، ووراء ما يسمى بالأنظمة والسنن الطبيعية تدبير رشيد من الله سبحانه، وهكذا يشاء تدبير الله ألا يقتل يوسف بل يوضع في غيابة الجب، وأن تكون أول قافلة تجارية تمر من هناك متجهة إلى مصر، كما يشاء تدبيره أن يزهد فيه القوم فيشتريه عزيز مصر.. وهكذا تتلاحق ما يسمى بالصدف، والاتفاقات حتى يصبح يوسف سيد مصر.

[٢٢] شب يوسف وبلغ سن الرشد، وأتاه الله النبوة والعلم بسبب إحسانه ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ يبدو لي أن بلوغ الأشد هو بلوغه سن الرشد.

﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ الحكم هي السلطة الإلهية التي تتجسد في النبوة، بينما العلم هو فقه الأحكام الشرعية وما يتصل بها من متغيرات الحياة.

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٢١٨.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فلان يوسف أحسن إلى الناس وتحمل الصعاب من أجلهم، فאלله بعثه رسولا إليهم لأن أهم صفة يحتاجها الرسول بعد الطهارة والصدق هي حب الناس، والإحسان إليهم.

[٢٣] طلبت امرأة العزيز من يوسف الفاحشة، وهيأت وسائلها بتزيين نفسها، وسد الأبواب، ودعته إلى نفسها صراحة ﴿وَرَوَدَتْهُ﴾ المراودة: المطالبة بأمر بالرفق واللين ليعمل به.

إن امرأة العزيز لم تكتف بإفساح المجال أمام يوسف كما هو شأن المرأة بالنسبة إلى الرجل، بل طالبت بأنواع الدلال والغنج والخضوع بالقول والزينة، واستخدمت في ذلك سلطتها عليه باعتبارها سيدة البيت الذي يعمل يوسف فيه، لذلك قال ربنا عنها: ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي طلبت منه أمرا صادرا عن نفس يوسف، وتعبير آخر: طلبت منه الانتفاع بنفس يوسف لا بخدمته كما كان المفروض في مثل حاله.

﴿وَعَلَّقَتْ الْآتُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي تعال فالفرصة مهيأة لك. ولكن يوسف رفض بشدة وبلا تردد ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ إن الله هو الذي أكرم على يوسف بالجمال والعافية، وهو الذي هبأ له المكانة في بيت العزيز وليس العزيز أو امرأته. لذلك لا ينبغي له أن يكفر بنعمة الله، ويفعل الفاحشة، كما إنه لا يفلح من يفعل الفاحشة؛ لأنه ظالم لنفسه، منحرف عن الرشد ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ فبالرغم من إغراء الفاحشة في الظاهر فإنها سيئة العاقبة.

إن التحرر من سلطة المالك ذي القوة كان عظيما عند يوسف بقدر التحرر من إغراء جمال زليخا ودعوته إلى نفسها بذلك الإصرار، ولكن الاستعاذة بالله وتذكر نعم الله الواسعة على الفرد، كما إن تذكر العاقبة يعطي القدرة على مقاومة كل إغراء وكل تهديد.

وهذا أفضل عبرة نستفيد منها من هذا الدرس.

مراحل التحدي

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْسُفَ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ
كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُخْلِصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ ﴿٢٥﴾ قَيْصَةُ، مِنْ دُبُرٍ ﴿٢٦﴾
وَأَلْفِيَا ﴿٢٧﴾ سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا
إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ
شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَيْصَةُ قَدْ مِنْ قُبُلٍ ﴿٢٩﴾ فَصَدَقَتْ وَهُوَ
مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِنْ كَانَ قَيْصَةُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنْ
الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَيْصَةُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَتْ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ
إِنْ كُنْتُمْ عَظِيمٌ ﴿٣٢﴾ يَوْسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ
إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٣٣﴾﴾

هدى من الآيات:

انتهى بنا السياق عند رفض يوسف طلب امرأة العزيز، ولكن لماذا رفض بعد أن هيأت له الظروف؟.

لأنه رأى برهان ربه فتذكر نعم الله عليه، وأنه لا يفلح الظالمون، ويد الله أنقذت يوسف من عواقب الزنا المادية والمعنوية لأنه كان قد اخلص لله نفسه، فأخلصه الله لنفسه، وأراد يوسف

(١) قدت: القذشق الشيء طولاً.

(٢) من دُبُر: من الخلف.

(٣) ألفيا. وجدا.

(٤) من قُبُل: من المقدمة.

الهرب وأرادت زليخا امرأة العزيز منعه، وتعلقت بقميص يوسف من الخلف فانشق القميص، وإذا بزوجها على الباب فافتعلت تهمة، وادعت أن يوسف أراد بها سوءاً، وطالبت به أن يسجنه أو يعذبه، وقال يوسف: إنها هي التي طلبت مني الفاحشة فرفضت، وجاءت الشهادة من داخل بيتها ومن أهلها إن شق القميص من الخلف فهي التي لحقت به وشقته، وإن كان من الأمام فإنه -أي يوسف- الذي حاول الاعتداء عليها، فشقت قميصه دفاعاً عن نفسها، فلما نظر العزيز وجد القميص مشقوقاً من الخلف وحكم عليها بالخيانة، وأمر يوسف بأن يبتعد عن سوء، وأمرها بأن تستغفر لذنبيها لأنها هي الخاطئة.

وهكذا أنقذ الله يوسف مرة أخرى من سوء، ولو كان يوسف فرضاً ضربها يدفعها عن نفسها ولم يبادر بالهرب، ودخل زوجها عليها فماذا كان ظن العزيز حينها، أو ليس القتل سيكون مصير يوسف ﷺ؟!

بينات من الآيات:

ما هي العصمة؟

[٢٤] هل الأنبياء ﷺ معصومون بذاتهم أم بإرادة الله وروح الإرادة؟.

لأن الأنبياء بشر حيث يقول سبحانه: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١]. ويقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]. فبطبعهم البشري توجد فيهم كل الميل الموجودة في أي بشر آخر، يذوق جسدهم ألم الجوع والإرهاق والضرب والعذاب، كما تتحسس قلوبهم بآلم الغربة ويضغط الشهوات، ولكن ما يميزهم عن سائر البشر أنهم موقنون ويعصمهم الله بروحه فإنهم يتجاوزون أنفسهم بسرعة، وآيات القرآن التي تعكس هذه المفارقة في حياة الأنبياء كثيرة، ولا يكاد نبي مذكور اسمه في الكتاب يخلو عن حالة صعبة اجتازها بتوفيق الله، ولولا التوفيق الإلهي، ولولا روح الإيمان لكان معرضاً لنفس الحالات التي يتعرض لها أي بشر آخر، ويوسف واحد من هؤلاء البشر الكرام، المعصومين بروح الله، فلأنه إنسان مكتمل الشخصية البشرية كإبراهيم بها، ولأنه موقن ومعصوم فقد رأى برهان ربه.

ومن هنا نعلم أن همَّ يوسف لم يتم عملياً بل كان همّاً بالقوة، فلولا برهان ربه المانع من همِّه بالمعصية لكان قد همَّ بها، والتعبير القرآني يبين بلطف عجيب هذه المفارقة في آية أخرى حيث يقول ربنا عن النبي محمد ﷺ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

وهنا يشير التعبير بدقة الى ذلك حيث يقول ربنا: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْنُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ فبرهان ربه الذي رآه يبصيرته منعه من إرادة المعصية.

وأساسا الهم: هو العزم على الفعل، كما قال ربنا ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [المائدة: ١١].

وربما يستخدم الهم في الأمر الذي يريده الإنسان ويجد أمامه مانعا منه، كما قال الشاعر:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني
تركت على عثمان تبكي حلائله

ومنه قوله تعالى ﴿إِذْ هَمَّتْ طَلِيفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا﴾ [آل عمران: ١٢٢].

ويبقى السؤال: ماذا رأى يوسف حتى تجاوز كل ميوله البشرية وامتنع عن ارتكاب الذنب، أو سلوك مسلك آخر غير الهرب مثل أن يضربها ليدفعها عن نفسه؟، وبتعبير آخر: ما هو برهان ربه؟.

أولاً: البرهان هو السلطان، ويراد به السبب المفيد لليقين لتسلطه على القلوب كالمعجزة، قال تعالى ﴿فَذَلِكَ بُرْهَانُكَ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [القصص: ٣٢].

وقال: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ [النساء: ١٧٤].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَرَاهِنٌ مِنْ رَبِّكُمْ أَنْ كُنْتُمْ مَكِيدِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

وهو: «الحجة اليقينية التي تجلي الحق ولا تدع ريبا لمرتاب»^(١) على حد تعبير تفسير الميزان.

وجاء في الرواية عن أبي الصلت الهروي قال: «لما جمع المؤمنون لعلي بن موسى الرضا أهل المقالات من أهل الإسلام و الديانات من اليهود و النصارى و المجوس و الصابئين و سائر أهل المقالات، فلم يبق أحد إلا و قد ألزم حجة كانه قد ألقي حجراً، فقام إليه علي بن محمد بن الجهم فقال له: يا بن رسول الله أتقول بعصمة الأنبياء؟ قال عليه السلام: بلى. قال: فما تعمل في قول الله عز و جل: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾، وقوله عز و جل: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذُهِبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، وقوله في يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْنُ وَهَمَّ بِهَا﴾، وقوله عز و جل في داود: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنْ مَافَتَنَّهُ﴾، وقوله في نبي محمد ﷺ: ﴿وَتَخَفَىٰ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ

مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ ﴿٢٤﴾

فَقَالَ مَوْلَانَا الرَّضَا عليه السلام: وَنَحْكَ يَا عَلِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَنْسُبْ إِلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ الْقَوَاحِشَ وَلَا تَتَأَوَّلْ كِتَابَ اللَّهِ بِرَأْيِكَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾.

أَمَّا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي آدَمَ عليه السلام: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ حُجَّةً فِي أَرْضِهِ وَخَلِيفَتَهُ فِي بِلَادِهِ لَمْ يَخْلُقْهُ لِلْجَنَّةِ، وَكَانَتْ الْمُعْصِيَةُ مِنْ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ لَا فِي الْأَرْضِ لِيَتِمَّ مَقَادِيرُ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَمَّا أَهْبَطَ إِلَى الْأَرْضِ وَجُعِلَ حُجَّةً وَخَلِيفَةً عُصِمَ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَمَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

وَأَمَّا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ إِنَّمَا ظَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُضَيِّقُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ إِلَّا تَسْمَعُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلُّهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ وَلَوْ ظَنَّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ لَكَانَ قَدْ كَفَرَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي يُوسُفَ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْثُ وَهَمَّ بِهَا﴾ فَإِنَّهَا هَمَّتْ بِالْمَعْصِيَةِ وَهَمَّ يُوسُفُ بِقَتْلِهَا إِنْ أَجْبَرَتْهُ لِعِظَمِ مَا دَاخَلَهُ، فَصَرَفَ اللَّهُ عَنْهُ قَتْلَهَا وَالْفَاحِشَةَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ بِغْنَى الْقَتْلِ «وَالْفَحْشَاءُ» بِغْنَى الزَّنا^(١).

ثَانِيًا: إِنْ يُوسُفَ عليه السلام، كَانَ صَدِيقًا أَبْقَى قَلْبَهُ إِنْ جَاهَلَ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ الَّذِي أَعْطَاهُ الْقُوَّةَ وَمَكَّنَهُ فِي الْأَرْضِ، وَأَنْ مِنْ كُفْرٍ بِأَنْعَمَ اللَّهُ لَا يَفْلَحُ، وَيَسَبِّبُ إِيمَانَهُ الصَّادِقَ بِهَذِهِ الْحَقَائِقِ أَدْرَكَ فِي سَاعَةِ الْمَحَنَةِ إِيمَانَهُ، وَبَلُورَتِ الْمَعَانَاةَ شَخْصِيَّتِهِ الَّتِي عَجَزَتْ بِرُوحِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، فَظَهَرَ لَهُ بَرَهَانُ رَبِّهِ وَحُجَّتُهُ الْبَالِغَةُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ الشَّدِيدَةِ مِنْ صِرَاعِهِ مَعَ طَبِيعَتِهِ وَمَعَ مَجْتَمَعِهِ الْمُمَثِّلِ فِي قُوَّةِ رَبِّهِ بَيْتَهُ، فَكَانَ كَمَنْ قَدْ رَأَى الْبَرَهَانَ وَاضِحًا أَمَامَهُ.

وَهَكَذَا الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ يَتَذَكَّرُونَ رَبَّهُمْ كُلَّمَا مَرَّ بِهِمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَتَعَرَّضُوا لِتَجْرِبَةِ صَعْبَةٍ فَيَتَرَكُونَ الْمَعْصِيَةَ، بَيْنَمَا يَغْطِ غَيْرُهُمْ فِي غَفْلَةٍ شَامِلَةٍ.

إِنَّ اللَّحْظَاتِ الصَّعْبَةَ فِي حَيَاةِ الْفَرْدِ تَسْتَخْرِجُ دِفَائِنَ نَفْسِهِ، وَخَبَايَا ذَاتِهِ، وَسَرَائِرَ عَزِيمَتِهِ، فَالْمُؤْمِنُ يَزْدَادُ إِيمَانًا، بَيْنَمَا غَيْرُهُ يَفْشَلُ فِي التَّجْرِبَةِ.

وَمِنْ هُنَا كَانَ عَلَى الْفَرْدِ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا صَالِحًا لِيَزْدَادَ إِيْمَانًا فَيَتَنَفَّعَ بِهِ فِي سَاعَاتِ صِرَاعِهِ الْحَاسِمِ مَعَ الشَّهَوَاتِ أَوْ ضُغُوطِ الْمَجْتَمَعِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ الْمَرْءَ إِلَّا ذَخَائِرُ إِيمَانِهِ.

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ وقد صرف الله عنه الفحشاء حيث أنه ﷺ لم يسعى لها بل العكس تماماً فاستعصم، ولأنه من عبادنا المخلصين كان ذلك الاعتناء الرباني ليصرف عنه السوء، وليس فقط الفاحشة التي استعصم منها. وقد جاء في الحديث: «إِنَّ بَرَّهَانَ رَبِّهِ كَانَتْ النُّبُوءَةُ»^(١)، كما جاء في حديث آخر: «إِنَّ زَلِيخًا قَامَتْ وَأَلْقَتْ ثَوْباً عَلَى صَنْمٍ كَانَ فِي الْبَيْتِ اسْتِعْدَاداً لِفِعْلِ الْفَحْشَاءِ، فَقَالَ يُوسُفُ هَا: إِنْ كُنْتِ تَسْتَحِينَ مِنَ الصَّنَمِ، فَأَنَا أَحَقُّ أَنْ أَسْتَحِيَ مِنَ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»^(٢).

المفاجأة

[٢٥] وتسابقا نحو الباب، وأخذت زليخا قميص يوسف تمنعه، واشتد يوسف فشق قميصه من خلفه، وعند الباب كانت المفاجأة حيث دخل العزيز وهو سيدها المفروض عليها طاعته كزوج، فاختلقت تهمة ونسبتها إليه ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَالْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي هل جزاء المعتدي على شرف أهلك غير السجن والتعذيب.

[٢٦] ورد يوسف التهمة بقوة ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ فهي التي طلبت مني الفاحشة فلم استجب، وكان هناك شخص ثالث من أهل المرأة عرف القصة وقضى بأنه لو كان شق القميص من خلف فهي المسؤولة لأنها التي أخذت قميصه من الخلف وإلا فهو المسؤول ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

[٢٧] ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي إنها هي الكاذبة وهو الصادق.

[٢٨] ونظر السيد فاذا القميص قد شق من خلف ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ أي ان الذي حدث إبتداء من النساء باعتبار أنهن ذوات كيد عظيم.

والكيد هو طلب الشيء بما يكرهه، كما طلبت المرأة يوسف بما يكرهه ويبدو أن في الآية إشارة إلى أن ابتداء الفاحشة من المرأة، إذ أنها فتنة للرجل، وعليها ألا تظهر فتنتها عليه.

[٢٩] ثم وجه العزيز خطابه إلى يوسف ﷺ وأمره بالسكوت والإعراض عن القضية

(١) بحار الأنوار: ج ١٢، ص ٣٣٥.

(٢) البرهان: ج ٢، ص ٤٢١.

وعدم فضح امرأته بما فعلت، واكتفى بدعوتها إلى الاستغفار لخطئها ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا^٤ وَأَسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

ويبدو من هذه الآيات ان الفاحشة كانت شائعة في ذلك البلد، وإنها لم تكن قبيحة إلى تلك الدرجة بسبب سلب الغيرة منهم، وإلا فكيف يسكت الزوج عما رآه من زوجته رأي العين من مراودة فتاها، بل يأمر الفتى بالإعراض عن الأمر وعدم مطالبتها بعقابها.

وكبرت دائرة التحدي

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لِمَنْ مَثُكًا وَهَانتَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيَّ فَلَمَّا رَأَتْهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فاستعصم وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ وَمَا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَلَا أَتَصْرِفُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصَبُ ﴿٣٣﴾ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْغَالِبِينَ ﴿٣٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾

هدى من الآيات:

كنا مع يوسف وقد افتضح أمر ربة بيته عند زوجها، وما نحن نجد قصة حبها ليوسف قد شاعت في المدينة، وصارت النساء يعاتبن امرأة العزيز على عشقها ليوسف لضلالها، وسمعت بالإشاعات، وبادرت بدعوتهم إلى مائدة، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً، وأمرت يوسف بالخروج عليهن، فأدهشن يوسف بجماله وجلاله، فأكبرته وقطعن أيديهن بالسكاكين، وابتعدن يوسف عن الفاحشة، وقلن بأنه ليس بشراً بل هو ملك كريم، وتدخلت في الحديث وأجابت عن عتابهن بقولها: إن ذلكن هو ما لمتني فيه، وإنني فعلاً قد راودته عن نفسه لجماله الخارق ولكنه استعصم وامتنع بالله عن الفاحشة، وليسجن لو لم يفعل وليهان، وعاد يوسف

(١) واعتدت: اعتدى مأخوذ من العتاد، ومثله اعتدت.

(٢) أصب: الصبارقة القلب.

يرد التهديد بأن السجن أحب إليه من الفاحشة، واعتصم بالله من كيدهن، وبذلك بيّن بوضوح أن البشر ضعيف أمام الفتن، وأنه لا يستطيع مقاومتها من دون عصمة الله ودفع الله عنه كيد الكائدين وهو السميع لدعاء عباده العليم بما يضرعون.

وهكذا اعتصم يوسف عن فتنة نساء أهل مصر في تلك الحقبة التي يبدو أنهم قد تعرضن فيها للفساد الخلقي.

بينات من الآيات:

في مهب الفساد

[٣٠] يبدو أن المجتمع المصري كان قد تعرض أنثذ لموجة فساد عريضة وجاءت قضية يوسف تفصح الحالة المتردية التي بلغها المجتمع، وكانت كالقشة التي قصمت ظهر بغير الفساد المثقل بالذنوب.

لقد كان حديث المجالس عندهم الفساد الخلقي. إذ انتشر نبأ مراودة امرأة العزيز ليوسف فتاها، والعامل في بيتها كالنار في الهشيم.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَنْهَاعَن نَفْسِهَا﴾ أي تطلب ممن يعمل عندها الفاحشة ليفجر بها.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي دخل حب يوسف شغاف قلبها، واستولى على فؤادها، وإذا كان المجتمع سليماً من الناحية الخلقية؛ إذن لم يرض بإشاعة الفاحشة، ونشر أنباء الفساد!؟

﴿إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

يبدو أن النسوة كن يرين ضلالة امرأة العزيز لا لأنها تفعل الفاحشة، بل بسبب هبوطها إلى مستوى فعل الفاحشة مع فتاها وهو من عنصر آخر غير عنصرهم.

[٣١] وعرفت امرأة ملك مصر أن النسوة يتآمرن ضدها، ويتخذن من قصة عشقها وسيلة للحط من شأنها، فأرادت أن تورطهن في حب يوسف لتنفذ نفسها من المشكلة، فأرسلت اليهن وهيات لهن مائدة، واعطت لكل واحدة منهن سكيناً، وأمرت يوسف بأن يدخل عليهن ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِئًا﴾ المكر لغة: هو التوصل بالحيلة إلى ما يراد، وإنما سميت الإشاعة التي بثتها النسوة حولها مكرًا لأنهن أردن شيئاً آخرًا من الإشاعة. ربما إسقاط هيبتها أو محاولة الوصول إلى يوسف، ومعرفة سبب ولها به.

أما المتكأ: فهو الوسادة وهي كناية عن المائدة أو لا أقل المجلس الطويل الذي يستراح إليه، وتدل الآية على وجود شيء يؤكل ويشرب قبل الأكل بالسكين ﴿وَأَنْتَ كُلِّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ أَخْرِجْ عَلَيْنَ﴾ وهكذا خرج يوسف على النسوة في وقت إنشغالهن عنه بالطعام.

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ أَكْبَرْتَهُ﴾ أي عظم يوسف أيما تعظيم، بجلاله وجماله ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فأخذن يجرحن أيديهن بسبب الانشغال بجمال يوسف ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾ أي أن يوسف منزله عما ينسب إليه، فلقد تحاشى يوسف الصديق الفاحشة وابتعد عنها تقرباً إلى الله وإخلاصاً له، فكساه نوراً وجلالة ومهابة؛ حتى قالت النسوة: إنه ليس ببشر ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

إذن فالتعير الذي تعرضت له امرأة العزيز بسبب مراودتها لفتاها حتى قالت عنها النسوة إنها في ضلال مبین، لم يكن في موقعه أبداً. إذ أنه أرفع من مستوى البشر، فكيف يُحسبُ فتى عاملاً في بيت العزيز - كما كانوا يزعمون -.

[٣٢] واستفادت امرأة العزيز من الوضع واجابت عن تعيرهن لها ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ إن هذا هو سبب تعيركن لي، فهل يُعَيَّرُ من يعشق مثل هذا الفتى ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي أنه طلب العصمة من الله حتى لا يفعل ما يؤمر به ﴿وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا أُمِرْتُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾.

وهنا أرادت زليخا أن تأخذ الشرعية من النسوة لفعلها، ويبدو أن النسوة قد أعطينها تلك الشرعية مما دل على مدى الفساد المنتشر في ذلك المجتمع الجاهلي، حيث أنه يسمح لامرأة تحب الفجور أن تسجن فتى بريئاً لمجرد طهارته واستعصامه بالله عن الفحشاء.

السجن أحب إلي

[٣٣] ويبدو أن النسوة اختلن بيوسف الواحدة تلو الأخرى بحجة السعي وراء إقناعه بقبول كلام سيده، ولكنهن عرضن ليوسف الفجور بهن، والشاهد هو قول يوسف الذي ضاق بهن ذرعاً، وتوسل بالله أن ينقذه من أيديهن ولو كان بالسجن ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾.

وبعد أن كانت المشكلة واحدة فقط أصبحت الآن متعددة، حيث أن الفساد الذي كان شائعاً في تلك البيئة قد أحاط بشخص يوسف عليه السلام، ولكن كانت تلك حكمة بالغة لله حيث أن تحدي يوسف عليه السلام وهو فتى اشترى للخدمة، وطالبت به سيدات مصر للفاحشة بما فيهن

من جمال وشهرة، إن تحديه للفساد، وللضغوط المختلفة هز المجتمع الجاهلي من الأعماق وأثار فيهم التساؤلات: إذا هناك فوق قيمة المادة قيمة اسمى هي قيمة الإيمان. إذن فنحن على خطأ. إذ كيف يرفض هذا الفتى هذا العرض المغري، أم كيف يتحدى هذه الضغوط الهائلة، فيعرض نفسه للسجن والإهانة؟

لقد كانت الإغراءات كبيرة إلى درجة نرى يوسف عليه السلام ذلك الفتى الصديق يستعين بالله منها ويقول: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْحَابُ الْيَمِينِ وَأَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: إن لم تدركه رحمة الله وعصمته يكاد يميل اليهن ويصبح جاهلاً بذلك، أو يرتكب الذنب.

[٣٤] وأنقذه الله تعالى في الوقت المناسب وأعطاه القوة الكافية لمقاومة جاذبية المادة الثقيلة ومن ثم التحليق في سماء القيم ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وهكذا يصرف الله تعالى عن المؤمنين الصادقين كيد شياطين الإنس والجن، ويعطي الفرد عصمة عن الذنوب بعد أن يطلب الفرد ذلك من ربه.

رب السجن احب الي

﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُؤُنَّهُمْ حَقَّ حَبِيرٍ﴾
 (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا
 وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُورِثُ أَثَرًا فَقَالَ أَحَدُهَا مَا أَطْبَعُ مِنْهُ نَبْشَنَا
 بِمَا وَبِلَهُوَ إِنَّا نَرَىكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ
 إِلَّا نَبَاتِكُمَا بِمَا وَبِلَهُوَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ
 مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ
 آبَائِي ابْنَ رَيْسٍ وَإِسْحَاقَ وَبِعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
 ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ
 (٣٨) يَصْنَعِي السِّجْنَ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
 (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُؤُكُمْ
 مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ
 الَّذِينَ الْقَيْنُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَصْنَعِي السِّجْنَ
 أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ
 مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) ﴿

هدى من الآيات:

بعد أن تحدى يوسف عليه السلام ضلالة المجتمع وفساده العريض لم يسعهم إلا سجنه، ولكن يوسف اتخذ من السجن منطلقاً للدعوة، فحين دخل معه فتیان وجدا عنده مظاهر المحسنين، فسألاه عن حلمين تراه لأحدهما: إنه يعصر العنب ليصنع منه الخمر لمولاه، بينما

ترأى للآخر: إنه وضع على رأسه خبزا تأكل الطير منه ووعدهما يوسف عليه السلام بتأويل ما رآياه قبل أن يأتيهما طعام، ولكنه قبلت ذلك كرههم: بأن معرفته بالتأويل هي مما علمه ربه، وذلك بسبب رفضه لدين المشركين، ومقاومته لكفرهم بالله واليوم الآخر، واتباعه لأبائه المؤمنين إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وهكذا أوضح لهم إنه من سلالة النبيين، وإنه أمر ألا يشرك بالله شيئا، والتوحيد فضل من الله عليهم وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ربهم باتباع الرسالة.

ثم ذكرهما بأن التوحيد دين الوحدة وأن الأرباب المتفرقين ليسوا سوى أسماء ليس وراءها حجة حقيقية، إنما السيادة والحق لله. وإنه أمر أن تستوي هذه السيادة على عرش الحياة الاجتماعية، وإن هذا هو الدين القيم الذي لا عوج فيه، بينما أكثر الناس لا يعلمون.

وهكذا أعطى يوسف عليه السلام درسا في الرسالة لصاحبيه في السجن قبل أن يفسر لهما الرؤيا.

بيانات من الآيات:

قرار السجن

[٣٥] بعد أن عرفوا أن يوسف عليه السلام لن يرضخ لفسادهم، وأنه يتحدى ضغوطهم بقوة إيمانه، وأنه يفضح واقعهم الذي تردوا إليه دون أن يشعروا. بعدئذ قرروا سجنه لفترة معينة، إغالا في الظلم والفساد ﴿ثُمَّ بَدَأْهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُوهُ فِي سِجْنٍ﴾.

برنامج السجن

[٣٦] وأنقذ الله يوسف عليه السلام من عذاب الإغراء ليمتحنه هذه المرة بالسجن، فلننظر كيف واجه الصديق هذه المحنة؟ لقد دخل معه السجن شخصان آخران يبدو أن كلا منهما كان أيضا مثله من الفتيان العاملين في بيوت الأشراف من الذين عصوا أوامرهم الجائرة، فزج بهم في السجن، ودار بينهما وبين يوسف حوار رسالي.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرِيتُ أَحْمَرَ خَمْرًا﴾ أي أرى نفسي وكأنني أعصر عنباً ليصبح خمرًا.

والسؤال المطروح هو إن الرؤية هذه هل كانت في المنام أم كانت من أحلام اليقظة التي

هي الأخرى دليل على إرهاصات الحقيقة التي يشعر بها الفرد أحيانا، ويسمى عادة بالتفاؤل أو التشاؤم، أو الحس السادس.. أو ما أشبه.

في بعض الأحاديث إن صاحب الخمر كان صادقا وهو الذي نجا، بينما كان صاحب الخبز كاذبا في رؤياه، وسواء صدقا أم لا فإن ما رآياه كان صورة عن الحقيقة التي سوف تقع، رآها أحدهما في المنام وتخيّلها الثاني في اليقظة، والقرآن سكّت عن كيفية الرؤيا واكتفى بقوله: ﴿إِنِّي أَرِنِي﴾ الذي ينطبق على حالة الحلم كما في حالة اليقظة.

﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرِنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ لقد استغل يوسف عليه السلام وجوده في السجن عمليا وقوليا، فهو يبلغ لرسالته بالقول، ولكنه لم يكتف بذلك بل جسد رسالة السماء في سلوكه عمليا شأن كل الدعاة الصادقين. لقد كان يبكي على امتداد الوقت، ويجهّد في الضراعة، ويتبتل إلى ربه بصلواته الخاشعة وفي فترات فراغه كان إذا ضاق على رجل مكانه وسع له، وإن احتاج جمع له، وإن مرض قام عليه، لذلك انجذب إليه المعتقلون، واعتقدوا بأنه صاحب فضل عليهم وقالوا له: ﴿إِنَّا نَرِيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

[٣٧] قال يوسف عليه السلام قبل أن يأتيكما الطعام الذي هو مخصص لكم أما من البيت أو من إدارة السجن سوف أنبئكما بتأويل رؤياكما ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾.

وبعد أن وعدهما بتأويل رؤياهما قريبا. أخذ يبلغهما رسالات ربه. ابتداء من نفسه حيث كان معروفا عندهما بالإحسان والفضل فقال لهما:

أولاً: إنه رسول من الله ﴿ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ فلقد علمه الله تأويل الأحاديث.

ثانياً: إنه حنف عن الشرك الذي اتخذ قومه ملة لهم، ورفض طريقة قومه وملتهم، وثار على نظامهم الثقافي والاجتماعي ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ إن طريقة هذه الجماعة ليست المثل لأنها قائمة على أساس الكفر وإن أرفضها رأساً.

[٣٨] ثالثاً: أما الملة المثل في طريقة آبائي -إبراهيم وإسحاق ويعقوب- وهكذا بين يوسف عليه السلام إنه من سلالة النبوة ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وإن طريقة هؤلاء قائمة على أساس التوحيد، ورفض كل أنواع الشرك، وكل ألوان العبودية والطاعة لغير الله ﴿مَا كُنَّا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ

﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي هذا هو النهج السليم للحياة. ألا يطيع أحد أحدا إلا بإذن الله، وليس يدين أبدا بسيادة الطغاة أو السكوت عنهم. وحاكمية الفراعنة والرضا بها. من هنا نعرف مدى دلالة الآية على أن الدين هو السياسة. والسياسة هي الدين.

لذلك تجدهم يفصلون الدين عن السياسة، ويقول فرعونهم: لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين، ويقول هامانهم: لا دخل لرجال الدين في السياسة، ويقول قارونهم: إننا نريد رجال دين لا يتدخلون في السياسة.

وجهور الناس يسعون من أجل فصل الدين عن السياسة تحت تأثير التضليل الإعلامي، وبسبب إنهم يستصعبون مسؤوليات الدين والسياسة، ويريدون الإكتفاء بالطقوس الدينية السهلة.

[٤١] وبعد أن بين هذه الحقائق لها. فسر رؤياهما قائلا: ﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ أي يعود إلى سيده، ويصبح ساقيا له فيسقيه الخمر كما وجد في الرؤيا.

﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ أي يقتل وتجلس الطيور الجارحة فوق رأسه لتأكله ﴿فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي انتهى القضاء فيما سألتما إلى هذه النهاية ولا عودة فيه.

الكفاءة مقدمة التمكين في الأرض

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَنَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ. فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ يَضَعُ سِنِينَ ۝١٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ۝١٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ ۝١٤﴾ أَخْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِمَعْلَمِينَ ۝١٥﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ. فَأَرْسِلُونِ ۝١٦﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلَّ أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٧﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ۝١٨﴾ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُبُلِكُمْ ۝١٩﴾ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝٢٠﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۝٢١﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِشُونَ ۝٢٢﴾

هدى من الآيات:

وخرج الفتيان من السجن. أحدهما إلى الحرية، والثاني إلى المشقة، فاستغل يوسف نجاة أحدهما، فطلب منه العمل من أجل نجاته، يَدَّ أن الشيطان أنساه ذكر ربه، فبقي في السجن عدة سنين بسبب نسيان الله والتوسل بعبده وحين قضى الله مدة سجنه قرر الله له النجاة وذلك بأن

(١) أضغاث: الأضغاث الأحلام المتلبسة.

(٢) دأباً: دأب في عمله يدأب دؤباً إذا اجتهد.

(٣) تحصنون: تحرزون وتدخرون.

رأى الملك في منامه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات هزال، ورأى بجانبها سبع سنبلات خضر وسبع سنبلات يابسات، فجاء إلى كبار أصحابه يستفسرهم عن رؤياه فقالوا: إنها أحلام مختلطة ببعضها ولسنا بعالمين بها، وكان صاحب يوسف حاضرا فتذكر، بعد فترة طويلة، فطلب إرساله إلى يوسف عليه السلام وطلب منه تفسير رؤيا الملك لينقلها إليه فقال يوسف عليه السلام: إن أمامكم سبع مواسم خيرة تعقبها سبع مواسم شحيحة، وهكذا تأكل السنين السبع التالية ما كانت في السنين السابقة من نعمة، أما السنة الأخيرة. فهي سنة الاستغاثة. حيث يعصر الجوع الناس عصرا، وهكذا وفر الله ليوسف أسباب النجاة.

بينات من الآيات:

وصية يوسف

[٤٢] خرج الشخص الذي فسر يوسف رؤياه بالنجاة. واستغل يوسف المناسبة، وطلب منه أن يرفع مظلمته عند الملك، وكان عليه أن يتوسل بالله في ذلك لا بالسجين الناجي أو الملك لأنه رسول الله الذي ينبغي أن يقطع صلاته الشخصية بالناس جميعا، ويمحضر الله إخلاصه^(١).

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ لماذا استخدم القرآن تعبير الظن؟ أو لم يقل ربنا سابقا: إن الله قد علمه تأويل الأحاديث؟

في الإجابة قال صاحب المجمع: «إن معنى الآية أي للذي علم من طريق الوحي أنه ناج متخلص، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ [الحاقة: ٢٠]. هذا قول الأكثرين واختيار الجبائي، وقال قتادة: للذي ظنه ناجيا لأنه لم يحكم بصدقه فيما قصه من الرؤيا والأول أصح^(٢)».

ولكن - يبدو لي - أن الظن هنا بمعناه الأصلي وهو التصور والتخيل الذي يوهم بعدم وجود علم ثابت بذلك، والسبب إن يوسف عليه السلام لم يكن يضمن المستقبل لأن الله قد يشاء شيئا آخر، فلربما مات الشخص أو تغير نظام الملك، أو بدا الله في شأنه وعاد به إلى السجن،

(١) روى المحدث النوري في مستدرک الوسائل: ج ١١ ص ٢٢٣ عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «قَالَ اللَّهُ لِيُوسُفَ: أَلَسْتُ الَّذِي حَبَّبْتُكَ إِلَىٰ أَبِيكَ وَفَضَّلْتُكَ عَلَىٰ النَّاسِ بِالْحُسْنِ، أَوْ لَسْتُ الَّذِي سَقَيْتُ إِبْنِكَ السَّيَّارَةَ وَأَنْقَذْتُكَ وَأَخْرَجْتُكَ مِنَ الْجُبِّ، أَوْ لَسْتُ الَّذِي صَرَفْتُ عَنْكَ كَيْدَ النُّسُوءِ فَمَا حَمَلْتُكَ [عَلَى] أَنْ تَرْفَعَ رَغْبَتَكَ أَوْ تَدْعُوَ مَخْلُوقًا دُونِي قَالَتْ لِمَا قُلْتَ فِي السُّجُنِ بِضَعِ سِنِينَ».

(٢) مجمع البيان: ح ٢ ص ٣٠٣.

أو إلى الاعداء، ومناسبة الظن بما بعده هي إن يوسف عليه السلام كان موقناً بأن الله سبحانه أرحم الراحمين، وأنه يستجيب له دعاءه بينما كان يظن بنجاة صاحبه ظناً، وكان ينبغي أن يتوسل بالله قبل توسله بذلك الشخص لأن الله أولى باليقين من رؤياه حول الشخص التي لو صدقت لتجاوزت حدود الأقدار، وقضاء الله فوق قدره وإرادته فوق مسته سبحانه وتعالى ﴿فَأَنسَنُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ ليريه ربه على الإخلاص التام في عبادته سبحانه.

رؤيا الملك

[٤٣] وبعد أن قضى مدة سجنه التي حددها الله له - والتي طالت سبع سنين حسب ما جاء في الأخبار - بعدئذ هيا الله له وسيلة نجاته بحلم رآه الملك ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي هزال، ﴿وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ وأراد من كبار مستشاريه تفسيراً لرؤياه الغامضة ﴿وَتَأْتِيهَا الْمَلَائِكَةُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنتُمُ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي إن كنتم تفسرون ما يراه النائم في حلمه.

[٤٤] ولكنهم حين عجزوا عن تفسير رؤياه الغامضة. قالوا بأنها أفكار مختلطة وليست رؤية للحقيقة ﴿قَالُوا أَضَلَّتْ أَحْلُمُ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلُمِ بِعَالِمِينَ﴾ الضغث: الحزمة من كل شيء، وقيل بأنه الخلط، وقالوا: والحلم بكسر الحاء ضد الطيش وهو الأناة، وكان أصل حلم النوم عن هذا لأنه حال أناة وسكون.

ويبدو أن الحلم غير الرؤيا، فهو كل ما يراه النائم من آثار نفسه وتخرصاتهما.

مفاتيح الرؤيا

[٤٥] وكان في حاشية الملك صاحب يوسف في السجن الذي تذكر الآن رؤياه في السجن، وتعبير يوسف الصادق له ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي تذكر بعد مرور وقت طويل، قالوا: إنها سبع سنين ﴿أَنَا أَنبَأْتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِي﴾ أي ابعثوني إلى يوسف لأتيكم بتأويله.

[٤٦] فبعثوه إلى يوسف في السجن، فطلب منه تفسير رؤيا الملك بعد أن نقله له ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ عبّر عنه بالصديق لما رأى منه من آيات الصلاح في السجن، ولما جربه شخصياً في تعبیر رؤياه ونجاته.

﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ مَنَاجِفٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يبدو أن صاحب يوسف عرف أنه يجب خدمة الناس بينما يكره الطغاة، لذلك لم يقل: لعلِّي أرجع إلى الملك بل قال ﴿إِلَى النَّاسِ﴾.

[٤٧] وعبرَ يوسف رؤيا الملك، بما اهتز له أركان المجتمع، فبين لهم: أن أمامهم سبع سنين من الرفاه والوفرة، ولكن عليهم أن يستعدوا فيها لسبع سنين جدداء، فكلما حصدوا أكثر من حاجتهم من القمح احتفظوا به وهي في السنابل لمجابهة أيام القحط التي تنتهي بسنة صعبة يتوافد عليهم الناس من كل مكان طلبا للقمح.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي تجتهدون سبع سنين في الزراعة، ويبدو أن الشعب المصري كان في عز حضارته في تلك السنين.

﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي اعملوا كثيرا، وكلوا قليلا، وحافظوا على ثرواتكم للمستقبل، وهكذا نصح يوسف قوم مصر بأفضل الحُكم الحضارية.

[٤٨] ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ﴾ أي تأتي سبع سنين شديدة جدداء تأكلون فيها ما جمعتم في سنين الرخاء ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾.

وعبر يوسف ﷺ بالسنين وكأنها حيوانات تأكل خيرات السنين الماضية للإشارة إلى الرؤيا، وأن السنة تشبه البقرة التي رآها ملك مصر في نومه.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْتَصِنُونَ﴾ فهو الوحيد الباقي لكم.

الحصن هو: الحرز، ويبدو أن يوسف أشار عليهم بضرورة المحافظة على انتاجهم في سنين الرخاء بصورة جيدة.

[٤٩] أما السنة الأخيرة فهي - حسب بعض التفاسير - سنة خصب ورخاء حيث يهطل الغيث وينزل الرب من المعصرات ماء ثجاجا؛ فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ بهطول الأمطار.

﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ وفسرت هذه الكلمة بأنهم كانوا يعصرون عادة الدهن لأيام شتائهم وجاء في حديث شريف تفسير العصر بالغيث الهاطل وهذا هو المشهور في تفسير هذه الآية.

وقد ذكرنا^(١) تفسير آخر تحتمله الآية: أنهم في تلك السنة عاشوا شدة بحاجة إلى الإغاثة

(١) في الطبعة الأولى من التفسير.

وعصراً فكان منهم أن توافدوا على مصر طلباً للغيث وشراء الطعام.
قال الشاعر^(١):

صَادِياً يَسْتَغِيثُ غَيْرَ مَغَاثٍ وَلَقَدْ كَانَ عَصْرَةُ الْمُنْجُودِ

والغوث: هو نفع يأتي بعد شدة الحاجة، أو نفع يأتي لدفع ضرر شديد، ويبدو أن معناه قريب من رفع ضرر الجوع، ومنه أطلقت كلمة الغيث على المطر.

وحينها ﴿يَعْصِرُونَ﴾ بمعنى يلتجئون طلباً للطعام.

(١) مجمع البيان للشيخ الطبرسي: ج ٥، ص ٣٦١.

الملك من بعد

﴿وَقَالَ لِلَّذِیْ اَتَتْهُ بِیْدِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ اِلَی رَبِّكَ
 فَسْئَلُهُ مَا بِاَلِ النَّسْوَةِ الَّتِی قَطَعْنَ اَبْدَیْهُنَّ اِنَّ رَبِّیْ بِكِبْدِهِنَّ عَلِیْمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ
 مَا خَطْبُكُمْ ﴿٥١﴾ اِذْ رَوَدُّنَّ یُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُ حَسَّ لِلّٰهِ مَا عَلِمْنَا
 عَلَیْهِ مِنْ سُوْرٍ قَالَتْ اَمْرَاْتُ الْعَزِیْزُ الْفَنَ حَصْحَصَ ﴿٥٢﴾ الْحَقُّ اَنَا رَوَدُّهُ
 عَنْ نَفْسِهِ وَاِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴿٥٣﴾ ذٰلِكَ لِیَعْلَمَ اَنِّیْ لَمْ اُخْنَهُ بِالْقِیْبِ وَاَنَّ
 اِلٰهَهُ لَا یَهْدِیْ كِبْدَ ﴿٥٤﴾ الْخٰفِیْنَ ﴿٥٥﴾ وَمَا اُبْرِئُ نَفْسِیْ اِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ
 بِالسُّوْرِ اِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّیْ اِنَّ رَبِّیْ غَفُوْرٌ رَّحِیْمٌ ﴿٥٦﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ اَتَتْهُ بِیْدِیْ
 یَوْمَ اَسْتَخْلَصُهُ ﴿٥٧﴾ لِنَفْسِیْ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ اِنَّكَ الْیَوْمَ لَدَیْنَا مَكِیْنٌ ﴿٥٨﴾ اٰمِیْنٌ
 ﴿٥٩﴾ قَالَ اَجْعَلْنِیْ عَلٰی خَزَآئِنِ الْاَرْضِ اِنِّیْ حَفِیْظٌ عَلِیْمٌ ﴿٦٠﴾ وَكَذٰلِكَ
 مَكَّنَّا یُوسُفَ فِی الْاَرْضِ یَتَّبِعُوْا ﴿٦١﴾ مِنْهَا حَيْثُ شَآءُ نُصِیْبُ بِرَحْمَتِنَا
 مَنْ نَّشَآءُ وَلَا نُضِیْعُ اَجْرَ الْمُحْسِنِیْنَ ﴿٦٢﴾ وَلَا اَجْرَ الْاٰخِرَةِ خَبْرٌ لِلَّذِیْنَ
 ءَامَنُوْا وَكَانُوْا یَتَّقُوْنَ ﴿٦٣﴾﴾

(١) خطبكن: الخطب الامر الذي يعظم شأنه فيخاطب الإنسان فيه صاحبه.

(٢) حصحص: أي بانث حصّة الحق وجهته من حصّة الباطل.

(٣) الكيد: الحيلة.

(٤) استخلصه: الاستخلاص طلب خلوص الشيء من شائب الاشتراك كأنه يريد أن يكون خالصاً به.

(٥) مكين: المكين من المكانة، وأصله التمكن في الأمر.

(٦) يتبوء: التبوء اتخاذ منزل يرجع إليه وأصله من باء يباء إذا رجع.

هدى من الآيات:

وعاد الرسول إلى الملك، يحمل معه تعبير الرؤيا، فلما سمعه الملك دعا يوسف، فلما جاء الرسول يدعوه أبى يوسف أن يخرج من السجن بعفو بل بإثبات براءته وإدانة الذين اتهموه، وهكذا عاد الرسول إلى الملك الذي أعاد الملف، وسأل النسوة اللاتي قطعن أيديهن هل كان يوسف مذنباً، فكررن كلمتهن الشهيرة ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ ما علمن عليه من سوء، وهنالك اعترفت امرأة العزيز أنها هي التي راودته عن نفسه.

وهكذا أرسل يوسف إلى الملك تلك الرسالة لإثبات براءته، وإنه لم يخنه في غيبته عنه، وإن الله لا يهدي كيد الخائنين، ولكن دون أن يبرئ نفسه من كل زلة تواضعاً، إذ أن النفس أماراة بالسوء، ولكن الله هو الذي يعصم عباده المؤمنين، وإنه غفور رحيم.

وهكذا بعد أن ثبتت براءته التامة. أراد الملك أن يستخلصه لنفسه، ويجعله وزيراً له، وطلب يوسف أن يجعله على أموال الدولة لأنه حفيظ لا يخون، وعليم بالأمور لا يجهل.

وهكذا مكّن الله ليوسف في الأرض برحمته الواسعة لأنه كان من المحسنين، وهذا أجر الدنيا، وأجر الآخرة خير للذين آمنوا والذين يتقون ربهم.

بينات من الآيات:

الآن حصص الحق

[٥٠] صاحب يوسف في السجن عاد إلى الملك يحمل إليه بشارة حل اللغز الذي أعجز الملائكة من قومه بما فيهم من كبار العلماء، فأمر الملك بإحضار يوسف عنده.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤَيِّنُ بِدُعَايَ﴾ ولكن يوسف أبى الحضور عند الملك، إلا بعد أن يشبث عنده براءته، وبعد إثبات فساد نظامه الذي يلقي بشخص في السجن بضع سنين من دون محاكمة أو إثبات للتهمة. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ أي جاء صاحبه إليه ﴿قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ واحتج يوسف على الملك بالنسوة اللاتي شهدن له أول يوم بالبراءة والطهر، واستشهد بهن على زوجة العزيز التي اتهمته بالفجور، كما ذكرهم بربهم العليم بكيدهم ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْعِدُ عَنْ عِلْمِي﴾.

يبدو أن كل النسوة اشتركن في المؤامرة ضد يوسف، لذلك اتهم يوسف، وذكر الملك إن الكيد الشيطاني لا يدوم.

[٥١] وهكذا بقي يوسف في السجن إلى أن يتم التحقيق في سبب سجنه، واستحضر الملك النسوة وسألن عن سبب تقطيع أيديهم، وهل كان ذلك بسبب فعل يوسف لشيء - حاشاه -، ولم يحرن جوابا، فاعترفن بحقيقة الأمر، وإن يوسف كان نقي الجيب، وإنهن دونه طلبن الفاحشة ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي هل بسبب إنه كان أهلا لهذا ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ لقد كان نظيفا للغاية، واستعذن بالله من اتهام يوسف بسوء، فلما شهدن بالأمر اضطرت امرأة العزيز إلى الاعتراف هي الأخرى ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي الآن ظهر الحق وأبان عن الباطل. ﴿أَنَارَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فانا وليس هو الذي طلب مني الفجور.

[٥٢] وقال يوسف عليه السلام - وهو يؤكد براءته أمام عزيز مصر -: إنما طلب منه التحقيق مجدداً، ليعلم - ليس فقط العزيز، وإنما الملا وعامة الناس - إني بريء، وأنني لم أخن الملك في بيته وهو غائب عنه ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُ بِالْغَيْبِ﴾ إن الخائن كانت امرأته التي لم يوفقها الله، بل أظهر حقيقتها للناس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ والكيد: الحيلة، والله لا يوفق الخائنين في حيلهم ومكرهم.

[٥٣] ثم أكد يوسف عليه السلام أن كلامه لا يعني أنه من أنصاف الآلهة، وأنه ليس من جنس البشر، وأن الذين يعملون السيئات هم من الشياطين. كلا.. بل إن النفس لأمار بالسوء، وأن السقوط في أحوال الرذيلة ليس بعيدا عن طبيعة البشر، وإنما يعني أن التمسك برسالات الله والتسلح بقوة الإيمان والتقوى يمنع من هذا السقوط.

﴿وَمَا أَتَيْنِي نَفْسٌ إِلَّا النَّفْسُ لَأْمَارَةً بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجِمْتُنِي﴾ فرحمة الله تعطي الإنسان قدرة كبيرة للتغلب على النفس الأمار بالسوء ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

المؤمن يدركه الله في الظروف التي يتعرض فيها للضغوط الاجتماعية أو النفسية كما فعل سبحانه بيوسف الذي احاطت به اسباب الرذيلة الاجتماعية. حيث هددته زوجة العزيز بالسجن، وكذلك عواملها النفسية حيث عرضت امرأة شابة جميلة نفسها عليه وهو في عنقوان شبابه، حيث الشهوة الجنسية في اوجها، ولكنه نجا من الرذيلة برحمة الله حيث قال: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾.

[٥٤] وبعد أن ثبتت براءة يوسف عليه السلام أمام الملك طلبه لكي يصبح من المقربين إليه ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِنِي بِهِ؟ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ أي أجعله خالصا لنفسي، أستعين به في أموري، ويبدو أن الكلمة توحى بمفهوم الوزارة عندنا.

وجاء يوسف عليه السلام وتحدث معه الملك، فعرف رشد عقله، واكتمال شخصيته من خلال كلامه.

وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «المرء محبوبٌ تحت لسانه»^(١).

لذلك خول إليه المناصب الهامة ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي ذا مكانة ثابتة، وإننا نثق بك.

[٥٥] ولكن يوسف عليه السلام لم يكف بذلك، ولم يفرح بالتحول الفجائي الذي حدث عنده من السجن، إلى الوزارة، بل سعى من أجل الوصول إلى خطته البعيدة المدى.

﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أي طالب بها يسمى اليوم بوزارة المالية، ولأنه عرف أن المشكلة الأساسية في الدولة هي مشكلة القحط الذي سوف يصابون به، وعليه من جهة العمل من أجل حل هذه المشكلة، وأن يسعى من جهة أخرى نحو هداية الناس من خلالها.

وبَيَّن أنه أفضل فرد تخول إليه شؤون المال وهو صاحب علم وأمانة، فبعلمه يخطط وبأمانته يعمل دون فساد ﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ﴾.

[٥٦] وقبل الملك ذلك، فلما امتلك يوسف عليه السلام سلطة المال في الدولة نشر سلطته إلى سائر المرافق، وتمكن في الأرض بفضل ربه الذي جازاه على إحسانه.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ﴾ أي ينشر سلطته فيها في أي مجال يريد بسبب علمه وأمانته وسلطته المالية ﴿فَنُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ ذلك لأن الأمور بيد الله، والله سبحانه أجرى في الدنيا نوعين من الأنظمة:

النوع الأول: الأنظمة الطبيعية، مثل السمي والحكمة والصبر والاستقامة.

النوع الثاني: الأنظمة الغيبية مثل الإيمان والتقوى والإحسان، ويوسف تقدم من خلال تطبيق هذين النوعين من الأنظمة، فمن جهة عمل بحكمة وأناة واستقامة، ومن جهة ثانية قاوم الشهوات، وأتقى ربه، وأحسن إلى الناس ﴿وَلَا تُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إن الإحسان إلى الناس يتضاعف بإذن الله ليعود إليك في يوم قريب أو بعيد.

[٥٧] وجزاء المؤمن في الدنيا شاهد على جزائه الأوفى في الآخرة، وإن الله سبحانه لا يخلف وعده معه ﴿وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وهكذا نستوحي من هذه

(١) مستدرک الوسائل: ج ٩ ص ٢٢.

الآيات إن أسباب التقدم الغيبية هي التقوى والإيمان والإحسان بيد أن الإحسان أشد وأسرع أثرا في أمور الدنيا.

وجاء في حديث ماثور عن الإمام الرضا عليه السلام: «وَأَقْبَلَ يُوسُفُ عَلَى جَمْعِ الطَّعَامِ، فَجَمَعَ فِي السَّبْعِ السَّنِينَ الْمُخَصَّبَةَ، فَكَبَسَهُ فِي الْخَزَائِنِ. فَلَمَّا مَضَتْ تِلْكَ السَّنُونَ، وَأَقْبَلَتِ الْمُجْدِبَةُ، أَقْبَلَ يُوسُفُ عَلَى بَيْعِ الطَّعَامِ، فَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ الْأُولَى بِالذَّهَابِ وَالذَّنَانِيرِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِلَّا صَارَ فِي مَمْلَكَةِ يُوسُفَ. وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ بِالْحَبْلِ وَالْجَوَاهِرِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا حَبْلٌ وَلَا جَوْهَرٌ، إِلَّا صَارَ فِي مَمْلَكَةِ يُوسُفَ. وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ بِالذَّوَابِ وَالْمَوَاشِي، حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا دَابَّةٌ، وَلَا مَاشِيَةٌ، إِلَّا صَارَتْ فِي مَمْلَكَةِ يُوسُفَ. وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ بِالْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ عَبْدٌ وَلَا أَمَةٌ إِلَّا صَارَ فِي مَمْلَكَتِهِ. وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ بِالذُّورِ وَالْعَقَارِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا دَارٌ وَلَا عَقَارٌ، إِلَّا صَارَ فِي مَمْلَكَتِهِ. وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ بِالْمَزَارِعِ وَالْأَنْهَارِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا نَهْرٌ وَلَا مَزْرَعَةٌ، إِلَّا صَارَ فِي مَمْلَكَتِهِ. وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ بِرِقَابِهِمْ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا عَبْدٌ وَلَا حُرٌّ، إِلَّا صَارَ عَبْدٌ يُوسُفَ. فَمَلَكَ أَخْرَارَهُمْ، وَعَبِيدَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ.

وَقَالَ النَّاسُ: مَا رَأَيْنَا، وَلَا سَمِعْنَا بِمِثْلِكَ، أَخْطَأَهُ اللَّهُ مِنَ الْمُلْكِ، مَا أُعْطِيَ هَذَا الْمُلْكُ، حُكْمًا وَعِلْمًا وَتَذِيرًا.

ثُمَّ قَالَ يُوسُفُ لِلْمَلِكِ: أَيُّهَا الْمَلِكُ! مَا تَرَى فِيمَا خَوَّلَنِي رَبِّي مِنْ مُلْكٍ مِصْرَ وَأَهْلِهَا، أَشَرَّ عَلَيْنَا بِرَأْيِكَ، فَإِنِّي لَمْ أَضْلِحْهُمْ لِأَفْسِدْهُمْ، وَلَمْ أَنْجُهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ لِأَكُونُ بَلَاءَ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْجَاهُمْ عَلَى بَدْيِي. قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: الرَّأْيُ رَأْيُكَ. قَالَ يُوسُفُ: إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنِّي قَدْ أَخَفْتُ أَهْلَ مِصْرَ كُلَّهُمْ، وَرَدَدْتُ عَلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَعَبِيدَهُمْ، وَرَدَدْتُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ خَاطَمَكَ وَسِرِّيكَ وَتَاجَكَ، عَلَى أَنْ لَا تَسِيرَ إِلَّا بِسِيرَتِي، وَلَا تَحْكُمَ إِلَّا بِحُكْمِي.

قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: إِنَّ ذَلِكَ لَزِينِي وَفَخْرِي إِلَّا أَسِيرٌ إِلَّا بِسِيرَتِكَ، وَلَا أَحْكَمُ إِلَّا بِحُكْمِكَ، وَلَوْلَاكَ مَا قَوَيْتُ عَلَيْهِ، وَلَا اهْتَدَيْتُ لَهُ، وَلَقَدْ جُعِلَتْ سُلْطَانًا عَزِيزًا لَا يُرَامُ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْتَ رَسُولُهُ، فَأَقِمْ عَلَى مَا وَلَّيْتُكَ، فَإِنَّكَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ^(١).

وجاء في خبر: «إِنَّ يُوسُفَ عليه السلام كَانَ لَا يَمْتَلِكُ شَيْعًا مِنَ الطَّعَامِ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْمُجْدِبَةِ، فَقِيلَ لَهُ: تَجُوعٌ وَبَيْدٌ خَزَائِنُ الْأَرْضِ؟ فَقَالَ عليه السلام: أَخَافُ أَنْ أَشْبَعَ، فَأَنْسَى الْجَبَاعَ»^(٢).

(١) مجمع البيان: ج ٥ ص ٤٢٠.

(٢) نفس المصدر: ص ٤٢١.

فتنة إخوة يوسف عليه السلام

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ٥٨ ﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ^(١) قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُرِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ^(٢) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ^(٣) قَالُوا سَنُرَوِّدُ عَنْهُ أَبَاهُ^(٤) وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ^(٥) وَقَالَ لِفَتَيْنِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ^(٦) فِي رِحَالِهِمْ^(٧) لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ^(٨) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَصْكَتَ^(٩) وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ^(١٠) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ^(١١) عَلَيْهِ إِلَّا صَخْرًا أَمْ نُنِجُكُمْ عَنْ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ^(١٢) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذَا بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ^(١٣) أَهْلَنَا وَنَحْفِظُ أَخَانًا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلُ بَيْدٍ^(١٤) قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا^(١٥) مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ^(١٦) ﴿

(١) جهزهم بجهازهم: أي هبأ لهم لوازم سفرهم.

(٢) سناود عنه أباه: نصرقه عن رايه.

(٣) بضاعتهم: ثمن ما اشتروه من الطعام.

(٤) رحالهم: الرحال جمع وهي الأوعية.

(٥) نكتل: يقال كلت فلانا أي أعطيته الشيء كيلا واكتلت عليه أخذت منه.

(٦) آمنكم: الأمن اطمئنان القلب إلى سلامة الأمر.

(٧) ونمير: الميرة الأظعمة التي تحمل من بلد إلى بلد.

(٨) موثقاً: عهداً مؤكداً باليمين.

هدى من الآيات:

ومضت السنوات الاربعة عشر السمان فالعجاف، وجاء عام الإغاثة، وضافت الحياة بأهل فلسطين وسعى إخوة يوسف إلى مصر - فيمن سعى - للحصول على نصيبهم من المؤونة لقاء ما عندهم من سلع أو نقود.

فلما وردوا مصر دخلوا على أخيههم، فعرفهم يوسف دون أن يعرفوه، وأمر بأن يهيا لهم نصيبهم ثم قال لهم اتوني بأخ لكم من أبيكم، أفلا تجدوني إنني أوفي الكيل وأحسن الضيافة، وإلا فلا أعطيكم نصيبه ولا أقربكم إلى نفسي، قالوا سنحاول ذلك مع أبيه، وقبل أن يرحلوا أمر يوسف بأن يجعل السلعة التي جاؤوا بها في رحالهم لعلهم يعرفونها، فيعودون إلى مصر دون أن يمنعهم قلة الزاد أو خشية الجفاف، فلما عاد إخوة يوسف قالوا لأبيهم إن الكيل قد منع منا حتى تبعث معنا أخانا نكتل له، وإنا له لحافظون، وعاد يعقوب يذكرهم بمصير أخيههم يوسف بعد أربعين عاما، وقال هل آمنكم عليه كما آمنتكم على أخيه يوسف من قبل؟ ثم قرر أن يتوكل على الله بعد أن عرف من أبنائه التوبة والصدق، فقال: الله خير من يحفظ وهو أرحم الراحمين.

ثم حين فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم قد ردت إليهم، فقالوا لأبيهم ماذا نطلب لقد ردت إلينا بضاعتنا، وإنا نسعى من أجل الحصول على الطعام لأهلنا، بالإضافة إلى كيل نأخذه لأخينا وهو كيل يسير بالنسبة لحاجتنا الماسة، قال أبوهم: كلا.. لن أرسله معكم حتى تأتوني بوثيقة وعهد من الله بإعادته إلي إلا إذا لم تقلدوا على ذلك، فلما أعطوه الموثق قال يعقوب: الله على ما نقول وكيل.

وهكذا بعد اليمين المكرر أذن الشيخ لابنه العزيز بالرحيل مع إخوته طلبا للميرة.

بيانات من الآيات:

بعد أربعين عاما مرت على قصة الجب

[٥٨] أربعون عاما مر على قصة الجب، ويوسف ذلك الغلام المتوهج جمالا وأناقة قد أصبح اليوم رجلا عركته المآسي والويلات، وجلس على أريكة الملك بملابسه الزاهية. كل ذلك مع هيبة السلطنة منعت إخوته من معرفته، أما يوسف فقد عرفهم بسرعة لأنهم كانوا رجالا حين تركهم ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ قبل أعوام

مديدة نبذ هؤلاء أخاهم يوسف منكبين له، فقطعوا رحمتهم، بينما هو وصل رحمه، وكانت عاقبة الأمر هو أن يجازيه الله بالملك والمعرفة ويمجزيهم بالحاجة والجهل.

[٥٩] وبعد أن أعد لهم ما جاؤوا من أجله من طعام، استدرجهم يوسف بحديثه حتى اعترفوا له أن لهم أخا من أبيهم، ومن زوجة ثانية لأبيهم لا يصاحبهم، فطلب منهم أن يأتوا به، وقال: إني لا أريد ظلمه أو ظلمكم، ولكنني أريد الخير لكم. أفلا ترون أني أوفي الكيل وأحسن الضيافة!؟

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ويبدو من هذه الآية إن يوسف أعطى لأخوته مقدارا من الطعام ومنع عنهم مقدارا.

[٦٠] وبعد أن رغبهم في عطائه الجزيل. هددهم أنه لو لم يأتوا بأخيهم فانه سوف يمنع عنهم الكيل ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُون﴾ أي في المستقبل.

[٦١] إخوة يوسف الذين أذهلتهم المفاجأة وعدوه بتنفيذ أمره، ومحاولة إقناع والده بالإذن له بالمجيء ﴿قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾.

[٦٢] ولكن يوسف لم يرض بأن يأخذ منهم أموالهم التي جاؤوا بها لأخذ الميرة، بل أمر غلمانه بأن يجعلوا بضاعتهم في أمتعتهم لكي يعرفوا أنها لهم، ولكي يكون لديهم دافع للمجيء إلى مصر مرة أخرى ﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إذا عرفوا بضاعتهم عرفوا أن الملك رحيم بهم، فلا يخشون ظلمه فيعودون إليه.

[٦٣] وقطعوا تلك المسافة الطويلة قافلين إلى أبيهم، فلما تلقاهم أبوهم قالوا له إن ملك مصر منع عنا الكيل فلم يعطنا كل حصتنا من الطعام، وطالبنا بإحضار أخينا من أبنائنا، فأرسله معنا لكي نأخذ نصيبنا وإنا سوف نحفظه ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

[٦٤] وأعاد يعقوب عليهم قصتهم مع يوسف، وكيف فرطوا فيه ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ فأنتم لا تحفظون عهدكم، ولكن لا آمنكم عليه، بل أترك الأمر إلى الله، وأجعله حافظا له فهو أفضل حافظ، وخير راحم لعباده ﴿فَاللَّهُ خَيْرُ حَافِظٍ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

[٦٥] وكانت المفاجأة عندما فتحوا أمتعتهم ليجدوا فيها بضاعتهم التي اشتروا بها الطعام، فأنشد ازدادوا إلحاحا على أبيهم بالسماح لأخيهم بالسفر معهم.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنَاءَ مَا نَحْنُ بِغْنِي ۖ أَي مَادَا نَنْتَظِرُ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا، لَقَدْ أَوْفَى الْكَيْلَ، وَرَدَّتِ الْبِضَاعَةُ إِلَيْنَا ۖ هَذِهِ بِضَاعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ، ثُمَّ شَرَعُوا فِي تَشْجِيعِ أَبِيهِمْ عَلَى الْإِذْنِ لِأَخِيهِمْ بِالسَّفَرِ مَعَهُمْ ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أَي نَأْتِي بِالطَّعَامِ لَهُمْ، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ حَيْثُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ كَانَ يَكَالُ لَهُ بِقَدْرِ حَمَلِ بَعِيرٍ ﴿ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ﴾ أَي مَيْسُورُ الْحَصُولِ. حَيْثُ بِاسْتِطَاعَتِنَا جَلْبَهُ بِسَهُولَةٍ.

[٦٦] ولأن قلب يعقوب، لكنه طلب منهم تعهدا أكيدا بإعادة أخيهم إليه ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أَي تَتَعَهَّدُونَ لِي بِذَلِكَ تَعَهَّدَا دِينِيَا.. ﴿لَتَأْتُنِي بِهِمْ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ تَرُدُونَهُ عَلَيَّ إِلَّا حِينَ تَغْلِبُونَ عَلَى أَمْرِكُمْ، فَلَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ فَفَعَلُوا، فَأَذِنَ يَعْقُوبُ لَهُمْ بِاصْطِحَابِ ابْنِهِ الَّذِي تَسَلَّى بِهِ عَنْ يَوْسُفَ.

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ فَاللَّهُ وَكِيلٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ.

إن الله ابتلي يعقوب مرة بغياب يوسف فصبر، وابتلاه هذه المرة بغياب ابنه بنيامين شقيق يوسف فصبر أيضا رغم التجربة السابقة التي كانت عنده عن إخوة يوسف الذين رموا به في غيابت الحب، وهكذا تجاوز يعقوب حساسيته النفسية لما رأى ضرورة عقلانية لبعث ابنه العزيز عليه مع إخوته، وهكذا جعل الله ذلك وسيلة لإنهاء محنته الطويلة.

ومن جهة أخرى يبتلي الله إخوة يوسف مرة ثانية بذات المشكلة السابقة تقريبا ليجرب مدى صدقهم في إدعاء التوبة، ولكي يجزيهم بسوء أعمالهم السابقة.

إني أنا أخوك

﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ ^(١) إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ ^(٢) بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ ^(٣) فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذِنَ مُؤَدِّنُ أَبْنَتِهَا الْعِيرَ ^(٤) إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَقْدُ صُوعٍ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ^(٥) ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

(١) آوى: يقال آوى منزله، يأوي أوياء إذا صار إليه.

(٢) تبتئس: الابتئاس الاغتمام واجتلاب البؤس والحزن.

(٣) السقاية: الاناء التي يسقى منها وهو من السقي، وقيل السقاية والصواع واحد.

(٤) العير: القافلة.

(٥) زعيم: كفيل والزعيم أيضاً القائم بأمر القوم وهو الرئيس.

هدى من الآيات:

وبعد أن أخذ يعقوب موثقه من أبنائه بعث معهم أخاهم، وأوصاهم ألا يدخلوا في مصر من باب واحد ليمنع عنهم الشر لو كان قد خطط ضدهم به، وأكد أن هذا الإجراء لا يقاوم قضاء الله، وأن الحكم لله، وينبغي أن يتوكل عليه المتوكلون، فذهبوا ولما وصلوا مصر دخلوا حسبما أمرهم أبوهم - أي من أبواب شتى - ولكن البلاء قد قدر لهم. نعم استطاع يعقوب بذلك أن يمتحن عمليا مدى طاعتهم بالغيب له.

فلما دخلوا عليه اقرب يوسف عليه السلام إلى أخيه من أمه وكشف له السر، وأمره ألا يحزن بما كانوا يعملون من الأذى به، ولما جهزهم جعل الكيل في أمتعة أخيه من أمه، ثم نادى منادى الدولة: أيتها العير إنكم لسارقون، وكانت تلك مفاجأة ثانية بالنسبة إليهم. حيث أسرعوا إلى المنادى، وقالوا له: ماذا تفقدون؟ قالوا نفقد كيل الملك وحددوا جائزة لمن كشف عن السارق وهي جمل بعير، وأكد يوسف عليه السلام على أنه كفيل بإعطاء ذلك الكيل لأهميته عند الناس في سني المجاعة. قال إخوة يوسف وهم يحلفون بالله لم نأت لكي نفسد في الأرض أو نسرق، فسألهم: ماذا لو وجد الكيل عند واحد منكم، وما هو جزاؤه؟ قالوا إن السارق سوف يكون شخصا جزاء جريمته، وبإمكان السلطة أن تأخذه عبدا لما اقترفه، وهكذا تأمرنا قوانين بلادنا، وهكذا تم ليوسف ما أراد حيث وجد مبرراً لإبقاء أخيه عنده.

بيانات من الآيات:

قاعدة أمنية

[٦٧] قبل أن يرحل أبنائه عنه أوصاهم يعقوب بألا يدخلوا مصر من باب واحد بل من أبواب شتى ﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ والسؤال لماذا؟.

هل نخشي عليهم من العين الحاسدة. حيث إنهم كانوا ذوي هيئة وجمال، وكانوا مجموعة إخوة من أب واحد متحدين، أم أراد أن يجرب مدى طاعتهم له وهم بعيدون عنه، أم إنه نخشي عليهم من السلطة التي طلبتهم باصطحاب أخيهام؟.

يبدو من السياق أن الاحتمال الأخير أقرب إلى ذلك لأن يعقوب أكد لهم أن مثل هذا الإجراء لا يحفظهم عن الله، وأن قدرة الله محيطه بهم، وبسلطات مصر، وعلى الإنسان أن يتحذر من مكر أعدائه، ولكن دون أن يترك التوكل على الله الذي يعطيه الشجاعة والتواضع والسعي

الدائم الأفضل قال يعقوب: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِوَنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي أن تدبير الأمور في الحياة بيد الله سبحانه، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي ليس من الصحيح أن يعتمد أحد على ذكائه أو حذره وخططه بل على الله.

[٦٨] وهكذا انفصل إخوة يوسف عن بلدهم، ودخلوا مصر من أبواب متفرقة مثلما أمرهم أبوهم، وكانت خطة ملك مصر أسبق من خطة والدهم، فلقد خطط يوسف للإبقاء على واحد منهم من أجل استدراجهم إلى مصر، وهكذا غلب التوكل الحذر ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ تلك الحاجة هي امتحانهم، أو دفع الحسد عنهم، أو المحافظة عليهم والاطمئنان على سلامتهم.

وبالرغم من أن التوكل يغلب الحذر، فإن على البشر ألا يترك الحذر، وهكذا يمدح الله يعقوب على الانتفاع بعلمه ووصيته لأبنائه بأخذ الحيلة بالرغم من أن ذلك لم ينفعهم شيئا بعد أن هيئت أسباب بقائهم بمصر.

﴿وَلَئِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقد كان يعقوب عالما استفاد من علمه الذي علمه ربه، ولكن أكثر الناس لا يستفيدون من علم الله، فلا يعلمون شيئا.

لقاء الأخوين

[٦٩] ودخلوا على يوسف فقرب أخاه بنيامين، وأسر إليه بأنه هو يوسف صاحب الجب، لكي لا يحزن للخطة التي سوف يطبقها عليه ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَمَتِ إِلَىٰ أَخِيهَا قَالِ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَهِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لقد كانت آثار الحزن بادية على بنيامين ليس فقط لما فعلوا بشقيقه يوسف من قبل، إنما أيضا بما كانوا يعملون به من التمييز، فطمأنه يوسف ودعاه إلى ترك الحزن.

[٧٠] ولأجل الإبقاء على أخيه جعل الكيل الذي يكتال به والذي سماه القرآن مرة بالسقاية لأنه كان يسقى به، ومرة بالصواع لأن الكيل كان بقدر صاع، جعله في أمتعة أخيه ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذِنَ مُؤِذْنٌ أَيْتَهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَّرِقُونَ﴾ أي أيتها القافلة إنكم لسارقون.

[٧١] وكانت دهشتهم بالغة من هذه التهمة الكبيرة، لذلك اجتمعوا إليه وهم يسألون

عما فقد ﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴾.

[٧٢] ﴿ قَالُوا تَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾

فبكفالتى سيحصل الذى يدلنا على مكان الكيل على حمل بعير من الطعام.

[٧٣] فتبرأ أخوة يوسف من هذه التهمة، وحلفوا بالله: أنهم لم يهدفوا الفساد فى الأرض

والسرقة حين جاؤوا إلى مصر. إنما جاؤوا لطلب الميرة كما تدل على ذلك شواهد حالهم، أما أحوالهم السابقة فلم تكن لهم سوابق السرقة.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ يقال: إن إخوة

يوسف أعادوا إليه ما وجدوه فى رحالهم، زعمًا منهم بأنه قد وضع خطأ، وأنهم حينما دخلوا مصر سدوا أفواه دوابهم لكي لا تأكل من زرع الناس احتياطًا على دينهم وكل ذلك دفعهم إلى الاعتقاد بأن ملك مصر وملئه على يقين بصلاحهم، وبراءتهم عن تهمة السرقة.

عقاب السرقة

[٧٤] وقبل أن يستخرج يوسف الصاع من رحل أخيه بنيامين. سأل إخوته عن جزاء

السارق فى دينهم، وكان هذا أسلوبًا جديدًا فى الحكم أن يعترف المجرم بحكم الجريمة لو ثبتت عليه: ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾.

[٧٥] كان ولا يزال جزاء السرقة مختلفًا عند الشعوب باختلاف الظروف المعيشية،

ولأن السرقة خرق للنظام الاقتصادى القائم وللقوانين الاجتماعية الحاكمة، فلا بد أن يكون عقابها متناسبًا مع ذلك النظام وتلك القوانين، وفى مصر حيث الرخاء كانت السرقة خروجًا على العرف الاجتماعى وجزاؤها الضرب والسجن، بينما فى فلسطين ذلك اليوم حيث القحط كانوا يستعبدون السارق بقدر سرقة لأن السرقة كانت بهدف أخذ حقوق الناس ولدوافع اقتصادية.

لذلك تجدهم يحددون جزاء السارق حسب بلدهم ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ

جَزَاؤُهُ ﴾ أى فإن السارق بذاته سوف يصبح جزاء سرقة ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ وتمت ليوسف خطته التى استهدفت الإبقاء على أخيه عنده.

يوسف عليه السلام خطة حكيمة

﴿بَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ
 أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ
 إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ
 عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ
 فَأَسْرَمَهَا﴾ (١) يُوْسُفُ فِي تَقْوَاهُ وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ
 مَعْكَنَا وَاللَّهُ أَغْلَمُ بِمَا نَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَتَّبِعُهَا الْعَزِيزُ إِنْ لَمْ
 يَأْأَمِرْنَا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ
 ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا
 إِذًا لَّفَاعِلُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا (٢) قَالَ
 كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ
 وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ (٣) الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ
 أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَبِيكُمْ فَقُولُوا
 يَتَّابَانَا ابْنُ ابْنِكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا
 لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَشَلَّى الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا
 فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾

(١) فأسرها: كتمها.

(٢) خلصوا نجياً: انفردوا للتأجج والتشاور.

(٣) فلن أبرح: لن أفارق.

هدى من الآيات:

فلما اعترفوا بجزاء السارق، أمر بتفتيش امتعتهم، ولكن بدأ برحاهم، ثم فتح أمتعة أخيه واستخرج الصاع منها، وحق له أن يحتفظ بأخيه عنده جزاء سرقة، بينما لم يكن بإمكانه حسب أنظمة الملك أن يفعل ذلك إلا أن الله علمه خطة حكيمة، وهكذا يتفاضل الناس في العلم بما يعلمهم الله سبحانه.

ولكي يرثوا ساحتهم قالوا بأنه ليس شقيقنا، وأن شقيقه يوسف كان قد سرق هو الآخر، فكتّم يوسف الحادثة في نفسه، واكتفى بأن قاله لهم: كلا.. أنتم شر مكانا بما تتهمون شخصا غير حاضر، كما توافقون على تهمة غير ثابتة بحق أخيكم، والله أعلم بما تقولون!!.

ولكنهم لم يقدرُوا على فصل مصيرهم عن مصير أخيه بعد أن أخذ منهم أبوهم الميثاق، فتوسلوا بالعزیز للعفو عنه لمكان والده المعجوز، وطلبوا منه أن يأخذ أحدهم مكانه، ولكنه رفض وقال: إنه ظلم أن نستعبد غير السارق، أما هم فتكبوا جانباً وتناجوا بينهم، فذكّرهم كبيرهم بهذه الإلهي مع أبيهم، وبما فعلوا سابقاً بيوسف، وقال: إني سأبقى هنا حتى يسمح لي أبي، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين، وأمرهم بأن يعودوا إلى أبيهم، ويقولوا له إن ابنك سرق، ولكننا لا نشهد ضده إلا بقدر ما علمنا من ظواهر الأمور دون أن نعلم الغيب، وبإمكانك أن تسأل أهل مصر، أو تسأل القوافل المسافرة. وإنا لصادقون.

بيانات من الآيات:

استخراج السقاية

[٧٦] بدأ يوسف يفتش أوعية إخوته من أبيه التي كانت مليئة بالحنطة بثهمة وجود الكيل داخلها، ولم يفتش متاع أخيه إلا أخيراً، فوجدوا الصاع فيه ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ﴾ أي استخرج السقاية من أمتعة أخيه من أمه بنيامين، وإنما فعل كل ذلك مبالغة في السرية، وإحكاماً للخطة.

﴿كَذَلِكَ كَذَبَ لِيُوسُفُ﴾ أي هكذا علّمنا يوسف الخطة. والكيد: كل فعل لا يعرف الآخرون هدفك منه الذي قد يكون الإضرار بهم أو الانتفاع منهم دون معرفتهم بوجهه.

ولم يكن باستطاعة يوسف وهو عزيز مصر أن ينفذ قانوناً اجتماعياً لا يتفق مع قوانين ملك مصر، مثل أن يستعبد الذين جاؤوا لشراء الطعام إلا بالكيد الذي علمه الله ﴿مَا كَانَ

لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿٧٦﴾

ولقد شاء الله أن يأتي بعائلة يوسف إلى مصر، فعلم يوسف هذه الخطة، وأجرى مشيئته على يد وليه الصالح يوسف عليه السلام وهكذا نعلم أن محتوى الأحكام الشرعية وهو الحكم البالغة التي هي وراء سن الأحكام، وتشريع الأنظمة وأن الله كلف الأنبياء بقدر عقولهم، فمنهم من فرض عليه التقيد بحرفية الأنظمة الشرعية كسائر الناس، ومنهم من أوجب عليه العمل وفق الغايات السامية التي يوحى بها إليهم الله، ليحققوا مشيئة الله كالأنبياء والأئمة والعلماء الذين بدورهم يختلفون في درجاتهم، وعلى الأقل علما منهم أن يهتدي بنور الأكثر علما، والله يرفع من يشاء بحكمته وعلمه من هم أصلح من غيرهم ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

خبث التهمة

[٧٧] فور ما تراءى لهم أن أخاهم قد سرق نسوا عهدهم مع والدهم يعقوب بإعادة أخيه بنيامين إليه سالما، ونسوا ما فعلوه بأخيه يوسف، فإذا بهم يؤكدون تهمة أخيه، ويتبرؤون منه، ويعودون إلى اتهام يوسف بالسرقة أيضا ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وبذلك أخطأوا مرتين: عندما أكدوا تهمة بنيامين، وعندما اتهموا أخاه يوسف بالسرقة من دون أي سبب^(١) سوى إنقاذ أنفسهم من المشكلة، ويبدو أن شبح الجريمة التي

(١) عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْقَاسِمِ الْجَعْفَرِيِّ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ عليه السلام عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وَالسَّائِلُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمٍ، وَأَنَا حَاضِرٌ، فَقَالَ عليه السلام: «مَا سَرَقَ يُوسُفُ إِنَّمَا كَانَ لِيَعْقُوبَ مِنْطَقَةٌ وَرَثَهَا مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَتْ بِلَاحِ الْمِنْطَقَةِ لَا يَسْرِقُهَا أَحَدٌ إِلَّا اسْتُعِيدَ فَكَانَ إِذَا سَرَقَهَا إِنْسَانٌ نَزَلَ جَبْرَائِيلُ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ فَأَخَذَ [فَأَخَذَتْ] مِنْهُ وَأَخَذَ عَبْدًا وَإِنَّ الْمِنْطَقَةَ كَانَتْ حِنْدَ سَارَةَ بِنْتِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَتْ سُمِّيَتْ أُمَ إِسْحَاقَ وَإِنَّ سَارَةَ أَحَبَّتْ يُوسُفَ وَأَرَادَتْ أَنْ تَتَّخِذَهُ وَلَدًا لَهَا وَإِنَّهَا أَخَذَتْ الْمِنْطَقَةَ فَرَبَطَتْهَا عَلَى وَسْطِهِ ثُمَّ سَدَلَتْ عَلَيْهِ سِرْبَالَهُ وَقَالَتْ لِيَعْقُوبَ: إِنَّ الْمِنْطَقَةَ سُرِقَتْ فَأَتَاهُ جَبْرَائِيلُ فَقَالَ: يَا يَعْقُوبُ إِنَّ الْمِنْطَقَةَ مَعَ يُوسُفَ وَلَمْ يُخْبِرْهُ بِخَبْرٍ مَا صَنَعْتَ سَارَةُ لِمَا أَرَادَ اللَّهُ فَقَامَ يَعْقُوبُ إِلَى يُوسُفَ فَقَشَّاهُ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ غُلَامٌ بَافِعٌ وَاسْتَخْرَجَ الْمِنْطَقَةَ فَقَالَتْ سَارَةُ بِنْتُ إِسْحَاقَ: مَنِي [مَنِي] سَرَقَهَا يُوسُفُ فَأَنَا أَحَقُّ بِهِ. فَقَالَ لَهَا يَعْقُوبُ: فَإِنَّهُ عَبْدُكَ عَلَى أَنْ لَا تَبِيعِيهِ وَلَا تَهْبِيهِ، قَالَتْ: فَأَنَا أَقْبَلُهُ عَلَى أَنْ لَا تَأْخُذَهُ مِنِّي وَأَنَا أَعْتِقُهُ السَّاعَةَ، فَأَعْطَاهَا فَأَعْتَقْتَهُ، فَلِذَلِكَ قَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

قَالَ أَبُو هَاشِمٍ فَجَعَلْتُ أُجِيلُ هَذَا فِي نَفْسِي أَفَكَّرُ وَأَتَعَجَّبُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَعَ قُرْبِ يَعْقُوبَ مِنْ يُوسُفَ وَحُزْنِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ حَتَّى ابْتِغَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ وَهُوَ كَظِيمٌ، وَالْمَسَافَةُ قَرِيبَةٌ فَأَقْبَلَ عَلَيَّ أَبُو مُحَمَّدٍ فَقَالَ: يَا أَبَا هَاشِمٍ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِمَّا جَرَى فِي نَفْسِكَ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَوْ شَاءَ أَنْ يَرْفَعَ السَّيِّئَ الْأَعْلَى بَيْنَ يَعْقُوبَ وَيُوسُفَ حَتَّى كَانَا يَتَرَاءَانِ فَعَلَّ وَلَكِنْ لَهُ أَجَلٌ هُوَ بِالْفَقْرِ وَمَعْلُومٌ يَنْتَهِي إِلَيْهِ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ فَالْخِيَارُ مِنَ اللَّهِ لِأَوْلِيَائِهِ. ١. بحار الأنوار: ج ١٢، ص ٢٩٨.

قاموا بها بحق أخيه يوسف ظل يلاحقهم، فاذا بهم حساسون من إلصاق أية تهمة بهم خشية أن يفضح أمرهم، وإذا بهم لا يزالون يبررون بيعهم لأخيهم الحر بأنه كان قد سرق، فاستعبد وبيع جزاء سرقة، وكانت التهمة شديدة الوقع على قلب يوسف ولكنه ملك نفسه، ولم تظهر على ملامحه آثار الغضب ﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ ولكنه اكتفى بتأنيبهم على ذكر أخيهم بسوء ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرُّ مَكَّانًا﴾ ويطرح المفسرون هذا السؤال: ماذا كان التبرير الظاهر ليوسف حينما قال لهم: ﴿أَنتُمْ شَرُّ مَكَّانًا﴾؟ فأجاب بعضهم: إن هذا القول أسره يوسف في نفسه دون أن يديه لهم، وبعضهم قال: بل ظهر للناس الشقاق القائم بينهم وبين أخيه بنيامين مما كان يكفي لتأنيبهم، وربما كان يوسف يذكرهم بأن جفاءهم لأخيه هو السبب في سرقة لو أنه فعلا ارتكبها، ولكنه هز ضميرهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وإنه هل هو فعلا صحيح أم لا؟ وبالتالي هل قد سرق أخوه أم أن ذلك ليس سوى تهمة؟ فلماذا يتسرعون في التأكيد والتعريض بيوسف ويتبرأون من أخيه؟.

[٧٨] وتذكروا موقفهم مع أبيهم يعقوب، واكتشفوا أن مصيرهم بالتالي مرتبط بمصير أخيه، فأخذوا يتضرعون إلى عزيز مصر بأن يعفو عن أخيه أو أن يأخذ أحدهم مكانه.

﴿قَالُوا يَتَّخِذِهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَىكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهكذا يتردد البشر بين حالتين متناقضتين، فبين أن يتهم الأبرياء بالسرقة وبين أن يفدي بنفسه في سبيل الوفاء بعهد.

[٧٩] أما يوسف عليه السلام الذي رتب كل تلك الخطة للإبقاء على أخيه عنده، فرفض العرض ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَلَمْنَا لَنَا وَلًا﴾ وذكرهم بذلك أن الإحسان يجب ألا يمنع تنفيذ القوانين السائدة. وألا ينقلب إلى ظلم، فالإنسان يحسن في إعطاء ماله وما هو أولى به، ولا يحسن في أموال الناس وحقوقهم، ولذلك جاء في الإسلام: ﴿وَلَا شَفَاعَةَ فِي حَدٍّ﴾^(١).

الموقف المسؤول

[٨٠] ألحوا على يوسف -عبيثا- بترك أخيهم بأية وسيلة ممكنة، فلما بلغوا حد اليأس اجتمعوا إلى بعضهم يتناجون فقال كبيرهم واسمه روبيل كما يقال، وهو ابن خالة يوسف وهو الذي نهاهم من قتله من قبل قال لهم: إنا قد عاهدنا الله عند أبينا ألا نفرط في أخينا، وقد كنا

(١) قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام قال: يَا عَلِيُّ لَيْسَ عَلَى زَانٍ عَقْرٌ وَلَا حَدٌّ فِي التَّعْرِيضِ وَلَا شَفَاعَةٌ فِي حَدٍّ. وسائل الشيعة: ج ٢٨ ص ٢٠٥.

فعلنا مثله مع يوسف فتعهدنا وأخلفنا، ولا يمكن أن نكرر الأمر، وإني سأبقى هنا وأنتظر أمر الله، فإما يأذن لي أبي أو يأذن لي ربي. ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ﴾ قيل: «ويشس واستيأس بمعنى واحد، مثل سخر واستسخر وعجب واستعجب»^(١). ولكن يبدو أن اليأس هو: العلم الصادق بعدم فائدة المحاولة بينما الاستيأس هو الظن بذلك الذي يداخله الضعف النفسي للبشر، وإذا كان هذا المعنى صحيحا فإن ذلك يعني أن إخوة يوسف كانوا غير مستقيمين نفسيا بسبب الجريمة السابقة التي ارتكبوها بحق أخيه، ولذلك فهم يأسوا سريعا..

﴿خَلَّصُوا نَجِيًّا﴾ أي انفردوا عن الناس حتى أصبحوا خالصين من دون غريب يشاركهم الأمر، وهدف خلوصهم وانفرادهم كان التجوى، وهنا من أبلغ ما نفهمه من آيات القرآن في أناقة الظاهر وعمق الباطن، وتنوع المعنى.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنِّي أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ أي بعد أن أخذ أبوكم منكم موثقا أيضا.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أي حتى يأذن لي صاحب الحق أو صاحب التشريع، وهكذا تجلت في أخيهما الأكبر روح المسؤولية، وظهر أنه تاب إلى ربه توبة نصوحا.

[٨١] وأمرهم رويين وهو أكبر الأخوة بالعودة إلى أبيهم، وبيان كل الحقيقة له ومن دون إضافة آرائهم إليها، قال لهم: ﴿أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ﴾ ولكن دون أن تؤكدوا التهمة، بل قولوا لأبيكم أيضا.

﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ إذ رأينا أنهم أخرجوا السقاية من وعائه، ولم نشهد بأكثر من هذا ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ لم نكن حافطين لما يجري في الواقع، ولذلك لا نعرف هل سرق أخونا أم لا، ولعله تهمة، يبدو أن ههنا اعتراف بالتفريط الحاصل منهم بشأن أخيهما حيث قبلوا من دون تردد تهمة السلطات ضد أخيهما وذلك بسبب سوء ظنهم به وبأخيهما يوسف من قبل.

[٨٢] وبإمكانك أن تسأل المجتمعين ببلد مصر، أو تسأل العائدين من هناك ﴿وَسُئِلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ أي أهل القرية، ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: أي مسافر قادم مع قافلتنا ﴿وَأَنَا لَصَدِيقُونَ﴾.

ولا تياسوا من روح الله

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ^(١) لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمَّا فَصَبِّرْ جَبِيلٌ عَسَى اللَّهُ
 أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ^(٢) وَتَوَلَّى
 عَنْهُمْ وَقَالَ يَإَسْفَى^(٣) عَلَى يَوْسُفَ وَآيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ
 كَظِيمٌ^(٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَنُوا^(٥) تَذَكَّرْ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ
 حَرَضًا^(٦) أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ^(٧) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي^(٨)
 وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ^(٩) بَنِي
 أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا^(١٠) مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ^(١١)
 إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ^(١٢) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ
 قَالُوا يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلُنَا الضُّرُّ وَجِثْنَا بِضَعَةِ مُرْجَلِهِ فَأَوْفِ
 لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ^(١٣) قَالَ هَلْ
 عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ^(١٤) قَالُوا أَوَإِنَّكَ
 لَأَنْتَ يَوْسُفَ قَالَ أَنَا يَوْسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا
 إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ^(١٥)

(١) سولت: زينت وسهلت.

(٢) يا أسفي: يا حزني

(٣) كظيم: الكظم اجتراع الحزن وهو أن يمسكه في قلبه ولا يثبته في غيره.

(٤) تالله تفتنوا: لا تزال.

(٥) حرَضًا: الحرض المشرف على الهلاك.

(٦) البث: الهم الذي لا يقدر صاحبه على كتمانته فيثبه.

(٧) فتحسسوا: التحسس طلب الشيء بالحاسة.

(٨) روح الله: الروح الراحه، والروح الرحمة، وأصل الباب من الريح التي تأتي بالرحمة.

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ
 (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ
 الرَّاحِمِينَ (٩٢) أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي
 يَأْتِ بِصِيرَةٍ وَأَنْتُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) ﴿٩٣﴾

هدى من الآيات:

وعاد إخوة يوسف عليه السلام إلى أبيهم وبغم جديد، وخرق للميثاق، فلم يصدقهم يعقوب بأن أخاهم سرق، واتهمهم بتدبير حيلة جديدة، ولكنه تذرع بالصبر الجميل، ووضع كل أمله على الله العليم الحكيم، وترك أبناءه وأعاد نوحه على ابنه يوسف عليه السلام وأسفه عليه حتى مشى البياض في سواد عينه، وكادت تعمى، وحتى بدا للناظر في مظهره المليء، بالهموم. الكاظم نفسه عنها. أما هم فقد أشفقوا عليه وقالوا: إنك لا تزال تذكر يوسف حتى تشرف على الهلاك أو تهلك فعلا، ولكن يعقوب تمسك بهدى إيمانه فلم ييأس وقال: إني أشكو همومي وأحزاني إلى الله الذي أعلم أنه أرحم الراحمين، وأنه يفي بوعده باستخلاف يوسف وسجود إخوته أمامه وأمرهم بتكرار المحاولة لعلهم يعثرون على يوسف، ونهاهم عن اليأس الذي هو بضاعة الكفار الذين لا يؤمنون بالله وبرحمته الواسعة، واستجاب إخوة يوسف لأمر والدهم الذي أشفقوا عليه، وبلغ ندمهم على فعلهم السابق مبلغ التوبة النصوح.

فذهبوا إلى مصر ودخلوا على العزيز وقالوا له بلهجة المتضرع: إننا قوم قد أحاط بنا البلاء حتى نحسنا بألم الفقر، ولا نملك إلا بضاعة رديئة. ونسألك أن تعتبرها جيدة فتوفي لنا الكيل بقدر البضاعة الجيدة، ونصدق علينا بإطلاق أخينا فالله يجزي المتصدقين الذين يحسنون إلى الناس ابتغاء مرضاته، ورأى يوسف أن الوقت قد حان للكشف عن نفسه فقال: هل تذكرون ما فعلتم بيوسف في أيام جهلكم تحسبون أن باستطاعتكم سلب حب أبيه عنه؟ وكان أبوه قد أعطاهم الأمل في البحث عن يوسف، وجاء سؤال العزيز عن يوسف غريبا فقالوا: أئنك لانت يوسف. قال: أنا يوسف وهذا أخي. انظروا كيف من الله علينا بسبب التقوى والصبر والإحسان، وبالرغم من إنفة إخوة يوسف الشديدة من الإعراف بفضل يوسف سابقا. إلا أنهم حلفوا الآن بالله بأن الله قد فضله عليهم، وأنهم هم الخاطئون، فعفا عنهم يوسف، واستغفر الله لهم وأملهم من رحمة ربه الذي هو أرحم الراحمين وطلب منهم العودة إلى أبيهم مع قميصه ليستعيد بصره الذي فقده لحزنه، وليأتوا بأهله جميعا ليشهدوا نعم الله عليه.

بينات من الآيات:

نفحات الأمل

[٨٣] لماذا اتهم يعقوب أبناءه بالكذب بعدما أخبروه بواقع ما جرى عليهم من احتجاز السلطات لأخيهم بتهمة سرقة صواع الملك، وقال لهم بعدما أخبروه: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أي أن أهواءكم زينت لكم فكرة أمتم بها انطلاقاً من الهوى لا العقل لماذا؟.

أولاً: إن إخوة يوسف عليه السلام كذبوا أول مرة وكانت تهمة الكذب أقرب إليهم لسوء سابقتهم في الخيانة.

ثانياً: إن اتهام السرقة إلى أخيهم بمجرد وجود السقاية في وعائه، كان نابعا من استصغارهم له، وعدائهم الدفين له ولأخيهم يوسف.

ثالثاً: إن تدليل أخيهم والتعصب لأنفسهم في مواجهته كان هو السبب لسرقته لو أنه ارتكبها. ولكن يعقوب عليه السلام تسليح بالصبر الجميل لمعالجة سوء أخلاق أبنائه، وعنصريتهم المقيتة حتى ضد أخيهم الأصغر سنا منهم.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي عندي صبر جميل استعاض به عن مكرهم، وما تسوله لكم أنفسكم، فلا أجزع لشدة البلاء، فافقد رشدي وقوة احتمالي، ولا أتردد في أن البلاء سيزول بإذن الله، ولا انطوي على نفسي بسبب المصيبة واترك العمل انتظارا لزوال المصيبة بذاتها أو بطريقة غيبية، وبالتالي أضيف عامل الزمن (الصبر) إلى سائر عوامل النجاح حسن التدبير - السعي - التوكل حتى ينصرني ربي، ويدل على معنى الجمال في الصبر السياق القادم. يقول ربنا على لسان يعقوب: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

[٨٤] وترك أبناءه موقتا، ولكنه أثار فيهم عواطف الأبناء لوالدهم العجوز وقد انهكتة المصائب فابيضت عيناه حزنا.. ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَكْأَسَفُنِي عَلَى يُوسُفَ وَأَبِیْضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾ يبدو أن استمرار الكتابة أفقد يعقوب قدرته على الرؤية. فتحول سواد عينه إلى بياض شأنه شأن كبار السن، ولا يجب أن يكون ذلك بسبب البكاء وحده. إذ أن الحزن المكبوت الذي يكظمه صاحبه قد يكون أشد أثرا على البشر من البكاء لذلك قال ربنا: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي يحفظ نفسه من آثار الحزن التي تظهر عليه رغم صبره الجميل.

تأثير البكاء على القلب القاسي

[٨٥] يبدو أن قلب أبنائه القاسي بدأ الآن يلين لوالدهم الحزين فجاؤوا إليه يواسونه ويطلبون منه التقليل من الحزن للإبقاء على صحته لكي لا يكون فاسد الجسم أو هالكا.

﴿قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَوُاْ تَذَكَّرُ يُوْسُفَ﴾ أي إننا نقسم عليك بالله ألا تستمر على ذكر يوسف فتعجل مرضك أو موتك ﴿حَتّٰى تَكُوْنَ حَرَضًا أَوْ تَكُوْنَ مِنَ الْهٰلِكِيْنَ﴾ الحرض المشرف على الهلاك.

[٨٦] ولكنه قال: كلا إن عاقبتني ليست الهلاك أو المرض بل سوف أبلغ هدي لأن اعتمادي على الله، ولأنني أعلم عن تعبير رؤيا ولدي يوسف. أني سوف أراه ذا شأن كبير. وهذا الأمل يحدوني إلى الضراعة إلى الله لتعجيل الفرج علي ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحَزَنِيْ إِلَى اللّٰهِ﴾ البت هو ما ظهر من الحزن ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ﴾.

بت روح الأمل

[٨٧] ثم دعاهم إلى السعي بلا يأس، وأمرهم بالتحرك والتفتيش عن يوسف وأخيه لمعرفة إن البلاء يرفع عند شدته ﴿يَبْتَغِْ أَذْهَبًا فَتَحَسَّسُوا﴾ أي استفيدوا من إحساسكم ولا تعتمدوا على نظرياتكم التي قد يداخلها اليأس فتبدوا لكم الحقائق أساطير، ولا تعتمدوا على أقوال الناس التي قد لا تكون صحيحة، وهذا أمر صريح منه بضرورة الاعتماد على العلم خصوصا الحاصل من التجربة الحسية.

﴿مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسْهُمَا مِنْ رَّوْحِ اللّٰهِ﴾ إن آفة التحسس والتفتيش عن الحقيقة هي اليأس والاعتقاد بقصر عقل الإنسان عن المعرفة وروح الله. ذلك الإلهام المفاجئ الذي يغمر قلب الباحث فيهتدي إلى الحق.

إن العلم نور يقذفه الله تعالى في قلب من يشاء، وهو روح الله في هذا المجال ولكن لا يقذفه إلا بعد أن يكون الفرد صالحا والذي لا يتحسس ولا يفتش بإحساسه عن الحقيقة لا يقذف الله نورها في قلبه.

﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَّوْحِ اللّٰهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ فالذين يكفرون بالله ويسترون نعمه عليهم. هم الذين ييأسون من روح الله.

بين يدي يوسف

[٨٨] وقام إخوة يوسف عليه السلام بشد الرحال إلى مصر يحدوهم أمل جديد لإنهاء مشكلة والدهم، وقد بلغت الضراء بالنسبة إليهم حدا لا يطاق، فدخلوا على يوسف في حالة يرثى لها إذ جاؤوا ببضاعة قليلة رديئة لا تساوي قدرا يذكر من الطعام، وطلبوا منه أن يتقبلها منهم على أساس أنها كاملة صالحة فيعطيه من الطعام ما يعوض ضررهم. كما طلبوا منه أن يتصدق عليهم بإطلاق سراح أخيه. طلبا لجزاء الله الذي أعده للمتصدقين ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ﴾ أصل الكلمة الدفع قليلاً قليلاً. وسميت البضاعة اليسيرة والناقصة بالمزججة لأن التجار يدفعونها عنهم ﴿فَأَوْفَى لَنَا الْكِيلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ الصدقة أصلها من تصديق وعد الله.

[٨٩] لقد تحطم غرور إخوة يوسف عليه السلام على صخرة الواقع فهاهم يجارون إلى عزيز مصر لكي يرحمهم، ويطلبون منه التصديق عليهم. والجوع، ومشكلة والدهم، وهاجس الذنب يقض مضاجعهم، وكان الوقت إذن مناسباً ليكشف يوسف عن لغز القصة. فبادرهم بسؤال مفاجئ.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ ففي أيام جهلكم وصغر سنكم وكبر غروركم، أقيمت يوسف أخاكم البرئ في غيابة الجب. واستصغرتكم أخاكم الثاني، ثم تركتموه عبداً عند الغرباء بعد أن أثبتتم عليه تهمة السرقة واتهمتم أخاه يوسف بها، والآن تطالبونني بالتصدق وتزعمون أن الله يجزي المتصدقين؟ الآن عرفتم هذه الحقيقة. أم لأنها في مصلحتكم توصلتم بها؟

وحل اللغز

[٩٠] كان واضحاً أن تقريع العزيز لم يكن عبثاً، وإنما كان يتناسب مع شعورهم الداخلي لأن مشاكلهم إنما هي بسبب ما فعلوه بأخيه يوسف.. وهنا ادركهم روح الله الذي طلبوه بإرشاد والدهم يعقوب، فعرفوا بلغته الذكية إن الذي يخاطبهم هو يوسف ذاته.

﴿قَالُوا آيَةُ نَكَ لَا أَنْتَ يَوْسُفُ﴾ قالوا بلحن السؤال المليء بالتعجب والشوق إلى الجواب ﴿قَالَ أَنَا يَوْسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ولم ينسَ يوسف أن يذكرهم بعبارة الحياة ويقول: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي أن من يقاوم ضغوط الشهوات، ويقاوم الحسد والحقد، ويبقى مستقيماً على تقواه. صابراً على

المكارة التي تصيبه بسبب التقوى.. فإن الله يجزه بقدر إحسانه إلى الآخرين، والقرآن يؤكد في سورة يوسف على قيمة الإحسان لأهميتها في الملك، وفي الحصول على مغنم الدنيا.

لحظات الاعتراف

[٩١] فاعترفوا بذنبهم، وبأن الله حين فضله عليهم فإنما بعلمه وحكمته البالغة ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ ءَاشْرَكْنَا بِاللّٰهِ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ إن خطاهم الأساسي كان في مقاومة سنة الله التي لا يزيد لها رفض الناس لها إلا عجلة.

[٩٢] أما يوسف عليه السلام الذي عرف عاقبة الغرور بالقوة، وكيف أن إخوته قد أسكرهم خمر العصبية فقاموا بجريمة منكرة وحطموا مستقبلهم، أما يوسف عرف أن زكاة النصر هي العفو فقد تسلم بقيمة الإحسان التي رفعت به إلى هذا المقام بإذن الله. وعفا عنهم بل وأعطاهم الأمل بأن يعفو عنهم الله لكي لا يلاحقهم شبح الجريمة فتتعقد أنفسهم، وتسوء أخلاقهم فيقوموا بجرائم أخرى.. ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي لا توبيخ ولا تفرغ ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

[٩٣] ثم أمرهم بأخذ قميصه إلى والده يعقوب. وهو ذلك القميص الذي تضوع بعقب جسده ذا النكهة الخاصة التي لا بد لأبيه الواله من معرفته بسبب تركيز أحاسيسه في لحظة المصاب وتذكره كل شيء من يوسف وبسبب استمرار حضور يوسف في غيخته رغم مرور أربعين سنة على فراقه ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَإِلْقَاؤُهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرَةٍ وَأَنْتُمْ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إن الحزن البالغ الذي ذهب بنور عين الشيخ الواله.. يتبدل فجأة إلى سرور بالغ فتشط خلايا جسده جميعا، ويعود بصيرا بإذن الله.

من الرؤيا الى الحقيقة

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ^(١) الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ
يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ^(٢) ﴾ ^(٣) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ
الْكَبِيرِ ^(٤) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَآزَنَهُ بِعَصَا
قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ^(٥) قَالُوا بَلَىٰ إِنَّا
أَسْتَغْفِرُكَ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ^(٦) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ
رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ^(٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ
إِلَيْهِ آبَاؤُهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَايِينَ ^(٨) وَرَفَعَ آبَاؤُهُ
عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبْنَوتُ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ
جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ
الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ ^(٩) الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ
لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ^(١٠) ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ
وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ^(١١) ذَلِكَ
مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ
يَمْكُرُونَ ^(١٢) ﴾

(١) فصلت: الفصل أصله القطع، وفصلت العير بمعنى انفصلت من المدينة نحو الشام

(٢) تفنّدون: التفنيد تضعيف الرأي والتفنيد ضعف الرأي.

(٣) نزغ: أفسد وحرش.

هدى من الآيات:

وتحركت من مصر قافلة البشر تحمل قميص يوسف عليه السلام. فقال يعقوب عليه السلام وهو جالس بين بعض أبنائه إني لأشم ريح يوسف. بالرغم من أنكم تضعفون رأيي. فأنكروا عليه ذلك ونسبوه إلى الابتعاد عن الحقيقة بسبب حبه العميق لولده. بيد أن البشير ما لبث حتى وصل وألقى قميص يوسف على وجهه فأعاد الله عليه به عينيه. وقال لهم ألم أقل لكم إني أعلم من الله نهاية مشكلتي، وتعبير رؤيا إني وأنتم لا تعلمون فسقط في أيديهم وطلبوا أباهم أن يستغفر لهم الله من ذنوبهم واعترفوا بخطئهم، فقال يعقوب: سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم. وارتحلوا جميعا إلى مصر فدخلوا على يوسف عزيز مصر حيث استقبلهم بحفاوة، وقال لهم ادخلوا مصر إن شاء الله آمين وجعل أبويه فوق العرش بينما خر الناس سجدا لله أمام عرشه، وقال يوسف: هذا تأويل رؤياي من قبل، لقد جعلها الله واقعا حقا، ثم فصل قصته لهم وكيف أنه سجن فأحسن الله به وأخرجه من السجن، وكيف بالتالي جاء بأهله من الصحراء بعد أن فرق الشيطان بكيد بينه وبين إخوته.

وكيف أن الله لطيف يجري سنته برفق. وبحسن تدبير وهو عليم حكيم. ثم استغل المناسبة لكي يدعو الله ويحدد موقفه من الملك الذي أنعم به الله عليه. فقال إن الله أتاه الملك وعلمه من تأويل الأحاديث لذلك فهو يطلب منه مزيدا من الفضل - وهو فاطر السماوات والأرض وهو الولي في الدنيا - ذلك الفضل هو إبقاؤه في الدنيا على الإسلام وإلحاقه بالصالحين في الآخرة.

كل ذلك كانت قصة يوسف عليه السلام التي أوحى بها ربنا إلى قلب الرسول، وكيف احتوت على أدق التفاصيل الهامة مثل مباحثاتهم وهم يجمعون أمرهم ويخططون لإلقائه في غيابت الحب.

بينات من الآيات:

نسائم البشرى

[٩٤] حينما تحركت القافلة التي تحمل قميص يوسف عليه السلام تجدد الأمل في قلب يعقوب برؤية ابنه المختطف بعد طول المعاناة، فقال لمن حوله إني أجد ريح يوسف ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ بيد أن من حوله لم يكونوا يصدقوه.

أولاً: لأنهم إعتقدوا أن أمل يعقوب نابع من حبه العميق لابنه يوسف.

ثانياً: لأنه لم يكن معقولا عندهم أن يجد أحد ربح ابنه من بعيد خصوصاً من مسافة عشرة أيام سيرا لذلك قال يعقوب: ﴿لَوْلَا أَنْ تُقِنِّدُونِ﴾ أي تضعفون رأيي. وتحاولون إبطاله.. ويبقى هذا السؤال: هل أن الحاسة السادسة.. التي هي قد تكون تركيزاً لمجمل القوى العلمية عند البشر هي التي كشفت ليعقوب تحرك العير بقميص يوسف. أم إنه كان إعجازاً غيبياً؟!

[٩٥] وبالرغم من أن يعقوب أكد لهم أن تغنيدهم لرأيه لا يضطره إلى تغييره، وهو متشبث برأيه بالرغم من مخالفتهم وبالرغم من ذلك نجدهم يؤكدون له معارضتهم ويخلفون بالله أنه في ذات الضلالة القديمة التي كانت عنده.

﴿قَالُوا تَأَلَّوْا إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ حيث أنه لا يزال ينتظر ابنه الذي ضاع في دنيا المآسي، وفي عالم بعد الإنسان فيه أقل قيمة من أي شيء آخر.

فارتد بصيراً

[٩٦] ما لبث أن وصل البشير يحمل قميص يوسف. وربما بعد عشرة أيام من السير الحثيث لقطع المسافة بين فلسطين ومصر.. فأخذ القميص وألقاه على وجه يعقوب فعاد إليه بصره ربما بسبب الفرح الذي طرأ بصورة مفاجئة أو بسبب غيبي إلهي ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ. فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ حيث علم يعقوب بتفسير رؤيا يوسف إنه يبقى حتى يصبح ملكاً تخضع له أعناق إخوته كما علم بالغيب أن يوسف لم يمت ولقد وعده الله بإعادته إليه.

[٩٧] وهنالك فقط اعترف إخوة يوسف -ويبدو أنهم الباقون منهم عند أبيهم يعقوب- اعترفوا بذنبهم، وطلبوا من أبيهم أن يشترك في الاستغفار لهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾.

[٩٨] ووعدهم يعقوب الاستغفار مستقبلاً وأملهم في مغفرة ربهم كما فعل يوسف بسائر إخوته! وكما يفعل الصالحون بالمدنيين، والسبب أن اليأس من جنود الشيطان ومن عوامل الانحراف ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

ويبقى سؤال لماذا آخر الاستغفار؟.

والجواب: إن للاستغفار شروطاً: إصلاح ما فسد والعزم على عدم التكرار، وتركية

النفس وتطهيرها من رواسب الذنب، ثم الاستغفار في أوقات خاصة، مثلاً: بعد صلاة خاشعة. وهكذا لذلك جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ يَعْقُوبَ أَخْرَ أَبْنَاءَهُ إِلَى وَقْتِ السَّحَرِ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى إِجَابَةِ الدُّعَاءِ»^(١).

ثم إن الذنب لا يكفيه مجرد طلب المغفرة مرة واحدة بل لابد من الاستمرار على الاستغفار المرة بعد الأخرى، وهذا لا يحصل إلا عبر أيام متطاولة، ولذلك قال يعقوب لهم سوف... وقالوا: إن يعقوب كان يصف أولاده عشرين سنة يدعو ويؤمنون على دعائه وإستغفاره لهم.

وتحققت الرؤيا

[٩٩] جمع يعقوب أبناءه وامتنعته وساروا إلى مصر حيث الملك العادل، فاستقبل يوسف عند بوابة المدينة أبويه: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ عَاوَنَ إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ إن أعظم نعم الله على أصحاب المدن هو الأمان، والابتعاد عن الحر والبرد والحوانات الضارية والغزو والنهب وما أشبه.

[١٠٠] أما أبواه فقد استقرا عند يوسف على عرش الملك. بينما سجد الجميع لله شكراً لهذه النعمة.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ قال بعضهم إن السجود كان باتجاه يوسف فعلاً ولكنه لم يكن بمعنى الوقوع إلى الأرض، إنما الانحناء التام احتراماً لمقام الملك. وإكراماً له، وهذا أمر يجوز. فيما تحرم العبادة، إذ أن الحرام هو تقديس أحد ورفعته إلى مستوى الألوهية، سواء كان ذلك عن طريق السجود له أو الطاعة المطلقة له أو حتى رفع اليد، فحتى رفع اليد إذا كان إشارة إلى أن صاحبه إله، فهو حرام وشرك.. وأما لو كان الاحترام بهدف الإكرام لا التقديس، وإذا كانت الطاعة بهدف عبادة الله والخضوع لأمره بطاعة ولي الأمر، فإن السجود أمامه لا يكون حراماً، إلا إذا كان السجود بذاته رمزاً للألوهية كما الحال بيننا نحن المسلمين.

وإن كثيراً من الشعوب ينحنون إلى حد الركوع أو أكثر تحية للقاء بينهم. ولا يعني ذلك أبداً معنى الاعتقاد بألوهية من يفعلون أمامه ذلك.. وبالتالي لا يحرم عليهم ذلك بينما يحرم علينا لأن الركوع قد تحول بذاته إلى رمز للعبادة، واختص به الله. وحين فعل أخوة يوسف أمامه ما فعلوه التفت يوسف إلى أبيه.

﴿وَقَالَ يَتَابَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ فالشمس والقمر هما والداه، والأحد عشر

كوكبا هم أخوته الذين سجدوا أمامه جميعا.

وهكذا جعل ربنا تلك الرؤيا حقيقة. بينما كان من الممكن لو لم يوفر يوسف شروط تحقيقها في نفسه ويسعيه وحسن إختياره أن تبقى حلما وأماي.

﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ ركز حديثه على مرحلة السجن لأهميتها ولبعد المسافة بين السجن المتهم بجريمة شرف وبين الملك العزيز الذي بيده كل شيء.

﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ أي من حياة الصحراء إلى العيش بمصر، حيث المدينة؛ ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ تَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي أفسد العلاقة بيني وبين إخوتي. ثم أكد أن أمر الله ينفلج برفق بين ثنايا الحياة كما الماء في مسارب الرمال، بحيث لا يعرف أحد كيف تم التحول.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ حيث أن تدبيره يوغل برفق ومن دون صخب أو صعوبة بين صخور الحياة دون أن يقدر أحد على الوقوف أمامه. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ فبعلمه سبحانه أحاط بسبل الحياة. وبحكمته أجرى تدبيره عبرها حتى النهاية.

[١٠١] في عزة قدرته وملكه لم يغفل يوسف عليه السلام ربه. ولم ينس أنه هو الذي آتاه الملك، وأن ما عنده جزء من الملك الأكبر الذي يملكه الله سبحانه فخوله إياه. كما أن علمه جزء مما عند الله.. وبالتالي فإنه بحاجة إلى ربه ليأتيه المزيد من الملك. ويعلمه المزيد من تأويل الأحاديث ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

إن نشوة الانتصار لم تدع يوسف إلى الانتقام لأيام الذلة والعذاب. حيث ألقي في الحب، وحيث وجد نفسه عبدا يتبادل الناس بثمان بخص دراهم معدودة، وحيث تسجنه امرأة العزيز زورا، ويعاني في السجن الأمرين، ذلك لأن قلبه كان عامرا أبدا بنور الله فلم يصب بعقدة النقص والانهيار والسلبية. كما لم يصب بالغرور والفخر لأنه كان يعلم أن الشر والخير فتنة، وأن البلاء رحم العظمة وقد تكون النعمة سبيل الهاوية.

كما كان يؤمن بأن الحياة الدنيا بما فيها من خير وشر، قنطرة إلى الآخرة التي هي الحيوان، لذلك لم ينس تفاهة الدنيا بخيرها وشرها، بسجنها وملك مصرها، لذلك قال -وهو يدعو ربه-: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ إن الهدف الأسمى للإنسان ينبغي أن يكون الاستمرار على خط الإسلام حتى

الموت. ومن ثم أن يحشر مع الصالحين.

[١٠٢] وهكذا انتهت قصة يوسف يوحىها ربنا على قلب الرسول، ويعلمنا بأدق التفاصيل فيها وبعدها، وكيف إن المكر لا ينفع صاحبه، وإنه لا يحقق المكر السيء إلا بأهله ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

وفي الدروس القادمة نجد المزيد من عبرة هذه القصة الحكيمة.

في قصصهم عبرة

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ ^(١) بِمُؤْمِنِينَ ^(٢) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ^(٣) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ^(٤) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ^(٥) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ ^(٦) مِنْ عَذَابِ اللهِ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ^(٧) وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ^(٨) قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي ^(٩) أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ^(١٠) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ^(١١) حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ ^(١٢) الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا ^(١٣) عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ^(١٤) لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ^(١٥) مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ^(١٦) ۞

(١) حرصت: الحرص طلب الشيء باجتهاد في أصابته.

(٢) غاشية: الغاشية المجللة للشيء بانبساطها عليه، والغشاء الغطاء.

(٣) بغتة: البغلة الفجأة وهو مجيء الشيء من غير توقع.

(٤) سبيلي: طريقي.

(٥) استياس: استياس بمعنى يش.

(٦) باسنا: البأس الشدة وهو شدة الأمر على النفس، ومنه البؤس الفقر.

(٧) الالباب: العقول.

هدى من الآيات:

انتهت قصة يوسف عليه السلام، وبقيت عبرتها المتمثلة في طبيعة البشر المعاندة للحق، فأكثر الناس رغم حرص الرسول وأصحاب الحق ليسوا بمؤمنين، ويحسبون أن الرسالة خسارة بينما هي ذكر. وتوجيه للعاملين إلى الحق الذي غفلوا عنه، وكم هي الآيات المنتشرة في السماوات والأرض يمرون عليها، دون أن يتفحصوا بها بل هم معرضون عنها. إن إيمان أكثرهم مغلوط بالشرك. وبالتالي فهو ليس بإيمان. ولا يدري هل هم قد أخذوا صك الأمان من عذاب الله الذي يشملهم إذا جاء ومن الساعة التي تأتيهم فجأة في الوقت الذي هم لا يشعرون.

ولكن الرسول يدعوهم إلى سبيل واضحة هي الدعوة إلى الله على بصيرة ورؤية واضحة له ولمن يتبعه، وهي بصيرة التوحيد وتنزيه الله عن أي نوع من أنواع الشرك. وهذه كانت رسالة الله من قبل التي نزلت على رجال من أهل القرى، فلماذا لا يسرون في الأرض ليروا ماذا كانت نهاية أولئك السابقين وليعرفوا أن الدار الآخرة أفضل للمتقين؟ فلماذا لا يعقلون والحقيقة واضحة؟.

لقد أرسل إليهم رجالا فبلغوا رسالات الله فلم يستجيبوا لهم حتى إذا بلغوا درجة اليأس، وظنوا أنهم قد كذبوا فعلا جاءهم نصر الله، فنجى ربنا من شاء بينما لم يقدر أحد على رد بأسه سبحانه عن المجرمين. إن هذه هي عبرة قصص السابقين التي يستوعبها أولوا الألباب والعقول، وليس حديثا يمكن أن يفترى إنما هو كلام حق يصدق الأحاديث السابقة ويفصل كل شيء ويهدي المؤمنين، ويفلح به المؤمنون.

بينات من الآيات:

البشر وطبيعته

[١٠٣] مبدئياً يجب على كل إنسان أن يكون مؤمناً. إذ أن الله أودع فيه العقل وأنزل له الهدى. أما عملياً فإن قليلاً من الناس يرتفعون إلى مستوى الإيمان، كما أن قليلاً منهم يستفيد من طاقة العلم ومن كنوز الإرادة التي استفاد منها كبار العباقر من أبناء آدم. من هنا لا يجوز لصاحب الرسالة أن يصطدم بسبب عدم إيمان أكثر الناس. بل عليه أن يشكر الله كثيراً لإيمان من آمن منهم لأنه قد وفق أن يكون سبباً لصعود طائفة من أبناء البشر إلى هذه القمة السامية برغم الصعاب ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

[١٠٤] ولا يدل عدم إيمان الناس بالرسالة أن مصالحهم تُضرب بالرسالة، أو أن الرسول يطالبهم بأجر، أو أن الرسالة قد هبطت لطائفة خاصة فقط. كلا.. ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

[١٠٥] كما لا يعني عدم إيمانهم قلة الآيات. لأن الآيات كثيرة ومبثوثة في السماوات والأرض ولكنهم يعرضون عنها إلى شهواتهم وإلى الضغوط القريبة ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَاتِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

[١٠٦] نعم إن الناس يتعرفون بفطرتهم على الله، ولا ينكرون وجوده سبحانه وتعالى بصورة أو بأخرى. إنما القضية التي جاءت رسالات السماء من أجل اصلاحها هي أن إيمانهم مشوب بالشرك. فهم يؤمنون بالله ويالهوى وبالطاغوت، وبالتالي لا يخضعون كاملا لله سبحانه، وهذا يساوي الكفر تماما. إذ ما فائدة الإيمان الذي لا يعطيك القدرة على مقاومة الضغوط ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ اِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾.

[١٠٧] يبقى أن نعرف عدم إيمانهم بالله إيمانا حقيقيا إنما هو بسبب زعمهم بأن الله لا يعاقبهم. لقد فرحوا بنعم الله عليهم. فلم يخشوا العذاب الذي يشملهم ويفشاهم. كما لم يخافوا الموت وما وراءه من ساعة القيامة التي تأتيهم فجأة في الوقت الذي هم غافلون عنها ﴿اَفَاٰمِنُوْا اَنْ تٰتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّٰهِ اَنْ يَّاتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُوْنَ﴾.

مهمة الرسول

[١٠٨] الدعوة الإلهية واضحة ويؤمن بها أصحابها على يقين. وهي ليست مادية أو شخصية أو مصلحة بل خالصة لله وحده.

﴿قُلْ هٰذِهِ سَبِيْلِيْ﴾ هذه الآيات القرآنية تشكل سبيل الله.

﴿اَدْعُوْا اِلَى اللّٰهِ﴾ لا إلى نفسي أو وطني أو أرضي أو عشيرتي أو.. أو إلخ.

﴿عَلٰى بَصِيْرَةٍ اَنَا وَمَنْ اَتَّبَعَنِيْ﴾ فنحن نرى بوضوح طريقنا ونمشي عليه. لا نشك فيه ولا نتردد قيد أنملة ولا نختار طريقنا على الهوى أو التقليد أو استجابة للضغوط ﴿وَسُبْحٰنَ اللّٰهِ وَمَا اَنَا مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾.

منطق السماء

[١٠٩] إن المؤمنين على طريق معبد بسيرة السابقين، فلقد بعث الله رجالا من الناس أنفسهم فأوحى إليهم كما أوحى إلى النبي محمد ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ اِلَّا رِجَالًا نُّوْحِيْ اِلَيْهِمْ مِّنْ اٰهْلِ الْقُرٰى﴾ أي من أهل المدن التي بعثوا إليهم

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ عليهم - لكي يفهموا الحقيقة - ألا يكتفوا بالجلوس في بيوتهم والاكتفاء بأفكار السابقين أو ثقافة الوسط الاجتماعي بل عليهم أن يتحركوا، وأن يسيروا في الأرض وليكن سيرهم وبحثهم بهدف الوصول إلى الحقيقة لينظروا نهاية المجتمعات الهالكة ﴿كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فقد كانت عاقبتهم الدمار بسبب تكذيبهم بالرسالات أما الآخرة فإنها - بالطبع - ليست من نصيب الكافرين ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

[١١٠] وهلاك الكفار والمكذبين لم يكن من دون سابقة إنذار، بل لقد استنفذ الرسل كلما كان بوسعهم في سبيل دعوتهم، وصبروا على أذاهم، وبلغ بهم الأذى درجة اليأس ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ جاء في التفاسير: أي تيقن الرسل أن قومهم كذبوهم تكذيباً عاماً حتى أنه لا يصلح واحد منهم.. وقال بعضهم: معناه ظن الأمم إن الرسل كذبوهم فيما أخبروهم من نصر الله إياهم وإهلاك أعدائهم.. وروي عن ابن عباس قال: «كانوا بشراً فضعفوا ويشسوا وظنوا أنهم قد أخلفوا ثم تلا قوله تعالى: ﴿حَقَّ يَقُولُ الرَّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَخَىٰ نَصْرَ اللَّهِ﴾.. قال الطبرسي: وهذا بعيد وقد بينا ما فيه»^(١).

﴿فَنُجِيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يَرُدُّ بِاسْتِنَاعِنَا الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

[١١١] إن المقتطفات من تاريخ الرسل وقومهم يمكن أن تأخذنا إلى ما وراءها من أنظمة اجتماعية وتكشف عن طبيعة التحولات التاريخية، ولكن بشرط واحد وهو أن يكون الإنسان عاقلاً، ويهتم بجوهر القضايا ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وبالتالي ليس العبرة التاريخية مما يمكن أن يفترى، لأنها إشارة إلى حقائق خارجية يمكن لكل إنسان أن يعرفها لو استخدم عقله أو حتى شعوره. مثلاً لو أشار أحد إلى الشمس أو إلى الجبال والبحار، وقال أفلا ترونها كيف أنها جميلة ومنظمة. فهل يمكن أن يقال له بأنك كذاب؟! الشمس يراها الفرد بذاته، ويشعر بجمالها، ويعقل نظامها بمجرد التفكير فيها، وليس بما يقوله الآخرون، وهكذا آيات القرآن إشارات واضحة إلى ما في الكون ذاته من حقائق.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾

إنما القرآن يفصل الحقائق التي يراها الفرد بإبهام ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعرفهم بحقيقة الأشياء ويوفر لهم النعم بهذه المعرفة.

وهكذا تنتهي سورة يوسف المليئة بالعبر التاريخية والتي كشفت خبيثة النفس البشرية بما تمتلك من عقل وإرادة وعلم تجلت عند يوسف، أو من حسد وكبر وحيلة تجلت عند اخوته.

سُورَةُ الرَّعْدِ

* مدنية.

* عدد آياتها: ٤٣.

* ترتبها النزولي: ٩٦.

* ترتبها في المصحف: ١٣.

* نزلت بعد سورة محمد.

فضل السورة

عن الرسول الأكرم ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الرَّعْدِ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ يَعْدُدُ كُلُّ سَحَابٍ مَفْى وَكُلُّ سَحَابٍ يَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُوفِينَ بِعَهْدِ اللَّهِ تَعَالَى».

(مستدرک الوسائل: ج ٤ ص ٣٤٣)



عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «مَنْ أَكْثَرَ قِرَاءَةَ سُورَةِ الرَّعْدِ لَمْ يُصِبْهُ اللَّهُ بِصَاعِقَةٍ أَبَدًا وَلَوْ كَانَ نَاصِبًا وَإِذَا كَانَ مُؤْمِنًا أُدْخِلَ الْجَنَّةَ بِلاَ حِسَابٍ وَيُشَفَّعُ فِي جَمِيعٍ مَنْ يَعْرِفُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَإِخْوَانِهِ».

(ثواب الأعمال: ص ١٠٦)

الإطار العام

آيات الطبيعة سبيل الإيمان

سميت السورة بسورة الرعد لوجود آية محورية فيها تنبئ عن الخط العام للسورة التي توصلنا إلى الإيمان والهداية عبر آياته الكونية، فالرعد حالة طبيعية، له مسبباته وأهدافه، على أن الرعد ليس آية كونية فقط، وإنما من الممكن أن يكون آية لنا يدلنا على الله وقوته ورزقه للعباد.

وبالرغم من أن الرعد يخيفنا صوته عند سماعه، إلا أن الله ينبهنا إلى قضية مهمة وهي: أن الرعد آية من آياته، كما أن السماوات والأرض آيات له، فليست الطبيعة هي المعبود الذي يجب أن نخشاه وأن نعبد، بل هي خلق من خلق الله، سخرها لنا لنستفيد منها، فليست الطبيعة هي الحاكمة، بل إن الرعد والسماوات والأرض تسبح الله من خيفته.

لقد أصبحت الطبيعة -منذ القدم- رباً مزيفاً يعبدها بعض الناس لما رأوا عظمتها؛ فهناك من عبد الشمس وهناك من عبد القمر أو النجم أو.. أو.. ولا زال الحاضر يشهد على مخلفات الماضي، فكلمة أطلس -مثلاً- تدل على إله الأرض، وكذلك ابولو على إله السماء.

فإذا عبدت الله فإنه يعبد لك كل شيء. وقد جاء في الحديث القدسي: «يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا حَيٌّ لَا أَمُوتُ أَطِيعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ حَتَّى أَجْعَلَكَ حَيًّا لَا تَمُوتُ، يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا أَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ أَطِيعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلَكَ تَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ»^(١). أما إذا لم تعبد الله فإنك لن تكون سيداً على الطبيعة، بل ستكون الطبيعة سيدة عليك، يسلطها الله عليك متى جحدت وكذبت.

إذا؛ فالهدف من آيات ذكر الله سبحانه في الطبيعة ليس ذاتها، وإنما الهدف من ذلك هو تعميق روح الإيمان بالله في قلب الإنسان، وزرع اليقين في قلبه، فمسيرة الطبيعة هي تلخيص لحياة الإنسان؛ فمثلاً يقول العلماء إن الطبيعة إلى زوال، وإنما في تناقص مستمر، أفلا يدل ذلك

(١) مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ٢٥٨.

على أن أعمارنا كذلك؟ وإذا لم نصدق بأن أعمارنا ستنتهي عند حد معين لوجود موانع نفسية تمنع هذا التصديق، ألا يعني ذلك أنه لا بد أن تنتهي أعمارنا عند أقول الشمس والأرض والقمر إلى الأبد؟ هذا إذا تصورنا أن أعمارنا بقدر عمر الشمس والقمر (الآيات: ١-٢).

إن السياق القرآني العام يذكرنا بطبيعة النظام الموجود في الكون، وأن في هذا النظام دلالة واضحة على قدرة ربنا سبحانه.

وكما أن في كلية الحياة عبرة، فإن في تفاصيل الحياة عبر أخرى.

وتفاصيل الآيات الربانية كفيلة بتنبيه الغافلين، ذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد. ولكن رغم كثرة الآيات وانتشارها في أرجاء الكون، يبقى الإنسان يرتاب في قدرة ربه على إحيائه بعد مماته.

ومهما يكن؛ فإن المشكلة العتيدة لدى الإنسان هي منهجية التفكير الحاكمة على عقله، وإذا صحت هذه المنهجية، استطاع أن يفكر تفكيراً سليماً لا يمنعه حجاب عن الوصول إلى المعرفة التي تزوده بالحكمة. والقرآن الكريم عبر آياته في هذه السورة المباركة يهدف إلى إصلاح منهجية الإنسان في التفكير بعد أن يبصره بالقوى الضاغطة عليه، كما أنه يصور لنا الطبيعة من جديد، حتى يلفتنا إليها وكأننا لم نرها من قبل (الآيات: ٣-٧).

ثم تذكر السورة ببعض صفات الله، فهو يعلم ما تحمل الإناث في بطونهن، ويعلم تفاصيل حياة الجنين وصفاته، كما يعلم كل مكنون من القول وكل ظاهر منه، ويعلم كل من سار بالليل أو سرب بالنهار، وهو محيط علماً بالغيب والشهود (الآيات: ٨-١٠).

ومن آياته أن جعل مع كل نفس ملائكة تحفظها من الأخطار، فإذا جاء أجلها خلّوا بينها وبين الأجل. وأن الإنسان لا يستطيع أن يرد عن نفسه ضراً أو يجلب لها نفعاً من دون إرادة الله (الآية: ١١).

ومن آيات الله أن يرافق السحب الثقال البروق والرعود خوفاً من عقابه ورجاءً لرحمته. فالرعد الذي يسبح بحمده يهز ضمائرنا ويذكرنا بعظمة الجبار، والملائكة تسبح كذلك خشية منه. أبعد هذه الآيات يكفر الإنسان بالله ويشرك به غيره؟ (الآيات: ١٢-١٤).

كما تكشف هذه السورة أن الفرق بين من يؤمن بالله، وبين من لا يؤمن به، كالفرق بين البصير والأعمى، والنور والظلمات. وأن المؤمن عندما يتصل بالله يتحول من لا شيء إلى شيء يشار إليه، ولأن الله مهيمن على كل شيء وبه تقوم الأشياء، فإنه كلما كان الإيمان أعمق، كلما

كان الإنسان أكبر (الآيات: ١٥-١٨).

وضمن سياق السورة، يذكرنا الله تعالى بصفات المؤمنين السلوكية والنفسية، ومن أبرزها الوفاء بعهد الله سبحانه وتعالى، والانتفاء إلى جبهة الرسالة ومعاداة غيرها، وخشية الله في كل حال، والخوف من سوء الحساب، والصبر عند الشدائد، وإقامة الصلاة والإنفاق في السر والعلن، والخلق الرفيع (الآيات: ١٩-٢٤).

ثم ينتقل السياق إلى استعراض صفات الكفار التي هي نقيض صفات المؤمنين، وأولها نقض العهد، كما يشير السياق إلى أن الرزق من الله، كما أن منعه بيد الله، وأن المؤمنين تطمئن قلوبهم بذكر الله، ولذلك فلهم الحياة الطيبة في الدنيا، وحسن المآب في الآخرة (الآيات: ٢٥-٢٩).

ثم يذكرنا القرآن فيما بعد بحقيقة أن الرسالة المحمدية امتداد طبيعي لرسالات الأنبياء، ومكملة لها، ومهيمنة عليها جميعاً، وأن سنن الله واحدة تطبق على سائر الأمم في سائر الأجيال، وما على الرسل إذا جحد الكافرون بالرحمن، إلا أن يتوكلوا على ربهم.

ويذكرنا السياق بأن أساس كفر الكفار ليس برسالة الرسول، بل بالرحمن نفسه، ولو أن الله استجاب لهم بطلبهم المزيد من الآيات لما زادهم ذلك إلا عناداً واستكباراً. ثم هل هناك آية أكبر من هذا القرآن الذي لو كان من المقدر أن يُسير به الجبال ويُكَلِّم به الموتى لكان ذلك؟ وإن كثيراً من القوارع نزلت على من قبلهم فلم يتعظوا، ولو أنهم كانوا يريدون الهداية بالآيات لاهتدوا بتلك القوارع واتعظوا بها.

وبعد ذلك يسأل: هل إن الله هو القائم على كل نفس بما كسبت من خير أو شر أم الشركاء؟ وهل الشركاء هم الذين ينبؤون الله ويوحون إليه؟.

إن مكرهم السيئ، وتزيين ذلك في نفوسهم، والصدّ عن سبيل الله كان السبب الرئيسي في إضلال الله لهم. ومن يضلل الله فلن تجد له هادياً مرشداً، وأما نهاية هؤلاء فأما عذاب الدنيا والآخرة، أو عذاب في الآخرة، وأما نهاية المؤمنين فأحسن منهم مقاماً وأفضل ندياً (الآيات: ٣٠-٣٥).

كما تؤكد الآيات أن مواقف الناس من الكتاب ثلاثة؛ فإما مؤمن به كله، أو مؤمن به في حدود مصلحته، أو كافر به. وبمناسبة الحديث عن أصناف الناس واتجاهاتهم من الكتاب يحدثنا الله عن أن القرآن عربي، وعروبة القرآن ليس تعصباً جاهلياً للعربية، فالقرآن عربي ولكنه

يخالف كل السخافات العربية، والقرآن أيضاً لا يتنازل عن قيمة مجارةً للثقافة الجاهلية الشائعة آنذاك (الآيات: ٣٦-٣٨).

أما الآيات الأخيرة من السورة فتذكرنا بأن الأمور بيد الله تعالى، وأن إرادته مطلقة تتجاوز التقدير والسنن، وأنه يمحو ما يشاء ويثبت، وأنه ليس على الرسول إلا البلاغ، لأن على الله الحساب، فله أن يعذب وإن شاء آخر العقوبة (الآيات: ٣٩-٤٣).

أسماء الله وتجلياتها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَائِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾.

هدى من الآيات:

الم؛ تلك الحروف التي حملها الرب سبحانه آيات الكتاب و الكتاب الذي أنزله الله إليك يا رسول الله هو الحق و كله لا ريب فيه.

و لا ضير في هذا الحق إن لم يؤمن به أكثر الناس (لخلل فيهم) فلا يصدنك عدم إيمانهم عن هذا الحق و الكتاب المحفوظ في ثنايا حروف يعكس حقائق ذلك الكتاب المنبسط في السماوات. ألا ترى آيات الرب فيها كيف وضعها بغير عمد ترونها. و قدر فيها ما قدر، ثم استوى على العرش يدبر الأمر و يجري فيها سننه و أقداره. ألا ترى كيف سخر الشمس والقمر و كل قد قدر له أجلا مسمى.

والذي يدبر أمر السماوات والأرض لحظة بلحظة هو الذي فصل الآيات لتوفر للناس فرصة اليقين بلقاء الله، فانه لم يخلق كل هذه باطلا، ولن يترك الناس سدى سبحانه، إنما يؤخرهم ليوم الجزاء الكبير.

(١) عمد: جمع عماد وهي الدعائم.

بينات من الآيات:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لماذا تتكرر البسملة في كل سورة؟.

تتكرر البسملة في كل سورة؟، لتعطي معنى جديداً ينسجم مع الإطار العام للسورة، فبسملة الحمد يختلف تأويلها عنها في سورة الشورى، ويختلف عنها في سورة الذاريات وهكذا.

وهكذا فإن بسملة هذه السورة تنسجم مع السورة حيث أن السورة تتحدث عن الهدى عن طريق آيات الله في الطبيعة، والرعد هو نموذج عن آيات الله في الطبيعة، وهي جميعاً تجل لأسماء الله التي تدل على القدرة والسلطان والعظمة فباسم الله ذي الهيمنة والعظمة والملكوت والقدرة، والرحمة الشاملة والرحمة الدائمة نبداً.

آفاق القرآن

[١] ﴿الرَّسُّ﴾ الرموز في بداية السورة تشير إلى أحد معنيين:

- إنها رموز بين الله وبين عباده المخلصين.

- إنها إشارة إلى القرآن ذاته أو كلاهما.

فنحن قد نقول كلاماً نقصد به معنى واحداً ولكن الأديب قد يقول كلاماً يقصد به معنيين، ولكن رب العزة قد يوحى بكلام يقصد به سبعين معنى، وكذلك جاء في الحديث: «كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ عَلَى الْعِبَارَةِ وَالْإِشَارَةِ وَاللَّطَائِفِ وَالْحَقَائِقِ فَالْعِبَارَةُ لِلْعَوَامِّ وَالْإِشَارَةُ لِلْخَوَاصِّ وَاللَّطَائِفُ لِلْأَوْلِيَاءِ وَالْحَقَائِقُ لِلْأَنْبِيَاءِ»^(١).

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ لا بد أن تعرف إن الذي أنزل إليك هو الحق - كل الحق -، لم يقل الله «والذي أنزل إليك من ربك حق» بل قال: ﴿الْحَقُّ﴾ - فالألف واللام تعطي معنى الاستغراق - أي لا يوجد حق في غير القرآن.

﴿وَلَيْكِنَّا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يكرر الله سبحانه في كثير من الآيات هذا المعنى: إن

القليل من العباد الشكور، والقليل من العباد المؤمنين، وإن تتبع أكثر من في الأرض يضلوك وهكذا.. لماذا؟.

يتكرر هذا المعنى كثيرا في القرآن لأن الإنسان بطبيعته الضعيفة، وانعدام ثقته بنفسه لا يتبع عقله دائما، بل يتبع الناس ويقول: حشر مع الناس عيد، فلنكي يجعلنا القرآن ننظر إلى آفاق السماوات والأرض بلا حجاب يبعدنا عن الضغوط الاجتماعية التي تكبل عقل الإنسان، إذن في البدء اقطع العلاقة التبعية لكي تكون شخصية مستقلة ثم فكر في ذلك لأن مفتاح العقل التحرر.

حقائق كونية

[٢] ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ جاء في الحديث في تفسير علي بن إبراهيم القمي في حديث طويل عن الإمام الرضا عليه السلام عن هذه الآية: قال: «فَلَمْ عَمَدٌ وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهَا»^(١) والله أعلم ما هذه العمدة.

كل تصورنا حتى الآن عن هذه العمدة، أنها ربما تكون تعادل قوى الطرد والجذب بين الكواكب والنجوم فمثلاً: إن قوة الطرد الناشئة من دوران الأرض حول الشمس تساوي بالضبط قوة الجذب للشمس، فعلى ذلك تبقى الأرض ملايين السنين في مدار واحد، أما لو تغيرت إحدى هاتين القوتين لحدث ما لم يكن في الحسبان، فلو زادت قوة الطرد لانفلتت الأرض على المجهول في خط مستقيم، ولو زادت قوة جذب الشمس للأرض لالتصقت الأرض بالشمس لأنها ستضطر في النهاية لأن تسير في مسار حلزوني، ولنشبه هذا المثال بما يلي:

أنت تمسك بطرف حبل في يدك والطرف الآخر للحبل مشدود به قطعة حجر.. حاول أن تدبر الحجر، ماذا يحدث إن الحجر يريد الانفلات، فلا الحجر ينفلت، ولا هو يلتصق بيدك، لأن كلا القوتين متساويتين، ولكن هب أنك تركت طرف الحبل الذي بيدك، إنك تجد الحجر ينفلت، وهب إنك أثناء تدويرك للحجر تلف الحبل بيدك ستجد بعد قليل إن الحجر قد التصق بيدك.

ربما هذا التفسير يكون تفسيراً للعمدة، والله أعلم.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ إن الله سبحانه لم يخلق الحياة كساعة ذاتية الحركة تجري لحالها،

(١) تفسير القمي: ج ٢ ص ٣٢٨.

بل أنه خلقها، ثم استوى على العرش يدبر أمرها، فحتى حركتك أنت إنما هي بإرادة الله، فكيف بالسموات والأرض، فالله وراء كل شيء يجري في الكون ومدبره.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إن الله سخر الشمس والقمر لأهداف معلومة وإلى وقت معلوم، لذلك لا نتطرق إلى هذه الأهداف، ولكن الذي يهمنا هو أن الشمس والقمر لفظان يدلان على العموم مما كان من جنسهما، وهذا يعني حتى الأرض، وربما أن الله سبحانه ذكر هذين الاثنين للإشارة إلى أبناء الأرض.

ثم إن الآية تشير إلى أن الشمس والقمر يجريان إلى نهاية محدودة ومعلومة لعمرها، ولكننا لا يمكننا تحديد ذلك الوقت بالدقة إلا أن عمر الشمس والقمر يقدر بأعمار الكواكب والنجوم، وعلى كل حال، إن شمسنا هذه أصبحت كهلة بالنسبة إلى بعض الشمس الأخرى.

يقول أحد العلماء أن (النجم) يمر من مرحلة إلى أخرى عملاً بقوانين التطور الطبيعي، ولأنه كان يتطور فإنه يهرم، وقد يستغرب القارئ قولنا: إن النجم يهرم، فمنذ أن كانت البشرية لم يسمع أحد بأن النجم القطبي ينازع، أو أن الكوكب الفلاني يلفظ أنفاسه! ومع ذلك فإن هذا ما يحدث في الواقع، فكل نجم إذ يلمع يشع طاقة، كأي كائن حي خلال حياته، وإذا أفلح بطريقة ما في تجديد طاقته فإن هذه الطاقة تنضب أخيراً، ويكون هذا النضوب سريعاً بقدر ما يفرض به، ويأتي وقت لا محالة تنفذ فيه جميع وسائله.

فإذا نظرنا إلى الشمس نلاحظ إنها شئت في الفضاء بشكل إشعاعات كهرومغناطيسية مختلفة طاقة تبلغ (١٨٠,٠٠٠) مليار مليار كيلو واط، وهذا ما يكفي لحمل مياه المحيطات كلها على الغليان في ثانية واحدة، وتعجز خيلتنا عن تصور أرقام بهذا المقدار، ولكنها تحملنا على الاعتقاد بأن هذا التبذير لن يمكن الشمس من أن تعمر طويلاً، ولو كانت مؤلفة من الفحم الصافي لكانت قد تحولت منذ زمن طويل إلى رماد، ولكن ما يغذي الشمس بالطاقة ليس وقوداً كيميائياً عادياً، وهي تدين بإشعاعها لتفاعل زخمي حراري دائم، كما هو معلوم.

بقيت كلمة وهي إن هذه الآية تشير إلى أن الزمن جزء من الطبيعة ﴿يَدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ إن الله يفصل الآيات لنا، ويقصها علينا، ولكن ما هو الهدف؟.

﴿لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءَ رَبَّكُمْ تَوْفِئُونَ﴾ اليقين هو أعلى درجات الإيمان.

عظمة الله تتجلى في الطبيعة

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ^(١) وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ^(٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ^(٣)﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْشَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنَوَانٍ وَغَيْرِ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ^(٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^(٥) ﴿١﴾ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَوَذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ يَأْتِ خَلْقَ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ^(٦) فِي أَغْصَانِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(٧) ﴿٢﴾ وَنَسْتَعِجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ^(٨) مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ^(٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلُمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ^(١٠) ﴿٣﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ^(١١) ﴿٤﴾

هدى من الآيات:

السياق القرآني يذكرنا بطبيعة الاختلاف الموجود في الكون، وأن في هذا الاختلاف

(١) رواسي: جبال ثوابت.

(٢) يغشى الليل النهار: يلبس ظلمة الليل ضياء النهار.

(٣) الأغلال: الغلّ طوق تشد به اليد إلى العنق.

(٤) خلّت: مضت.

(٥) المثالات: العقوبات ومقردها مثلة.

دلالة واضحة على قدرة ربنا سبحانه.

إن ما في هذه الحياة يدل على أن الله رب كل شيء، وما من إله غيره، كما أن توحيد الله يتجلى في الاختلاف الموجود في الكون.

لقد مد الله الأرض وجعل فيها رواسي شاخات لتحفظها من الميلان والتحريك، وخلق فيها من كل شيء زوجين اثنين، وأولج النهار في الليل، والليل في النهار. ألا يدعونا ذلك إلى البحث عمن ينظم هذا الكون، وألا يدلنا ذلك على وحدة المنظم، فلو كان المنظم أكثر من واحد هل حدث مثل هذا التناسق العجيب في الكون؟!.

وكما أن في كلية الحياة عبرة، فإن في تفاصيل الحياة عبرة أخرى، فمثلا طبيعة الأرض الواحدة، واختلافها برغم تجاورها ألا تقودنا إلى رحاب الإيمان بالله؟ فهذه الأشجار تتفاضل على بعضها في الأكل، بعضها مفردة وبعضها أزواج.. علما بأن هذه الأشجار تشرب من ماء واحد وتنمو في أرض واحدة.

إن هذه الآيات كفيلة بتنبية الغافلين، ذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد، ولكن بالرغم من كثرة هذه الآيات وانتشارها في أرجاء الكون، يبقى الإنسان يرتاب في قدرة ربه على إحيائه بعد مماته.

إن خلق الأشياء وابتداعها من العدم أصعب من إعادة بنائها، ومن جهة ثانية إنهم إنما أنكروا البعث لأنهم كفروا بربهم، فلم يعرفوه حق معرفته.

إن هؤلاء وضعوا غل الشهوات على أفئدتهم فلم يستطيعوا أن يفكروا بحرية، ولذلك تراهم يوم القيامة، نزلاء النار خالدين فيها أبدا، وهؤلاء الذين كفروا بربهم لم تكن الحياة في صالحهم لأنهم كانوا ولا زالوا يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة، ولولا أن رحمة الله سبقت غضبه بأن يمهل الإنسان، إذن لأخذهم بعذاب بئس.

وهم عندما يطالبون الرسول بالآيات لا يعلمون بأن الرسول ليس سوى منذر لا يملك أن يأتي بآية إلا بإذن الله، ثم إنهم حين كفروا بما عندهم من الآيات، فمن يضمن إيمانهم بآيات جديدة لو جاءتهم، أليس هناك احتمال كبير بأن يكفروا بها كما كفروا بما قبلها؟!.

إذن فالمشكلة عند الإنسان هي المنهجية في التفكير، ولو صحت هذه المنهجية لاستطاع أن يفكر تفكيراً سليماً من دون حجاب يمنعه من الوصول إلى المعرفة، والمعرفة تعطيه الحكمة التي قال عنها الله: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، والقرآن

الكريم عبر آياته يهدف إصلاح منهجية الإنسان في التفكير بعد أن يبصره بالقوى الضاغطة عليه، كما أنه يصور لنا الطبيعة من جديد حتى يلفتنا إليها وكأننا لم نرها من قبل.

بينات من الآيات:

آيات لقوم يتفكرون

[٣] ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ لا بد من ربط جزئيات الحياة بمحور واحد لكي لا تستقطب جزئيات الحياة كل اهتمامنا، وتصرفنا عن الهدف، وعندما لا نربط هذه الجزئيات بالمحور الأساسي نرى الفروق والاختلاف، بينما حين ننظر إليها معا ننتهي إلى المدبر الواحد وهو الله الذي يدبر هذه الجزئيات ويوجهها.

ما الذي نرى حولنا ضمن هذا الإطار العام.

نرى الأرض وهي كتلة كبيرة تسبح في الكون مدها الله سبحانه على طول البصر، ولم يجعل استدارتها شديدة لتسهيل البناء عليها والزرع، ولا منافاة بين استدارة الأرض وامتدادها، فالأرض مستديرة، ولكنك مهما نظرت إليها من أي جهة فستجدها ممدودة والامتداد هذا دليل آخر على الاستدارة، فانت مهما سرت في خط مستقيم تجد الأرض ممدودة إلى أن تعود إلى مكانك.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ لم يترك الله سبحانه الأرض تميد بمن فيها، بل ثبتها بالجبال، أليست الجبال تدل على المدبر؟! وعندما نذكر الجبال لا بد أن نذكر الأنهار لأن الأنهار صنيعة الجبال، كما جاء في توحيد المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام: «نَظَرُ يَا مُفَضَّلُ إِلَى هَذِهِ الْجِبَالِ الْمَرْكُومَةِ مِنَ الطِّينِ وَالْحِجَارَةِ الَّتِي يَحْسِبُهَا الْغَافِلُونَ فَضْلًا لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا وَالْمَنَافِعُ فِيهَا كَثِيرَةٌ فَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَسْقُطَ عَلَيْهَا الثَّلُوجُ فَيَبْقَى فِي قَلَاهَا لِمَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَيَذُوبُ مَا ذَابَ مِنْهُ فَتَجْرِي مِنْهُ الْعُبُونُ الْغَزِيرَةُ الَّتِي تَجْتَمِعُ مِنْهَا الْأَنْهَارُ الْعِظَامُ»^(١).

يقول علماء طبقات الأرض: إن الأرض تعتمد على شبكة قوية ومنظمة من الصخور المتصلة مع بعضها داخل القشرة الأرضية والتي تكون نتوءات أو مرتفعات بعض الأحيان، ولولا هذه الشبكة داخل وخارج الأرض لتناثرت الأرض يمينا وشمالا مع دوران الأرض، ولما صار للأرض شكلا معيناً، فالجبال والشبكة الداخلية لها كالهيكل العظمي للأرض يحفظ شكلها.

(١) بحار الانوار: ج ٣ ص ١٢٧.

﴿وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلْنَا فِيهَا رَوْحَيْنِ أُتَيْنِ﴾ ما علاقة الأرض بالجبال، وما علاقة الأنهار بالجبال، وما علاقة النبات بالأنهار. هذه أشياء مختلفة لكن كل واحد يخدم الآخر، ألا يدل ذلك على وحدة الصانع، وأن الأشياء مهما اختلفت فهناك رابط دقيق يربط بين عناصر الكون. فالنبات له دلالة كبيرة إذ لم يخلق من النبات جنساً واحداً، بل من كل نوع من النبات جنسين ذكر وأنثى ليتم التناسل والتكاثر، ألا تكمن حكمة الله في ذلك؟!.

﴿يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ﴾ وهذا الاختلاف دليل آخر على وحدانية الله سبحانه، وأما لماذا قال بأن الليل هو الذي يغشي النهار، فلأن الأصل في الحياة هو الليل، فتأتي الشمس لتبدد هذا الظلام بعضاً من الوقت، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الليل والنهار لهما فوائد جمّة لا يدركها إلا العاقلون، والإمام الصادق عليه السلام يفصل ذلك للمفضل بقوله: «فَكُرِّبَا مُفَضَّلُ فِي مَقَادِيرِ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ كَيْفَ وَقَعْتَ عَلَى مَا فِيهِ صَلَاحٌ هَذَا الْخَلْقِ فَصَارَ مُنْتَهَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِذَا امْتَدَّ إِلَى خَمْسَ عَشْرَةَ سَاعَةً لَا يُجَاوِزُ ذَلِكَ أَقْرَأْتَ لَوْ كَانَ النَّهَارُ يَكُونُ مِقْدَارُهُ مِائَةً سَاعَةً أَوْ مِائَتَيْ سَاعَةٍ أَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ بَوَازُ كُلِّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ حَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ أَمَّا الْحَيَوَانُ فَكَانَ لَا يَهْدَأُ وَلَا يَقْرُ طَوْلَ هَذِهِ الْمُدَّةِ وَلَا الْبَهَائِمُ كَانَتْ تُحْسِكُ عَنْ الرُّعْيِ لَوْ دَامَ لَهَا ضَوْءُ النَّهَارِ وَلَا الْإِنْسَانُ كَانَ يَفْتَرُّ عَنْ الْعَمَلِ وَالْحَرَكَةِ وَكَانَ ذَلِكَ سَبِيلُهَا أَجْمَعُ وَيُؤَدِّبُهَا إِلَى التَّلَفِّ وَأَمَّا النَّبَاتُ فَكَانَ يَطُولُ عَلَيْهِ حَرُّ النَّهَارِ وَهَجُّ الشَّمْسِ حَتَّى يَجِفُّ وَتَحْتَرِقُ وَكَذَلِكَ اللَّيْلُ لَوْ امْتَدَّ مِقْدَارُ هَذِهِ الْمُدَّةِ كَانَ يَعْوِقُ أَصْنَافَ الْحَيَوَانِ عَنْ الْحَرَكَةِ وَالتَّصَرُّفِ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ حَتَّى تَمُوتَ جُوعاً وَتُخَمِّدُ الْحَرَارَةُ الطَّبِيعِيَّةُ مِنَ النَّبَاتِ حَتَّى يَغْفَنَ وَتَفْسُدَ كَالَّذِي تَرَاهُ يَحْدُثُ عَلَى النَّبَاتِ إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعٍ لَا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ» (١).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إن آيات الله في الكون مبثوثة، وروحك عطشى إلى معرفة الحقيقة، ولكن الحقيقة لن تأتي إليك إلا حين تذهب إليها أنت، فأنت بحاجة إلى أعمال ذهنك وتفكيرك كي تفهم وتتعض من هذه الآيات، والتفكير يعتمد على تحريك العقل وإثارة دافئته، وربط الأشياء ببعضها، وربطها كلها بخالقها ومديرها.

آيات لقوم يعقلون

[٤] ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ إن الأرض تحتوي على قطع متجاورة يختلف بعضها عن بعض، فبعضها أرض سبخة، وبعضها أرض زراعية، وبعضها صخرية.. وهكذا.. وقد جاء في الحديث عن العياشي: «يَعْنِي هَذِهِ الْأَرْضُ الطَّبِيعَةَ مُجَاوِرَهَا هَذِهِ الْمَالِحَةُ وَلَيْسَتْ مِنْهَا،

كَمَا يُجَاوِرُ الْقَوْمُ الْقَوْمَ وَيَسْأَلُونَ عَنْهُمْ^(١).

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْطَبِ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنَوَانٍ وَغَيْرِ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ كما إن اختلاف الأرض المتجاورة آية لله تدل عليه، فالجنان والخيائل الغناء من الأعناب والزروع المختلفة والنخيل آيات أخرى، والعجيب أن بعض هذه النخيل اثنتين تخرج من أصل واحد، والأعجب هو اختلاف ثمار الأشجار علما بأنها تستقي من ماء واحد، وتستمد الغذاء من أرض واحدة، وإن الشجرة تنبت نوعا واحدا مهما وضعتها في تربة مختلفة أو في جو مختلف.

﴿وَنُفِضَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ لم يقل: «إنها تتفاضل على بعضها» وإنما قال: ﴿وَنُفِضَ﴾ أي أن الله هو الذي أعطى لكل ثمرة خاصية في الطعم واللون والشكل والمنفعة، وما اختلاف الطعم إلا دلالة على اختلاف المواد والفوائد، وما اختلاف المواد والفوائد إلا دليل على حكمة ربانية، فجسمك يحتاج إلى نسبة معينة من الحديد، لذلك تجدها في بعض الخضروات، وكذلك بالنسبة إلى أنواع الفيتامين والسكريات وغيرها.. علما بأن مقدار ما يحتاجه جسمك موجود في فاكهة معينة أو ليس هذا دليل على وجود تدبير موحد بين حاجة الجسم ونسبة هذه الحاجة في هذه الثمرة، ثم أليس يدل على أن رب الثمرة وخالقها هو خالقك؟

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ العقل هو الاستيعاب، وقد أكد عليه هنا بينما في المرة السابقة قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فهاتان الآيتان تقودنا إلى فكرة وهي: أن التفكير بداية العقل والعقل هو طريق الهداية.

لماذا الكفر بالبعث؟

[٥] ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَوْذَا كُنَّا تُرَابًا لَئِنْ خَلَقَ جَدِيدٌ﴾ إذا كنت تعجب من شيء فهناك شيء أعجب وهو قول الكفار بإنكار البعث بعد الموت، ولكن هل أن الموت نهاية كل شيء؟

في الحقيقة إن العقل يقضي بأن يكون هناك يوم يحاسب فيه كل إنسان، ويرجع ليقف أمام ظالم فينتصف منه، أو ينتصف هو منه إذا كان ظالما له، والإنسان الذي يرى عظمة الكون كيف ينكر البعث، أليس ذلك دليل على عدم استيعابه لحقائق الكون؟ أو ليس من العبث أن يعيش الإنسان ضالا مضلا ويترك؟ ولكن هل من المستحيل على خالق هذا الكون أن يعيده كما كان؟! إن إنكار البعث في الحقيقة هو إنكار للمسؤولية، وجحد للأمر المفترض اتباعه، ومن هنا فإن إنكار الحقيقة الواضحة يسمى كفرا.

(١) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٠٣.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ قد يقول البعض: إننا نؤمن بالله ولكن لا نؤمن بالبعث، والحقيقة أن الكفر بالبعث ينسحب على سائر الأشياء، فالكفر بالبعث كفر بالله بدرجة أولى، لأنه إنكار لقدرة الله وعدله، وهل يكون المنكر لصفات الله كلا أو بعضاً إلا كافراً؟.

﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ﴾ يظهر من النصوص أن: «الجزاء من جنس العمل» فلا أنهم غلوا أعناقهم في الدنيا بأغلال المصلحية والأفكار البعيدة وأوصدوا أبواب فكرهم كان جزاؤهم في الآخرة أن يغلو كما غلوا أنفسهم.

﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذه هي النهاية المثل لمن يكفر بالآخرة، وما جزاء من يتهرب من المسؤولية في الدنيا إلا أن يسجن في الآخرة، وما جزاء من يرفض الأمر الواقع، إلا أن يقع في واقع النار!!.

وقد سباهم الله أصحاب النار. أي بينهم وبين النار صداقة لا يفرقان، وقد سباهم الله أصحاب النار في الدنيا، لأن النار نتيجة حتمية لهم، والنار وفيه لأصحابها.

سنة الله وموقف الكفار

[٦] ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ اليس من الحق أن يفضل الإنسان السيئة على الحسنة؟ هل لأن الحسنة لا تعجبه فيتمنى العذاب؟، ولكنهم في الحقيقة نسوا ما حل بمن قبلهم: قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الرس.. وغيرهم.

﴿وَقَدْ خَلَقْتَ مِنْ قَبْلِهِمُ السَّنَكِتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ إن رحمة الله سبقت غضبه، فهذه بشارة الله للمذنبين بأن يتوب عليهم إن هم تابوا إذ أن مشكلة أغلب الناس أنهم عندما يرون أنفسهم في الفساد يأسون من رحمة الله، ويجزمون بأن الله لا يغفر لهم فيبقون على ما هم عليه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إن الله رحيم بعباده ويقبل التوبة عنهم، ولكنه شديد العقاب لمن استمر في ظلمه، مغفرته تقف في حدود الحياة اليومية، ولكن إذا عصى الإنسان في الظلم فإن جهنم هي المثلوى والمصير.

في مجمع البيان: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «لَوْ لَا عَفْوُ اللَّهِ وَتَجَاوُزُهُ مَا هُنَا أَحَدُ الْعِشَّ، وَلَوْ لَا وَعِيدُ اللَّهِ وَعِقَابُهُ لَأَتَّكَلَّ كُلُّ أَحَدٍ»^(١).

الاستخلاف

[٧] ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ هؤلاء لا يكفيهم ما عندهم من الآيات، بل يريدون المزيد، ولكن الله يصف الرسول بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ هذه حدودك أيها الرسول، فليس من مسؤوليتك أن تأتي بالآيات.. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

هذه الآية نزلت في رسول الله وعلي بن أبي طالب عليه السلام إذ هو الهادي لأمة محمد ﷺ بعده، وقد بلغت الروايات في هذا المجال حد الاستفاضة ومنها ما جاء في دعاء الندبة في حق علي عليه السلام: «إِذْ كَانَ هُوَ الْمُنْذِرُ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ»^(١). وقد جاء في تفسير العياشي قال أمير المؤمنين: «فِينَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا الْمُنْذِرُ وَأَنْتَ الْهَادِي يَا عَلِيُّ، فَمِنَّا الْهَادِي وَالنَّجَاةُ وَالسَّعَادَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢).

(١) بحار الأنوار: ج ٩٩، ص ١٠٦. من دعاء الندبة.

(٢) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٠٣.

ينابيع الايمان وعوامل الشرك

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ ^(١) الْأَرْحَامُ
وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ^(٢) عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
الْعَكْبَرُ الْمُنْعَالِ ^(٣) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَمَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ،
وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ ^(٤) بِالنَّهَارِ ^(٥) لَهُ مُعَقَّبَاتٌ ^(٦) مِنْ
بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ
حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ
مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ^(٧) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ أَلْبَافَكُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ^(٨) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ
مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ^(٩) فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ
يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ^(١٠) ^(١١) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ
مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَثِيرٍ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاءُ وَمَا هُوَ
بِلَافٍ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ^(١٢) ﴿

هدى من الآيات:

يذكرنا السياق القرآني في سورة الرعد بآيات الله في الكون، ويوجهنا الى النظر (العبري)

(١) تعيض: الغيض ذهب المائع في جهة العمق.

(٢) سارب: السارب الساري الجاري بسرعة.

(٣) معقبات: المتناوبات التي يخلف كل واحد منها صاحبه ويكون بدلاً منه.

(٤) الصواعق: جمع صاعق وهي نار تسقط من السماء.

(٥) المحال: العقاب.

إليها لكي نصل من خلالها إلى معرفة الله سبحانه، لأن الغاية التي خلق الله من أجلها هذا الكون هي معرفته في الدرجة الأولى، وآيات الله في الطبيعة أقرب ما تكون إلى الإنسان وتصوره، لأن الإنسان تراب ويحن إلى أصله، وكل شيء في الكون تجسيد لأسمائه سبحانه، وينحرف الإنسان إذا ما اتبع عقله في كشف حقائق الكون.

وهذا الدرس يذكر ببعض صفات الله، ويذكر الإنسان بهذه الحقائق التي يغفل عنها وينساها دائما فالله سبحانه يعلم ما تحمل الإناث في بطونهن من ذكر أو أنثى - ليس ذلك فحسب - بل يعلم تفاصيل حياة الجنين وما يحمل من صفات وراثية وغيرها، وعلم الأجنة هو أحد العلوم الخمسة التي لا يعلمها غيره، قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤].

وعلم الله لا يقف عند حدود الأجنة، بل هو يعلم كل مكنون من القول وكل ظاهر منه، وكل من سار بالليل أو سرب في النهار، وعلم الله ليس الشهود وحده أو الغيب وحده، بل علمه محيط بهما معا، فعلمه بالغيب كعلمه بالشهادة، وكيف لا وهو مع كل شيء، وأقرب إلى كل شيء من أي شيء، وهو معنا أينما كنا، وأقرب إلينا من جبل الوتين، فسبحان الله الكبير المتعال: أكبر من التصور، متعال عن مجانسة الخلق.

ومن آياته أن جعل مع كل نفس ملائكة تحفظها من الأخطار، فإذا جاء أجلها خلوا بينها وبين الأجل.. ألا يدل ذلك على رحمة ربنا، وأنه أرحم بنا منا، وأنه كيف نحفظ أنفسنا ونحن لا نستطيع أن ندفع عنها ضرا أو نجلب لها نفعاً، ولو قلنا بأننا نستطيع أن ندفع عن أنفسنا حال غفلتنا وانشغالنا، إذن فالإنسان ليس سيد نفسه، بل الله سيده على نفسه، وإن له الولاية المطلقة، ولكن الله سبحانه مع حفظه للإنسان يسمح بمرور العذاب والبلاء بمقدار ما تستحق كل نفس ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَقٌّ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

ومن آيات الله أن يرافق السحاب الثقال البروق والرعود خوفاً من عقابه ورجاء لرحمته، فهذا الرعد الذي يسبح بحمده يهز ضماثرنا، ويذكرنا بعظمة الجبار، وسر عظمة الرعد أنه خاضع لله، مسبح بحمده، وليس الرعد وحده هو الذي يسبح بحمده، بل إن الملائكة التي تقوم بأمر الرعد والسحاب تسبح كذلك خشية منه.. لأنه شديد المحال.

أبعد هذه الآيات يكفر الإنسان بالله ويشرك به غيره؟! إن هو آمن بالله وفقه للخيرات، وإن أشرك به لم يوفق للخيرات ولن يصل إلى غاية حميدة فسوف يبقى في عطش، ولن ترويه

الآلهة الأخرى، ودلالة أخرى على علم الله ومقدرته أنه يستجيب لمن يؤمن به، لأنه في موقع العلم بالمسألة وموقع القدرة على الإجابة، أما الآلهة الأخرى فهم أعجز من أن يحيطوا علما بها تكن نفس البشر، وأعجز من أن يستطيعوا تلبية مطالبه.

بيانات من الآيات:

علم الله

[٨] لو عرف الإنسان أن ربه محيط به علما لاطمأن إلى رحته، ولخشي عذابه لأنه آتئذ يشعر بأن الله يحيط بسكناته وحركاته.. سره وجهره، ولاستقامت سيرته وسلوكه، والآيات القرآنية تذكرنا بهذه البصيرة المرة بعد الأخرى، وذلك بسبب غيابها عنا، وعدم حضورها في تصورنا، وغيابها عنا كان السبب المباشر لانحرافاتنا وعلم الله بالإنسان شامل فمئذ أن كان جنينا يعلم تفاصيل حياته.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَضِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ إن علم الله أحاط بالجنين هل هو ذكر أم أنثى، وهل سيعيش شقيا أم سعيدا، ويعلم اثناء الحمل وعند الولادة ما سيعمله الجنين من صفات كما إنه دبر أمر الإنسان جنينا فأطعمه وسقاه.

جاء في توحيد المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام: «اِخْتَبَرْنَا مُفَضَّلٌ فِيمَا يُدَبَّرُ بِهِ الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ هَلْ تَرَى يُنَكِّنُ أَنْ يَكُونَ بِالْإِهْمَالِ أَفَرَأَيْتَ لَوْ لَمْ يَجِرْ إِلَيْهِ ذَلِكَ الدَّمُ وَهُوَ فِي الرَّحِمِ أَلَمْ يَكُنْ سَيِّدِي وَيَجِفُّ كَمَا يَجِفُّ النَّبَاتُ إِذَا فَقَدَ الْمَاءَ»^(١).

وفي موضع آخر قال المفضل: قلت: صف نشوء الأبدان ونموها حالا بعد حال حتى تبلغ التمام والكمال، قال عليه السلام: «أَوَّلُ ذَلِكَ تَصَوُّرُ الْجَنِينِ فِي الرَّحِمِ حَيْثُ لَا تَرَاهُ عَيْنٌ وَلَا تَنَالُهُ يَدٌ وَ يُدَبَّرُهُ حَتَّى يَخْرُجَ سَوِيًّا مُسْتَوِيًّا بِجَمِيعِ مَا فِيهِ قَوَائِمُهُ وَصَلَاحُهُ مِنَ الْأَحْشَاءِ وَ الْجَوَارِحِ وَ الْعَوَامِلِ إِلَى مَا فِي تَرْكِيبِ أَعْضَائِهِ مِنَ الْعِظَامِ وَ اللَّحْمِ وَ الشَّحْمِ وَ الْمَخِّ وَ الْعَصَبِ وَ الْعُرْوِقِ وَ الْغَضَارِيفِ فَإِذَا خَرَجَ إِلَى الْعَالَمِ تَرَاهُ كَيْفَ يَنْمِي بِجَمِيعِ أَعْضَائِهِ وَهُوَ ثَابِتٌ عَلَى شَكْلٍ وَ هَيْئَةٍ لَا تَزِيدُ وَ لَا تَنْقُصُ إِلَى أَنْ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ»^(٢).

وعلم الله محيط بها تحمل الاناث من الاجنة ﴿وَمَا تَضِيضُ﴾ أي ما تفيض وتسقط مما لم يكتمل خلقه ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ سواء كانت الزيادة في العدد أو الزيادة في الأعضاء.

(١) بحار الأنوار: ج ٣ ص ٦٣.

(٢) المصدر السابق: ص ٦٧.

جاء في تفسير العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ قَالَ الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى، ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ قَالَ عليه السلام: مَا كَانَ دُونَ التَّسْعَةِ فَهُوَ غِيْضٌ ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ قَالَ عليه السلام: مَا رَأَتْ الدَّمَّ فِي أَيَّامِ حَمْلِهَا أَزْدَادَ بِهِ عَلَى التَّسْعَةِ الْأَشْهُرِ إِنْ كَانَتْ رَأَتْ الدَّمَ خَمْسَةَ أَيَّامٍ أَقَلُّ أَوْ أَكْثَرَ زَادَ ذَلِكَ عَلَى التَّسْعَةِ الْأَشْهُرِ^(١).

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ لكل شيء في هذا الكون حد محدود، وقدر مكتوب فنحن لا نعرف هذه الأقدار لذلك ننسب الأشياء الى الكبر والصغر، والطول والقصر، ولكن لو تعمقنا لعلمنا إن الحرارة في جسم الإنسان بقدر معين، وإن للجبال قدرا وأوزانا معينة، بل لكل معدن قدر معين في الكثافة والكتلة والوزن، وحتى الهواء والضياء له وزن ومقدار.

مظاهر علم الله

[٩] ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الغيب عنده كما الشهود، كلاهما يتساوى عنده في الظهور ﴿الْحَكِيمُ الْمُتَعَالِ﴾ إنه أكبر من أن يوصف، وإنما يتفاضل الأشياء بالكبر ويقاس ببعضها إذا كانت من جنس واحد، وليس الله من جنس الأشياء بل إنه الخالق وهي مخلوقات، لذلك جاء في الحديث: عن الإمام الصادق عليه السلام أنه: «قَالَ رَجُلٌ عِنْدَهُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ عليه السلام: اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟ فَقَالَ: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: حَدِّثْنِي، فَقَالَ الرَّجُلُ: كَيْفَ أَقُولُ؟ قَالَ عليه السلام: قُلِ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ»^(٢).

والمتعال: مهيمن على كل شيء ومتعال عليه، وأنه لا يماثل شيئاً ولا شيء يماثله.

[١٠] ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ. وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ كما الغيب والشهادة عنده سواء كذلك المكتوم من القول والمجهور به، وكذلك هو محيط علما بمن يكمن في الليل ساريا بظلامه، ومن يتحرك نهارا ساريا في ضوئه.

حتى يغيروا ما بأنفسهم

[١١] ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِمَّنْ أَمَرَ اللَّهُ﴾ أي ملائكة يتعاقبون بعضهم بعد بعض ليحفظوا الإنسان من الوقوع في الأخطار، ولكن إذا كانت الملائكة تحفظنا من الوقوع في الأخطار فلماذا نموت، ولماذا تصيبنا المخاطر كل لحظة؟.

(١) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٠٥.

(٢) الكافي: ج ١، ص ١١٧.

أما لماذا نموت فإن أجل الإنسان إذا جاء لا تمنع الملائكة منه، بل إنها سوف تخلي بين الإنسان وبين حتفه، أما لماذا نتعرض للمشاكل كل لحظة، فهذا ما ستجيب عليه نهاية الآية، ولنا أن نتساءل: ما علاقة الإنسان بالملائكة حتى يحفظوه؟.

أولاً: الملائكة عباد مكرمون لله، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ثانياً: إن لكل شيء في الحياة ملكاً موكلًا به، فللسحاب ملك موكل به، وللرعد ملك موكل به، وللبحر ملك موكل به، وهكذا.. يكون للإنسان ملك موكل به، لأنه جزء من الطبيعة.

ثالثاً: إن الله عندما أسجد ملائكته لآدم فإن ذلك دلالة على سجود الطبيعة وتسخيرها له وهكذا سخر الله الملائكة لخدمة الإنسان.

إذا لنترجع إلى نهاية الآية ونقول: إن الإنسان هو الذي يصنع واقعه بنفسه، ولا نشك إن للتصرفات والسلوك الإنساني دخلاً في صنع الظروف المؤثرة فيه، فباستطاعتك أن تغير نفسك، وإذا غيرت نفسك فانك أنت الذي تغير ما حولك.

وهكذا الظروف التي تمر بها الأمة الإسلامية، وما مرت به بالأمس إنما كان بسبب نفسي، فإذا لا يجب أن نلقي اللوم على الحكام وحدهم، بل يجب أن نراجع حساباتنا، ونمارس النقد الذاتي الصريح بحق أنفسنا.. وهذا هو العلاج الأمثل، لذلك قال ربنا: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾.

إن الله هو المهيمن الواحد إن شاء أعطى، وإن شاء محق النعم، ولكن الله سبحانه لن يصيب قرية بالسوء وأهلها مصلحون، فإذا دبر الله لأي قوم سوءاً، فإنما ذلك بما كسبت أيديهم، وحين يصب الله السوء على قوم فليس هناك من يحول بينه وبين إرادته.

آيات القدرة والهيمنة في السماء

[١٢] ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ خوفاً من الصواعق، وطمعا لما تنبئ به من المطر والخيرات، ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ السحاب الثقيل بالأمطار.

جاء في حديث طويل في جدال للإمام الصادق عليه السلام مع ملحد في التوحيد يشتهر باسم (توحيد الأهليلة): «لَمْ نَنْظُرْ الْعَيْنُ إِلَى الْعَظِيمِ مِنَ الْآيَاتِ مِنَ السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ

وَالْأَرْضُ بِمَنْزِلَةِ الدُّخَانِ لَا جَسَدَ لَهُ يُلَمَسُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَرْضِ وَالْجِبَالُ يَتَخَلَّلُ الشَّجَرَةَ فَلَا تَجْرُكُ مِنْهَا شَيْئًا وَلَا يَهْزِرُ مِنْهَا خُضْنًا وَلَا يَغْلِقُ مِنْهَا شَيْءٌ يَغْتَرِضُ الرُّكْبَانُ فَيَحُولُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ مِنْ ظُلْمَتِهِ وَكَثَافَتِهِ وَيَحْتَمِلُ مِنْ ثِقَلِ الْمَاءِ وَكَثْرَتِهِ مَا لَا يُقَدِّرُ عَلَى صِفَتِهِ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الصَّوَاعِقِ الصَّادِعَةِ وَالْبُرُوقِ اللَّامِعَةِ وَالرَّعْدِ وَالتَّلَجِّ وَالْبَرْدِ وَالْجَلِيدِ مَا لَا تَبْلُغُ الْأَوْهَامُ صِفَتَهُ وَلَا تَهْتَدِي الْقُلُوبُ إِلَى كُنْهِ عَجَائِبِهِ فَيَخْرُجُ مُسْتَقِلًّا فِي الْهَوَاءِ يَجْتَمِعُ بَعْدَ تَفَرُّقِهِ وَيَلْتَجِمُ بَعْدَ تَزَايُلِهِ تَفَرُّقُهُ الرِّيَّاحُ مِنَ الْجِهَاتِ كُلِّهَا إِلَى حَيْثُ تَسُوقُهُ بِإِذْنِ اللَّهِ رِيًّا يَسْفِلُ مَرَّةً وَيَعْلُو أُخْرَى مُتَمَسِّكٌ بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَاءِ الْكَثِيرِ الَّذِي إِذَا أَرْجَاهُ صَارَتْ مِنْهُ الْبُحُورُ يَمُرُّ عَلَى الْأَرْضِ الْكَثِيرَةِ وَالْبُلْدَانِ الْمُتَنَائِيَةِ لَا تَنْقُصُ مِنْهُ نُقْطَةٌ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى مَا لَا يُحْصَى مِنَ الْفَرَاسِخِ فَيُرْسِلُ مَا فِيهِ قَطْرَةً بَعْدَ قَطْرَةٍ وَسَيْلًا بَعْدَ سَيْلٍ مُتَتَابِعٍ عَلَى رِسْلِهِ حَتَّى يَنْقَعَ الْبَرَكُ وَتَمْتَلِی الْقَجَاجُ وَتَعْتَلِ الْأَوْدِيَةُ بِالسُّبُولِ كَأَمْثَالِ الْجِبَالِ خَاصَّةً بِسُيُوفِهَا مَصْمُوحَةً الْأَذَانِ لِذَوِيهَا وَهَدِيرَهَا فَتُخْبِئُهَا الْأَرْضُ الْمِثَّةُ فَتُصْبِحُ مُحَضَّرَةً بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُغْبَرَّةً وَمُغْشَبَةً بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُجْدِبَةً قَدْ كَسِبَتْ الْوَأْنَا مِنْ نَبَاتٍ غُثِّبَ نَاضِرَةٌ زَاهِرَةٌ مُزَيَّنَةٌ مَعَاشًا لِلنَّاسِ وَالْأَنْعَامِ فَإِذَا أَفْرَغَ الْغَمَامُ مَاءَهُ أَقْلَعَ وَتَفَرَّقَ وَذَهَبَ حَيْثُ لَا يُعَايَنُ وَلَا يُدْرَى أَيْنَ تَوَارَى^(١).

[١٣] ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ التسبيح هو التثنية، فهذا الرعد بقوته يخضع إلى الله سبحانه، ومن تخضع له القوة اليس بقوي؟!.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ هذه الملائكة هي المهيمنة على الطبيعة، آية سلطان هيمنة الله علينا تسبح بحمد الله خوفاً منه لبعض المعرفة بالله وقد ورد في الدعاء في الصحيفة السجادية عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام في دعائه للملائكة والسلام لهم: «وَعَلَى الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِمْ مِنْ سُكَّانِ سَمَاوَاتِكَ، وَأَهْلِ الْأَمَانَةِ عَلَى رِسَالَتِكَ، وَالَّذِينَ لَا تَدْخُلُهُمْ سَأَمَةٌ مِنْ دُؤُوبٍ، وَلَا إِغْيَاءٌ مِنْ لُغُوبٍ وَلَا فُتُورٌ، وَلَا تُشْغَلُهُمْ عَنْ تَسْبِيحِكَ الشَّهَوَاتُ، وَلَا يَقْطَعُهُمْ عَنْ تَعْظِيمِكَ سَهْوُ الْغَفَلَاتِ، الْحُشْعُ الْأَبْصَارِ فَلَا يَرُومُونَ النَّظَرَ إِلَيْكَ، النَّوَائِسُ الْأَذْقَانِ، الَّذِينَ قَدْ طَالَتْ رَغْبَتُهُمْ فِيمَا لَدَيْكَ، الْمُسْتَهْزَمُونَ بِذِكْرِ آلَيْكَ، وَالْمُتَوَاضِعُونَ دُونَ عَظَمَتِكَ وَجَلَالِ كِبَرِيَّتِكَ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ إِذَا نَظَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ تَرْفَرُ عَلَى أَهْلِ مَعْصِيَتِكَ سُبْحَانَكَ مَا عَيْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، فَصَلِّ عَلَيْهِمْ»^(٢).

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ الصاعقة آية من آيات القدرة يرسلها الله على من يشاء من عباده العاصين ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ أبعد هذه القدرة والهيمنة يجادلون في الله؟ بلى إن الله شديد القوة والمكر، سيصيبهم بما كسبوا قارعة أو

(١) بحار الأنوار: ج ٣ ص ١٦٣.

(٢) الصحيفة السجادية: من دعائه عليه السلام في الصلاة على حملة العرش..

يحل قريباً من دارهم البوار.

الإيمان بالله ومتاهات الشرك

[١٤] ﴿لَمْ دَعُوهُ لَمَلَقٌ﴾ أي إليه ترجع دعوة الحق، فالعبادة الصحيحة ترفع إلى الله سبحانه ويستجيب لها ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَسِطَ كَفْتَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ هذا هو حال من يعبد غيره، إنه لن يصل إلى نتيجة ما، فهو يعبد غيره لعله يصل إلى مراده، ولكنه لن يصل، وسيبقى عطشاناً أبداً، لأنه رام الارتواء من غيره وقد جاء في تفسير (علي بن إبراهيم) في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَسِطَ كَفْتَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ قال الإمام الباقر عليه السلام: فَبِهَذَا مَثَلُ مَنْ يَدْعُو اللَّهَ لِيُؤْتِيَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ الْإِلَهَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ وَلَا يَنْفَعُهُمْ إِلَّا كَبَسِطَ كَفْتَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَلَا يَبْلُغُهُ (١). ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

(١) تفسير القمي: ج ١ ص ٣٦١، بحار الأنوار: ج ٩ ص ٢١٥

هل يستوي الأعمى والبصير

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ ﴿١٥﴾ بِالْفُؤَادِ وَالْأَصَالِ ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَمْرِهِمْ شَيْئًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٧﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ ﴿١٨﴾ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحَسَنَ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِمْ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنِشْأَ لِلْهَادِ ﴿٢٠﴾﴾

هدى من الآيات:

في سياق سورة الرعد التي تدلنا على الله من خلال كائناته، يذكرنا هذا الدرس بأن كل شيء خاضع لله من ملائكته وسائر خلقه طوعاً أو كرهاً، وليست الأشياء وحدها خاضعة لله، بل حتى ظلالها وانعكاسها خاضع له سبحانه، وإذا تساءلت من الذي يدبر أمر السماوات والأرض؟ لجاءك الجواب: بأنه الله سبحانه، إذن فلماذا يتخذ الإنسان ولياً من دونه؟! وهل هناك إله يملك النفع والضرر سواه؟ كلا..

(١) وظلالهم: الظلال جمع الظل وهو ستر الشخص ما يرازه.

(٢) أودية: الوادي سفح الجبل العظيم المنخفض الذي يجتمع فيه ماء المطر.

إن الفرق بين من يؤمن بالله وبين من لا يؤمن به كالفرق بين البصير والأعمى، والنور والظلمات، والمؤمن عندما يتصل بالله يتحول من لا شيء إلى شيء، ولأن الله مهيم على كل شيء وخالق كل شيء وبه تقوم الأشياء فإنه كلما كان الإيمان أعمق كلما كان الإنسان أكبر.

إن الله سبحانه رازق كل شيء، فمثل رسالته كمثل غيث مطر من السماء على الأرض فتستقبله الأودية ليروي الزرع والضرع، ويجعل الأرض مخضرة، ويزيل شوائب الحياة «الزبد» ولكن الإنسان بدل أن يهتم بالماء نجده يهتم بهذا الزبد الطافح عليه، ألا يدل ذلك على قصر النظر؟ فليس النفع في الزبد ولكن النفع في الماء، والزبد هو الشيء الظاهر، والإنسان يبحث غالبا عن الظاهر، وهو عادة يحب المظاهر، فالزبد يمثل متع الحياة الدنيا وليست الحياة الدنيا بأفضل من الزبد، بل هي والزبد سواء.

بينات من الآيات:

الخضوع بين الطوع والإكراه

[١٥] ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾

﴿من﴾ اسم موصول للعاقل، ويبدو أن المراد منه هنا مطلق الأشياء. وذلك لأن ما نسب إليه هو فعل العقلاء فله يسجد من في السماوات والأرض من الكائنات كالحیوان والإنسان، وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، إنما تسجد لله خاضعة له بإرادتها فإن لم تسجد لله طوعا أسجدها الله له كرها، والسجود بالنسبة للمكرهين تعبير عن الخضوع لأمره، فهذا الإنسان محكوم بقوانين وضعها الله له في كل جوانب حياته، وبعد مماته.

﴿وَوَلَلْنَاهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ الغدو صباحا مع شروق الشمس، والآصال مساء عند غروب الشمس، وهذا تعبير عن حركة الأرض حول الشمس، والغدو والآصال هو بداية ونهاية نشوء الظل، فالظل يبتدىء طويلا فيأخذ بالقصر حتى منتصف النهار، حيث ينعدم ويبدأ في الطول، حتى ينعدم نور الشمس، فهو يبتدىء طويلا، وينتهي طويلا، وينعدم فيما بينهما. وهكذا تخضع الظلال لحركة الشمس المسخرة بدورها لله سبحانه. أفلا يدلنا ذلك على سجد الطبيعة لله.

[١٦] ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ ليس العجب في الظل بل في منشأ الظل،

فكما قلنا: إن منشأ الظل هو دوران الأرض حول الشمس، إذن فالعجب كل العجب في هذين الخلقين السماوات والأرض، من ربهما ومسيرهما؟ بالطبع هو الله وحده.

﴿قُلْ أَفَأَتَّخِذُكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ إذا كان الله بهذه القوة والهيمنة، إذا فلماذا نتخذ غيره ولياً لا يملك من هذه القوة والهيمنة شيئاً، بل لا يملك قوة ذاته، ولا هيمنة على قواه.

﴿لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ هذه الأصنام الحجرية أو البشر لا تملك النفع لنفسها، ولا دفع الضر عنها، فهل هي قادرة على إعطائك النفع أو دفع الضر عنك؟!.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ المشكلة ليست في الحقائق من حولك، إنما المشكلة في أعيننا، فالعين مدخولة، أما الحقائق فموجودة، والعمى والبصر الحقيقيان ليسا في العين، بل في القلب كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ الظلمات كما جاء في الخبر هي الكفر، والنور هو الإيمان ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لا يستطيع أي إنسان مهما كان أن يدعي أن هناك خالقاً غير الله لهذا الكون، فإذا لم يعترف بالله مثلاً فلن يقول: إن الكون خلق نفسه، قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَطَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ قد يكون الواحد قهاراً وقد لا يكون، ولكن الله واحد وقهار.. ﴿الْوَجْدُ﴾ تدل على ذلك آياته، و﴿الْقَهَّارُ﴾ غالب على كل شيء بقدرته وإرادته وكل ما سواه مقهور له فوحدانيته مطلقة، أما عصيان البشر له فليس انحساراً لقهره، بل لأنه يمهّل الكافرين ليزدادوا إثماً مع إثمهم، وإنما عجلة الله وإنقامه السريع هو الانحسار الحقيقي لقهر الله فكما ورد في الدعاء: ﴿إِنَّمَا يَعْجَلُ مَنْ يَخَافُ الْفَوْتَ وَإِنَّمَا يَخْتَجُّ إِلَى الظُّلُمِ الضَّعِيفُ﴾^(١).

فأما الزبد فيذهب جفاء

[١٧] ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أي أن الأودية تسيل بقدر قطر المطر، وهذه الآية تلمح إلى أن المطر له مقادير معينة يقدرها الله حسب طاعة أو معصية العباد، كما في قصة أصحاب الأحقاف (قوم هود) لما كفروا قطع الله عنهم المطر سبع سنوات، وبعد أن جاءهم أهلكهم، وقد قال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ غَافَرًا﴾^(١٠) يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿[نوح: ١٠-١١].

﴿فَاحْتَمِلْ السَّيْلَ زَيْدًا رَاجِيًا﴾ يقال: حمل للحامل بإرادته أو كان راضياً، أما احتمال أي

(١) تهذيب الأحكام: ج ١، ص ٤٩٠.

حمل قسرا، كما يقال للضيف الثقيل: احتملت الضيف، أو كما يقال: احتمل الأذى، فالسيل يحتمل الزبد، وكأن الزبد غير مرغوب فيه، والزبد هو المخلفات والأوساخ يجرفها السيل معه، وقال صاحب المجمع: «الاحتمال رفع الشيء على الظهر بقوة الحامل له، ويقال: علا صوته على فلان فاحتمله ولم يغضب، والزبد وَضُر الغليان، وهو خبث الغليان، ومنه زبد القدر وزبد السيل»^(١) ورأبيا: مرتفعا يتزايد باستمرار تدفق السيول عليه.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ ۚ﴾ كما أن ما يجرفه السيل زبد، فكذلك المعادن التي تصهر بالنار لتصنع منها الحلبي هي زبد أيضا، وهذه إشارة إلى أن صناعة الحلبي تعتمد على الصهر بدرجات حرارية كبيرة، وسبب أن متع الحياة زبد أنها تشغل الانسان بالظاهر، وتدعه ينسى هدفية الحياة، ويتصور أن هدفية الحياة هو ما يحصل من هذه المتع.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ﴾ إذا فتمت الحياة مثل الزبد، وهذا هو الباطل، أما الحق فعادة ما يُغفل عنه، ذلك لأن الحق ليس الذي يستهويك، انما الحق هو الذي يكمن خلف المباهج، فلا تغرنك المباهج بل إبحث خلفها عن الحقيقة الناصعة.

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۚ﴾ أي أن الزبد يتلاشى ويضيع هدرا، قال الراغب في مفرداته: «جفاء: و هو ما يرمى به الوادي أو القدر من الغشاء الى جوانبه، يقال: أجفأت القدر زبدها: ألقته إجفاء، وأجفأت الأرض: صارت كالجفاء في ذهاب خيرها»^(٢).

﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۚ﴾ إذا زال الزبد بقي الجوهر، والباطل لا يستطيع أن يغطي الحق أبد الابدين، فالباطل سريع الزوال، لأنه ضد الطبيعة، وهو لا يمتلك مؤهلات الوجود ليستمر.

[١٨] ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِمْ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَيُسَمَّى الْمَهَادُ ۚ﴾ هذه العبرة من الأمثال: فالذين استجابوا لرسالة ربهم المتمثلة في المطر، وسالت أودية قلوبهم، واستجابوا بالإيمان فان لهم الحسنى جنات تجري من تحتها الأنهار، والذين لم يستجيبوا لرسالة الله لو أن عندهم ما في الأرض ومثله معهم من الزبد لما منع عنهم سوء الحساب وجهنم. نعوذ بالله منهما.

(١) راجع مجمع البيان: ج ٦ ص ٢٨.

(٢) مفردات الراغب القرآن: ص ١٩٧.

المؤمنون.. صفات وتقييم

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أَولُوا
 الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ
 يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ
 ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
 سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَبِذَرْتُمْ فِي الْحَسَنَةِ النِّسْجَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عِشْقُ الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ
 عَنْ يَمِينٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ
 عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

هدى من الآيات:

ضمن سياق سورة الرعد التي تسوقنا إلى الإيمان بالله من خلال آياته، يذكرنا
 الرب بصفات المؤمنين السلوكية، وصفاتهم النفسية، ومن أبرز صفات المؤمنين
 الملتزمين:

الوفاء بعهد الله سبحانه الذي عاهد الله به الإنسان في عالم الذر، والالتزام إلى جبهة
 الرسالة، ومعاداة غيرها، وخشية الله في كل حال، والخوف من سوء الحساب، والصبر عند
 الشدائد احتساباً لوجه الله، وإقامة الصلاة، والإنفاق في السر والعلن، والخلق الرفيع، ومواجهة
 الانحراف والفساد في المجتمع.

وأخيراً فمن تجسدت فيه هذه الصفات هل هناك جزاء له أحسن من الجنة التي تجري
 من تحتها الأنهار، والملائكة يدخلون عليه من كل باب يرحبون به؟.

بينات من الآيات:

أولو الألباب

[١٩] ﴿أَمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾

هناك موقفان من القرآن:

الموقف الأول: هو الموقف المعترف بالحق الكامل المتجسد في القرآن.

الموقف الثاني: هو المتعامي عن القرآن الحق، فالقرآن حق به يبصر قوم ويعمي آخرون، والقرآن لا يتأثر بعمى قوم وإبصار آخرين، لأن القرآن حق ثابت، ونحن الذين نتطور بالقرآن، والسؤال من الذي يهديه الله الى القرآن؟.

الجواب: ﴿إِنَّمَا يَنْذَرُ أَولُوا الْأَلْبَابِ﴾ لماذا خص من يستفيد من القرآن بأصحاب العقول؟ لأنه لا يعرف القرآن ولا يستفيد منه إلا من نمي عقله وأخضع سلوكه لعقله، وتجاوز هواه وشهواته، وجدير بالقرآن أن يفهمه مثل هؤلاء الرجال وهم أولوا العقول.

ما هي صفات أولى الالباب واصحاب العقول الذين ضبطوا أنفسهم ضمن إطار العقل؟.

الصفة الأولى الوفاء بالعهد

[٢٠] ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ عهد الله على الانسان في عالم الذر عندما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَنفَعِكُمْ مَا فَكَّرَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الاعراف: ١٧٢ - ١٧٣].

وجاء في القرآن قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰ مَادَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ - ٦١].

عهد الله هو طاعته وتجنب معصيته، فبعد الالتزام بعهد الله سبحانه على الإنسان بالطاعة، تأتي بقية الصفات.

الصفة الثانية الالتزام بميثاق الله

﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ الوثاق هو الرباط، والميثاق: عقد مؤكد يمين أو عهد، وموثق الله هو ما أخذه على جميع البشر أن يعبدوه ويوحدوه، وقد جاء في الروايات إن موثق الله هو موالاة أوليائه، وقد أخذ الله على كل الناس موثقاً فقد أخذ موثقاً عاماً كما قال: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ [المائدة: ٧].

وأخذ على بني اسرائيل موثقاً آخر كما قال: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَالِ الْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

وقد أخذ الله على النبيين ميثاقاً أيضاً: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

ولموثق الله معنيان:

أولاً: طاعة الله كما قال: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ كما سبق.

ثانياً: تجنب معصية الله والافتراء عليه: ﴿الَّذِي يُؤْخَذُ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الاعراف: ١٦٩].

الصفة الثالثة صلة أهل البيت عليهم السلام

[٢١] ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ما أمر الله به أن يوصل هو الرحم، وقد جاء في الحديث عن زين العابدين عليه السلام أنه قال لابنه الباقر عليه السلام: «إِيَّاكَ وَمُصَاحِبَةَ الْأَخْمَقِ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرُّكَ وَإِيَّاكَ وَمُصَاحِبَةَ الْقَاطِعِ لِرَحِمِهِ فَإِنِّي وَجَدْتُهُ مَلْعُونًا فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ٢٢ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقال في البقرة ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ

يُوصَلُ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴿٢٧﴾ [البقرة: ٢٧] (١).

وقد تضافرت النصوص بحيث لا تقبل الشك لكثرتها وتواترها لنؤكد على: أن ما أمر الله به أن يوصل هم أهل البيت، ولكن لا يعني أن الآيات لا تنطبق على كل رحم كما جاء في الحديث عن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ فقال: «نَزَلَتْ فِي رَجَمِ آلِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ وَآلِهِ السَّلَامُ وَقَدْ تَكُونُ فِي قَرَابَتِكَ ثُمَّ قَالَ: فَلَا تَكُونَنَّ يَمْنُنٌ يَقُولُ لِلشَّيْءِ إِنَّهُ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ» (٢).

الصفة الرابعة خشية الله

﴿وَتَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ خشية الله هي الضمان الحقيقي من الانحراف كما قال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠]. والخشية من الله هي الخوف من أن يصب علينا عذابه، ويأخذنا على حين غرة، وقبل أن نبادر بالأعمال.

الصفة الخامسة الخوف من سوء الحساب

﴿وَتَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ يبدو أن الفرق بين الخشية والخوف، أن الخوف أقل من الخشية كما قال العلامة الطباطبائي: «والظاهر أن الفرق بين الخشية والخوف، أن الخشية تأثر القلب من إقبال الشر أو ما في حكمه، والخوف هو التأثير عملاً بمعنى الإقدام على تهينة ما يتقى به المحذور وإن لم يتأثر به القلب، ولذا قال سبحانه في أنبيائه: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]. فنفي عنهم الخشية عن غيره، وقد أثبت الخوف لهم عن غيره في مواضع من كلامه كقوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُؤْمِنٍ﴾ [طه: ٦٧]. وقوله: ﴿وَلَمَّا تَخَافَتْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَيَّدَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] (٣).

وسوء الحساب هو: أن لا تقبل حسناتهم، بل يؤخذون بسيئاتهم، وقد جاء في معنى سوء الحساب أنه: هو الاستقصاء والمداقة، وسمي سوء الحساب لهوله وشدته كما جاء في الحديث: «فَإِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ أَنْصِبُهُ لِلْحِسَابِ إِلَّا هَلَكَ» (٤).

إن المؤمن يخاف من احصاء سيئاته فلا تغفر، وأن تعد حسناته فلا تقبل.

(١) الكافي: ج ٢ ص ٣٧٦.

(٢) الكافي: ج ٢ ص ١٥٦.

(٣) تفسير الميزان: ج ١١ ص ٣٤٣.

(٤) الكافي: ج ٢ ص ٣١٤.

الصفة السادسة الصبر

[٢٢] ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ فإذا أنت أوكلت أمرك الله سبحانه فستجد أن الله يعينك على ما صبرت عليه، وما أجمل الصبر إذا كان الله وراءه، ولكن لماذا الصبر ابتغاء وجه الله؟.

لأن الله سبحانه هو الذي يتلى الإنسان. إما ليختبره كما قال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّعِيفِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. أو ليتليهم بما كسبت أيديهم لينقيهم ويصفيهم من الذنوب، فإذا صبرت واحتسبت فأجرك على الله، فهذا يدل على صدق الإيمان، كما يدل على رضى الإنسان بقضاء الله وقدره.

الصفة السابعة إقامة الصلاة

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ القيام بالصلاة غير إداء الصلاة، وإقامة الصلاة مشروطة بالعزم والاهتمام بسائر شروط ومواصفات الصلاة.

الصفة الثامنة الإنفاق

﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ الإنفاق بالسر ضد الرياء، والإنفاق في العلن تحد لمن لا يريد منك الإنفاق، أو تشجيع للإنفاق.

الصفة التاسعة الخلق الرفيع

﴿وَيَذَرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ معاملتهم مع الناس ليس معاملة البغض والعداوة، بل معاملة العطاء، فهم لا يصعدون الصراع مع الناس، بل يحاولون احتواء البغضاء بالحلل والمهادنة، والدرء هو التحصين أي يتحصنون بالحسنة من مضاعفات السيئة وهذا معنى آخر تحمله الآية، وقد ورد في الحديث: إن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر الغفاري: «وَإِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَأَعْمَلْ حَسَنَةً تَمْحُوهَا»^(١).

ومثلها ما جاء في وصية عنه ﷺ للإمام علي عليه السلام: «إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاتَّبِعْهَا بِحَسَنَةٍ تَمْحُوهَا سَرِيعًا»^(٢).

(١) وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ١٠٤.

(٢) بحار الأنوار: ج ٦٦ ص ٣٥٧.

لهم عقبى الدار

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ﴾ ما هي عقبى الدار؟

[٢٣-٢٤] ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ إيمانهم يتعدى حدود إنقاذهم لأنفسهم وخدمهم إلى الآباء والأزواج والأبناء، فإيمان المرء نجاة لذويه، وهذا أفضل جزاء لهم، فمع فرحهم بالجنة تقرأ أعينهم بروية ذويهم يلتحقون بهم.

وقد ورد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «لَا تَسْتَخَفُّوا بِفُقَرَاءِ شِيعَةِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يُشَفِّعُ فِي مِثْلِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ»^(١).

هذا من أفضل الجزاء الذي ساقه الله للصابرين على البأساء والضراء، والصابرين على الطاعة لوجه الله، والصابرين عن ممارسة الباطل.

(١) مستدرک الوسائل: ج ٩ ص ١٠٦.

الكافرون.. صفات وتقويم

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝٢٥﴾
 اللَّهُ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي
 الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ۝٢٦ وَقَوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ
 قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْنَا مَنْ أُنَابَ ۝٢٧ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝٢٨
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَقَابٍ ۝٢٩﴾.

هدى من الآيات:

حدثنا الدرس السابق في سورة الرعد عن صفات المؤمنين، أما في هذا الدرس فيحدثنا عن نقيضهم (الكفار)، وصفاتهم بعكس صفات المؤمنين.

عندما يسود المجتمع.. أي مجتمع ثقة متبادلة بين أبنائه فان تفاعل هذا المجتمع مع بعضه يجري كمجرى الدم في العروق السليمة، وكلما ازداد التفاعل والتكامل بين أعضاء المجتمع كلما كان أقرب الى الحضارة، والحضارة هي: حضور الإنسان عند الإنسان، وسيادة العدالة والثقة المتبادلة، أما إذا انعدمت هذه الشروط في الحضارة فانها ستضمحل ويحل محلها التخلف حتى وإن ظهرت على السطح صور حضارية، فليست الحضارة هي التقدم التكنولوجي، ولكن الحضارة ما سبق ذكره.

وكلما كانت الصلة بين ابناء المجتمع أمتن، كلما كانت رحمة الله اليهم أقرب. وأما إذا

(١) أناب: الإنابة الرجوع إلى الحق بالتوبة.

قطعوا الصلة التي أمر الله بها، فإن لعنة الله المتمثلة في الحرمان والعذاب تنزل بهم. ولهم سوء الدار.

والرزق من الله. كما أن منعه بيد الله، وأكبر من رزق الدنيا، هو نعيم الآخرة بينما الكفار يفرحون بما في الدنيا وما في الدنيا غير متاع.

ويطالب الكفار أبداً بآية، وكأن النقص في الآيات. كلا. إنها النقص في أنفسهم إذ الله يضل من يشاء، بسبب سوء اختياره ويهدي إليه من أناب إليه.

ومن هم النبيون؟ إنهم المؤمنون حقاً، وهم الذين تطمئن قلوبهم بذكر الله. بلى إن ذكر الله فعلاً يعطي سكينه النفس واطمئنان القلب.

إن هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم حياة طيبة في الدنيا، ولهم حسن مآب في الآخرة.

بينات من الآيات:

صفات الكفار

١ - نقض العهد:

[٢٥] ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ من أبرز صفات الكفار نقض عهد الله، ومن ينقض عهد الله فهو لا يحترم نفسه، ومن لا يحترم نفسه لا يحترم الآخرين، وأخيراً فهو يتحدى الله ويخالف أمره، وعندما ينقض الإنسان عهده فإن ذلك لا يجعل حياته مرسومة ضمن خطة بعيدة المدى، بل تكون أعماله مجرد ردود أفعال لا أكثر، أو بمعنى آخر انعكاس لظروف متغيرة، والعهد عهدان:

١ - عهد مع الله، أخذه الله على الإنسان في عالم الذر،

٢ - عهد مع الآخرين أشهد الله عليه، فنقضك عهدك مع الله كفر، ونقضك عهدك مع الناس لؤم.

٢ - قطع الرحم:

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ يقطعون أرحامهم أو رحم أهل بيت الوحي كما

سبق ذكره.

٣ - الفساد في الأرض:

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بنشر الفساد، وهناك معنى آخر نستوحيه: إنهم يفسدون بيئة الأرض، وهذه حالة الكفار فهم يتقمون من الطبيعة، وما الأسلحة الاستراتيجية والجرثومية إلا دليل على نشر الدمار كما إن تلويث البيئة الطبيعية دليل نشر الفساد.

﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ اللعنة الطرد والإبعاد عن رحمة الله في الدنيا ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ بالإضافة إلى طردهم من رحمة الله في الدنيا، إذ يعيشون القلق، فلهم سوء الدار.

ملاحظتان:

الملاحظة الأولى: إن الصفات الحسنة كما الصفات السيئة أخوات، فالصفة الحسنة تخرج وراءها صفات أخرى حسنة مثلها، كما قال الإمام علي عليه السلام: «إِذَا كَانَ فِي رَجُلٍ خَلَّةٌ رَائِقَةٌ فَاتَّظَرُوا أَخَوَائَهَا»^(١).

وهكذا الصفات السيئة. أما لماذا ذلك؟ فلأن الصفة الحسنة مصدرها نفسية حسنة وهذه النفسية الحسنة تعطي بدورها صفات حسنة أخرى، والعكس صحيح، فلذلك فإن الله يسوق الصفات الحسنة مع بعضها، والصفات السيئة مع بعضها.

الملاحظة الثانية: إن للإنسان أربع علاقات:

١ - علاقته مع ربه.

٢ - علاقته مع نفسه.

٣ - علاقته مع الناس.

٤ - علاقته مع الطبيعة.

وعلاقة الكافر بهذه الأصناف مقطوعة أو هي علاقات سلبية، فعلاقته مع ربه مقطوعة، كما قال: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة: ٢٧]. وعلاقته مع نفسه مقطوعة إذ أنه لا يحترمها، وعلاقته مع الناس كذلك كما قال سبحانه: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧]، وعلاقته مع الطبيعة سلبية كما قال: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧].

(١) نهج البلاغة: حكمة: ٤٤٥.

وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع

[٢٦] ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ إن الله يوسع الرزق على من يشاء من عباده برحمته ويضيق عمن يشاء بحكمته.

وقد يشاء الإنسان الدنيا فيبسط الله الرزق له، كما قال: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَعَى الشَّكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وقد يبسط الله الرزق للإنسان بعد ابتلائه ليأخذه على حين غرة كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالنَّصَاءِ لَعَلَّهُمْ يَنْصَرِعُونَ ﴿١٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٤].

أما نعم الله على الإنسان فبالإضافة الى ما سبق ربما تكون عذابا كما جاء في الحديث النبوي: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَحْرُمُ الرِّزْقَ بِالدَّنْبِ يُصِيبُهُ»^(١).

وربما يكون إمتحانا. وأخيرا إذا قتر عليك الرزق فلا تيأس من روح الله، كما لا تعجب بما أتاك الله فقد يسلبه منك.

وإن من حكمة الله سبحانه أيضا أنه يبيء الدنيا للكافر ليلهو عن الحق، ويبتعد عن الرسالة، وكما جاء في وصية النبي ﷺ لعلي عليه السلام: «الدُّنْيَا سَجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»^(٢).

﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الفرح هو حالة الإشباع النفسي، مثل الطفل تشبع نفسه بمجرد حصوله على لعبة يريد ما فبعض الناس تكون نفوسهم ضيقة تشبع بمجرد أن تواتيها الدنيا، فالإنسان الذي تشبع نفسه يغفل عن مسؤوليته، ولا يجد للالتزام داعيا.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ المتاع هي الكماليات مما ليس ضروريا، حيث يمكن الاستغناء عنها أو الاستعاضة بغيرها إذا اهترأت.. بلى إن الحياة مزرعة الآخرة، هنا عمل بلا حساب، وهناك حساب بلا عمل.

(١) مستدرک الوسائل: ج ٥، ص ١٧٨.

(٢) وسائل الشيعة: ج ١٦، ص ١٧.

كيف يطمئن القلب

[٢٧] ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ الإنسان الذي يريد النظر بكفيه البصيص من النور، أما الذي لا يريد أن يبصر فضوء الشمس لا يكفيه ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾ يريد الإنسان الهداية فيهديه الله، ويريد الضلالة فيمد الله له في ضلالته وهذا واضح من الاسم الموصول من الذي يطلق للعاقل.

[٢٨] ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الاطمئنان: السكون والاستقرار. والقلب المطمئن هو نفسه النفس المطمئنة كما قال سبحانه في آخر سورة الفجر: ﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) أَرْجِعْنِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَأَدْخِلْنِي فِي عَبْدِي (٢٩) وَأَدْخِلْنِي جَنَّتِي ﴿ [الفجر: ٢٦-٣٠]. وذكر الله هو مطلق توجه الإنسان لله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ في زحمة الحياة ومع تراكم الأعمال، ومع جو الإرهاق والعمل، واثناء القلق النفسي الذي يعصف بالكثيرين تركن النفس وتطمئن لذكر الله، وحرى بنا أن نعالج مشاكلنا النفسية بذكر الله لأنه أنجع علاج يمكن أن يستفيد منه الإنسان وخاصة في هذا الزمن، زمن التيارات والصراعات التي يغذيها الاستعمار شرقه وغربه.

[٢٩] ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ في الدرس السابق بعد ذكر صفات المؤمنين ذكر مصيرهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عِزٌّ فِي الدَّارِ﴾ (٢٢) جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَأَمَّا جَهَنَّمُ وَأَزْوَاجُهُمْ وَذُرِّيَّتُهُمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿ [الرعد: ٢٢-٢٤]. أما الآن فيذكر مصيرهم بأن لهم طوبى وحسن مآب. ولعل المراد من الطوبى الحياة الأعظم طيباً. وهذا يدل لنا بأن للمؤمنين في الجنة في كل يوم صنف جديد من النعيم، فلا هم يملون، ولا الله يقتر عليهم.

الله الأمر جميعا

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمْ
الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ ﴿٣١﴾ بِهِ الْجِبَالُ
أَوْ قُطِعَتْ ﴿٣٢﴾ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ
يَأْتِئِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ
الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ
وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْعِيعَادَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلِي مِّن قَبْلِكَ
فَأَمَلَيْتُ ﴿٣٤﴾ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٥﴾ أَفَمَن
هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُمْ
بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُظَاهِرُونَ الْقَوْلَ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ
وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٦﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٧﴾ مَثَلُ
الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا
فِي تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٨﴾﴾

(١) متاب: المتاب التوبة.

(٢) سیرت: التسيير تصوير الشيء بحيث يسير.

(٣) قطعت: التقطيع تكثير القطع، والقطع تفصيل المتصل.

(٤) فاملت: الإملاء التأخير.

هدى من الآيات:

ضمن آيات هذا الدرس يذكرنا القرآن الحكيم بأن الهدى والضلالة من عنده إذا أرادها الإنسان لنفسه، وأن الرسالة المحمدية هي امتداد طبيعي لرسالات الأنبياء السابقين ومكملة لها ومهيمنة عليها جميعا، وأن سنن الله واحدة تطبق على سائر الأمم في سائر الأجيال، فكما انطبقت على تلك الأمم هذه السنن كذلك تنطبق على هذه الأمة.

ويذكرنا السياق بأن أساس كفر الكفار ليس برسالة الرسول، بل بالرحمن، ثم بما يتفرع منه من رسالات الرحمن، فعلى الرسول أن يتوكل على الله لو كذبه، ولو أن الله استجاب لهم بطلبهم المزيد من الآيات لما زادهم ذلك إلا عنادا واستكبارا، ثم هل هناك آية أكبر من هذا القرآن الذي لو كان من المقدر أن يُسِيرَ الجبال ويُكَلِّمَ الموتى لكان به وأكبر دليل على ذلك إن كثيرا من القوارع نزلت على من قبلهم أو قريبا منهم فلم يتعظوا، ولو أنهم يريدون الهداية بالآيات لا هتدوا بتلك القوارع واتعظوا بها، فهذه الأمم أعطيت مهلة كما أعطوا هم مثلها، فعاجلهم الله بالعقاب لما اختاروا الكفر على الإيمان.

وبعد ذلك يسأل: هل إن الله هو القائم على كل نفس بما كسبت من خير أو شر أم الشركاء؟ وهل الشركاء هم الذين ينبؤون الله ويوحون إليه؟!

إن مكرهم السيئات، وتزيين ذلك في نفوسهم، والصد عن سبيل الله كان السبب الرئيسي في إضلال الله لهم، ومن يُضلل الله فلن تجد له هاديا مرشدا، وأما نهاية هؤلاء فاما عذاب الدنيا والآخرة، أو عذاب في الآخرة، وأما نهاية المؤمنين فأحسن منهم مقاما وأفضل نديا.

بينات من الآيات:

وهم يكفرون بالرحمن

[٣٠] ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِا أُمَمٌ﴾ إن الله أرسل الرسول إلى أمة سبقتها أمم جرت عليها السنن الإلهية كما ستجري على أمة الرسول ﷺ أيضا، وهذه الآية توضح الامتداد الطبيعي للبشرية، وأن في البشرية خطا متكاملا، وإن الأمم مهما اختلف زمانها ومكانها عن أمة الرسول فهناك جامع مشترك بين سائر الأمم، وهي كما سبق ذكره محكومة بسنن واحدة تجري على الكل.

﴿لَتَسْتَلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الهدف من رسالة الرسول أن يكون معبرا عن

حقيقة الرسالة، وأن الرسول مهما تحمل من الجهد فهو مجرد تال لما نزل عليه، أي أن الرسول ليس صانعاً للوحي، وإنما يؤدي دور المرآة إذ يعكس الرسالة إلى أمته.

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ جذر كفرهم إنما هو بالرحمن وليس بك، وقد جاء في الدر المنثور عن ابن جريج في قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ قال: لما كاتب الرسول ﷺ قريشا في الحديبية كتب: «بسم الله الرحمن الرحيم...» قالوا: لا نكتب الرحمن، وما ندري ما الرحمن؟! وما نكتب الا باسمك اللهم!، فأنزل الله ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾^(١).

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا هو الرحمن الذي يكفرون به، لا إله غيره، رب الأرباب، لا ند له ولا نظير ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في دعوتي إليكم مع تكذيبكم بي. ﴿وَالَيْهِ مَتَابٌ﴾ إليه بخوعي وإنابتي.

حقيقة القرآن

[٣١] ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ﴾ لما واجههم الرسول بعد طلبهم الآيات بالقرآن، وأكد على أنه المعجزة الكبرى تعللوا بأن هذا القرآن المعجزة لو سيرت به الجبال من حولنا (حول مكة) حتى نستطيع أن نزرع، أو قطعت به الأرض كما كان سليمان يرسل الرياح فيقطع بها الأرض، أو كلم به الموتى، كما كان موسى وعيسى لكانوا يؤمنون به، ولكن لو أنزل الله مثل هذه الآيات، اكانوا يؤمنون بها؟! ولكن قصدهم التعجيز وتحدي الرسالة، فلن يرسل الله مثل هذه الآيات، وهذا القرآن له القدرة على هذه الأشياء لو عرف الإنسان كيف يستغله، وقد قال الله سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَضْبًا مُّتَصِدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ إن الله يستطيع أن ينزل هذا القرآن، وقد أنزله فعلاً.

جواب ﴿وَلَوْ﴾ في الآية ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ﴾ محذوف وتقديره أحد هذين المعنيين:
أولاً: لما أفادهم.

ثانياً: لكان هذا القرآن.

وحسب نظري إن كلا الجوابين صحيحان، فلو كان القرآن كذلك لم ينفعهم كون القرآن تسير به الجبال وتقطع به الأرض ويكلم به الموتى، وثانياً: إن القرآن كذلك، وقد استطاع (كما أسلفنا) المؤمنون حقاً الذين استوعبوا حقائق القرآن أن يستفيدوا منه هذه الفوائد.

(١) الدر المنثور: ج ٤ ص ٦٢.

اليأس من الإصلاح

﴿أَفَلَمْ يَأْتِفِسَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ منع الله الآيات عنهم ليس سببا لضلالتهم، بل لأن الله لم يهدهم، فإن الله لا يهدي إلا من ينيب.

واليأس هنا له معاني، فمن معانيه العلم، أي (أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً)، وهي: «لغة هوازن»^(١)، وقال بعضهم: «إن اليأس معناه القنوط»^(٢) وشرب معنى العلم فيكون المعنى: «أفلم يعلم الذين آمنوا أن الله لم يشأ هدايتهم ولو يشاء لهدى الناس جميعاً»، وقال بعضهم: «إن هناك باء محذوفة في (أن) و(اليأس) على معناه المعروف، فيكون تقدير الكلام: «أفلم ييأس الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً».

وفي الحقيقة فإن هناك جامعا مشتركا لهذه الحقائق الثلاث، فمن جهة يجب أن يأسوا من اعتداء هؤلاء، ويعلموا بأن هؤلاء لن يهتدوا، وبالتالي يجب أن يعلموا بأن الله لو يشاء لهدى الناس جميعاً، فالمعنى واحد.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ﴾ تفيد الاستمرارية، وربما تعبر هذه الكلمة عن أمرين:
أولاً: تضمين معنى السنة الدائمة.

ثانياً: إن الإنسان هو الذي يصنع مصيره بنفسه، فالعذاب هو نتيجة ما اقترفت اليدان من الذنوب، والقارعة هي الكارثة.

فهذه الكوارث الإلهية تصب ولا تزال تصب على رؤوس الكافرين ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾. فمكة مثلاً لم تكن تصاب بالحروب أو بالزلازل، بل تنزل هذه المصائب فيها حولها، ولكن لم يتعظ الكافرون.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ هذه القوارع ما هي إلا إرهاصات يصبها الله عاجلاً على الكافرين، أما القارعة الحقيقية فهي في الآخرة: ﴿الْقَارِعَةُ ۚ (١) مَا الْقَارِعَةُ ۚ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۚ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۚ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۚ [القارعة: ١-٥].

(١) تفسير الثعالبي: ج ٣ ص ٣٧٠، التبيان: ج ٦ ص ٢٥٤.

(٢) التبيان: ج ٦ ص ٢٥٤.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ إن الله لن يخلف مواعده مع الكفار بأن يأخذهم في ذلك اليوم حيث لا يستقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون.

فأملت للذين كفروا

[٣٢] يسترسل القرآن في الفكرة التي بدأها في بداية هذا الدرس بتكذيب الأمم رسلها، وأن موقف الأمم عبرة لمن ألقى السمع، وموقف الرسل عبرة للرسول، فيقول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلْنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

كما أن إرسال الرسل سنة، فكذلك تكذيب الأمم سنة أيضا، وليس التكذيب هو الأسلوب الوحيد للمواجهة، بل هناك أسلوب آخر يعتمد الكفار ضد الرسل وهو أشد أثرا بنفسية الرسل إلا وهو أسلوب الاستهزاء، وأسلوب الاستهزاء مجموع نوعين من أساليب الكفار، فلا يكون الاستهزاء إلا بالتكذيب، ومن ثم بالسخرية والاستخفاف، وهناك في زماننا الكثير ممن تركوا رسالتهم لأن الناس واجهوهم.

والإمهال والإملاء هو من حكمة الله الماضية على عبده العاصين.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَمَغْرُورٍ بِالسَّيْرِ عَلَيْهِ وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ وَمَا ابْتَلَى اللَّهُ أَحَدًا بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ»^(١).

وقد قال الله ﴿وَأْمَلِ لَهُمْ إِنَّا كِيدَىٰ مَتِينٌ﴾ [الاعراف: ١٨٣].

﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي كيف كان عقابي لهم؟! وهذا تعبير عن الشدة في الأخذ، وهذه النتيجة السيئة لمن يكذب بالرسل ويستصغر شأنهم.

[٣٣] ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ القائم على كل نفس: الحافظ لها، وقيل معناه: إنه قائم على كل نفس بالرزق، وربما ما بعدها يحددها.

﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ بما عملت، فحكم نفسك ليس بيدك، ولا تستطيع نفسك أن تفلت من زمام التقدير، فإن الله لو تركها لحظة لانتهدت، ولما بقي لها من الوجود شيء، والله لا يعصى عن غلبة، وأنت إن أعطيت التخير في الطاعة أو المعصية، فأنت مسير من قبل الله، وأكبر دليل على ذلك روحك وقلبك وسائر أعضاء جسمك التي تعمل ولو حدها ولا تدخل لك في إيقافها أو عملها.

(١) نهج البلاغة: حكمة: ٢٦٠.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أبعد أن أراهم الله الآيات في القيمومة على انفسهم يشركون بالله سبحانه؟! وكيف يشركون به وقد أراهم من عظيم الخلق، ودقيق الصنعة.

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي اذكروهم، ولعل ذكر الاسم هنا ليس ذكر الاسم الذي يتسمون به، بل يعني اذكروا صفاتهم، ومعلوم إن كل شيء يعكس إسما من أسماء الله. فالسماء تجل لاسم العلو والعظمة، والشمس تجل لاسم الحكمة والقدرة، فقد يكون قصد الله: اخبروني عن تجليات أسمائهم في مصنوعاتهم.

﴿أَمْ تَتَّبِعُونَهُمَا بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي بما لا يعلم له من شركاء، وعدم العلم هنا ليس معناه ان الله غير عالم، بل عالم ولكن لا يعلم أن له شريكا، فليس له شريكا أبدا.

﴿أَمْ يَبْظَهَرُ مِنْ الْقَوْلِ﴾ الشركاء هي مجرد الفاظ تسمى من غير واقع، فكلمة جلالة الملك ليس معنى ذلك إن الملك صار جليلا، بل رضاه بهذا الاسم يعكس ذلته.

تغيير المقاييس الفطرية

﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ المكر هنا افتراء العمل السيء والمكر هو الفساد، قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ مُّجْرِمِيهَا لِيَتَعَبَّكُرُوا فِيهَا﴾ [الانعام: ١٢٣].

ولكن من الذي زين المكر لهم؟

إن الشيطان هو الذي يزین لهم مكرهم كما قال: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الانعام: ٤٣]. وفي آية أخرى ينسب الله لنفسه التزيين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا لَّهُمْ أََعْيُنُهُمْ﴾ [النمل: ٤]. ولا منافاة فعندما يغضب الله على إنسان يكله إلى الشيطان أو إلى قرناء السوء فيكون تزيين الله لهم بأن يجعل لهم مزينين كما قال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

إذن فليحذر الإنسان أن يزین له سوء عمله فيراه حسنا، وعندما يخضع للمزينين كالطواغيت مثلا فإن مقاييسه الفطرية تتبدل وتصبح مقاييس عكسية فالسوء عنده حسن، والحسن عنده ميء.

﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ ليسوا هم الذين صدوا أنفسهم عن السبيل، كما أنهم ليسوا هم الذين زينوا لأنفسهم المكر إنما الشيطان ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

ابتلوا هؤلاء بثلاث:

- ١- زين لهم مكرهم.
- ٢- صدوا عن السبيل.
- ٣- اضلال الله لهم.

نهایتان

[٣٤] ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ على

الإنسان أن يستدل بعذاب الدنيا على عذاب الآخرة مع ضرب هذا الرقم بالملايين، وأن عذاب الدنيا يختلف شكلا عن عذاب الآخرة، فقد يكون عذابهم في الدنيا نفسيا أو عذابا جسديا، وقد يكون كلاهما.

[٣٥] ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ هذه صفتها..

﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أهل الجنة يأكلون أبدا، ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ هذه نتيجة تقواهم ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ هذه معادلة، فالكفر والتقوى يساويان تماما النار والجنة.

حكما عربيا

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَهُ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَابِتٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾.

هدى من الآيات:

مواقف الناس من الكتاب ثلاثة. فأما مؤمن به كله، أو مؤمن به في حدود مصلحته، أو كافر به، وبمناسبة الحديث عن أصناف الناس واتجاهاتهم من الكتاب يحدثنا الله عن: أن القرآن عربي، وعروبة القرآن ليست تعصبا همجاً عنصرياً للعربية، فالقرآن عربي إلا أنه يخالف كل السخافات العربية، والقرآن أيضاً لا يتنازل عن قيمه مجارة للثقافة العربية الشائعة آنذاك.

بيانات من الآيات:

الايمان المصلحي

سبق الحديث في الدرس السابق، إن سبب الكفر بالرسالة هو الكفر بالرحمن، فيعني ذلك أن المؤمنين الصادقين بالقرآن يؤمنون بالرحمن وبالتالي فهم يطبقونه لأنه يجسد إرادة الله وهداه.

[٣٦] ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ تجسد هذه الآية الحالة

النفسية التي تعترى المؤمنين من أهل الكتاب لدى نزول القرآن، لأن نزول القرآن انتصار لهم، وتجسيد لإرادتهم، ويقول الله عنهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ والأحزاب هم اليهود والمشركون ممن تحزبوا على رسول الله ﷺ وقد قال الله سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ فَيَقْسِيصُونَ وَرُفُكًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

الأحزاب هو جمع حزب، ولا يسمى الله المؤمنين مهما كانوا أو اختلفوا إلا حزباً واحداً لأنهم تجمعهم الأهداف والمنطلقات فهم متحدون في كل شيء، أما الأحزاب (الجمع) فتطلق للأحزاب التي تعادي الرسالة التي تختلف فيما بينها في كل شيء إلا معاداة الرسالة، وعندما يقول الله: ﴿إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ﴾ [المجادلة: ١٩]، فقد ذكر الله الصفة البارزة التي تجمع أحزاب الشيطان بأنها على اختلاف مشاربها تنفق على قاسم مشترك وهو اتباع الشيطان، مثل الشرق والغرب يختلفون في كل شيء إلا في استغلال العالم ونهب ثرواته.

هذه الأحزاب تحاول احتواء الرسالة، تفضل الحل الوسط بعد معرفتها بصدق الرسالة، وهي تأخذ من القرآن ما يحفظ لها مصالحها، ويدعم امتيازاتهم.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ إنما يؤمن بالكتاب حقاً من يؤمن بالله، فهناك تلازم بين الإيمان بالكتاب والإيمان بالتوحيد.

﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾ إليه دعوتي إن ضاقت بي المسالك، وإليه مآبي ورجوعي في جميع أموري ومعادي.

الحقائق القرآنية في مواجهة الأهواء

[٣٧] ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ الحكم هو القضاء، والعربي: بمعنى الإعراب، والإعراب هو الإفصاح، وليس معنى قولنا: إن القرآن عربي أنه يوافق العرب الجاهليين في اعتقاداتهم.

﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ اللغة عربية ولكن المحتوى إلهي، والعربية لغة وليست مشرعة، أما التشريع الإلهي فهو علم، والعلم هو معرفة الحقائق وكشفها، والأهواء شهوة عاجلة.

﴿مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ الله ولي الذين آمنوا كما قال وأن الكافرين لا مولى لهم، فلتن اتبع الرسول أهواء قومه سيفقد ولاية الله ومن ثم لا ينصره، وعندما يتخلى الرسول عن العلم إلى الهوى. أنتذ يعذبه الله ولا يجد له من دونه واقيا، فإذا خالفك الناس سينصرك الله، وإذا خالفت الله متبعا أهواء الناس سيخذلك الله ولا تجد من دونه نصيرا.

حياة الرسل وقدراتهم

[٣٨] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ إن الأنبياء بشر، تطرأ عليهم نفس العوامل التي تطرأ على البشر، فهم يتزوجون وينجبون، فليس الأنبياء ممن يتعالون على جنسهم.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَابِتٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إن الرسول لا يملك بذاته أمر الآيات، بل إن الله يظهرها متى شاء على يد نبيه من دون أن يؤثر فيها ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ كل شيء محدود بأجل.

يمحو الله ما يشاء

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٣٩ وَإِنْ مَا نُرِيدَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۝٤٠ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ ۝٤١ لِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٤٢ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَ عِلْمُهُ الْكُفْرَ لِمَنْ عُقِبَ الدَّارِ ۝٤٣ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ۝٤٤﴾

هدى من الآيات:

في هذا الدرس الأخير من سورة الرعد يذكرنا السياق القرآني بأن الأمور بيد الله وإن إرادته مطلقة تتجاوز التقدير والسنن وإنه يمحو ما يشاء ويثبت، وثانياً: إنه ليس على الرسول إلا البلاغ وإن على الله الحساب، فإن شاء نزل العذاب على أولئك الكافرين وإن شاء أخره.

الله مهيمن على الكون فهو الذي ينقص الأرض من أطرافها، وحكمه حكم حتم لا ينقضه أحد، وهو سريع الحساب، وإن الله لم يعص عن غلبة، والذين مكروا السيئات يمكر الله بهم وهو خير الماكرين، وغدا حين ينحشر الكفار سيعلمون لمن عقبى الدار، أما الذين يقولون بأن الرسول ليس مرسلًا فإن الله يرد عليهم عن لسان نبيه ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ۝٤٤﴾.

(١) معقب: التعقيب رد الشيء بعد فصله، ومنه عقب العقاب على صيده إذا رد الكروار عليه بعد فصله عنه.

بيانات من الآيات:

[٣٩] جوهر رسالات الله يتلخص في ربوبية الله، وهذه السورة تعمق هذه الفكرة، وهذه الفكرة تشكل الفرق بين رسل الله وفلاسفة البشر، فرسل الله بشروا بهذه الفكرة، أما ما توصل إليه عقل هذا الإنسان العاجز، إن لهذا الكون خالقا خلقه ثم تركه يسير بالسنن، كمن يخلق ساعة الكترونية ويتركها تسير ضمن قوانين محددة، وقد صاغ أحد فلاسفة البشر الملحدون هذه الفكرة!!

وعموما فإن فلاسفة البشر ينبؤنا عن إله ميت لا ولاية له ولا دعوة، بينما رسالات الله تنبؤنا عن إله حي قديم لم يزل ولا يزال، وتوجد هناك صلتان نستطيع أن نتصل مع الله بهما.

أولاً: الدعاء

باستطاعتك أن تتصل بالله عبر الدعاء، وإن باستطاعتك أن تغير ما كتب عليك بسببه، فبالدعاء أنت قادر على تغيير الطبيعة، وتغيير القضاء المحتوم عليك.

ثانياً: صلة العمل الصالح

فلسفة البشر تقول إن الله قد كتب على الكون مقدراته، وإنه لا ينفع شيء أمام هذا التقدير، وهذه فلسفة القدرية الذين آمنوا بالاحتميات، فصار عندهم كل شيء محتوم.. إذا عملك الصالح لن ينفع أمام التقدير المحتوم، أما نحن فلا نؤمن بالاحتميات (السياسية والاقتصادية والثقافية والتربوية) نرى أن من الممكن تغيير كل حتمية، فصحيح أن هناك قوانين وسنن، ولكن الإنسان يعلو بإيمانه وعمله الصالح على هذه الأنظمة والسنن إن الله أكبر من القوانين والسنن أنه هو صاحب المشيئة المطلقة، ولا شيء محتوم عليه، فهو يمحو ما يشاء ويثبت، والإنسان الذي يتصل بالله يتصل بهذه المشيئة المطلقة التي لا حتمية عندها، أما إذا قلنا بأن القلم قد جف، وأن الأجل قد انتهى وأن القدر قد كتب في الكتاب إذن فلا معنى للدعاء والعمل الصالح. قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾.

إذا كنت في قائمة الأشقياء فباستطاعتك أن تكون من السعداء إذا اتصل قلبك بالله ذي الطول، قال الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وقال: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. فهو الذي أمرنا بالدعاء وضمن لنا الإجابة.

﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الكتاب لفظ يؤدي إلى معنيين: المعنى الأول: هو اللوح المحفوظ، والمعنى الثاني: هو الكتاب، فأم الكتاب انعكاس لعلم الله بها كان وبها يكون، فالله عالم محيط علما بكل شيء، قبل وبعد أن يكون، وعلم الله ليس علم الكشف، بل إنه يتعدى إلى المسببات والمؤثرات، لأنه صانعها، فعلم الله بالمسبب لا ينفي علمه بالسبب فأننا أعلم أن الصخرة تسقط من علي، فعلمي بالسقوط يسمى كشفاً، ولكن لا يعني ذلك أني أنا المؤثر في السقوط، فالمؤثر في السقوط هي الجاذبية.

تكشف هذه الآية فكرة البدء، وتعتبر هذه الفكرة قطب الرحي في الحكمة الإسلامية وهي أكثر الأفكار تقدمية وحضارية، وأكثر الأفكار تربية للبشر، فالذي يعلم أن الأقدار بيد الله يكون أكثر تحركاً، جاء في الأحاديث:

١- عن ابن مردويه وابن عساكر عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فقال له: «لَأَقْرَنَ عَيْنِكَ فِي تَفْسِيرِهَا وَلَأَقْرَنَ عَيْنِي بِغَدِي بِتَفْسِيرِهَا: الصَّدَقَةُ عَلَى وَجْهِهَا وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ وَاضْطِئَاعُ الْمَعْرُوفِ بِحَوْلِ الشَّفَاءِ سَعَادَةٌ وَيَزِيدُ فِي الْعُمُرِ وَيَقِي مَصَارِعَ الشُّوْءِ»^(١).

٢- في قول الله تعالى: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَرَمَتْهُ» عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «وَهَلْ يُمَحَّى إِلَّا مَا كَانَ ثَابِتاً وَهَلْ يُبْتُ إِلَّا مَا لَمْ يَكُنْ»^(٢).

من هذا الحديث نرى أنه لا حتمية في الحياة، وأن الحياة في حالة تطور، وهي ليست جامدة قائمة على نظم لا تتغير.. كلا.

٣- عن أبي جعفر الباقر عن فضيل بن يسار، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «مِنْ الْأُمُورِ أُمُورٌ نَحْتُمُومَةٌ جَائِيَةٌ لَا نَحَالَةٌ، وَمِنْ الْأُمُورِ أُمُورٌ مَوْقُوفَةٌ عِنْدَ اللَّهِ يُقَدَّمُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَيَمْحُو مِنْهَا مَا يَشَاءُ، يُبْتُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ، لَمْ يُطْلَعْ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ يَعْنِي الْمَوْقُوفَةَ، فَأَمَّا مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ فَهِيَ كَائِنَةٌ لَا يُكْذَبُ نَفْسُهُ وَلَا نَبِيٌّ وَلَا مَلَايِكَةٌ»^(٣).

٤- عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يقول: «لَوْ لَا آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَأَخْبَرْتُكُمْ بِمَا كَانَ وَبِمَا يَكُونُ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهِيَ هَذِهِ الْآيَةُ: «يَمْحُوا»

(١) تفسير الدر المشور: ج ٤ ص ٦٦.

(٢) الكافي: ج ١ ص ١٤٦.

(٣) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢١٧، بحار الأنوار: ج ٤ ص ١١٩.

اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾^(١).

[٤٠] ﴿وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفِّيَنَّكَ﴾ من العذاب في حياتك أو بعد موتك، وعلى ذلك فليحذر الكافرون وأعداء الرسالة أن يصيبهم الله بعذاب من عنده إن هم تمادوا في غيهم، فأما يدركهم سراعا فيستقم الله لرسوله، أو يؤخرهم فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ لا يد للرسول على قومه سوى تبليغ رسالة الله، وعلى الله الحساب في أن يأخذهم متى شاء، ولا يعني ذلك أنه لا يستطيع أن يدعو عليهم بالعذاب، أو أن الله لا يستجيب له، وأن الله إذا أراد أن يصب العذاب على قوم فلن يستطيع الأنبياء رده، كما لم يستطع نوح أن يرد العذاب عن ابنه.

[٤١] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ فقد يكون نقص الأرض من أطرافها باهلاك البشر المكذبين كما قال تعالى ﴿بَلْ مَنَعْنَا هَبْلَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَقًّا طَالَّ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]. وقد يكون بذهاب العلماء فإذا نقصوا أو قلوا رزات الرحمة (أي ولت) عنهم، فالعلماء هم بمثابة الجبال الراسيات في الأرض.

﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ إن الله هو الحاكم الفعلي في الحياة، وإذا أراد شيئا، فلن يتوانى ذلك الشيء عن الاستجابة له، وإذا حكم بشيء، فلن يستطيع أحد أن يغير حكمه سبحانه ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

[٤٢] ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ قد يحسب الإنسان أنه قادر على شيء، فيجيبه الله: إن كنت تحاول المكر فانا أشد منك مكرًا لأن مكري الإملاء والإمهال. ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير أو شر. ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارُ﴾ سيعلمون حين لا ينفع العلم إن المؤمنين هم أصحاب الجنة.

كفى بالله شهيدا

[٤٣] ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا﴾ يلخص الله مواقف الكفار من الرسالة، وما يجب أن يكون عليه موقف الرسول، فالكفار يتهمون الرسول بأنه غير مرسل من

(١) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢١٥، بحار الأنوار: ج ٤ ص ١١٨.

الله، فما الرد الأفضل للرسول؟.

﴿قُلْ كَفَى بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ولأن الله هو الحق وقد شهد على الرسالة، فلا يهم بعدها إن شهد الكفار أو لم يشهدوا أليس الله هو الشاهد الأكبر.

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ لكي يقرب الله فكرة صدق الرسول للكفار فإنه يعطيهم مقاييس يؤمنون بها، فما داموا هم بشر فلأنهم سوف يؤمنون بالمقاييس البشرية، فهم إن كذبوا الرسالة، فإن هناك آخرين يحملون العلم يصدقون الرسول، ومن ظاهر هذه الآية يبدو أن المراد من ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ هم بعض علماء أهل الكتاب الذين كانوا يقرون برسالة النبي محمد ﷺ إستناداً إلى ما يجدونه من تأييد للرسالة المحمدية في كتبهم السماوية، وقد وردت الروايات الكثيرة من المعصومين عليه السلام التي تؤكد أن المعنى بهذه العبارة هو أمير المؤمنين عليه السلام، والأئمة المعصومين من ذريته عليه السلام، ولا ريب في أن أئمة الهدى هم أبرز مصاديق ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، فقد سئل الإمام الباقر عليه السلام عن هذه الآية، فقال: «إِنَّا نَا عَنِّي، وَعَلَيَّ أَوْلُنَا وَأَفْضَلُنَا وَخَيْرُنَا بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ»^(١).

(١) الكافي، ج ١، ص ٢٢٩.

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

• مَكِّيَّة.

• عدد آياتها: ٥٢.

• ترتبها النزولي: ٧٢.

• ترتبها في المصحف: ١٤.

• نزلت بعد سورة نوح.

فضل السورة

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ وَالْحَجَرِ فِي رَكْعَتَيْنِ جَمِيعاً فِي كُلِّ جُمُعَةٍ لَمْ يُصِبْهُ فَقْرٌ أَبَداً وَلَا جُنُونٌ وَلَا بَلْوَى».

(وسائل الشيعة: ج ٧ ص ٣٧١)



وعن النبي محمد ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ وَالْحَجَرِ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ عَبَدَ الْأَصْنَامَ وَبِعَدَدِ مَنْ لَمْ يَعْبُدْهَا».

(مجمع البيان: ج ٦ ص ٣٠١)

الإطار العام

النبي إبراهيم عليه السلام رمز واسوة

سميت هذه السورة باسم النبي إبراهيم عليه السلام رمز التوحيد، ومحطم الأصنام، لأنها تدور حول رسالة التوحيد التي يحملها الأنبياء عليه السلام ويخلصون من أجلها.

وفيما يبدو من سياق دروس السورة أنها تذكرنا بالجانب الإلهي من رسالة الأنبياء، وكيف أنهم يذكرون بالله تعالى، بل يجسدون بدعوتهم أعلى مثل للتوحيد، إذ لا يخشون أحداً إلا الله، وهدفهم فقط نجاة البشرية من ظلمات التقليد والجهل والتبعية إلى نور العقل والإيمان.

ويبدو أن سياق السورة يشير فينا الإحساس الفطري بالشكر للمنعم، والتذكرة بأن أبرز علائم الشكر هو معرفة المنعم والتسليم له، والعمل بأهداف النعم النبيلة.

كما تشير السورة إلى الجبت والطاغوت باعتبارهما ركائز الكفر المقيت، وكيف سيتبرأ من الكفار في يوم القيامة. وفي مقابل ذلك تحدثت السورة المباركة عن السعادة المطلقة التي تنتظر المؤمنين بالله وأنبيائه ورسله عليه السلام.

لقد كان النبي إبراهيم عليه السلام رمزاً وأسوة في الشكر والدعوة الصالحة، فزاده الله من فضله، وجعل الأنبياء عليه السلام من ذريته الصالحة.

ويشير مقطع من السورة إلى أن الصراع الذي يدعو إليه الرسل، هو صراط العزيز الحكيم. ولكن الصراع قد تطور، وتجسد عناد الكفار في إرهاب أهوج، فهددوا رسلهم بالإخراج إذا لم يخضعوا لباطلهم. غير أن الله أوحى لهم بأن الفريق الظالم هو الهالك، لأنه تجبر في الأرض وعلا فيها بغير الحق، فذهبت أعماله أدراج الرياح. كما يبين النص القرآني ما يعاكسه من ثبات عمل المؤمنين.

وتصور الآيات الشريفة حالة تبرؤ الكافرين من بعضهم في يوم القيامة.

وكما أن ربنا يثبت الذين آمنوا بما آمنوا، فإن ضلالة الظالمين تبدو منهم، إذ يبدلون نعمة التوحيد والرسالة وغيرها إلى نقمة بسبب كفرهم بها وترك شكرها.

ثم إن الذين يشكرون الله، فيستخدمون نعمه في سبيل خيرهم، يكون مصيرهم الفلاح مثل النبي إبراهيم عليه السلام بينما الذين يتخذون من النعم وسيلة للبطش والظلم، فإن الأجل الذي حدد لاختبارهم سوف ينتضي، والله ليس بغافل عنهم ولا عن أعمالهم، وإنها يؤخرهم ليوم القيامة، حيث يتمنى الكافرون لو يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب ليستجيبوا لدعوة الحق ويتبعوا الرسل، ولكن هيهات هيهات!

وكما يهلك الله الظالمين، كذلك يورث الرسل أرضهم بوعدده، فلا تظن أن ربك يخلف وعده، لأنه عزيز ذو انتقام.

وفي يوم القيامة تتجسد المسؤولية، حيث تلقى كل نفس جزاء أعمالها التي اكتسبتها، والتي ضبطها الله بسرعة في الحساب، هذا نذير بليغ للناس لكي يعلموا أنما الله إله واحد، ولكي يتذكر أولو الألباب.

من الظلمات إلى النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرُّكُوتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ①﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَنَبِيٌّ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ② الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ③ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي صُلًى بَعِيدٍ ④ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ. لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑤ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيْتِمِ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ ⑥ شَكُورٍ ⑦﴾.

هدى من الآيات:

من حروف (معدودة) أنزل الله كتاباً إلى الرسول لتتوفر لهم فرصة الهداية؛ فالرسالة والرسول مشفوعان بإذن الله، وتتكامل بها شروط الخروج من الظلمات (الجهل والجهالة، الكفر والفسوق، البغي والعدوان والتخلف والفقر...) إلى نور الهدى (وفيه كل الخير).

والنور يدل المؤمنين إلى صراط القوي الحميد - ذلك الصراط الذي يحمل السائرين

(١) يستحبون: الاستحباب طلب المحبة بالتعرض لها، والمحبة إرادة منافع المحبوب، وقد يستعمل بمعنى ميل الطباع

(٢) صبار: الصبار كثير الصبر.

إلى حياة العزة والحمد - صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض - إنه هو العزيز بملكوته والحميد برحمته -، أما الكافرون والمتمردون على سلطان الرب فلهم الويل وينذرون بعذاب شديد حقاً إنهم معذبون لأنهم كفروا بالآخرة؛ وهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة - والتي هي الحيوان - وهم يصدون عن سبيل الله (تارة جهراً وكفراً وتارة سرّاً ونفاقاً)، فهم يبعثون سبيل الله عوجاً، وهكذا يتيهون في ضلال بعيد. وهذا الكتاب أنزل على سنة الله في خلقه - فما أرسل ربنا من رسول إلا بلسان قومه (لكي لا تحجبهم اللغة عن فقه الهدى) فيضل الله من يشاء - بعد إتمام الحجة عليه -، ويهدي من يشاء (برحمته الواسعة). وهو العزيز (بقدرته) الحكيم (بمشيئته).

ورسالة الله التي أنزلت على موسى عليه السلام كانت تحقيقاً لكل تلك السنن؛ فلقد أرسل الله موسى بآياته - القاطعة للشك - و(أمره) أن اخراج قومك من الظلمات إلى النور - ولعل سلطة فرعون كانت من مفردات الظلمات -، و(أمرهم بأن) يذكرهم بأيام الله مثل ذلك اليوم نجاهم الله فيه من طغيان فرعون وبغيه. وهكذا كانت قصة موسى آية لكل صبار شكور؛ حيث يؤمن بأنه ما من نعمة فمن الله فإذا فقدما صبر وإن أوتيتها شكر.

بينات من الآيات:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

باسم الله كانت دعوة الأنبياء عليهم السلام .. بها ابتدأت وبها صبغت، فاسم الله هو صفاته الحسنى التي تتجلى في الجلال والجمال، في القوة والروعة، في الرحمة الواسعة المستمرة، واسم الله الرحمن الرحيم، هو النقطة المركزية للإشعاع في القلب والعقل والسلوك.

[١] والهدف من الرسائل ومن كتاب الله الأخير (القرآن) إخراج الناس من الظلمات التي هم فيها إلى النور النازل عليهم ﴿الرَّحْمَنُ أَنزَلَنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

أولاً: الكتاب الذي يرمز إليه الألف واللام والراء، أنزل من السماء، وانتقل إلى الرسول دون أن يكون فيه أثر من شخصه.

ثانياً: إنه لجميع الناس، وهذا دليل إنه جاء من أعلى، دون أن يخضع لحدود الزمان والمكان، ومحددات المادة.

ثالثاً: الظلمات هي الحالة الأولى التي كان البشر فيها على حالة من العجز والنقص، وغلظة الروح، وانغلاق النفس والجهل، وغلبة الشهوات، ويتعبّر آخر: إنها حالة العدمية المحيطة بالخلق من قبل أن يرش عليها ربنا من نوره، خلقاً وإنشاء وقوة وعلماً.

والرب الحميد الذي تفخ في هذا الإنسان من نور الإيجاد ما أخرجه به من ظلمات العدم إلى نور الخلق. هو الذي بعث بنور الرسالة ليخرجه به من ظلام الجهل إلى نور العقل والعلم، ومن ظلام الجاهالة والجاهلية والفوضى إلى نور التزكية والتسليم والنظام.

﴿يَا ذِينَ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ فليس الله باعث النور فقط، بل هو الذي يرعاه أيضاً لحظة بلحظة، وخطوة بخطوة، فلولا تأييده لرسله لم يقدرُوا على إنقاذ البشر من الظلام، وإشاعة النور في حياتهم.

والنور الإلهي هو الهداية إلى السبيل المؤدي إلى الله العزيز، الذي قهر بقوته كل شيء، والحميد الذي وسعت رحمته كل شيء، فلم يأخذ أحداً بقوته إلا بعد أن أتم عليه حجته وأسبغ عليه من نعمه ظاهرة وباطنة.

وويل للكافرين من عذاب شديد

[٢] السماوات والأرض لله، فمن أعز منه جانباً، ومن هو أحق بالخوف منه وهو الذي لا يرحم الكافرين، بل يهددهم بعذاب شديد، وويل وثبور ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَنَبِيٌّ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ هذا صراط العزيز الذي أحاط بملكوته ما في السماوات والأرض، وينتقم بشدة ممن يكفر به، أو يتنكب عن صراطه.

[٣] لا يجوز لنا نحن البشر أن نتكئ على رحمة الله وننسى عقابه، ونأمن من انتقامه، لأن تجربتنا في الحياة كشفت لنا عن وجود الآلام والمآسي إلى جانب البركات والرحمات، ولكن بالرغم من ذلك نجد البعض يغترون بالجانب المخملي من الدنيا، لأنهم يفضلون العاجلة على الآخرة.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ﴾ فهم كالطفل لا ينظر أبعد من واقعه الحاضر، ولا يؤمنون إلا باللحظة التي هم فيها. أما المستقبل والعاقبة، فهم يكفرون بهما، شأنهم شأن الأنعام.

وهذه الجاهلية هي التي تدفعهم إلى الكفر بما وراء حاضرهم المشهود من غيب معلوم.

وتراهم يصدون الآخرين عن سبيل الله، ولا يدعون الناس يؤمنون باليوم الآخر، ربما من أجل إبتزازهم وإستغلالهم، بل أكثر من هذا فهم يحتالون على فكر الناس ويضلونهم بغير علم، من أجل تحكيم سيطرتهم على المستضعفين.

﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إن الكافر الذي حليت الدنيا بعينه، لا يردعه عن الشهوات ومصالح الدين، فإذا علم أن مصالحه تتعارض وتعاليم الدين سوف يعارضها، وإن وجد مقاومة من قبل الملتزمين بالدين، فسرهما حسبما شاء كما تفعل الصحف اليوم، وقديما الأنظمة الفاسدة التي تمنع إنتشار الوعي الديني إلا أنها كانت تنشر الضلالة باسم الدين.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يريدون ديننا يدعم مصالحهم، ويؤيد استغلالهم للناس.

﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ فهم يحسبون الدنيا خالدة، ويزعمون أن اللذات العاجلة كل شيء بالنسبة إليهم! كلا.. إنها سيبلهم إلى عذاب شديد.

إتمام الحجة

[٤] كون ربنا عزيزا فإنه حكيم أيضا، لا يعذب الناس إلا بعد أن يتم حجته عليهم. ولكن كيف؟ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ. لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ بكل وضوح وبعبارات مفهومة وأمثلة وقصص، لتذكر من أراد الآخرة، وسمى لها سعيها فإن الله يهديه إليها، ومن أعرض عنها واستحب الدنيا، فإن الله يضلّه ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلا يضل أحدا أو يهديه إلا بحكمته البالغة.

[٥] والتاريخ يشهد على هذه الحقيقة، فعندما أرسل ربنا موسى بآياته التي تستجلي الفطرة، وتبهر العقل بعصاته ويده البيضاء، وأمر الله بأن يذكرهم بأيام الله حين ينتصر المظلوم على الظالم في الدنيا والآخرة، لعله يخرجهم بهذه التذكرة من ظلمات الإرهاب والعذاب وعبادة الطاغوت إلى نور الحرية والرفاه وعبادة الرحمن.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ فجاء ذلك اليوم الذي أغرق الله فيه فرعون وقومه سريعا، وأورث بني اسرائيل أرضهم وديارهم، ولكن لم يتم ذلك ولم يكن ليتم إلا بالصبر والشكر، والمزيد من تحمل الصعاب، والمزيد من العمل الذي يفتح العقل ويهدي به الله السبيل ﴿وَأَنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

طاعة الرسل.. هداية ونجاة

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
 أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ مَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعُوكُمْ
 أَنْبَاءَكُمْ وَيَسْتَعْبِدُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ
 رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ⑥ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ
 لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ⑦ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ
 تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأَنْتَ اللَّهُ لَعَنَ الْفَاسِقِينَ ⑧ أَلَمْ يَأْتِكُمْ
 نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ
 مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا
 أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ
 مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ⑨ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ
 فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ
 وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا
 تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ
 مُبِينٍ ⑩ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ
 اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ
 بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ⑪ وَمَا
 لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِيرَكَ عَلَىٰ مَا
 عَازَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ⑫﴾

هدى من الآيات:

الصراط الذي يدعو إليه الرسل، هو صراط العزيز الحميد كما قال موسى عليه السلام لقومه: بأن يحمدوا ربهم بذكر نعمة النجاة من فرعون الذي كان يذيقهم سوء العذاب، فيقتل أبناءهم ويبقي نساءهم لخدمته، فكان ذلك امتحانا عسيرا من ربهم، وقد أعلن الله لهم أن لو شكروا لأكثر نعمة عليهم، وهذا مظهر اسم الحميد لله، بينما لو كفروا لساقهم بعذاب شديد، وهذا مظهر اسم الله (العزيز).

ولأن ربنا عزيز، فلو أن أهل الأرض جميعا كفروا به لم ينقصه شيء، لأنه الغني الحميد. فكما قال موسى، قال الرسل لأقوامهم فكفروا فأخذهم الله بعزته بعد أن أتم حجتهم عليهم، ونبا ذلك أن الذين كانوا من قبل قوم موسى مثل قوم نوح وعاد وحمود، والذين من بعدهم أولئك قد نسيهم التاريخ فلا يعلم قصصهم إلا الله، حيث جاءتهم رسلهم بالهجة الواضحة فردوا أيديهم في أفواههم، وقالوا: إنا كفرنا بما أرسلتم به، وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب، فقالت رسلهم: فيم تشكون أفي الله؟! وهو الذي لا شك فيه، وقد فطر السماوات والأرض، يدعوكم ليغفر لكم بعض ذنوبكم، ويمنع عنكم الآثار السلبية للذنوب على حياتكم حتى ينتهي أجلكم الذي حدده الله لكم.

ولكنهم عاندوا، وقالوا: نعم لا شك في الله، ولكنكم بشر مثلنا، ثم أنتم تدعوننا لمخالفة سيرة آبائنا، ولا تملكون سلطانا مينا، وحجة واضحة بما فيه الكفاية.

قالت رسلهم: أجل نحن بشر مثلكم ولكن الله من علينا برسالاته كما يفضل بعض الناس بمنه على بعض، ولذلك فنحن لا نملك من دون الله ميزة عليكم، وإذا كنا نملك سلطانا فمن الله وبإذنه.

وقوة الرسل هي بتوكلهم على الله، وبسلامة ووضوح رؤيتهم، وإن على الله يتوكل المتوكلون.

بيانات من الآيات:

اذكروا نعمة الله عليكم

[٦] للعادة سلبية سلوكية، والركون إلى النعم عادة سلبية إذ ينسى البشر أسبابها، وعلينا مقاومة حالة الاطمئنان الساذج بهذه النعم عن طريق تذكر الأوضاع السابقة، وتذكر

الذي غيرها بأحسن منها وهو الله، وتسائل أبدا كيف كنا، ولماذا أنجانا الله؟!.

وهكذا أمر موسى قومه بتذكر أيام استضعاف فرعون لهم، وكيف أنجاهم الله من عذابه ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يسومونكم: أي يذيقونكم، ﴿وَيَذِخُّوَكُمْ أَنْتَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُوَكُمْ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي أعظم امتحان لكم، وأصل البلاء هو إظهار الخفي، وفي الظروف الصعبة يستخرج البشر كنوز طاقاته، ويفجر مواهبه الفكرية والجسدية.

لئن شكرتم ولئن كفرتم

[٧] وتذكر النعمة ومن أنعم بها، أحد أبرز أنواع الشكر، ومن عرف أن واهب النعمة هو الله، فسعى في مرضاته لكي لا يسلبها عنه زاده، وهكذا أعلن ربنا إن الشكر يزيد النعمة.

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكُمْ لِنِ شُكْرِكُمْ لَا زِيدُكُمْ﴾ الزمان سيجري لمصلحة الشاكرين، لأنهم يحتفظون بالعوامل التي أدت بهم إلى النعمة من التوكل على الله، والسعي السليم والوحدة، وإدخار الثروة، والاقتصاد في الاستهلاك، والعدالة في التوزيع.

وإن هذا هو الشكر العملي الواجب بعد الانتصار كما جاء في آية كريمة: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣]. وبالطبع سيكون تناسي النعمة، وترك الخصائص الفكرية والسلوكية التي رافقتها أو استوهمتها، هو الكفر بالنعمة الذي يسبب في زوالها ﴿وَلَكِن كُفِّرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

[٨] وقد يمتن العاملون على ربهم إنهم يسعون في مرضاته، وقد يزعمون أنهم لو تركوا ربهم لضاروه سبحانه ﴿وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ كفرًا نظريًا أو عمليًا بترك الشكر، أو العودة إلى جاهلييتكم السوداء، فلن تضروا الله شيئًا.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وغنى ربنا ليس بسرقة، أو بابتزاز حق، أو لأجل الفساد - سبحانه - كما هو غنى بعض الأغنياء، بل غناه حميد لأنه منه ومن أجل خير العالمين، وهكذا ينبغي أن يكون الأغنياء.

وهكذا سعى موسى من أجل إخراج قومه من الظلمات إلى النور قبل الانتصار على فرعون وبعده، أما قبله فعن طريق قيادة نضال قومه، وأما بعده فبرفع معنوياتهم، وتركيز نفوسهم لكي لا يفسدوا أو ييطروا بالنصر فيعود إليهم الظلام، أو يبتلوا بظلام جديد.

لقد كان في قصصهم عبرة

[٩] وهكذا سعى الأنبياء السابقون على موسى.. كم كان عددهم.. لا يعلمهم إلا الله، ولكن قصصهم واحدة، وقد جرت ضمن الفصول التالية:

الف: جاؤوا بالبينات الواضحة ﴿الَّذِينَ بَيَّنَّا لِلنَّاسِ آيَاتِهِمْ لِيَوْمٍ قُورُورُهُمْ﴾ وعكاز وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات ﴿لقد وفر الله للبشر نور العقل وهو يكفيه حجة بأدنى تذكرة. بيد أن ربنا أتم حجة عليهم بالحجج الواضحة التي لا ينكرها إلا المعاندون.

باء: أما الناس فقد ردوا أيديهم ووضعوها في أفواههم إشارة إلى ضرورة السكوت، كما يفعل من لا يريد الكلام فيجعل يده على فمه ليقول للآخر: افعل هكذا واسكت، وهؤلاء لم يكتفوا بطلب السكوت من الأنبياء بل أشاروا إلى ذلك بأيديهم أيضا توغلا في العناد، وليبقى عملهم شاهدا على أنهم أساسا لم يستمعوا إلى القول فكيف بقوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾.

قال بعضهم: إن الناس ردوا أيدي الرسل إلى أفواه الرسل لاسكاتهم أو ردوا أيديهم هم إلى أفواه الرسل لاسكاتهم.

﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ وكفرهم سبق شكهم. لأنهم قرروا الكفر عنادا، ثم ارتابوا بعدئذ، كما جاء في الحديث: «لَا تَجْعَلُوا جِلْمَكُمْ جَهْلًا وَيَقِينَكُمْ شَكًّا إِذَا عَلِمْتُمْ فَاغْمَلُوا وَإِذَا تَبَيَّنْتُمْ فَأَقْدُمُوا»^(١).

﴿وَرَأَى لِي شَيْكٌ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾.

[١٠] جيم: أما الرسل فقد ربطوا بين رسالتهم وبين الذي أوحى بها وهو الله، وبدأوا من نقطة البداية قائلين: أفي الله شك؟! فمن إذا خالق السماوات والأرض وفاتقها بعد أن كانتا رتقا؟!.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وإذا انتفى الشك في الله، فإن كل شك وريب آخر في الرسالة سيكون باطلا، لأنه هو الذي بعث بالرسول، وأظهر على أيديهم المعاجز.

(١) نهج البلاغة: حكمة: ٢٧٤.

دال: وبعد أن عالجوا المشكلة العقلية عندهم بتذكرتهم بفاطر السماوات والأرض وبأنه لا شك فيه لأنه وجداني. بعدئذ أخذوا يعالجون السبب الحقيقي لكفرهم وهو مشكلتهم النفسية، وأثاروا فيهم حُبهم لأنفسهم فقالوا: ربكم يدعوكم برسالاته لمصلحتكم ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾.

ولنا أن نتساءل: لماذا لا يغفر ربنا كل الذنوب؟

أولاً: إن بعض الذنوب يأتي بها العبد تكبراً وعناداً، ففي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام: «... إِذَا هَمَمْتَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا تَفْعَلْهَا فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رُبُّمَا أَطْلَعَ عَلَى الْعَبْدِ وَهُوَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَعَاصِيهِ فَيَقُولُ: وَعِزِّي وَجَلَالِي لَا أَغْفِرُ لَكَ أَبَدًا»^(١).

ثانياً: إن بقاء بعض الذنوب سيف مسلط على غرور البشر، وأمنه من كيد الله، وعجبه بذاته لكي يقيه أبداً بين الخوف والرجاء ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ذلك لأن دعوة الأنبياء ليست من أجل إخلاد البشر في نعم الدنيا التي لا تبقى، وهم لا يقنون لها، بل من أجل توفير الفرصة له ليستمر إلى آخر أجله المحدد له سلفاً، وإلا تنزل عليه الكوارث فتبيده قبل حلول أجله.

﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ وكيف نقبل بولايتكم علينا أم كيف يخلصكم الله بالرسالة من دوننا، وكان من ضعف ثقتهم بأنفسهم كبشر أنهم لم يصدقوا أنفسهم أن يبعث الله إليهم بشراً رسولاً.

هاء: ثم قالوا إن تعاليمكم مخالفة لتقاليدنا التي ورثناها من آبائنا وتعودنا عليها ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

واو: فطالبوهم بحجة أقوى من مجرد التذكرة، بحجة مادية مثل إحياء الموتى وتفجير ينابيع الأرض ذهباً، والعروج إلى السماء، ليضطروا إلى الإيمان، ولم يكتفوا بهدى عقولهم، ولم يقاوموا ضغط التقاليد بإرادة التحرر منها لذلك قالوا: ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾

[١١] زاء: واعترف الرسل بأنهم بشر، لا يتميزون عن غيرهم سوى بالوحي الذي هو مضاف إلى شخصياتهم، وليس جزء منها ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ وهذا التأكيد القرآني جزء من دعوة الرسل، ودليل صدق على أنهم لم يجعلوا الافتراء على الله وسيلة للمكاسب المادية، ولا يريدون ذلك ولا يسمح لهم ربهم بذلك أبداً.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بالرسالة، ويقدر ما يمين الله يصبح الرسول عظيماً، لذلك لا يملك الرسول قدرة الإيتاء بالآيات الجديدة حسب رغباته.

﴿وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ والأهم من ذلك إننا نعتمد على الله في تبليغ الرسالة وحتى دعوتنا لكم ليست بقوانا الذاتية، ولا بحسب قدراتنا الخاصة عندما نقوم على أمر، بل بقوة الله وقدرته المطلقة ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

[١٢] التوكل على الله عند الأنبياء والمؤمنين بهم أصدق شاهد على أنهم من قبل الله لماذا؟ لما يلي:

أولاً: حب الذات والحفاظ على المصالح، فطرة بشرية راسخة في أعماق ذات كل إنسان، ولا يمكن لأحد إلا لمجنون أن يعرض نفسه للخطر، لمجموعة أوهام وخرافات لا تؤمن بها يمكن أن تكذب لتحصل على مصلحة أما أن تكذب لتحصل على صفة، فمستحيل إلا إذا كنت مجنوناً.

ثانياً: يختلف الفرد الذي يتحرك في الناس بقدراته الذاتية عمن هو مدعوم من قبل قوة أخرى. فسلوك الموظف أو الشرطي أو الجاسوس أو المتهمي إلى حزب قوي يختلف كثيراً عن سلوك الفرد العادي. والرسول ﷺ كانوا يقدمون بلا حساب على المخاطر وهم واثقون بالنصر. أو ليس هذا دليل على أنهم قد بلغوا الحقيقة. ولذلك ربطوا بين التوكل الظاهر في أبعاد حياتهم، وبين الهدى الذي رزقهم الله إياه، فهم عرفوا الحق ولذلك ضحوا من أجله.

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ وكانوا يتحملون الصعاب في طريق رسالتهم كدليل على أنهم واثقون من طريقهم.

﴿وَلَنُصَبِّرَنَّ عَلَىٰ مَا مَآذِيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ من شاء أن يعتمد على شيء فليعتمد على الله الذي لا يخيب أمل من توكل عليه، فهو إذن حقيق بأن يتوكل عليه المتوكلون.

وخاب كل جبار عنيد

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلرُّسُلِ هُمْ أَنْتُمْ خَائِدُونَ أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي دِينِنَا فَأَوْحِ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُثْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنَسُكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا ﴿١٥﴾ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٦﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَتُسْقَى مِنْ مَاءٍ كَاسِدٍ ﴿١٧﴾ يَتَجَرَّعُهُ ﴿١٨﴾ وَلَا يَسْكَاذُ فِي سَيْفِهِ ﴿١٩﴾ وَيُبَاقِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحِيَّتٍ مِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿٢٠﴾ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴿٢١﴾ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَافُ الْعَبِيدُ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٢٣﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٤﴾ ۞

هدى من الآيات:

تطور الصراع، وتجدد عناد الكفار في إرهاب أهوج، وهددوا رسلهم بالإخراج، إذا لم يخضعوا لباطلهم، وأعلمهم ربهم أن الفريق الظالم هو الهالك، وأن الفريق الآخر سوف يسكن

(١) واستفتحوا: الاستفتاح طلب الفتح بالنصر.

(٢) صديد. الصديد القيح يسيل من الجرح.

(٣) يتجرعه: التجرع تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار.

(٤) يسيفه: الاساعة إجراء الشراب في الحلق، يقال ساغ الشيء واسغته أنا.

(٥) اشتدت: الاشتداد الإسراع بالحركة على عظم القوة.

(٦) عاصف: شديد الريح، والعصف شدة الريح.

الأرض موعدا بنصر الله له بسبب خوفه من الله ومن وعيده.

وكانت محاولات الكفار للفتح تبوء بالفشل، لأنهم تجبروا في الأرض، وعلوا فيها بغير حق، كما وقفوا ضد الحق.

وفي الآخرة تنتظرهم جهنم التي تسقي نازلها بياء هو القيح، يشربه جرعة جرعة دون أن يقدر على إساغته وابتلاعه بينما تحيط به أسباب الموت، لو كان في تلك الدار شيء اسمه الموت، بل يستمر معه عذاب غليظ متكاثف موجة بعد موجة.

أما أعمالهم فهي كالرماد حين تهب عليها ريح شديدة العصف، أنهم لا يقدرّون على الحصول مما كسبوا على شيء.. أو ليس هذا ضلالا بعيدا؟!

نعم.. لأن خلقه السماوات والأرض قائمة على أساس الحق، والضلالة باطلة ولذلك فهي لا مكان لها في الكون.

ثم أن الله هو المهيمن على السماوات والأرض، فإن يشأ يذهب بهم ويأت بخلق جديد، دون أن يكون ذلك عليه عززا. ولذلك لا معنى للتجبر والعناد.

بيئات من الآيات:

لنهلكن الظالمين

[١٣] تطور الصراع إلى التهديد المباشر للرسل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي في ديننا الذي نميل إليه، وهكذا أظهروا طبيعتهم الإرهابية، وعبادتهم للقوة مقام الحق.

وحين لا ينفع القول الحق ويعاند الكافر، يستخدم أصحاب الحق القوة لردع الباطل، ولأن الرسل لا يعتمدون على قواهم الذاتية في مواجهة عناد الكفار، بعد أن صبروا على أذاهم بل على ربهم. لذلك لم يتركهم ربهم طويلا. بل أوحى إليهم بكل وضوح أنه سيهلك بال تأكيد الظالمين ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾، وهذه سنة الله مع الرسل والرساليين جميعا، أنه يتركهم يواجهون عدوهم بصبرهم وإرادتهم حتى يجربهم، ولكن إذا حانت ساعة المواجهة الجدية، فإن نصره يهبط عليهم بردا وسلاما.

[١٤] وبشرهم الله بأنه مع هلاك الظالمين ينزل الرفاه والرحمة لهم ﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ

الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿١٣﴾، ولكن ليس جميع الناس يثقون بالكلام الذي فيه إنذار وبشارة، بل فقط الذين يخشون ربهم، ويتذكرون مقامه.

ولا يستمر النصر إلا باستمرار أسبابه، وهو الخوف من مقام الله وسمو جلاله، والخشية من وعيده وإنذاره ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

[١٥] وبشمن الخضوع التام لله، دفع الله اليهم هدية النصر، كما أن أعداءهم خابت ظنونهم وآمالهم وذهبت جهودهم سدى بسبب عنادهم، وكلما طلبوا الفتح أملا وعملا ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ التجبر طلب علو المنزلة بما ليس له غاية في الوصف، وإذا وصف العبد بأنه جبار كان ذما، لأنه طلب للعلو لا لهدف بل للتعالي، ولاشباع نهم الاستعلاء بحق أو بغير حق، وهذا هو معنى العنيد، وهو الامتناع عن الحق باستمرار.

[١٦] والله يقابل عناد هؤلاء بجهنم تلهب أكبادهم عطشا، ولا يسقون إلا بماء كالقيح الذي يصدر من الجروح المتعفنة ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَسُقِيَ مِنْ مَّاءٍ كَسِدِيلٍ﴾، وقد يكون هذا القيح هو لعاب ألسنتهم المعاندة، التي لا تنطق إلا بالباطل.

[١٧] وهم يشربون الجرعة بعد الجرعة دون أن يجري ذلك في مريثهم بسهولة، ولكنهم يحاولون ذلك بسبب عطشهم الملهب ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَاذُ يُسِيفُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ ذلك أن الموت ينعدم في الدار الآخرة. ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي أمامه عذاب كثيف.

المنهج الالهي حصن الحضارة

[١٨] وأعمال هؤلاء تذهب عبثا، لأنها لا تجري مع سنن الله في الأرض، كمثل الذي يبحث الخطى بعد أن ضل الطريق وتاه في الصحراء، فهل يبلغ هدفه؟!.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي يوم اشتدت الرياح فيه عصفاء، منذ بدايته إلى نهايته، إن الرماد يثبت في الفضاء، بسبب عدم استقراره على أساس ثابت، وعدم وجوده في حصن منيع، كذلك العمل الذي لا ينبعث من أرض الإيمان الصادق، ولا يحصنه المنهاج السماوي ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ بالرغم من أن أساس الكون قائم على أن للإنسان ما سعى، ولكن السعي الذي يتبع الهوى، وينحضع لضغط الطبيعة، ولشهوات الناس يكون كالرماد الذي تشتد به الرياح لتجد كل جزء منه في اتجاه بينما السعي الذي يستقيم في الخط الصاعد، يستمر.

﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ الذي لا ينفعه الكسب، وهو أفضل ثمرات العمر.

[١٩] والسؤال: لماذا لا تقدر عدالة الله، مكاسب هذا الفريق من البشر؟ ذلك لأن الله قد بنى السماء والأرض على أساس سنن وأنظمة ومناهج وسبل سماها جميعا بالحق، فمن عرفها وسخرها قدر على ما اكتسب، ومن تحداها بهواه وبضلالته لم يقدر على شيء مما كسب.

﴿الَّذِي أَنْتَ اللَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ كل شيء خاضع لسنة ونظام لا يمكن تجاوزه ولا تسخيرها إلا عبر ذلك النظام، ومن الأنظمة ما هو واضح كالجاذبية وقوانين الفيزياء والكيمياء والاجتماع، ومن الحق ما هو غامض ويذكر به الشرع مثل آثار الصلاة والزكاة والإرث وما أشبه.

وأنت لا بد أن تخضع لهذه الأنظمة، وتأتي الحياة من بابها لتسخرها.. أليس كذلك، فإنك لا تسخر الحياة بالتجبر والعناد، وبتابع أهوائك المتغيرة، وبالخضوع لضغوط الشهوات.

إنك محكوم في هذا الكون، وليس بحاكم ولا بد أن تعترف بهذه الحقيقة، وأبرز شواهد حاكمية الله عليك أنه إذا شاء أذهبك وجاء بخلق جديد. أي حاكم أنت الذي لا تملك نفسك؟ فلماذا العناد ولماذا التجبر؟ ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

[٢٠] ويفعل ذلك كله دون أن تقدر على شيء ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ليس بصعب.. فأنت لو تجبرت سوف تصبح أهون هالك لا يسأل عنك أحد، ولا تتعب من يهلكك بشيء سبحانه.

لا تلوموني ولوموا أنفسكم

﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُنْفِقُونَ عَلَيْنَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْتُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَلَيْنَا ^(١) أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ^(٢) ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ^(٣) وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ^(٤) وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَجْتَنِّهِمْ فِيهَا سَلَامٌ ^(٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ^(٦) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ^(٧) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ ^(٨) مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ^(٩) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ

(١) اجز عنا: الجزع انزعاج النفس بورود ما ينغم ونقيضه الصبر.

(٢) محيص: منجى ومهرب.

(٣) بمصرخكم: الإصراخ الإغاثة بإجابة الصارخ، ويقال استصرخني فلان فأصرخته أي استغاث بي فأغثته

(٤) اجثت: الاجثت اقطلاع الشيء من أصله.

الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ ❖❖

هدى من الآيات:

ذكرنا الدرس الذي مضى بأن أعمال الكفار كالرماد تذروه الريح العاصفة، ولا يحصلون مما كسبوا على شيء، وفي هذا الدرس يذكرنا بسبب ذلك، كما يبين ما يعاكسه من ثبات عمل المؤمنين. ونساءل كيف ولماذا؟.

إن الكفار يعتمدون على الطاغوت والجبوت، وهما غير مهتدين ولا واثقين من أنفسهما، فالطاغوت المتمثل في المستكبرين يتبرأون يوم القيامة عن اتباعهم، وإذا سألوهم إنا كنا تبعاً لكم فهل أنتم تحملون عنا شيئاً من العذاب؟ أجابوا: كلا.. لأننا ضالون مثلكم، وثانياً.. لأننا بدورنا لا ندفع العذاب عن أنفسنا، أما الجبوت المتجسد في الشيطان فإنه يأتي يوم القيامة، ويشمت بمن أتبعه ويقول لهم: إن الله وعدكم حقاً ووعدتكم باطلاً، ولم أكن أستطيع إجباركم على اتباعي إنما أنتم استجبتم لي بحريتكم، فاللوم عليكم وليس علي، ثم يقول لهم: لا أنتم تنقذوني من العذاب ولا أنا أنقذكم، وإني الآن أتبرأ من شرككم، وأعلن أن الظالمين لهم عذاب اليم بعكس وعودي السابقة.

هكذا خابت ظنونهم.. أما المؤمنون فإنهم أدخلوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن الله، وهم يسلمون على بعضهم بعكس ما يجري في جهنم من صراع، فسبب ثبات أعمال المؤمنين إن الله يشبثها، ومثلها مثل شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وأكلها دائم، بينما الكلمة الخبيثة والعقيدة الفاسدة مثلها مثل شجرة خبيثة ليس لها أصل ولا قرار، وهكذا يحصن الله أعمال المؤمنين بالعقيدة الصالحة والثواب، بينما يضل الظالمين، وهو قاهر فوق عباده يفعل ما يشاء دون أن يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

بيانات من الآيات:

حوار الضعفاء مع الذين استكبروا

[٢١] حين يتبع الإنسان الحق يكون الله ضامناً لعمله، أما حين يتبع إنساناً مستكبراً تجبر عليه زورا وبهتاناً، فما الذي يضمن عمله، يوم يأتي المستكبر هو والمستضعف ليقفان أمام الله في صف واحد.

﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ أي للأقوياء ممن استكبروا، واعتبروا أنفسهم أكبر من الناس ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أُنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فهل هم ضامنون لعملهم؟ وهنا ليس فقط يعترف المستكبرون بضلالتهم، بل وبأن استكبارهم كان غلطة العمر بالنسبة إليهم ﴿ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْتُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ غَنَاءٍ أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ فلا مجال للزحزحة عن عذاب الله.

[٢٢] أما الشيطان الذي هو النداء الداخلي الذي يوسوس للقلب، فيتبعه الإنسان، وهو الذي دلى أبانا آدم بغرور فأخرجه من الجنة، وهو بالتالي إبليس الذي ثمرد على الله واستكبر، وعزم على خداع البشر، إنه هو الآخر أخلف وعده، وكان من قبل يزعم أنه قوي، وأنه سوف يغيث الذين يتبعونه، فهذا هو يشمت بمن يتبعه ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾ الذي له من العقل والعلم على صدقه شواهد وحجج.

﴿ وَوَعَدُكُمْ فَآخَلَفْتُكُمْ ﴾ ووعود الشيطان آماني وأحلام تتناسب وشهوات الفرد، وهي تشبه التبريرات الثقافية التي ترتاح إليها النفوس الكسولة والأمم المتخلفة مثل انتظار المستقبل بلا سعي يصنعه، وإلقاء المسؤولية على عاتق الزمن، أو لا أقل على كاهل الآخرين أموات أو أحياء.

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ ﴾ إن جذر التبريرات التي يلقيها الشيطان الرجيم في فؤاد الإنسان هو إشعاره بأنه مكره على أفعاله، وأن قضاء حتميا يفرض عليه هذا العمل أو ذاك وذلك بتحويل الأشياء والأحداث والأشخاص عنده، وتصغير نفسه أمامها وتحجيم دور الإرادة عنده، مثلا يقول له، إن تغيير سيرة الآباء مستحيل، أو إن تغيير الأوضاع السياسية أو الاقتصادية أمر لا نقدر عليه، أو إن مخالفة هذا الحاكم وذلك المستكبر غير ممكنة، أو يقول له: كيف تقوم الخطبة وقد عملت فيها السنون ما عملت، وكيف تغير الزمان وقد أفسده السلطان، وما أنت وماذا عسى أن تفعل.

وفي يوم القيامة يعترف الشيطان، بأنه كان خادعا في قوله هذا، وأن إرادة الإنسان هي التي تصنع واقعه، وأنه لا حول ولا قوة له، فلا يغيث ولا يغيث ﴿ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَشْرِكُمْ بِمُصْرِخَتِكَ ﴾ فلا أنا أغيثكم ولا أنتم ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾ وحقيقة الإشراف هو أن تعتقد أن أحدا أو شيئا غير الله إله لا يغلب. كلا.. بل كل شيء خاضع لله، ولمن يتوكل.

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إذا كان جذر التبريرات سلب إرادة البشر، وتهويل ما دونه في عينه، فإن العنوان الظاهر لكل التبريرات هو سلب مسؤولية الفرد عن جرائمه، لذلك أكد الشيطان في يوم القيامة أن للظالمين عذابا أليما، فهم لا يستطيعون أن يهربوا من مسؤولياتهم أبدا.

وادخل الذين آمنوا الجنات

[٢٣] أما المؤمنون فإن ربهم ضمن لهم جزاء أعمالهم الصالحة، وقد صدقوا وعد بعضهم، فتراهم يحبون بعضهم بسلام بعكس أولئك الذين تنازروا بالألقاب وتبرؤوا من بعضهم.

﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ فخلودهم لا يجعلهم آلهة، لأنه خلود قائم على إذن ربهم، والله وعد بذلك فلن يخلف الميعاد، ﴿فَيَحْبَبُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

كلمة طيبة وكلمة خبيثة

[٢٤] لماذا تشتد الريح بما كسبه الكافرون؟

لأنه لا يعتمد على أساس راسخ الجذور.

حين تكون عقيدة الفرد قائمة على أساس العلم، وتكون إرادته ضمانة لتلك العقيدة ضد ضغوط الهوى والمجتمع، حينها يكون قول الفتى ثابتا على الحق، لا يغيره إرهاب أو ترغيب أو عسر أو حرج، فإنه يكون مثل الشجرة المفيدة التي ضربت بجذورها في تخوم الأرض، وانتشرت فروعها في عرض السماء ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾.

[٢٥] ولأن العقيدة الثابتة، قوية الجذور، ويتعهد بها الفرد بكل طاقاته، فهي ستكون كثيرة الثمار من أعمال صالحة، وأقوال طيبة، وسلوك حسن ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ كل وقت ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بالتوكل على الله.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فعن طريق تشبيه الشؤون البشرية بالطبيعة المخلوقة قد يصل العقل إلى كنه الحقائق.

وسواء كانت هذه الشجرة نخلة أو شجرة وهمية أو شجرة مجهولة أو حتى كان المراد بها

الشجرة الطيبة للنبي ﷺ، وأهل بيته الطاهرين كما جاء في روايات كثيرة، فإن الهدف معرفة الأمر الحاسم لثبات العقيدة الصادقة في طيب عطاء الفرد وكثرته.

[٢٦] أم الكلمة الخبيثة التي تعني تلك النفس التي لا تعتمد على أصل العقيدة الراسخة، فإن مثلها كمثل شجرة خبيثة ليس لها قرار في الأرض، ولا ثمر.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الكلمة في القرآن تشير إلى محتواها وليس لفظها، كما كلمة الله ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ إشارة إلى إرادته العليا، وعيسى كان تجسيدا للكلمة ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ لذلك سمي بكلمة الله.

فالكلمة الخبيثة هي الفكرة الخبيثة الباطلة، التي تعبر عنها الكلمة وهي كما يشير إليه السياق القادم أن يجعل الله أندادا ليضلوا عن سبيل الله.

﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ وتشبه هذه الشجرة التجمعات القبلية أو الحزبية الضالة، كبنى أمية في التاريخ ومثل حزب البعث اليوم.

القول الثابت

[٢٧] الكلمة الطيبة هي: كلمة التوحيد التي يثبت الله عليها المؤمنين ويجعلهم في حصنه حتى لا تزلزلهم عواطف الشهوات، ولا تزيلهم عواصف الضغوط، فلا ترغيب الأغنياء المترفين، ولا إرهاب المستكبرين قادر على أن يزعزعهم عن مواقفهم الثابتة في الدفاع عن حقوقهم وعن كراماتهم ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾

لذلك جاء في الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام (المعروف بحديث السلسلة الذهبية): «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حِصْنِي مَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ عَذَابِي»^(١). وجاء في الدعاء: «بِسْمِ اللَّهِ كَلِمَةِ الْمُعْتَصِمِينَ وَمَقَالَةِ الْمُتَحَرِّزِينَ»^(٢). إن النفس البشرية خلقت من ضعف، وإن الشيطان، ودواعي الهوى، ومشاكل الحياة قد تراكمت ضغوطها عليها، ولولا الإيمان بالله، وتذكر أنه الرقيب الشاهد عليها، والثقة بوعده وبنصره، والتوكل على قوته في مواجهة بطش الطغاة، وكيد الماكرين إذن لانهارت النفس. لذلك يكرر المؤمنون هذا الدعاء: «وَأَعِزَّنِي عَلَى نَفْسِي بِمَا تُعِينُنِي بِهِ الصَّالِحِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ»^(٣).

(١) عيون الأخبار: ج ٢، ص ١٣٥.

(٢) بحار الأنوار: ج ٨٧، ص ١٥٢.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ٥٨٥.

أما الظالم الذي يعتدي على حقوق الآخرين، ويبيني ضرورات حياته وعيشه على البغي فإن بقايا النور في قلبه تسلبه منه وكلما توغل في سبيل السعي كلما كانت توبته عنه أبعد، وكانت نفسه أميل إلى الفساد ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

الشكر بين الصلاة والزكاة

﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفَرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ
الْبَوَارِ ۚ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ الْفَرَارِ ۝٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ
أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ
﴿٣٠﴾ قُلْ لِمَ بَادَى الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُسِفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا يَخْلَى ۝٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ
مِنَ الشَّجَرِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ
بِأَمْرِهِ ۚ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ۝٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
دَائِبَيْنِ ۝٣٣﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝٣٤﴾ وَءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ
مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۚ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٥﴾﴾

هدى من الآيات:

وكما أن ربنا، يثبت الذين آمنوا بها آمنوا، فإن ضلالة الظالمين تبدو منهم، ألا ترى كيف
أنهم يبدلون نعمة التوحيد ونعمة الرسالة وسائر النعم الإلهية المعنوية والمادية إلى نقمة بسبب
كفرهم بها، وترك شكرها، وهم يقودون قومهم إلى دار الهلاك في جهنم حين يحترقون بنارها،
ويستقرون منها مكانا سيئا وهم يبدلون النعمة كفرا حين يفتشون عن انداد لهم من سلطات
جور وعلماء سوء، فيضلون بهم الناس عن الله، وأن مصيرهم إلى النار.

(١) دائمين: الدؤوب استمرار الشيء في العمل على عادة جارية فيه.

إن شكر نعمة التوحيد هو الصلاة لله لتوثيق عرى الإيمان، والإنفاق على المحرومين في السر والعلانية، والخوف من الحساب في يوم القيامة حيث لا بيع فيه ولا خلال.

ولماذا لا نشكر ربنا وهو الذي خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماء فأخرج به هذه الثمرات المتنوعة رزقا مباركا لنا، كما سخر الرياح لتحمل الفلك في البحر، وسخر الأنهار، وأكثر من هذا سخر الشمس والقمر يعملان باستمرار، وسخر النور والظلام، وآلاف بل ملايين النعم التي لا نحصيها لو أننا أردنا تعدادها، كل ذلك من أجل رفاهنا وتكاملنا، وأن الإنسان لظلم يظلم يظلم في الأرض، ويكفر بنعم الله، ولذلك يكون مثله.. مثل شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، كما جاء في الدرس السابق.

بينات من الآيات:

وأحلوا قومهم دار البوار

[٢٨] الغاية من نعم الله على البشر أن تنعكس في حياتهم المادية شكرا في صورة الوصول بها إلى أهدافها، وفي حياتهم المعنوية تكاملا وهدى وخلقاً رفيعاً، بينما ترى بعض كبراء الكفر يسعون في الأرض فساداً، فبدل أن يطعموا الطعام يتلفونه، وبدل أن يطعموا منه البائس والفقير يتخذونه وسيلة لاستعباد الناس وتذليلهم، وبدل أن تبعث النعمة في أنفسهم الرضا والسكينة يزدادون بها طغياناً وحرصاً وإسرافاً، وبالتالي قلقاً وتوتراً، وهكذا يبدلون نعمة الله إلى كفر.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أظهر أمثلة نعمة الله هي نعمة الرسالة التي كفروا بها، ولا يزال الكبراء وأشياعهم من خدمة الكفر يكفرون بهذه النعمة ولا يشكرون.

ولكن هذه النعمة ليست الوحيدة التي لا يشكرونها بل هناك نعم أخرى كذلك يتخذونها وسيلة للكفر، مثل نعمة السلطة والرفاه والسلامة والأمن.

وهؤلاء يجعلون قومهم في منزل الهلاك بسبب كفرهم بالنعم، فيقودون الضعفاء في حرب ضد أصحاب الرسالة.

﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ إن الهزيمة ستكون من نصيب كبراء الكفار، ولكنهم يسحبون وراءهم جيشاً من المستضعفين، ويذيقونهم مرارة الهزيمة.

[٢٩] هذا في الدنيا أما في الآخرة، فإن مصيرهم جميعاً.. ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيُئْسَرُونَ﴾

[٣٠] ولكي يدعموا سلطاتهم الطاغوتية على الناس، ولكي يواجهوا منطق الحق بباطل مزخرف، فإنهم يدعون الناس إلى الأصنام الباطلة، مرة يرفعون راية العنصرية والعصبية العشائرية، ومرة ينعتقون باسم آبائهم الأولين، وقد يهتفون باسم الأرض أو اللغة أو الوطن، أو باسم الأمن والرفاه، كل ذلك ليصرفوا الناس عن التوحيد الذي هو أسمى قيمة معنوية للإنسان.

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ وهدفهم من كل ذلك التمتع الساذج بلذائذ هذه الدنيا الدنية، ولكن إلى متى تدوم لهم النعم، إنها لا تدوم إلا إلى أجل قريب ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾.

الشكر الحقيقي

[٣١] أما المؤمنون بالرسالة فإنهم يشكرون هذه النعمة.

أولاً: بإقامة الصلاة وتنمية روح الإيمان بالله، لكي يزدادوا ثباتاً واستقامة.

ثانياً: بالإنفاق الذي هو بدوره يزيد النعم ﴿ قُلْ لِمَبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَهُمْ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ فإنفاق العلم بتعليمه، وإنفاق الجاه ببذله، وإنفاق القوة بالتعاون مع البؤساء، كل ذلك يزيد النعم، وليكن الإنفاق سرا لضمان الإخلاص، وعلانية لتحدي الكفار ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾، وليكن لإنفاق بإخلاص تام، وخشية من النار ﴿ مِمَّنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ فلا تستطيع أن تبدل بما عندك شيئا، كما لا تنفعك الشفاعة من قبل الأخلاء والأصدقاء.

توالي النعم

[٣٢] لماذا تكفر بالنعم؟ ولماذا لا تؤمن بالله، ونشكره؟ وهل كنا في غنى عن رحمته؟!.

إن أعظم النعم هي نعمة الخلقة الأولى، ثم نعمة تسخير السماوات والأرض لنا بحيث نقدر على الاستفادة منها، ولو كانت ممتنعان عنا، أو كنا عاجزين عن الانتفاع منهما بجهل أو بضعف فمن الذي كان يسخرهما لنا؟.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّرَابِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ انظر إلى الطبيعة المخلوقة نظرا جديدا وعبريا، فهل ترى غير نعم الله تحيط بك..

لماذا لا يهز ضميرك منظر المطر يهبط لك من السماء نعما ورحمة، من الذي رفع ملايين الأطنان من مياه البحر بعد تصفيتها بالتبخير، ومزجها بأكسجين الفضاء، وبتروجين الرعود،

ونشره في كل جهة، من الذي جعل في الأرض الأملاح والخصوبة والبذور لتحول الأمطار فيها إلى ثمرات مختلفة؟!

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرٍ﴾ أو تزعم أن السفن تبحر في البحار بأمرك، فلو أن الرياح ركدت أو أن الأمواج تصاعدت، فهل جرت السفن حيث تشتهي ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾.

[٣٣] والشمس التي هي أكبر من أرضنا بكثير، والقمر الذي هو أصغر من أرضنا كل يجري في فلك ونظام بحيث تنتفع الحياة فوق كوكبنا بضوئها وبجاذبيتها وطريقة دورانها، من الذي سخرهما أفلا نشكره؟!

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿ فعندما يعم الظلام الأرجاء تخلد إلى النوم براحة نفسية، وعندما ينبعث ضياء النهار، تنبعث حيوية وهمة.

[٣٤] وبالرغم من أن طموحات البشر لا تتحقق عادة جميعها، ولكن هناك تناسب بين هذه الطموحات وبين عطاء الله سبحانه، فبقدر أملك في الله، وسؤالك منه ينشر عليك نعمه.

﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَآسَاءٍ ثَمْرًا﴾ ففي ضيق الشدائد، وعند المدهيات تجد فرج الله وروحه ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]، وعندما تتعب سفينة أمالك ترسو على شاطئ رحمة الله الذي يقول لك: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وهناك تجد تحقيق أمالك وتخطب ربك قائلاً: «إِلَهِي طُمُوحُ الْأَمَالِ قَدْ خَابَتْ إِلَّا لَدَيْكَ وَمَعَافِيُ الْهَمَمِ قَدْ تَقَطَّعَتْ (تعطلت) إِلَّا عِنْدَكَ وَمَذَاهِبُ الْعُقُولِ قَدْ سَمَتْ إِلَّا إِلَيْكَ فَإِلَيْكَ الرَّجَاءُ وَإِلَيْكَ الْمُلْتَجَاءُ»^(١).

وأي نعمة تحصيها عدداً، أجل لو كانت الأشجار اقلاماً، والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر، لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ إن كل خلية في بلايين الخلايا التي تشكل جسمي نعمة كبرى يعجز القلم عن الإحاطة بها، فأني نعمة تحصيها وكيف، ولكن أنت ترى الإنسان كيف يظلم نفسه بالكفر بنعم الله ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ فأكثر الناس يظلمون أنفسهم والآخرين بالنعم فيتخذون من نعمة اللسان وسيلة التشهير والبهتان، ومن نعمة اليد أداة البطش والاعتداء، ومن نعمة المال البخل والترفع والاستعلاء، ومن نعمة القوة القهر والظلم، وهكذا يكفرون بنعم الله، ولا يحققون بها أهدافها النبيلة ولو فعلوا لكان ذلك شكراً عملياً منهم.

(١) مصباح الكفعمي: ص ٥٣، من أدعية ليلة الجمعة.

إبراهيم عليه السلام أسوة في الشكر والدعوة الصالحة

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي^(١) وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۚ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَنْ يَتَّبِعُنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۚ رَبَّنَا إِنِّي أَتُكِّتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ^(٢) خَيْرٌ ذِي ذَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۚ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ ۚ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ۚ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ۚ ۝٤١﴾

هدى من الآيات:

لقد أعلن ربنا أن من يشكره يزيده عطاء، ومن يكفر به فإن عذابه لشديد، وفي هذا الدرس يضرب مثلا للإنسان الشاكر الذي لا يشوبه غبار وهو إبراهيم عليه السلام بينما الدرس التالي يذكر بمصير الكافرين.

وقد وعد ربنا أن ينصر رسله بسبب خوفهم من ربهم، وهذا إبراهيم يرفع إلى الله يد الضراعة ليجعل مكة بلدا آمنا، ظاهرا بحرمة، وباطنا بنظافته عن الأصنام التي أضللت كثيرا

(١) اجنبني: ابعدني.

(٢) بواد: الوادي سفح الجبل العظيم.

من الناس حتى فقدت الكثرة العددية شرعيتها، وبقي المقياس هو الحق، واتباع الرسل، فمن تبع إبراهيم عليه السلام فهو منه، أما من عصاه فإن رحمة الله فقط وليس انتماؤه النسبي إلى إبراهيم سوف ينقذه بإذن الله.

وبعد أن استعرض إبراهيم عليه السلام طاعته لله، حين اسكن بعض ذريته في صحراء الحجاز حيث لا زرع ولا ضرع، دعا ربه بأن يوفقهم لأداء الصلاة على وجهها، وأن يجعلهم قبلة القلوب، وأن يرزقهم من الثمرات، كل ذلك بهدف أن يشكروا ربهم، فيستخدموا النعم لراحة الجسد، وأمواج الروح، وأن يجعلوا الله الشاهد عليهم لأنه يعلم ما يخفون وما يظهرون، ولا يخفى عليه شيء لا في الأرض ولا في السماء.

وقد استجاب له ذلك، أو ليس هو الذي رزقه على الكبر إسماعيل وإسحاق، فإنه إذن سميع الدعاء، ولكي يكون شاكرا فعليه أن يقيم الصلاة، وأن يدعو لأولاده بذلك، وأن يستغفر الله لنفسه ولوالديه وللمؤمنين، حتى تكون أصرته الإيمانية وليس الأسرية أقوى شيء، وأن يخشى الحساب.

هذا إبراهيم قدوة الشاكرين، أفلا نكون مثله؟.

بيانات من الآيات:

الاستقلال الفكري

[٣٥] طيلة حوالي أربع وستين قرنا من الزمان - حسب بعض التقادير - كانت مكة بلدا آمنا بدعاء ذلك الشيخ الذي تجرد عن ذاته، وعن علاقاته النسبية، وترك فلذة كبده إسماعيل وأمه في تلك الأرض القاحلة بهدف إقامة بيت الله، يظلمه السلام أمام هجمات الشياطين المادية والثقافية.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾
إن أسوأ أنواع العبودية لا ريب هي السيطرة العسكرية وهي ما دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يأمن أهل مكة منها، وقد استجاب له ربه دعاءه، وأبرز مظاهره ذلك هلاك أصحاب الفيل، حيث حمى ربنا البلد الحرام من الاحتلال العسكري، وهو ما يسميه بالطاغوت.

ولكن أصنام العبودية الثقافية، أو التبعية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أخفى خطرا، ولم يستجب فيها ربنا دعاء إبراهيم عليه السلام، إذ يتنافى وما قدر الله من حرية البشر في الدنيا.

[٣٦] ولأن أقوى أسلحة الجبت، وعبادة الأصنام هو الإحساس القوي عند الفرد بضرورة التوافق الاجتماعي، فإن إبراهيم عليه السلام أكد أن الأصنام قد أضللت كثيراً من الناس، لكي يعرف الإنسان أن اتباع الناس يعني الضلالة في الأغلب فيتحصن ضد غرور الكثرة.

﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ إن الأصنام تتجسد في قوى اجتماعية ثقافية، أو اجتماعية وسياسية، وربما لذلك نسب الضلالة إليهن، وجاءت بصيغة الجمع فلم يقل أضلت بينما كان ذلك الأنسب إلى غير ذوي العقول، لو كانت الأصنام هذه الأحجار والأخشاب المعبودة.

. ومن جهة ثانية: لأن قريشا خدعوا ضيائهم حين استسلموا لضغوط الأصنام، وبرروا موقفهم المتخاذل من التوحيد بأنهم أولاد إبراهيم عليه السلام فلا ضير عليهم، كما فعلت بنو إسرائيل مثل ذلك، لذلك أكد إبراهيم عليه السلام براءته منهم.

﴿ فَمَن يَعْصِ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَن عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ربما لم يقل إبراهيم عليه السلام ومن عصاني فإن عذابك شديد لكي يتجنب الذاتية في تعبيره فلا يضمن تعبيره أنه هو سبب العذاب.

دعوة إبراهيم لأبنائه

[٣٧] إبراهيم عليه السلام رجل الرسالة، الذي قضى عمره يجاهد من أجل التوحيد، فلم يستجب له إلا قليل، فرزقه الله أولياء يرثون دعوته، بعد أن بلغ من الكبر عتياً، وها هو يؤمر أن يسكن بعض ذريته في صحراء قاحلة فيستجيب لربه شاكراً، وهدفه من الذرية لم يكن سوى أن يحملوا مشعل التوحيد من بعده، ولذلك يطلب من ربه بالنسبة إلى ذريته أمرين:

أولاً: إن تهوي إليهم أفئدة من الناس، ويسبب حب الناس لهم يستمعون إلى تعاليم ربه.

ثانياً: إن يكفيهم الله أمور الدنيا، فيرزقهم من الثمرات حتى لا ينشغلوا بطلب الدنيا عن تبليغ الرسالة.

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكَلْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ وترك بأمر الله هاجر وابنها الرضيع إسماعيل في أرض مكة، وكانت قفرا ذلك اليوم بسبب جديها.

﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ وهذا يدل على أن

هدف الحج إلى الكعبة ليس فقط الطواف حول الأحجار المرسومة إلى بعضها تخشعا لله، بل وأيضا التمحور حول أولياتها، الذين هم ورثة إبراهيم عليه السلام، وحملة مشعل الرسالة، وهم أئمة الهدى، والعلماء بالله، والأمناء على حلاله وحرامه، وهم بالتالي القيادة الرسالية التي هي امتداد لقيادة الرسل عليهم صلوات الله.

﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الشَّجَرِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ يشكرون حج الناس، ورزق الله بخدمة الحاج، وتوجيههم وعدم التسليم لضغوط الغزاة الثقافيين.

كيف نشكر الله؟

[٣٨] وينبغي أن يكون الشكر مخلصا لله، فلا تتجرد خدمة الحاج عن دعوتهم إلى الله، ولا يجعل سقاية الحاج وعمارة المسجد وسيلة المفاخرة والتعالي، وبالتالي لا تصبح طقوس الحج قشورا فارغة، بل وسيلة للزلفى إلى الله والإنابة إليه سبحانه ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعَلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

[٣٩] وعاد إبراهيم عليه السلام يذكر نعمة الذرية، ربما لأن أهل مكة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كلهم من ذرية إسماعيل الذي هو استجابة دعاء إبراهيم عليه السلام، فلماذا يكفرون بنعمة الله؟ ولماذا ينسون أصولهم؟

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾
فلو شكرنا ربنا ودعونا لاستجاب دعاءنا كما استجاب لأبينا إبراهيم عليه السلام.

[٤٠] وإبراهيم عليه السلام ذاته كان مقيم الصلاة، ومجده كان بالصلاة فلا نجعل نحن أبناءه انتشاءنا إليه نسبيا مجدا من دون اتباع تعاليم السماء، وهو يريد أن نكون مثله ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾.

[٤١] وإبراهيم عليه السلام كان متميا بذاته إلى تجمع إيماني أكبر، ولا بد أن نتخذ ذلك التجمع محورا لتحركنا لا الانتشاء إلى نسبه، ودعائه للمؤمنين جميعاً ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

وهكذا ضرب الله لنا مثلاً من واقع إبراهيم عليه السلام، كيف شكر الله على نعمائه، ودعائه بتحقيق طلباته، فشكره الله واستجاب له، وكذلك يستجيب للمؤمنين.

وبرزوا لله الواحد القهار

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفُولًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ^(١)
 إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ^(٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي
 رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدَتْهُمْ أَسْوَادُ ^(٣) ^(٤) هَوَاءٍ ^(٥) وَأَنْذَرِ النَّاسَ
 یَوْمَ یَأْتِيهِمُ الْمَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنا إِلَیْ أَجَلٍ قَرِيبٍ
 نَحْنُ دَعَوْتَكَ وَتَسْجِعُ الرَّسُلَ أُولَئِم نَعْكُوتُوا أَفَسَمْتُمْ مِمَّنْ قَبْلُ
 مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ^(٦) ^(٧) وَسَكَنْتُمْ فِی مَسَکِنٍ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَبَّيْتَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
 لَكُمُ الْأَمْثَالَ ^(٨) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ
 وَإِن كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ ^(٩) فَلَا تُحْسِبَنَّ اللَّهُ
 مُخْلِفًا وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ^(١٠) یَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ
 غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ^(١١) الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ^(١٢) وَتَرَى
 الْمُجْرِمِينَ یَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ ^(١٣) فِی الْأَصْفَادِ ^(١٤) ^(١٥) سَرَابِلُهُمْ ^(١٦)
 مِّنْ فَطْرَانٍ وَتَقَعْنَ وَجُوهُهُمْ النَّارَ ^(١٧) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا
 كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ^(١٨) هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ

(١) وأفندتهم هواء: متجوفة لا تعي شيئاً للخوف والفرع شبهها بهواء الجو.

(٢) ما لكم من روال: ليس لكم من انتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة.

(٣) برزوا لله: البروز الظهور.

(٤) مقرنين: مجتمعين.

(٥) الأصفاد: جمع الصفد وهو الغل الذي يقرن به اليد إلى العنق.

(٦) سراويلهم: السراويل تفسير القميص.

وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلْيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ ﴿٤٢﴾

هدى من الآيات:

الذين يشكرون الله، فيستخدمون نعمه في سبيل خيرهم، يكون مصيرهم الفلاح مثل إبراهيم عليه السلام بينما الذين يتخذون من النعم وسيلة للبطش والظلم فإن الأجل الذي حدد لاختبارهم سوف ينقضي والله ليس بغافل عنهم ولا عن أعمالهم، إنما يؤخرهم ليوم القيامة حيث تشخص فيه الأبصار، وتتركز إلى موضع الخطر لشدة، يسرعون إلى الداعي ويرفعون رؤوسهم هلعاً، لا يملكون التحكم بأعينهم، بينما تذهب قلوبهم إلى حيث شاءت دون أن يتحكموا في أفكارهم، وسيتمنى الظالمون يوم العذاب لو يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب حتى يستجيبوا دعوة الحق، ويتبعوا الرسل، ويتساءل القرآن: أو لم تكونوا قد حلفتُم إنه لا زوال لكم، وقد سكنتُم في منازل الهالكين من أسلافكم الظالمين. وقد رأيتم ماذا فعل الله بهم من عذاب، وقد نبهكم الله إلى هذا المصير عن طريق بيان القصص الرشيدة، وبالرغم من أن الظالمين يخططون لأنفسهم لكي يحصنوها ضد الهلاك، إلا أن الله يحيط بمكرهم وأن كانت محكمة بحيث تستطيع إرادته إزالة الجبال.

وكما يهلك الله الظالمين كذلك يورث الرسل أرضهم بوعده، فلا تظن إن ربك يخلف وعده لأنه عزيز ذو انتقام، وفي يوم القيامة تتحول الأرض غير الأرض حتى تحسبها غير هذه الأرض، كما تتغير السماوات، ووقفوا جميعاً أمام الله الواحد الذي يقهر عباده بسلطانه، وهناك ترى المجرمين مقرنين في الأغلال، يلبسون ثياباً من القطران التي يطلّى بها جسم الإبل، بينما تشوي وجوههم النار، وهناك تتجسد المسؤولية حيث تلقي كل نفس جزاء أعمالها التي اكتسبتها والتي ضبطها الله بسرعة في الحساب، هذا نذير بليغ للناس لكي يعلموا إنما الله إله واحد، ولكي يتذكر أولوا الألباب.

بينات من الآيات:

انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار

[٤٢] قد يرقى إلى قلب البشر الشك في هلاك الظالمين بعد أن يزداد ظلمهم وتعديهم، فيظن المظلومون إن الله غافل عنهم، ولا يدري أن بعض الظالمين يؤجل حسابهم إلى يوم القيامة، فلا يظنوا أو لا يظن المظلوم أن التأخير علامة الإهمال ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي يوم القيامة حيث العذاب الشديد.

[٤٣] وترى الظالمين يسرعون للفرار من الخطر وحيث يأمرهم الزاجر، وهم رافعوا رؤوسهم خوفاً وهلعاً، ولا يتحكمون في حركة أعينهم، كما أن قلوبهم فارغة من التفكير في أي شيء سوى في مصدر الخطر ﴿مُتَّطِعِينَ﴾ الإطعاع: الإسراع ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ الإقناع طأطأة الرأس ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾

اقسام الظالمين في العذاب

[٤٤] يبدو أنه ينقسم الظالمون إلى قسمين: من يؤخذ فقط في الآخرة، وهم الذين لا يقاومهم المظلومون، ومنهم من يعذبهم الله في الدنيا وفي الآخرة، وهم الذين تنذرهم هذه الآية ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجْتِ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعَ الرُّسُلَ﴾ ودور الرسول هو قطع هذه الحجة، فلا ضير لو لم ينتفعوا من الإنذار ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾.

[٤٥]. ولكن كيف اطمأنت نفوسكم إلى الدنيا، وأنتم ورثتموها من غيركم، ولو لا هلاككم لما ملكتم بيوتهم، أو لا تسألون أنفسكم لماذا هلك أولئك؟! أو ليس بسبب الظلم الذي اقترفوه؟! فهلا اعتبرتم.

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَبَّيْتَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ وهذا المنذر هو من تلك الأمثال.

المكر الخاسر

[٤٦] قد يظن الظالمون أنهم لو كانوا أفضل خطة من السابقين لاستطاعوا أن يحموا أنفسهم من جزاء ظلمهم، ولكن هيهات.. كل الظالمين مكروا مكراً، ولكن المكر كان بالتالي في حدود سلطان الله، وفي إطار هيئته، فهو الذي زودهم بعقل وإرادة وقوة حتى خططوا لأنفسهم، ومتى ما يشاء يسلب منهم وعيهم، فيتحول مكروهم عليهم.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ أي توسلوا بكل وسيلة ممكنة للمحفاظ على أنفسهم. ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ فالأمور بيد الله حقاً، وليس بيد العبد إختيار ما يريد، وربنا لا يعصى عن غلبة، بل بقوته التي منحها لعباده يعصيه الكفار.

وقد يكون مكر البشر قادراً على إزالة الجبال ولكن الأمر بالتالي بيد الله الذي زود الإنسان العقل والعلم.

﴿وَلِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولِ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ تزعم الجاهلية الحديثة التي اخترقت الفضاء، وغارت في أعماق المحيطات، وفلقت الذرة، ودكت الجبال تزعم أنها تستطيع الفرار من عقوبة ظلمها للمحرومين والمستضعفين، ولكن هيهات، إن الذي زود البشر اليوم بهذه الطاقات قادر أن يسلبها منهم متى يشاء.

إن كل جيل من الظالمين كان يحسب أنه قد بلغ القمة في تسخير الطبيعة، ولكن بعد حلول أجله أحاط به مكره، وهلك في الأكثر بذات القوة التي زعم أنها تحميه، فأغرق الله فرعون، وابتلعت الأرض قارون وكنوزه، ودكت حصون عاد ذات الصخور التي اعتمدت عليها.

[٤٧] كما أنه قد يزعم الظالمون إن الله يتجاوز عن ظلمهم، بسبب أو بآخر، ولكن هيهات.. وقد وعد ربك رسله بأن يأخذ أعداءهم بعزته، وإذا كانت صفة الرحمة والغفران أبرز أسماء الله، فإن اسم العزيز المنتقم من أسماؤه الحسنی أيضا، وأنه سوف ينفذ هذا الاسم عليهم بسبب وعده للرسول، فلا يفرقوا في الرجاء الساذج، ويتوغلوا في ظلم العباد ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعَدُهُ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾.

[٤٨] ويبقى سؤال: إذا لماذا لا ينتقم الرب من الظالمين على كثرة ظلمهم؟ أجل أنه أخر انتقامه ليوم القيامة ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ فلأن البحار تبخر، ولأن الجبال تتدكدك، ولأن الأرض تصبح قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، فإن الأرض تبدو وكأنها غير تلك التي نعرفها، كما أنه يتغير لون السماوات، وتجتمع أجرامها إلى بعضها، حيث تجمع الشمس والقمر، وتتناثر نجومها، وتكون السماوات غير هذه التي نراها، وهنالك يظهر الظالمون أمام محكمة الله ﴿وَيَرَوْنَ إِلَهًا وَاحِدًا الْقَهَّارَ﴾ هنالك يتجلى اسم العزيز ذي الانتقام، فهل من مهرب؟.

[٤٩] أما المجرمون فيؤتى بهم على رؤوس الأشهاد وقد صفدوا بالأغلال الموضوعة على أيديهم، حيث يسلكون في سلسلة طولها سبعون ذراعا ﴿وَقَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ بعضهم ملتصق ببعض مغلولين -والعياذ بالله-.

[٥٠] وقد ألبسوا من مادة القطران سراويل، حيث تحيط بهم مادة لزجة سوداء نشنة تشبه القار -يطلى بها الإبل- فتصبح كالثوب اللصق للأسفل من أجسادهم، بينما القسم الأعلى منها، تحيط به النار فتصبح كالحيجاب.

﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قِطْرَانٍ وَتَقَشَّى وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾ دعنا نتصورهم في مادة سائلة

يحترق نصف جسدكم في المادة ونصفه في لهيبها، أو ليس الله عزيزا ذا انتقام.

[٥١] وهكذا لا يدع الله أية نفس حتى يجزيها بما كسبت وهو سريع الحساب، حيث يحيط حسابه بكل صغيرة وكبيرة دون أن يعزب عنه مثقال ذرة.

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ وهكذا لا ينال أحد على حرير التبرير، ويمني نفسه بالخلاص من ذنوبه إلا بالتوبة والعمل الصالح.

[٥٢] وإذا كان عذاب الله شديدا فإنه حكيم لم يدع العباد من دون أن ينذرهم بكلام واضح عميق الأثر بلغ قلوبهم وهداهم إلى الله الواحد الذي لا يشارك ألوهيته شيء أو شخص، فلا أمل في شفاعة الأصنام، ولكي يتذكر من شاء النجاة وهم أصحاب العقول الذين يستفيدون من عقولهم ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ. وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ أَولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ اللهم فاجعلنا منهم.

سُورَةُ الْحَجَرِ

* مكية.

* عدد آياتها: ٩٩.

* ترتيبها النزولي: ٥٤.

* ترتيبها في المصحف: ١٥.

* نزلت بعد سورة يوسف.

_____ فضل السُّورة _____

عن الرسول الأكرم ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ وَالْحَجْرِ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ يَعْدُدُ مَنْ عَبَدَ الْأَصْنَامَ وَيَعْدُدُ مَنْ لَمْ يَعْبُدْهَا».

(مجمع البيان: ج ٦ ص ٣٠١)

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ وَالْحَجْرِ فِي رَكْعَتَيْنِ جَمِيعاً فِي كُلِّ جُمُعَةٍ لَمْ يُصِبْهُ فَقْرٌ أَبَدًا وَلَا جُنُونٌ وَلَا بَلْوَى».

(وسائل الشيعة: ج ٧ ص ٣٧١)

الإطار العام

البشرية بين المادة والقيم السماوية

سورة الحجر تحدثنا عن ثمود الذين كذبوا المرسلين وأعرضوا عن آيات الله، واعتمدوا على بيوتهم المنحوتة من الصخور، فلم تغن عنهم شيئاً، بل أهلكهم الله وبقيت قصتهم عبرة لنا ألا نعتمد على الصخور والأشياء، بل على القيم.

ونظرة عامة إلى السورة توحى إلينا بأن إطار هذه السورة ينسف ما يعتمد عليه البشر من أفكار تبريرية، هي من وحي الشيطان الذي أقسم أن يغوي بني آدم بكل وسيلة ممكنة. كما تنسف السورة اعتماد الإنسان على الطبيعة، ونهديننا إلى الركن الأشد، وهو الله الذي يحفظ القرآن من التزوير والتحريف، ويحفظ البشر من الأخطار، ويحفظ السماوات والأرض.

وتؤكد السورة على أجل الإنسان الذي لا يمكن إختراقه أو تجاوزه، للدلالة على أن شؤون البشرية ليست بيدها.

ثم تتحدث السورة عن كيفية تحدي الإنسان المؤمن لغواية الشيطان التي تتخذ أشكالاً متفاوتة، كالكبر والحسد والغرور والعنصرية..

كما تعلن آيات هذه السورة بكل وضوح عن أن الجنة هي جزاء التقوى، وأن العذاب الأليم جزاء الكفر والجريمة، كما كان الشأن المريع في قوم النبي لوط عليه السلام.

وتهديننا الآيات إلى حقيقة أن الفكر لا يسلم من كيد البشر، إذ أن الإنسان الذي ينحرف يسعى لتبرير إنحرافه، ولكي لا يكتشف الفكر الصائب إنحرافه، تراه يحرف الفكر ذاته عبر التأويل والتفسير. ولكن الله تعالى قد أرسل القرآن مقياساً للبشر، وتعهده أن يحفظه من كيد التحريف، وهو الذي حفظ الأرض بهذا الواقع الموزون دون أن تهتز بفعل حركتها، باعتبار أن الحياة بيد الله وخزائنها لديه.

ثم ترشد الآيات القرآنية الإنسان إلى حقيقة خلقة وتطور مراحلها.. وتعلمه أن ذلك كله لينتخب الإنسان خيار التحدي الثابت والدائم لغواية الشيطان الذي قطع على نفسه أن يدفع بأولاد آدم إلى النار الأبدية.

وتلك كانت البداية، أما نهاية البشر، فهي الجنة ونعيمها لمن اتقى، والعذاب لمن غوى، كقوم النبي لوط عليه السلام الذين قرر الله أن يهلكهم دون أن يبقى منهم أحداً يحفظ سلالتهم، لما كانوا يرتكبونه من كفر وفجور يناقض حلال السماء.

ومثل قوم النبي لوط عليه السلام، قوم النبي شعيب عليه السلام، وهم أصحاب حقول مزروعة، انتقم الله منهم بناءً على السنة الإلهية الثابتة.

وأصحاب الحجر كذبوا بدورهم المرسلين، وكلما آتاهم الله سبحانه من آياته، أعرضوا عنها، وأخذوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمين فيها، فنزل عليهم عذاب الله، حيث أخذتهم الصيحة في وقت الصباح، فهل منعت بيوتهم عنهم شيئاً من العذاب؟ كلا..

إن الحق هو محور وجود وطبيعة السماوات والأرض، وبه خلقن، ولذلك فإن الإنسان لا يبقى بلا جزاء. فإن لم ير جزاءه في الدنيا كقوم النبي لوط وئمود وأصحاب الأيكة الذين كذبوا المرسلين، فإنه سيراه - لا شك - في الآخرة التي لا ريب في مجيئها. فدع الكفار يعملون ما يشاؤون، واستقم أنت أيها المؤمن في طريقك، ويكفيك ما تنذرهم به من الحق.

الأمَل الذي لم يسعده العمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرُّبُّ يَلِكْ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانِ مُبِينٍ ① رُبَّمَا يَوَدُّ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ② ذَرَهُمْ يَاصْكُلُوا وَيَشْتَعُوا
وَيُلْهِمُ الْأَمَلَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ③ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا وَهَآ
كِتَابٌ مَعْلُومٌ ④ مَا تَسْبِقُ مِنْ أَمْرٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَفْخِرُونَ ⑤
وَقَالُوا يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ⑥ لَوْ مَا تَأْتِينَا
بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ⑦ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ
وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ⑧﴾

هَدَى مِنَ الْآيَاتِ:

هذا الكتاب الذي نحن بين يديه يُقرأ ويُفهم بوضوح ينذرنا يوماً يود الذين كفروا لو
كانوا مسلمين أما اليوم فإن الأمل يلهمهم عن الحق، وعن الخطر المستقبلي وسوف يعلمون أن
افكارهم لم تكن سوى أمانى كاذبة.

والله سبحانه تفضل على البشر حيث أرسل اليهم كتاباً يبدد ظلام الأمل، كما أعطاهم
فرصة كافية للهداية، وجعل لهم أجلاً معلوماً، لا يسبقونه ولا يستأخرون عنه.

ولكن ذات الأفكار التبريرية حجبت هؤلاء عن كتابهم فقالوا للرسول الذي كان
يهبط عليه ما يذكرهم بصورة تدريجية حسب حاجاتهم أنك لمجنون، وطالبوه بأن ينزل عليهم
الملائكة. أو لا يعلمون إن الله لا ينزل الملائكة إلا بحكمة وعندها ينتهي أجلهم حيث لا تزيد
مهلتهم، وما هو التاريخ يشهد على ذلك.

بينات من الآيات:

[١] باسم الله الرحمن الرحيم، بعلم الله، وبقوته، وبرحمته الواسعة، أنزل قرآنًا، يشار إليه بالفاظ ولكنها علامات واضحة تهدينا إلى الحق ﴿الرَّيَّةُ لَكَ آيَةُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾.

الأمل الوثيري

[٢] الأمل الذي يسوف به الفرد عمل الخير، وينام على سريره الوثير قد يتحول إلى ندامة، فمن يعيش على (لو) يموت بـ (يا ليت)، ومن يركب حصان الأمنية يقتحم به وادي الحسرة ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾.

ويكفي أن نطن ظنا أننا مستندم يوما على فعلنا، يكفي ذلك موعظة لنا تهز مشاعرنا من الأعماق لأن الندامة لا تنفع وقد قال شاعرهم:

ليت وهل ينفع شيئا ليت ليت الشباب بوع^(١) فاشترت

[٣] سوف يعلم الكفار يوم يقضي أجلهم أن أملهم يلهمهم، وأن هدفهم كان مجرد التمتع بزينه الحياة الدنيا، وأن الأمل كان مسكنا لوخر ضمائرهم، وحجابا لوهج عقولهم ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

سنة العذاب

[٤] إن ساعة الندامة شديدة الوطء حتى علينا ونحن نتصورها، كيف هي حالة من يضيع فرصته الوحيدة وقد تثير في أنفسنا الشفقة، ولكن الله يقول: لقد وفرنا كافة الوسائل الكفيلة لهدايتهم فعاندوا ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾.

[٥] ولكن الفرصة ليست أزلية وإذا أنتهت فلن تعاد ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾.

ويلاحظ في هذه الأمة:

أولاً: إن الأمة وليس الفرد قد حدد لها الأجل، وذلك لأن الأفراد هم اتباع تجمع بر

(١) بوع: أي بيع من باع.

وفاجر. يتفاعلون معه في خيرهم وشرهم لذلك فإن أجل كل مجموعة يتسهي في وقت واحد.
ثانياً: إن تقديم الأجل كما تأخيره غير ممكن إلا أن يشاء الله، والسبب أن ربنا لا يأخذ أحداً قبل أن يكمل له فرصته ويتم الحجة عليه تماماً.

التبرير منطق التقهقر

[٦] ويبرر الكافر بكفره عناده بالمهجوم ضد من يحمل تلك الفكرة السليمة، وهكذا الكفار اتهموا الرسول بالجنون ﴿ وَقَالُوا يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ أنهم كانوا يتهربون من ذكرهم، ويخافون من الهداية على متعتهم الزائلة، فبالرغم من اعترافهم بأنه صاحب ذكر يريد بلورة عقولهم وتركيز نفوسهم اتهموه بالجنون لأنه كان يضحى بكل راحته ومتعته من أجل مصلحتهم، ولا يريد مصلحة لنفسه، فأى تهمة يمكن الصاقها به غير الجنون -طبعاً- حسب ثقافتهم المتوغلة في المادية. وحسب تفسيرهم للعقل وهو الحصول على أكثر ما يمكن من المكاسب، ينبغي أن يكون المضحى من أجل الهدف ومن دون أية مصلحة ذاتية، أن يكون مجنوناً.

أما الجنون بمعنى انعدام العقل فإنه ينعكس على تصرفات الفرد -في أكله وشربه، في سلمه وحربه، في إرادته لأصدقائه، ومقاومته لأعدائه- وهل كان الرسول مجنوناً بهذا المقياس؟ وهل الرساليون السائرون على نهجه مجانين بهذا المقياس؟ أم بمقياس الماديين السائرين في متع الدنيا الرخيصة؟!

[٧] ولكي يبرروا كفرهم طالبوا الرسول بأمر تصوره محالاً وقالوا: ﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وهكذا كل فرد لا يريد أن يؤمن بفكرة أو يقوم بعمل يتعلل ببعض العلل.

[٨] ولكن ألا يعلمون أن نزول الملائكة، يعني كشف الغيب أمام عين البشر، والله جعل الدنيا دار اختبار لعقل البشر وإرادته، وهل يختار الحق على الشهوات، ويكتشف الحق بين الشبهات أم يخضع لشهواته ويستسلم لها، وحين يشاء بعث الملائكة وكشف الغيب فإنه ينهي فترة الاختيار، وبعدها لا تُعطى فرصة أخرى للأمة.

﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾ فعند هبوط الملائكة لا يهمل الناس، وكل من يموت قد يشاهد الملائكة ويؤمن بها ولكن من دون فائدة.

هكذا يحفظ الله رسالته

﴿ إِنَّا نَحْنُ قَرَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ① ﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعٍ ② ③ ④ ⑤ ⑥ ⑦ ⑧ ⑨ ⑩ ⑪ ⑫ ⑬ ⑭ ⑮ ⑯ ⑰ ⑱ ⑲ ⑳ ㉑ ㉒ ㉓ ㉔ ㉕ ㉖ ㉗ ㉘ ㉙ ㉚ ㉛ ㉜ ㉝ ㉞ ㉟ ㊱ ㊲ ㊳ ㊴ ㊵ ㊶ ㊷ ㊸ ㊹ ㊺ ㊻ ㊼ ㊽ ㊾ ㊿
يَسْتَهْزِئُونَ ⑪ ⑫ ⑬ ⑭ ⑮ ⑯ ⑰ ⑱ ⑲ ⑳ ㉑ ㉒ ㉓ ㉔ ㉕ ㉖ ㉗ ㉘ ㉙ ㉚ ㉛ ㉜ ㉝ ㉞ ㉟ ㊱ ㊲ ㊳ ㊴ ㊵ ㊶ ㊷ ㊸ ㊹ ㊺ ㊻ ㊼ ㊽ ㊾ ㊿
يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ ③ ④ ⑤ ⑥ ⑦ ⑧ ⑨ ⑩ ⑪ ⑫ ⑬ ⑭ ⑮ ⑯ ⑰ ⑱ ⑲ ⑳ ㉑ ㉒ ㉓ ㉔ ㉕ ㉖ ㉗ ㉘ ㉙ ㉚ ㉛ ㉜ ㉝ ㉞ ㉟ ㊱ ㊲ ㊳ ㊴ ㊵ ㊶ ㊷ ㊸ ㊹ ㊺ ㊻ ㊼ ㊽ ㊾ ㊿
السَّمَاءَ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ⑪ ⑫ ⑬ ⑭ ⑮ ⑯ ⑰ ⑱ ⑲ ⑳ ㉑ ㉒ ㉓ ㉔ ㉕ ㉖ ㉗ ㉘ ㉙ ㉚ ㉛ ㉜ ㉝ ㉞ ㉟ ㊱ ㊲ ㊳ ㊴ ㊵ ㊶ ㊷ ㊸ ㊹ ㊺ ㊻ ㊼ ㊽ ㊾ ㊿
نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ⑪ ⑫ ⑬ ⑭ ⑮ ⑯ ⑰ ⑱ ⑲ ⑳ ㉑ ㉒ ㉓ ㉔ ㉕ ㉖ ㉗ ㉘ ㉙ ㉚ ㉛ ㉜ ㉝ ㉞ ㉟ ㊱ ㊲ ㊳ ㊴ ㊵ ㊶ ㊷ ㊸ ㊹ ㊺ ㊻ ㊼ ㊽ ㊾ ㊿
لِلنَّظِيرِ ⑪ ⑫ ⑬ ⑭ ⑮ ⑯ ⑰ ⑱ ⑲ ⑳ ㉑ ㉒ ㉓ ㉔ ㉕ ㉖ ㉗ ㉘ ㉙ ㉚ ㉛ ㉜ ㉝ ㉞ ㉟ ㊱ ㊲ ㊳ ㊴ ㊵ ㊶ ㊷ ㊸ ㊹ ㊺ ㊻ ㊼ ㊽ ㊾ ㊿
أَسْرَقَ السَّمْعَ ⑪ ⑫ ⑬ ⑭ ⑮ ⑯ ⑰ ⑱ ⑲ ⑳ ㉑ ㉒ ㉓ ㉔ ㉕ ㉖ ㉗ ㉘ ㉙ ㉚ ㉛ ㉜ ㉝ ㉞ ㉟ ㊱ ㊲ ㊳ ㊴ ㊵ ㊶ ㊷ ㊸ ㊹ ㊺ ㊻ ㊼ ㊽ ㊾ ㊿

هدى من الآيات:

الفكر لا يسلم من كيد البشر. إذ أن الإنسان الذي ينحرف يسعى لتبرير انحرافه، ولكي لا يكتشف الفكر الصائب انحرافه يحرف الفكر بذاته بالتأويل والتفسير، والله أرسل القرآن مقياساً للبشر، وتعهد من أن يحفظه من كيد التحريف، وبالرغم من أن الله أرسل من قبل الرسول رسلاً في مختلف فرق الناس الأولين فإنهم كانوا يستهزئون بالرسول، ويحرفون

(١) شيع: الشيع الفرق.

(٢) نُسلكه: نُدخله.

(٣) خلت: مضت.

(٤) يعرجون: العروج الصعود.

(٥) سكرت أبصارنا: غشيت.

(٦) بروجاً: البروج أصله الظهور ومنه البرج من بروج السماء ويرج الحصن ويقال تيرجت المرأة إذا ظهرت ربتها.

(٧) استرق السمع: إذا تسمع مستخفياً.

رسالاتهم، وسوف يحفظ الله القرآن ويسلكه في قلوب المجرمين ليبقى حجة بالغة عليهم لا يقدرون على تحريفه وهم لا يؤمنون به، وسنة الله جرت على أمثالهم ثم أخذهم بشدة، وليس عدم إيمانهم بسبب نقص في الحجة بل في أنفسهم، فلو أن ربنا فتح بابا في السماء فأخذوا يصعدون فيه، إذا قالوا لقد سترت أبصارنا عن الحقيقة وسحرنا، ومن لا يستضيء بالشمس هل تنفعه الشمعة؟! إن آيات الله في الكون أكبر من الصعود إلى السماء فهي السماوات ذاتها، وما فيها من بروج جعلت بحيث تشع جمالا وبهجة، كما أنها متينة تتحدى الشياطين، إلا بعض من حاول استراق السمع، فجاءه شهاب مبین، فهل نفعتهم الآيات هذه؟!.

بيانات من الآيات:

كيف حفظ الله كتابه

[٩] كل الرسالات السماوية تعرضت للتحريف من قبل المبطلين، والقرآن بدوره سوف يتعرض لمثل هذه المحاولات، التي سوف تتجه في اتجاهين.

ألف: محاولة تغيير النص القرآني، وتبديل كلمة بأخرى.

باء: تغيير معاني القرآن، وتفسيرها بما يتناسب ومصالح المحرفين وأهوائهم، ولأن كل كتاب ينسخه كتاب إلا القرآن الذي جاء خاتمة للرسالات، فإن الله قد وعد أن يحافظ عليه لكي تنهيا للأجيال القادمة فرصة الهداية يقول ربنا: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ وهو القرآن الذي يثير في البشر دفائن عقله التي عفا عليها غبار النسيان.

﴿وَأَنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أما ألفاظ القرآن، فقد حفظها الله بنصر الأمة، ودخول الناس أفواجا في دين الله، وإقبال الناس على كتاب الله، بحيث لم يبق مجال لتحريف ألفاظه.

وأما معاني القرآن فقد قيض الله سبحانه لهذه الأمة أئمة هدى وعلماء ربانيين حفظوا معالم الدين عن الإندراس، وأصبحوا بأفعالهم وأقوالهم تفسيرا صحيحا لنصوص القرآن، ولا يزال العلماء الربانيون والشباب المجاهدون ماضين قدما على نهج أولئك السلف الصالح في نفي شبهات الضالين وتحريف المبطلين.

الرسالات ومهمة الوحدة

[١٠] ولقد أرسل الله في الأمم السابقة على اختلاف فرقهم رسلا فلم تكن بدعة رسالة محمد ﷺ، كما لم تكن بدعة مخالفة للناس لها، واستهزائهم بها، ولكن الله سيحفظ هذه الرسالة

بالرغم منهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ وقد يكون الشيع إشارة إلى الفرق: «وهي جمع كلمة شيعة وهم الأتباع» للتذكر بأن كل رسالة، كانت تهدف فيها تهدف، توحيد الفرق المختلفة التي انقسمت على نفسها بعد الرسالة السابقة.

[١١] وواجه الناس رسلهم بأسوأ طريقة، حيث استهزؤوا بهم ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

[١٢] ولكن مع ذلك فإن ربنا يتم حجته على الناس، ويدخل الذكر في قلوب المجرمين. سواء آمنوا به أم لا لكي لا يقولوا كنا ناسين، أو لم تكن نعرف الحقيقة ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

[١٣] وهذا لا يدل على إجبار المجرمين على القبول به، بل أنهم لا يزالون على اختيارهم كبشر، وعلى عاداتهم الإجرامية ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وهذه سنة الله أن من يرتكب الجريمة لا يوفق عادة للإيمان ﴿وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾.

دليل الله في السماء

[١٤] عدم إيمان هؤلاء لا يدل أبدا على نقص في الأدلة، وبالتالي ينبغي ألا نجعل إيمان المجرمين مقياسا لقبول فكرة الرسالة، والدليل إنه لو فتح الله عليهم طريقا يصعدون عبره في السماء لما آمنوا لأن عقولهم في أكنة من الشهوات.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ أي استمروا يصعدون دون أن يكون الأمر مجرد لحظات يشبهون فيها بأنهم يحلمون مثلا.

[١٥] ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ توهم العين برؤية باب السماء والصعود فيه، بسبب نشوة أو حجاب، ثم يكشفون أن جسدتهم يحس أيضا بوضع الصعود، هنالك يقولون: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾.

[١٦] العروج في السماء ليس أكبر آية لربنا بل أكبر منه هذه السماء التي جعل الله فيها منازل وأجراماً، وأسبغ عليها من الجلال والجمال ما يبهر العقول والعيون ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ فخالق السماء هو خالق الأرض والإنسان وما فيه من غرائز، وهو الذي خلق الإحساس بجمال النجوم في السماء.

[١٧] وبالإضافة إلى الجمال الباهر في السماء فقد حفظها الله من كل شيطان رجيم، فالجن الذين يوهمون البشر بأنهم على علم بما يجري في السماء، وأنهم يعلمون الغيب إنهم يكذبون.

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ حيث أنه يرمم باللعنة وبالشهاب المين.

[١٨] نعم يغامر بعض الشياطين فيقتربون من بعض المواقع للحصول على بعض الأخبار، فيأتيهم الشهاب المين ليردعهم ليعودوا خائينين.

﴿إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ وهكذا نسف القرآن أساس عبادة الشياطين، واتباع الكهنة والمنجمين الذين يكذبون حتى ولو صدقوا. كما أن القرآن لم ينف وجود بعض المعلومات المتناثرة، ولكنها غير موثوق بها. من هنا فوجود بعض المعلومات لا يدل على سلامة المصدر دائماً إذ أن هدف الشياطين من إعطاء المعلومات السليمة هو تضليل البشر في القضايا العامة. تماماً مثل وسائل إعلام الطاغوت التي تنقل عشرين خبراً صحيحاً لتدس خبراً هاماً باطلاً.

والعلم بمفاتيح الغيب ينبوع من خزائن القدرة الإلهية، فربنا يحيط علمه بالسلف والخلف، وإليه مصير الناس جميعا.

هكذا تتصل شؤون البشر بمشيئة الله. ابتداء من أمه الأرض، إلى معيشتها فيها، إلى ماء السماء، وإليه المصير. أو ليس الأفضل التسليم له؟.

بينات من الآيات:

دليل الله في الأرض

[١٩] أحب البشر أرضه، التي نبت فيها، وارتضع من خيراتها، ودب عليها، ومن أجل الدفاع عن بضعة أشبار منها أرخص دمه. أو لا يعلم أن الأرض هذه خلقها الله، ومدّها من تحتها من بعد أن كانت كتلة ملتزمة، ثم قرر الجبال فيها، ووضعها حيث تحافظ على توازنها على أدق نظام، وهو الذي أحاط علما بوزن الجبال ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ الرواسي، الثوابت وواحدها راسية والمراسي ما يثبت به^(١)، ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ الوزن أدق من الكيل، وكل شيء له وزنه الخاص ليس فقط كمجموع بل كما نعلم إن كل مادة كيميائية تتركب من ترتيب نسب معينة من المواد الأخرى لا تزيد ولا تنقص، بحيث لو زادت أو نقصت لأصبحت مادة أخرى تختلف بل تتناقض خصائصها وميزاتها مع المادة السابقة.

[٢٠] وجعل الله للإنسان معيشه في الأرض، فعلمه كيف يعيش، وخلق أنواع الصيد في البر والبحر، وعلمه كيف يصيد، وأودع في الأرض كنوز الخير يستخرجها البشر بالزراعة، وعلمه كيف يحول مواد الأرض بحيث يستفيد منها، كما أنه وفر لكل حي رزقا يناسبه، هل يرزق البشر بعض أنواع الهوام والحشرات والدواب والطيور، والأسماك ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ﴾ معاش جمع معيشة وهي طلب أسباب الرزق مدة الحياة^(٢)، ﴿وَمَنْ لَشَيْءٍ لَمْ يَرْزُقْ﴾.

وقد تفسر الآية: بأن ربنا قد ضمن رزق من لا يملك حولا مثل المرضى والمقعدين. و... وهكذا.

[٢١] وبالرغم من أن الإنسان يسعى من أجل رزقه، فهو مثلا: يحرق الأرض ويطلب الصيد، ولكن هذا السعي ليس سوى وسيلة لاستدراار رحمة الله. ذلك لأن خزائن الله مليئة بالرزق، وتنتظر أوامر الله التي لا تأتي إلا بحكمة، ومتى تقتضي الحكمة؟ عندما يسعى البشر.

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٤٣٠.

(٢) المصدر السابق: ص ٤٣٠.

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ ﴿ فلو أعطى الله البشر من دون سعي لشجعه على الكسل والترف، وإذا أنزل عليه أكثر من حاجته طغى في الأرض. ﴾

[٢٢] ومن خزائن رحمة الله بركات السماء، فالرياح تهب بسبب حركة الشمس، فتلقح السحب. تجمعها، وتربط السالب والموجب فيها، وتجعلها مهياة للمطر ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِعَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَمْشِقْنَكَمُوهُ وَمَا أَشْمَرُ لَهُمْ يَخْزِينَ ﴾ ﴿ إنما ربنا الذي يخزن بقية المياه في خزائن جوف الجبال. ﴾

قدرة الله وحكمته

[٢٣] والموت والحياة بأمر الله، ولو لا الحياة هل كانت أموال الإنسان تنفعه شيئا؟

﴿ وَإِنَّا لَنَعْنُ فُتًى. وَنُصِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ ﴿ فالأموال تعود بالتالي إلى الله. ﴾

[٢٤] وهكذا ينبغي ألا نعبد الأرض وما فيها ولا معاشنا، بل نعبد الله ربنا لاسيما وربنا يحيط علما بالبشر الخلف والسلف ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَفْرِينَ ﴾ ﴿

[٢٥] وإنه سوف يحاكم الجميع بعد أن يحشرهم إليه، وهو حكيم لا يجازيهم إلا بما كسبوا، عليهم بما فعلوا ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿

كيف يتحدى المؤمن غواية الشيطان

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ^(١) مِنْ حَمَلٍ^(٢) مَسْنُونٍ^(٣) ۝^(٤) وَالْجَبَانَ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ^(٥) ۝^(٦) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝^(٧) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝^(٨) فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَتْمَعُونَ ۝^(٩) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝^(١٠) قَالَ يَبْنَئُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝^(١١) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝^(١٢) قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝^(١٣) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۝^(١٤) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝^(١٥) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝^(١٦) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝^(١٧) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي^(١٨) لِأُزَيِّنَ^(١٩) لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝^(٢٠) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝^(٢١) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝^(٢٢) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝^(٢٣) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝^(٢٤) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ۝^(٢٥)﴾

(١) الصلصال: الطين اليابس يسمع له عند النقر صلصلة وهي صوت شديد متردد في الهواء.

(٢) الحمأ: جمع حمأة وهو الطين المتغير إلى السواد.

(٣) مسنون: من سنتت الماء على وجهه أي صببته وقيل المتغير.

(٤) السموم: الريح الحارة.

(٥) فأنظرني: أمهلني في الدنيا ولا تمتني.

(٦) أغويتني: الاغواء الدعاء إلى الغي والضلال.

(٧) لأزين: التزيين جعل الشيء متقبلاً في النفس واغواء الشيطان تزيينه الباطل حتى يدخل صاحبه فيه.

هدى من الآيات:

الأرض التي تحتضتنا خليفة الله، فماذا عن الإنسان فوق الأرض، وما هي قصته التي لا تنتهي؟. لقد كان تراباً فجُعل طيناً، وبقي حتى تسنه، ثم أصبح صلصالاً كالفخار يابساً يخلق منه البشر، وقبلئذ خلق الجن من نار أوجدتها الرياح السامة.

وبدأت القصة حيث قال الله للملائكة - وكان بينهم بعض الجن - وهو إبليس: إني خالق بشرٍ من طينٍ يابس متخذٍ من حمأ مسنون، وأمرهم بأن يسجدوا له متى ما أصبح سوياً متكاملًا، وعندما يبعث فيه من الروح التي خلقها، فإذا بهم يسجدون جميعاً، ويأبى إبليس، ويسأله الرب: لماذا لم تكن من الساجدين؟ فيجيب: أو لست قد خلقتني من نار ومثلي لا يسجد لبشر مخلوق من صلصال قد أخذ من هذا الحمأ المتغير، فيخرجه الله من ساحة قربه ويرجمه بلعنته، ويطرده إلى أن يأتي يوم الدين فيحاسب. بيد أنه يطلب الإمهال إلى يوم البعث، فيعطيه الرب مهلة معينة لا يعرف مداها، ويتوعد بني آدم: بأن يزين لهم في الأرض وأن يغيرهم أجمعين، ولكنه يعرف أن هناك عباداً لله قد أخصهم ربهم لنفسه بسبب عبادتهم له وتسليمهم لأوامره، ويؤكد ربنا أن هناك صراطاً مستقيماً يتعهدده الله ويسير عليه عباد الله الذين لا سلطان لإبليس عليهم. إنما سلطانه على من يتبعه وهم الغاؤون الذين سيكون مصيرهم جهنم التي لها سبعة أبواب، كل فريق منهم يدخل من باب بينما المتقون في جنات وعيون يدخلونها وهم سالمون آمنون، لا يعيش في قلوبهم غل وهم إخوان يجلسون على سرر متقابلين، لا يعترهم تعب لا يخشون من إخراج. تلك هي قصة الإنسان فوق الأرض فهل نعرف مغزاها؟.

بينات من الآيات:

مراحل الخلق

المرحلة الأولى

[٢٦] كيف خلق الله الإنسان الأول؟.

إن ربنا أحسن الخالقين قد يخلق شيئاً بقوله كن فيكون ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وقد يخلقه وفق السنن والأنظمة، وقد خلق جسد الإنسان بهذه الطريقة حسبما تشير إليه تكاملية خلقه وضمير الجمع في ﴿خَلَقْنَا﴾ أما روحه فقد نفخها فيه بقدرته المطلقة وبصورة مباشرة حسبما توحى إليه آية ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]. وضمير

المفرد في قوله هنا: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾.

وهكذا تدرج الانسان من تراب، ثم إلى طين لازب وإلى حمأ مسنون وإلى صلصال كالفخار، وإلى أن سواه ربنا إنسانا فتفخ فيه من روحه.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ الصلصال: الطين الجاف، الحمأة، والحمأ: طين أسود منسق، والمسنون: المتغير.

يبدو أن ربنا أجرى على التراب ماء فتفاعل معه فأصبح طينا لازبا، ثم تفاعل معه فأصبح متعفنا، ثم نمت الحياة فيه بفعل التفاعل وخلق فيه الحياة فأصبح مستويا، ثم نفخ الله فيه روح العقل والإرادة، فاستحق سجود الملائكة.

قال صاحب مجمع البيان: «وأصل آدم تراب، وذلك قوله: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ ثم جعل التراب طينا، وذلك قوله: ﴿وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ ثم ترك ذلك الطين حتى تغير واسترخى وذلك قوله: ﴿مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ ثم ترك حتى جف وذلك قوله: ﴿مِنْ صَلْصَلٍ﴾ فهذه الأقوال لا تناقض فيها. إذ هي أخبار عن حالاته المختلفة»^(١).

الطبائع البشرية

ويبدو أن لكل أصل من أصول البشر رواسب في خلقته، فلأنه من تراب يحن إلى الأرض، ويحب العمارة فيها، وينبغي أن يكون خاضعا لله، ساجدا عليها، لا يرى أحد أنه أفضل من غيره بطبعه لأن طبيعتهم جميعا هو التراب.

ولأنه من طين لازب فهو ابن الشهوات والأهواء، ولكنه يتصلب على شيء بسبب كونه من صلصال، وتلك جميعا طبائع البشر المادية، أما الروح فلها خصائص أخرى.

[٢٧] قبل أن يخلق الله البشر خلق عدوه -الجان- الذي يقابل الإنس، ذكر هنا بلفظة جان للدلالة على طبيعته كما نقول «الإنسان» ونشير إلى طبيعته دون ملاحظة أفراده.

كيف خلق الجان؟ يبدو أن ريحا تحمل السموم بسبب حرارتها، وقد عصفت فأوجدت نارا فخلق الله منها الجان ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾.

[٢٨] وأما كيف أصبح الجان عدو الإنسان فلذلك قصة أخرى بدأت مع إخبار الله ملائكته:

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٤٣٤.

إنه سوف يخلق بشرا ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴾ وعرف الملائكة طبيعة هذا الخلق كما جاء في سورة البقرة. إنه ما دام من الطين فلا بد أن يفسد في الأرض.

المرحلة الثانية

[٢٩] ولكن الله أنبأهم أن له طبيعة أخرى يستحق بها السجود والخضوع تلك هي روحه الإلهية ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ويبدو أن التسوية هي تكامل جميع الأعضاء، وتعادل الغرائز وهذه مرحلة تسبق مرحلة بث الروح.

[٣٠] أما الملائكة التي هي الأرواح المطيعة لربها، المكلفة بتسيير الخليقة حسبها بأمرها جبارها، فإنها سجدت لأدم لمكان الروح التي نفخت فيه من الله ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾.

وكما استوحينا من آية في سورة البقرة^(١): إن الملائكة ترمز إلى قوى الطبيعة التي سخرت للبشر، بينما بقيت قوة في الطبيعة وهي قوة نفس الإنسان (الأمارة بالسوء) الموكلة بها إبليس.

[٣١] لذلك لم ينضم إبليس إلى مجموعة الساجدين متعمدا وعن سبق إصرار ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾.

[٣٢] لم يرض الرب بذلك، بل نهزه قائلا: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾.

فقوى الشر ليست ضمن برنامج السماء، ولا هي مقضية من قبل الرب على البشر إنما هي شذوذ عن سنة الله، وتمرد مؤقت على إرادته، ولذلك ينبغي ألا يستسلم لها البشر ولا يعترف بشرعيتها، ويناضل ضدها أبدا حتى يتنصر عليها بإذن الله.

[٣٣] وتعليل إبليس كان أسوأ من عمله. إذ زعم أنه أفضل من آدم، وأخطأ مرتين:

الأولى: حين اعتقد أن ابن النار أفضل من ابن التراب، واعتقد أن أفضلية المخلوق هي بأصله، لا بعلمه وبفوائده.

الثانية: حين تمرد على أوامر الله، اعتمادا على هذا الزعم، فحتى لو كان أفضل من آدم -جدلا- فإن سجوده بأمر الله ليس سجودا لأدم -في الواقع- بل لمن أمره وهو الله. إن طاعتك مثلا للنبي أو الإمام ليست طاعة له في الواقع بل لله، وإن تسليمك لأوامر قيادتك الإلهية ليس تسليما لبشر، بل لمن أمرك بذلك.

(١) راجع تفسير الآية ٣٤ من سورة البقرة.

﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَافٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴾ ونستوحي من هذه الآية: إن طينة الإنسان لم تكن مقدسة تستدعي السجود من قبل الملائكة بل إن كرامته من الله، وبقدر طاعته لله لأن طينته كانت من طين يابس متخذ من طين متعفن، وقد نفرت منه بعض قوى الطبيعة لزعمها أنها أفضل منها.

[٣٤] ولأن التمرد على الله، ومخالفة الحق شذوذ في برنامج الحياة وليس جزءاً مقدراً منه، أو جانباً مقضياً، فقد طرد ربنا إبليس من مقام الإرادة والتوجيه، وأبعده أيضاً عن مقام الطبيعة المأمورة، ورجمه باللعنة فهبط إبليس بذلك ثلاث درجات:

الأولى: حين قال له الله: ﴿ قَالَ فَخَرُجْ مِنْهَا ﴾ أي من مقام الملائكة حسبما يهدي إليه السياق، وقالوا من الجنة أو من السماء أو من الأرض، ولأن مقام الملائكة هو مقام الأمر حيث أنهم ينفذون أوامر الله على الطبيعة فهم وسائط أمره عز وجل فلذلك كان إخراج إبليس من ذلك المقام الذي هو السماء بالنسبة إلينا «السماء مصدر الأمر في القرآن» اللعنة الأولى.

الثانية: حيث أسقطه الرب عن مقام سائر ما في الطبيعة مما إستسلمت لأوامر الله طوعاً فأصبح رجياً وقال له الله: ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾.

ونستوحي من الآية - مرة ثانية - إن العصيان شذوذ في الطبيعة لا قاعدة.

[٣٥] الثالثة: حين كتب عليه الرب اللعنة فأصبحت الطبيعة ضده وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ واللعنة هي الإبعاد من رحمة الله، ويوم الدين هو يوم الجزاء.

المرحلة الأخيرة

[٣٦] وانتهت المرحلة الثانية من قصة الخليقة، وبقيت المرحلة الأخيرة التي هي عبرتها، وما يلتصق بحياتنا أكثر فأكثر، ذلك إن إبليس طلب من الله فرصة إلى يوم البعث، فأعطاه الله فرصة معينة إلى يوم معلوم، قد يكون قبل يوم البعث أو هو يوم البعث ذاته.

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ وهنا كشف القرآن عن فلسفة المسافة الزمنية التي تفصل بين الجزاء وبين العمل في الدنيا.

[٣٧] ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ والبشر بدوره يعطى مهلة إلى أجل محدود.

[٣٨] وينتهي الأجل إلى وقت معلوم عند الله. مجهول عند صاحبه ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ

الْمَعْلُومِ ﴿٣٩﴾ قال البلخي: «فأبهم ولم يبين لأن في بيانه إغراء بالمعصية»^(١).

[٣٩] أخذ يهدد إبليس بني آدم الذي كان سبب إختباره وبالتالي لعتته.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخُو تَيْمُونِ﴾ لم يضل الله إبليس إلا بعد أن اختار بكامل وعيه وبسابق قصده عصيان أمر الرب ويكفي في معنى السبب الذي توحى كلمة (باء)، هذا القدر من العلاقة، وخلاصة معناه: رب كما أنك اختبرتني ففشلت، فإني سوف أهيء لهم وسائل الإختبار فيفشلون، وهكذا أنتقم منهم. وكان الله يريد أن يختبر عباده وهذا إبليس رشح نفسه لهذه المهمة، كما أن الله يريد أن يعذب القوم الظالمين فيرشح من هو أظلم منهم نفسه للانتقام فيتركه الله - بينه وبينهم - فيصدق الحديث القدسي: «الظالم سَيِّئِي أَنْتَقِمُ بِهِ وَأَنْتَقِمُ مِنْهُ»^(٢).

أما كيف وبأية وسيلة أراد إبليس إغواء البشر؟ فلقد كشفها لنا قائلا: ﴿لَأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي سوف أجعل الأرض جميلة في أفئدتهم حتى تستهويهم.

[٤٠] إغواء إبليس كاغواء الله لإبليس. مجرد إختبار وليس إجبار، ويشهد عليه أن عباد الله المخلصين يتمرّدون عليه ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾.

[٤١] وصراط الله مستقيم وهو إلى الله، وعلى الله المحافظة عليه مستقيماً، وألا يدع التشويه والانحراف بصييه كما قال سبحانه في الآية العاشرة من هذه السورة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ فمهما كان لإبليس من قوة الإغراء ومن جمال التزيين، فإن الله لن يدع له المجال لتحويل الحق إلى الباطل، وبطمس معالم الدين كلياً.

[٤٢] وإنه لن يدعه يجبر الإنسان على اتباعه، نعم من تبعه يضلّه الله، ولا يعينه على الشيطان الغوي ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ وهم اختاروا سلطة إبليس اختياراً ولم يجبرهم عليها الله، فحرام تبرير البعض خطأهم وانحرافهم بأنهم كانوا مجبورين.

[٤٣] أما الغاؤون فإن الله أجل عذابهم الجماعي إلى جهنم ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

[٤٤] حيث تختلف أبواب الضلالة ولكنها بالتالي تنتهي إلى ذات المصير الواحد ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾.

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٤٣٦.

(٢) كلمة الله: ص ١٨٠.

النهاية بين المتقين والمجرمين

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَذْخُلُوها بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ﴿٤٧﴾ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ ﴿٤٨﴾ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٩﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٥٠﴾ نَجَّى عِبَادِيَ الَّذِينَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥١﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٢﴾ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥٣﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٥٥﴾ قَالَ أَبَشِّرْهُنِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونِ ﴿٥٦﴾ قَالُوا بِشِّرْكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٧﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ ۖ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٨﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٦٠﴾ إِلَّا مَا لَوْ لَوْ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦١﴾ إِلَّا أَمْرًا نَّهْ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَايِبِ ﴿٦٢﴾ ۝﴾

هدى من الآيات:

تلك كانت البداية أما نهاية البشرية، فإن من اتقى فإن مقامه جنات تظله وعيون ترويه، وسلام أبدي، ووثام مع إخوان الصفا، وراحة بلا نصب، وإقامة بلا إخراج، وغفران من الله

(١) الغل: الحقد الكامن في القلب.

(٢) سرر: السرير المجلس الرفيع.

(٣) وحلون: خائفون.

(٤) القانطين: اليائسون من رحمة الله.

الغفور الرحيم. أما من أجرم فإن له عذاباً ألياً.

وكمثل على ذلك في الدنيا، جزاء الله لإبراهيم إذ دخل عليه ضيوف مكرمون فسلموا عليه، ولكنه أبدى خوفه منهم فطمأنوه ألا يخاف لأنهم جاؤوا يبشرونه بغلام عليم، فاستغرب فرحاً وقال: كيف وأنا كبير السن فهل تبشرونني بحق؟! قالوا بلى ولا تكن آيساً من رحمة الله، فاستدرك إبراهيم قائلاً كيف أقنط ولا ييأس من رحمة ربه إلا الضالون، وهذا جانب من فضل الله.

ثم سألهم عن وجهة سيرهم؟ قالوا: نحن مبعوثون إلى أناس مجرمين - هم قوم لوط - حيث نهلكهم، إلا آل لوط المؤمنين الذين سوف ننجيهم أجمعين، باستثناء امرأته التي ستكون من الهالكين، وهذا جانب من عذاب الله.

بينات من الآيات:

جزاء المتقين

[٤٥] من هم المتقون وما هو جزاءهم؟

المتقون هم الذين لا يستجيبون لإغواء إبليس، ويتجنبون مصائده، ويعرفون كيف يزين لهم في الدنيا، وجزاءهم كالتالي:

أولاً: يأكلون ويشربون بلا تعب ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

[٤٦] ثانياً: يشعرون بسلام أبدي ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾.

وكل الناس يبحثون عن عافية أجسادهم وأعراضهم، وعن ضمان مستقبلهم، ولكن المتقين هم وحدهم الذين يدركون كل ذلك.

[٤٧] ثالثاً: بعد أن يشعر الفرد باطمئنان كاف، يبحث عن مؤمنين يتقاسم معهم النعماء، فالمؤانسة غذاء الروح، والعطاء راحة القلب، ويوفر الله للمتقين هذا الطموح، فينزع كل - ما في صدورهم من مرض قلبي، كالحسد والبخل والطمع و... - حتى تكون نفوسهم متلاقية متسامية عن الحجب، ثم يجلسون على سرر متقابلين، وما أحلى مقعدهم! ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

[٤٨] رابعاً: ليسوا بحاجة إلى إتعاب أنفسهم أو الخوف من المستقبل ﴿لَا يَمَسُّهُمْ

فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ ﴿٤٨﴾

النصب: التعب، وربما ارتبط التعب بالخوف من المستقبل في الآية، بسبب أن أكثر تعب الناس في الدنيا إنما هو للحرص على الدنيا، والخوف من المستقبل.

[٤٩] كم يبعث السكينة في النفس البشرية التي تعيش القلق على المستقبل المجهول، والخوف من آثار الأخطاء والذنوب حين يطمأنه رب العالمين بأنه هو الغفور الرحيم، بكلمات ملؤها الحنان فيقول: ﴿نِعْمَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

لقد أعلن الرب رسماً لمن وصفهم بأنهم عباده قد خلقهم رحمة بهم لأنه هو الغفور، يمحي آثار الذنوب الماضية، الرحيم يزيد من يتوب من رحمة.

[٥٠] ولكنه في ذات الوقت ينبغي أن يكون مرهوب الجانب ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

ضيف إبراهيم عليه السلام

[٥١] وكشاهد على ذلك، قصة ضيف إبراهيم عليه السلام، حيث جاءت الملائكة إبراهيم بالبشرى بينما حملت إلى قوم لوط العذاب الأليم ﴿وَنَبِّئْتَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾.

[٥٢] ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ ربما لأنهم جاؤوا في وقت غير مناسب، أو لأنهم لم يأكلوا من طعامه، وكانت العادة تقضي بأن من يأكل طعاماً في بيت لا يلحق بأهله أذى احتراماً للزاد والملح، فإذا لم يأكل يعتقد إنه ينوي شراً.

[٥٣] ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَالِمٍ﴾ فلقد جئتكم مبشرين لا منذرين، ونحن ملائكة ربك، والملائكة كما نعرف تتمثل في صورة بشر سوي كما تمثل لمريم.

[٥٤] وكان إبراهيم عليه السلام ينتظر بفارغ الصبر هذا الحدث السعيد، وقد أشرف على اليأس بسبب طول الانتظار، وها هو الرب يبشره ليس بالغلام فقط وإنما أيضاً بأنه صاحب فضل وعلم، وبالتالي هو الولي الذي ينتظره منذ وقت ليكون وارث علمه وهداه، ولأن إبراهيم فوجئ بالأمر فقد كان رد فعله الأولي التعجب والاستغراب ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ فأننا قد احتواني عمري الطويل، وقد شارفت على مرحلة الشيخوخة التي لا تقل عن المرض الذي يمس صاحبه. فكيف تبشرونني؟!.

﴿فَيَمَّ بَشِّرُونَ﴾ هل هذه مجرد أمانى وكلمات ترحاب يتبادلها الناس، أم وعد مؤكد من الله.

[٥٥] ﴿قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ﴾ ويأمر من الله، وليس مجرد أمنية حلوة نتمنى لك تحقيقها ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِيطِ﴾ ذلك أن رحمة الله واسعة، وتنزل على البشر بقدر أملهم في الله، وثقتهم فيه، فلماذا اليأس؟.

[٥٦] ونفى إبراهيم عليه السلام أن يكون تساؤله بسبب قنوطه ويأسه من رحمة الله، بل ربما كان بسبب عدم معرفة جدية البشارة، لذلك نراه يؤكد إن الضالين الذين لا يعرفون إحاطة الله بقدرته وعلمه ورحمته على الكون، هم وحدهم الذين يقنطون، فما دام ربك واسع الرحمة، قريب مجيب الدعاء، وقادر على كل شيء. فلماذا القنوط؟ ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

[٥٧] ولما اطمأنت نفس إبراهيم عليه السلام إلى أن ضيوفه ملائكة الله سألهم عن وجهتهم؟ ولماذا هبطوا إلى الأرض هل لمجرد بشارته، أم لأمر جليل؟.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ الخطب: الأمر العظيم.

[٥٨-٥٩] ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ وعرف إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة العذاب مبعوثون إلى قوم لوط وتساءل عن مصير لوط، فقالوا له: ﴿إِلَّا آءَالُ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هو ومن آمن معه من أهله وقومه.

[٦٠] وليس النجاة لآل لوط لأنهم يتسبون إليه - لأن عذاب الله أليم، ولا تحيد عن الظالمين -، بل آل لوط من آمن منهم، لذلك فإن امرأته جزاها الله بالهلاك لأنها ليست من آل ﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدْ رُنَّا إِنَّا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي الهالكين، وهو استثناء منقطع.

العذاب حصاد الظالمين

﴿ فَلَمَّا جَاءَ مَالُ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
 مُنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَاءٍ كَاثِرٍ فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣)
 وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ (٦٥) بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ
 وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٦)
 وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاهُ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٧)
 وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٨) قَالَ إِنَّ هَتُولَاهُ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ
 (٦٩) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنِ (٧٠) قَالُوا أَوْلَمْ تَنْهَكْ عَنِ الْعِلْمِ (٧١)
 قَالَ هَتُولَاهُ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ (٧٢) لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لِيَسْكُنَهُمْ يَوْمَهُمْ (٧٣)
 فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٤) فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهُمَا وَأَمْطَرْنَا
 عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ (٧٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٦)
 وَإِنَّمَا لِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَإِنْ كَانَ
 أَحْصَى الْآيَاتِ لَظَالِمِينَ (٧٩) فَاتَّقِنَا مِنْهُمْ وَإِنَّمَا لِيَا مَارِ مُبِينٍ (٨٠)
 وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ (٨١) وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا
 مُعْرِضِينَ (٨٢) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ (٨٣) فَأَخَذْتَهُمُ
 الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٤) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿

(١) منكرون: غير معروفين.

(٢) فأسر: الأسراء هو السير في الليل.

(٣) يعمهون: من العمه وهو أشد العمى.

(٤) للمتوسمين: المتوسم هو الذي يكشف الحقائق من خلال سماتها وعلائمها.

(٥) لسبيل مقيم: في طريق ثابت.

(٦) الأيكة: الشجر الملتف وجمعها إيك.

هدى من الآيات:

وجاء ضيوف إبراهيم إلى قرى لوط، فلما شاهدتهم لوط لم يعرفهم فقالوا نحن جئنا لتحقيق وعد الله الذي كانوا يشكون فيه، وهذا هو الحق ونحن صادقون فيه، وأمروه بأن يخرج من قريته ليلا هو وأهله وليكن خلف أهله يشيعهم، ولا يلتفت أحد منهم إلى ما وراءه، وليمضوا إلى حيث يأمرهم الله دون تردد، وقد نزل بقومه قضاء الله الذي قرر أن يهلكهم دون أن يبقى منهم أحد يحفظ سلالته. هذا من جهة، ومن جهة ثانية حين اكتشف أهل القرية وجود الضيوف، جاءوا يستبشرون ليفجروا بهم، فتصدى لهم لوط وقال: بأن هؤلاء ضيفي فلا تفضحوني في ضيفي واتقوا عذاب الله، ولا تجلبوا الخزي علي. أما هم فقد استمروا في غيهم، وقالوا: نحن لا نقبل جوارك لأننا قد نهيناك سابقا عن استقبال الضيوف وإجارتهم، فعرض عليهم النكاح من بناته والإستغفاف بهن عن الفاحشة، ولكنهم كانوا لا يزالون في سكرتهم يعمهون.

وهكذا أخذتهم الصيحة في وقت الشروق، وجعل الله عالي القرية سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، وإن قصة هؤلاء عبرة لمن ينتفع بالعبر، وإنها لعبرة قائمة ولكن ليس كل شخص يستفيد من العبرة إلا المؤمنون!

ومثل لوط قوم شعيب وهم أصحاب حقول مزروعة انتقم الله منهم، وكانت قريتهم في موضع يؤمه الناس.

وأصحاب الحجر كذبوا بدورهم المرسلين، وكلما أتاهم الله من آياته أعرضوا عنها، وأخذوا ينجسوا من الجبال بيوتا آمنين فيها، فنزل عليهم عذابا لله حيث أخذتهم الصيحة في وقت الصباح، فهل منعت بيوتهم عنهم شيئا من العذاب. كلا..

بينات من الآيات:

وجاء الضيوف

[٦١] جاء ضيف إبراهيم إلى قرى لوط حيث كان يقطنها مجموعة من المجرمين، وقطاع الطرق.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ والتغير بكلمة ﴿آل﴾ يدل على أن نظامهم كان عشائريا، شأن سائر القبائل العربية آنذا.

[٦٢] فلما رأهم وقد جاؤوا إليه بهيئة شباب عليهم مسحة من الجمال والجلال فسألهم بعد أن استضافهم ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّتَكَبِّرُونَ ﴾ فليست من أهل المنطقة، ولكي لا يمسهم قومه بسوء لذلك أجارهم على عادة القوانين الشائعة في قومه التي ينبغي أن يأخذ المؤمن الرسالي بأفضلها وأنفعها.

[٦٣] أفصحوا عن أنفسهم وبينوا أنهم ملائكة الله، وقد جاؤوا بالعذاب الذي شكك قومه فيه أنفسهم طويلاً. فهذا هو العذاب يأتيهم ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَآ كَانُوا فِيهِ يَسْتَمِرُّونَ ﴾.

[٦٤] وكانت المفاجأة، وارتسمت على وجه لوط علائم الاستغراب وعاد الملائكة يؤكدون على أن ميعاد العذاب قد حان اليوم بلا شك ﴿ وَأَيُّنَّاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾.

[٦٥] ثم أمروه بالرحيل، وهجرة الصالحين، ونزول العذاب على الآخرين وكانت الهجرة سرية ربما خوفاً من منع الناس لهم، وكان المفروض على لوط أن يسير خلفهم ويشهد تحركهم لكي لا يبقى أحد منهم.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ يبدو أن لوطاً أثر فقط في أهله بينما بقي الآخرون على فسادهم ﴿ وَأَتَّبِعْ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ أي اقضي أثرهم ولأن الهجرة كانت صعبة لذلك جاءهم الأمر، ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أي لا ينظر إلى ما وراءه، ﴿ وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ واستمروا من دون تردد أو تراجع، وهكذا ينبغي أن يهاجر الرسالي قومه بعد يأسه منهم دون شفقة عليهم أو حنان، أو ميل إلى ما يخلفه فيهم من مال أو أقارب.

[٦٦] وقضى الله، وأخبر لوطاً بقضائه بذلك الأمر الخطير، وهو الحكم بالإعدام الكامل لسلالة تلك العشيرة الفاسدة ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْكَ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَذِهِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ فلا أحد يبقى منهم ليستمر نسلهم فيه حتى زوجة لوط التي كانت منهم هلكت معهم حيث حنت على قومها، والتفت إلى ما ورائها من أهل ومتاع. وهكذا تجسد الحق في انتقام شديد من قوم فسدوا ولم ينفعهم الإصلاح شيئاً.

[٦٧] هذه صورة من المشهد، أما الصورة الثانية فإن أهل المدينة استبشروا بالضيوف، لأنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمر عليهم، وكان موقعهم الجغرافي يساعد على هذه الفعلة حيث كانوا على الطريق الرئيسي الذي يربط المدينة بالشام^(١).

﴿ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

(١) راجع علل الشرائع للشيخ الصدوق: ج ٢ ص ٥٤٨ عن الإمام الباقر عليه السلام.

المسؤولية الاجتماعية

[٦٨] فتلقاهم لوط عليه السلام بالنصيحة، وأجار الضيوف ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ وكان الاعتداء على الضيف بمثابة الاعتداء على من هو في بيته في عرف تلك القبيلة الصحراوية.

[٦٩] ثم نصحهم أكثر فأكثر ودعاهم إلى الحذر من عذاب الله، وبيّن أن الاعتداء على ضيوفه يلحق الخزي به، وهو لذلك يدافع عن شرفه إذا تعرض ضيوفه لأذى ﴿ وَأَنْقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنِ ﴾.

[٧٠] أما هم فقد رفضوا قبول إجارة لوط عليه السلام، لأنه كان يفعل ذلك دائما، فكلما دخل قريته غريب استضافه حتى لا يصاب بأذى من قبل قومه، وكانوا قد أكدوا عليه ألا يقبل بعدئذ أي ضيف.

﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ ونستوحي من هذه الآية أمرين:

الأول: إن القبيلة العربية فقدت مع الزمن خصائصها الإنسانية كإجارة الضيف، ولم تبق فيها بقية من قيم يتشبث بها الضعيف والغريب.

الثاني: إن لوطاً عليه السلام ضحى بكل ما يملك من أجل الضعفاء، هكذا ينبغي ألا يكتفى بترداد شعار الدفاع عن المحرومين، بل لابد أن يدعم بالعمل الواقعي.

[٧١] وبلغ الأمر بلوط عليه السلام أن عرض على قومه التزوج ببناته لكي لا يتعرضوا لضيوفه بأذى.

﴿ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ ويبدو أن توجيه لوط عليه السلام إلى البنات كان يهدف بالإضافة إلى ما قلنا: تذكير قومه أن السبيل القويم لإفراغ الشهوة الجنسية هو السبيل الفطري الذي يحافظ على النسل، وليس الشذوذ الجنسي، ومن هنا يكون حديثه شاملا لبناته من صلبه، وبنات قومه باعتباره شيخا، أو قائدا يعتبر كل الفتيات بناته.

[٧٢] ولكنهم كانوا مترفين قد أسرفوا في الشهوات حتى أسكرتهم الغريزة الجنسية فلم يعودوا يفرقون بين الإناث والذكرا، ولا بين الغريب والضيف والمستجار وبين قومهم.

﴿ لَعَنَّاكَ إِنْهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي قسما بحياتك يا رسول الله، وأنت يا من تتلو القرآن إن قوم لوط عليه السلام قد فقدوا أبصارهم بسبب سكرة الشهوات، والعُمر والعُمر بمعنى

واحد ولكن عند الحلف يستخدم عَمُر بالفتح.

[٧٣] عندما لم يبق أمام لوط عليه السلام أي حل، ركن إلى الله ذلك الركن الشديد فكشفت الملائكة عن حقيقتهم له، وطمأنوا لوطا عليه السلام بأنهم لن يصلوا إليه، وجرى بينهم وبين لوط عليه السلام الحوار الذي بينه السياق.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ عند الصباح، حين لم يستطيعوا أن يردوا عن أنفسهم البأس.

[٧٤] وقلب الله مدينتهم على رأسهم ﴿ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ والسجيل: حجارة وطين، وقال أبو عبيدة: هو الحجارة الشديدة ^(١).

[٧٥] وها هي بلادهم مهدمة، فمن يعتبر منها؟ بالطبع ليس كل الناس بل المتوسمون منهم فقط الذين يكتشفون الحقائق من خلال سماتها وعلائمها ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أما الذين يجمدون على ظواهر الأمور، وينظرون إلى ركام الصخور دون أن يتفكروا أنها كانت في يوم بيوتنا معمورة فما الذي جعلها هكذا، فهم لا يعتبرون من قصص قوم لوط.

[٧٦] ﴿ وَإِنَّمَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ قال الطبرسي: «معناه إن مدينة لوط بطريق يسلكها الناس في حوائجهم، فينظرون إلى آثارها ويعتبرون بها لأن الآثار التي يستدل بها مقيمة ثابتة بها وهي مدينة سدوم» ^(٢).

ويبدو أن ضمير ﴿ وَإِنَّمَا ﴾ يعود إلى الآيات، فمعناها إذن: أن الآيات قد وضعت معالم على طريق ثابت، وثبات الطريق وضوحها، ولذلك جاء في الحديث المأثور عن أهل البيت: «وَالسَّبِيلُ فِينَا مُقِيمٌ» ^(٣).

[٧٧] ولكن لا يسلك هذا الطريق إلا المؤمنون، وهم من المتوسمين حقا لأن الإيمان بصيرة المرء، من خلالها ينظر إلى الحقائق الظاهرة فيؤمن بها ورائها من حقائق واقعية ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ومن هنا جاء في الحديث: «اتَّقُوا قِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ» ^(٤).

(١) مجمع البيان: ج ٥ ص ١٨٣.

(٢) مجمع البيان: ج ٦ ص ٤٤٤.

(٣) الكافي: ج ١ ص ٢١٨.

(٤) الكافي: ج ١ ص ٢١٨.

أصحاب الأيكة تحت الغمام

[٧٨] هناك شاهد تاريخي آخر نجده في أصحاب الأيكة الذين اتاهم الله حقولا مزروعة فظلموا أنفسهم ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ظَالِمِينَ﴾.

[٧٩] وأصبح ظلمهم ظلمات عليهم، فعاقبهم الله بالحر سبعة أيام ثم جاءت سحابة استظلوا بها يلتمسون البرد فيها، فلما تجمعوا تحولت إلى صاعقة أحرقتهم جميعا ﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وبقيت لنا عبرتهم وعبرة قوم لوط، ألا وهي: إن تدبير الحياة يتم مرة بالرحمة ومرة بالانتقام فلا ينبغي الركون إلى النعمة، إنما يجب الحذر باستمرار من يوم الانتقام وها هي قصص قوم لوط وأصحاب الأيكة ظاهرة، وأثارها قائمة في طريق واضح يؤمه الناس ﴿وَلَا تُهْمَا لِيَأْمُرَ مُبِينٌ﴾ ويبدو أن معناه: إن قوم لوط وأصحاب الأيكة كانا مع إمام واضح، من رسول وكتاب، فلم نعذبهما من دون إنذار مسبق.

أصحاب الحجر الأمن الحجري

[٨٠] وشاهد ثالث من واقع أصحاب الحجر وهم ثمود الذين كذبوا أخاهم صالحا وكذبوا من ورائه كل الرسالات والرسل. إذ لا ينفع الإيمان برسول مضى والكفر بهذا الرسول ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ وججر اسم مدينتهم.

[٨١] ولقد وفر الله لهم سبل الهداية ولكنهم أعرضوا عنها عمدا ﴿وَأَيُّنَّهُمْ أَيُّنَّا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

[٨٢] كل ذلك ثقة بحضارتهم وبالمصلحة التي شعروا بها في ظل البيوت الصخرية العالية التي نحتوها من الجبال ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾.

[٨٣] ولكن الصيحة العالية التي أخذتهم كشفت عن مدى خطئهم، وإن البيوت لا تعوض عن القيم، كما أن القوة لا تحمي الشخص عن انتقام الحق ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾.

[٨٤] ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فهل استطاعت مكاسبهم المادية أن تمنع عنهم العذاب الذي لحقهم بسبب كفرهم بالحق وبالقيم الإلهية؟!.

إذن مقياس الأمن ليس القوة بل الحق لأن بناء السماوات قائم على أساس الحق حسبما يأتي في الدرس القادم إن شاء الله.

فاصدع بما تؤمر

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ٨٦ وَلَقَدْ مَآبِتُكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ٨٨ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ٨٩ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ٩٠ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٩٣ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ٩٤ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ٩٥ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٩٦ وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ٩٨ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَقَّ بَأْيِكَ الْيَقِيثُ ٩٩﴾

هدى من الآيات:

لأن الحق هو محور السماوات والأرض وبه خلقن، فإن الإنسان لا يبقى بلا جزاء، وإن لم ير جزاءه في الدنيا كقوم لوط وثمود وأصحاب الأيكة، فإنه سيراه في الآخرة التي لا ريب من مجيئها، ولماذا الضجر؟ دع الكفار يعملون ما يشاؤون. استقم في طريقك ما دام الله هو الخلاق العليم، خلقهم هكذا ليعتليهم، وارضى يا رسول الله، وأنت يا من تبعته بالقرآن المتشابهة آياته، لا تشغل نفسك بما يملكون من نعم متشابهة، واترك الاهتمام بالكفار وركز نظرك واهتمامك بالمؤمنين، ويكفيك بالنسبة إلى الكفار أن تنذرهم.

وكما أنذر الله الذين اقتسموا القرآن جزءاً جزءاً فطبقوا منه ما وافق أهواءهم، وتركوا

الباقى، فهل يحسبون أنهم يُتركون هكذا. كلا.. بل سوف يسألون جميعا عما عملوا، فأبلغ رسالتك حسبا أمرت واترك المشركين والذين يستهزؤون منهم، يكفيك ربك شرهم؛ والمشركون هم الذين يتخذون لها آخر غير الله، وفي المستقبل يُجازون بأفعالهم.

ولكى يزيدك الله سعة في الصدر تقابل بها استهزاءهم فسبح بحمد ربك واسجد له، واستقم في العبادة حتى تحصل على أفضل يقين بالعبادة الدائمة حتى الموت.

وهذه خلاصة عبرة سورة حجر التي ذُكرت بمصير المستهزئين في الدنيا، واستقامة الرسل، وعدم تزلزلهم بأقوالهم، وينبغي أن يكون كل ذلك وسيلة لهداية المؤمنين أيضا.

بيانات من الآيات:

[٨٥] تكفينا نظرة عميقة إلى الطبيعة من حولنا لنعرف أن كل شيء خلق بحكمة وبهدف ولأجل محدود، وهذا يهدينا إلى الحكمة من خلق الإنسان.

ونتساءل: إذا كان خلق البشر أيضا لحكمة، وإذا كان الإنسان محكوما بسنة الحق كما الكون من حوله، فلماذا يكتسب بعض الناس الجرائم دون أن يُعاقبوا، ويأتي الجواب:

لأن الله قد وعد أن يأتي يوم الجزاء بعد يوم الابتلاء، إذن ينبغي ألا يضيق صدرنا بما يفعله الكفار، بل نتركهم بعد أن نذرهم وبعد أن نهتم بشؤون المؤمنين من الناس ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَأَصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ بل، إذا تكتل المشركون وأرادوا منع المؤمنين من أداء فرائض دينهم، ومنع المستضعفين من الإيمان، فإن الله يأذن للمؤمنين بالجهاد، كما قال تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

الصفح: هو الإعراض، والإعراض الجميل هو الذي يسبقه الوعظ والإرشاد، ويلحقه التمني بالهداية.

[٨٦] والله هو الذي خلق الكون والإنسان هكذا لحكمة، فلا يجوز أن أهلك نفسي من أجل الناس أو جبرهم على الإيمان. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾.

السبع المثاني

[٨٧] المشركون يملكون ألوانا من النعم المادية من الأموال والأولاد والزينة والقوة،

ونحن بدورنا نملك ألوانا من النعم المعنوية، فلا سبب يدعونا إلى محاربتهم للحصول على ثرواتهم لأننا أغنياء بثروتنا المعنوية.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ لقد فسروا (السبع من المثاني) بأنها سورة الحمد لأنها تحتوي على سبع آيات وذكرت فيها المترادفات أو المتقابلات مثل ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]، أو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، إذن فهي مثاني، أي تحتوي آياتها مثني مثني.

ويبدو أن القرآن الحكيم قد نزل على سبعة أحرف، أو بتعبير آخر على سبعة أبواب للعلم تتلخص في سورة الحمد، التي احتوت على معاني القرآن الحكيم بإيجاز، وتبين في سائر آيات الذكر بتفصيل.

وإذا كان نور القرآن يشع من مشكاة واحدة دون اختلاف أو تناقض، فإن آياته متشابهة وهي مثاني، كما إن نعم الكفار ذات ألوان وهي أزواج. بعضها يزين بعضها، وآيات القرآن بعضها يفسر بعضها.

ويظهر من هذا البيان إن القرآن العظيم هو السبع المثاني ولا منافاة بين التفسيرين. التفسير الذي يقول: إن معنى المثاني هو الحمد، والتفسير الذي يقول أنه القرآن كله لأن القرآن كله قد أوجز في تلك السورة.

[٨٨] والمؤمن يستغني بما لديه من ينابيع المعرفة، عما يملكه الآخرون من متع الحياة الدنيا، فلا يطيل النظر فيما يملكه أولئك من زهرة الحياة الدنيا.

﴿لَا تَعْدَنَّ عَيْنُكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ قال في الميزان: «المراد بالأزواج: الأزواج من الرجال والنساء، أو الأصناف من الناس كالوثنيين واليهود والنصارى والمجوس والمعنى لا تتجاوز عن النظر عما انعمنا به عليك من النعم الظاهرة والباطنة إلى ما مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا قَلِيلَةً أو أصنافاً من الكفار»^(١).

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ فلا تأبه بكفرهم لأن من يبالغ في الاهتمام بالكفار قد يقع في بعض الأخطاء.

أولاً: قد ينشغل بذلك عن الاهتمام الجدي بالفتة المؤمنة، والسعي وراء تربيتهم وتعبئة طاقاتهم، كالذي يؤتبه الله أرضاً، فلا يشكر الله عليها، ولا يحرقها بل يفكر أبداً بتلك الأرض

(١) تفسير الميزان: ج ١٢ ص ١٩٢.

الأخرى التي لم يحصل عليها، ويحزن عليها.

ثانياً: قد يدعو ذلك الحزن إلى محاولة إكراههم على الإيمان بصورة أو بأخرى مما يتنافى وسنة الاختيار، وقد يتم ذلك عن طريق التنازل عن بعض أركان الدين كما فعلت الكنيسة في بعض عصورها فحرفت تعاليم السماء رغبة في توسيع رقعة نفوذها والحصول على المزيد من الأتباع.

﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى الرفق بهم، والاهتمام بشؤونهم: «والأصل فيه أن الطائر إذا أراد أن يضم إليه أفراده بسط جناحه عليها ثم خفضه لها»^(١).

التجزيئون في الميزان

[٨٩] ويقدر ما يهتم الرسول بالمؤمنين ينذر الكفار لشؤونهم، ويكتفي بإبلاغهم لأن الإيمان أو الكفر لا بد أن يكونا بحرية الفرد التامة ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾.

[٩٠] وينذر الرسول كل الناس، بعذاب شديد لو تركوا القرآن أو قسموه أقساماً، فتركوا جزء منه ذلك الذي يخالف هواهم ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ أن أنزل العذاب عليهم.

[٩١] أما المقتسمون فهم الذين فرقوا دينهم وهم: ﴿الَّذِينَ جَمَعُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ عَضِينَ جمع عضة، وأصلها عضة فنقضت الواو ولذلك جمعت عَضِينَ، مأخوذ من الأعضاء، يقال: عَضِيت الشيء أي فرقته وبعضته.

والسؤال: من هم هؤلاء؟

قال بعضهم: إنهم اليهود والنصارى قبل الإسلام الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، كل حزب بما لديهم فرحون، والمراد من القرآن هو كتاب الله.

بينما قال البعض: إن طائفة من قريش قسموا القرآن فقالوا: هذا سحر - هذا كذب - هذا شعر، وكانوا يتشرون في شعاب مكة يضلون الناس عن القرآن، فعذبهم الله، وأهلكهم جميعاً.

ويبدو أن التفسير الأول أقرب، بالرغم من أن القرآن مثله كمثل الشمس يجري في عهد

(١) تفسير الميزان: ج ١٢ ص ١٩٢.

اليهود والنصارى، كما يجري في عهد المسلمين الأول في أولئك المستهزئين، وفي عهدنا يجري في أولئك الذي يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون بينما القرآن نزل مثاني تقشعر منه جلود الذين آمنوا، وكله من عند الله.

[٩٢-٩٣] ولكن هل يترك هؤلاء. أم هل يكفي ربنا بعذابهم في الدنيا. كلا.. بل إن لهم يوما للحساب طويلا ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

[٩٤] أما أنت يا رسول الله فعليك بالإنذار بكل وضوح ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ ولا تخشاهم ولا تأبه بهم ولا تحاول أن تسترضيهم بإخفاء بعض الكتاب وإظهار بعضه، ومعنى الصدع الجهر بالحق، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

[٩٥] وأكثر ما يؤلم الداعية ويشير أعصابه، ويستقطب اهتمامه هم المستهزؤون الذين يستخفون بالرسالة والله سبحانه وعد أن يكفي رسوله والدعاة إلى الله شر هؤلاء ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ في التفاسير أنهم كانوا في عهد الرسول «خمسة نفر من قريش»^(١) أو ستة^(٢) فأهلكهم الله عن آخرهم.

[٩٦] وهم في الواقع لا يستهزؤون بك إنما هم مشركون، وهم أعداء الله ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ فمشكلتهم ليست معك لذلك لا يضيقن صدرك بأقوالهم.

حين يضيق صدرك

[٩٧] ولكن الرسول بشر، وكان ﷺ يحب رسالته ويتفانى من أجلها، فلم يكن من السهل عليه أن يسمع استهزاءهم لذلك سلاه ربه سبحانه قائلا: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

[٩٨] وأمره بأن يسبح الله كلما ضاق صدره فإنه منزّه عن أقوالهم ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ التسبيح إشارة إلى أسماء الله الجلالية، والحمد إشارة إلى أسمائه الكمالية. على المؤمن أن ينزه الله عن الضعف والعجز والموت والغفلة... كما يذكره بانه الحي القيوم العليم القدير...

﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ لله بالصلاة، وكلما سجد العبد لربه كلما تعالى عن التأثير باذى

(١) تفسير مجمع البيان: ج ٦، ص ٤٤٩.

(٢) راجع تفسير التبيان للطوسي: ج ٦، ص ٣٥٦.

الكفار، واستهزأ بهم.

[٩٩] ولكي يحصل الداعية على أعلى مراتب القرب والزلفى لا بد أن يديم العبادة لله ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَقَّ يَأْنِيكَ الْيَقِينُ﴾ فلا أجل للعبادة الا لقاء الله، وأفضل تطلع للإنسان المسلم أن يختم حياته بخير وقد وصى يعقوب بنيه قائلا: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وسمى الموت باليقين لأنه يكشف للبشر الحقائق العارية حتى يحصل منها على يقين كامل، والخطاب ليس فقط للرسول بل لكل قارئ. أو لم ينزل القرآن على لغة «يَا أَيُّهَا أَغْنِي وَاسْمِعِي يَا جَارَةٌ»^(١).

(١) الكافي: ج ٢، ص ٦٣٠. عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «نَزَلَ الْقُرْآنُ ...».

سُورَةُ النَّحْلِ

• مَكَّة.

• عدد آياتها: ١٢٨.

• ترتبها النزولي: ٧٠.

• ترتبها في المصحف: ١٦.

• نزلت بعد سورة الكهف.

_____ فضلُ السُّورة _____

عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ النَّحْلِ فِي كُلِّ شَهْرٍ كُفِيَ الْمَغْرَمَ فِي الدُّنْيَا وَتَسْبِعِينَ نَوْحاً مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ أَهْوَتْهَا الْجُنُونُ وَالْجُذَامُ وَالْبَرَصُ وَكَانَ مَسْكَنُهُ فِي جَنَّةٍ عَذْبٍ وَهِيَ وَسَطُ الْجَنَّةِ».

(وسائل الشيعة: ج ٦ ص ٢٥١)



عن النبي محمد ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَهَا لَمْ يُحَاسِبْهُ اللهُ تَعَالَى بِالنِّعَمَةِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا وَأَعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ كَالَّذِي مَاتَ فَأَحْسَنَ الْوَصِيَّةَ وَإِنْ مَاتَ فِي يَوْمٍ تَلَاهَا أَوْ لَيْلَتِهِ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ كَالَّذِي مَاتَ وَأَحْسَنَ الْوَصِيَّةَ».

(مستدرک الوسائل: ج ٤ ص ٣٤٣)

الإطار العام

آفاق التعامل مع النعم الإلهية

لأن هذه سورة تذكرنا بنعم الله، فقد سميت بسورة النعم عند البعض، وسورة النحل عند الآخرين، فإن الإطار العام للسورة - كما يبدو لي - هو كيف نتعامل مع نعم الخالق؟ وجملة القول في ذلك:

- ١ - ضرورة توحيد الله، ونفي الشركاء عمن أنعم علينا.
 - ٢ - تكميل نعم الله التي لا تحصى بأعظم نعمة، وهي الوحي والرسالة.
 - ٣ - الالتزام بحدود الله في الاستفادة من هذه النعم (التقوى).
- كل ذلك يجعلنا من أتباع النبي إبراهيم الخليل عليه السلام الذي كان شاكراً لأنعم الله.
- وتكاد (الآيات: ١-٩) تذكرنا بكل موضوعات السورة جملة واحدة.

وتستوقفنا للتدبر في الآية الثانية، حيث ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ وهكذا تذكرنا بالوحي والتوحيد والتقوى، وهي الموضوعات الرئيسية في السورة، والتي يريدنا الذكر الحكيم أن نستفيد منها من نعم الله ونجعل الإيمان بها شكراً عليها.

ثم تذكرنا بآيات الله، تمهيداً لذكر النعم وأعظم الآيات خلق السماوات والأرض، ثم خلق الإنسان من نطفة، وخلق ما يحتاجه من الأنعام..

وبعد ذكر أهم المنافع للأنعام تبين (الآية: ٩) أن السبيل القويم للحياة الطيبة، وبالتالي لطريقة الانتفاع بنعم الله، إنما هو السبيل الذي يهديننا إليه الله سبحانه، أما السبيل الأخرى فهي جائرة. وهكذا يصل السياق بين نعمة الوحي وسائر النعم باعتباره متمماً أساسياً لها.

وفي (الآيات: ١٠-١٨) يذكرنا الرب بنعم الماء والزرع والثمرات، وكيف سخر لنا الشمس والقمر، وسخر البحر، وما فيه من نعمة الأسماك والطرق البحرية للتجارة، ونعمة الجبال وما فيها من فائدة حفظ الأرض ومخازن الماء وكيف جعل النجوم علامات.

ويأمرنا بالتفكير والتعقل والتذكر والشكر لعلنا نتهدي إلى حقيقة التوحيد، وأن الله الذي يخلق ليس كالشركاء الذين لا يخلقون.

وتتابع (الآيات: ١٩-٢٩) التذكرة بالخالق الذي يحيط بنا علمه، وأن علينا الخشية منه، والأل نستكبر أو نستنكف عن عبادته سبحانه، لأنه يعلم ذلك منا، وأنه لا يحب المستكبرين.

ويحذرننا من إنكار الرسالة، ويذكرنا بمصير المستكبرين كيف أتى الله بنيانهم من القواعد فإذا بالسقف ينخر عليهم في الدنيا، أما في الآخرة فلهم الخزي والنار، وأنهم أسلموا حين جاءهم ملائكة الموت فأدخلوهم جهنم لأنهم تكبروا.

أما المتقون، فإن موقفهم من الرسالة هو أنها خير، حيث تهىء منهاج الإحسان الذي يؤدي إلى الحسنات في الدنيا، وإلى جزائهم الأوفى في الآخرة، حيث يستقر المتقون فيها بسلام (الآيات: ٣٠-٣٢).

ولا يهتدي الكفار بعقولهم، بل ينتظرون هبوط الملائكة لينظروا إليها بأعينهم، أو نزول العذاب الذي يُنذرون به (الآيات: ٣٣-٣٤).

ومن الكفار من يبرر إنحرافه الفكري والسلوكي بالفكرة الجبرية، ويقول: لو شاء الله لمنعنا عن عبادة الشركاء، وهذا تبرير قديم، ولا يسع الرسل سوى البلاغ الواضح، وبعدئذ تبقى لهم حريتهم واختيارهم. والله لم يأمر بعبادة الطاغوت، بل بعث الأنبياء لخلاص الناس من الطاغوت فمنهم من استجاب لدعوة الرسل فهدى ومنهم من لم يستجب فأضله الله (الآيات: ٣٥-٣٧).

ويستمر السياق (الآيات: ٣٨-٤٠) في معالجة حالة الاستكبار (ولعلها أعظم عقبة في طريق الإيمان بالوحي)، وذلك بالتذكرة بالبعث، وكيف أن الهدف منه بيان الواقع الذي يتمثل في كذب الكفار.

وفي (الآيات: ٤١-٤٢) يذكرنا الرب بأجر المهاجرين، لماذا؟ لينبهنا إلى ضرورة مقاومة الاغترار بالنعم، إذا خير المؤمن بينها وبين الحق.

ويعود في (الآيات: ٤٣-٤٤) يذكرنا بالوحي، وكيف أن النبي ليس بدعاً من الرسل،

فاسألوا أهل العلم الذين أحاطوا علماً بالبينات والزبر، والقرآن ذكر أنزل على رسول الله ﷺ بهدف توضيح وتكميل الرسالة التي نزلت على الناس بشكل تدريجي، والغاية الأسمى لها إثارة عقولهم وتحريضهم على التفكير.

ومرة أخرى (الآيات: ٤٥-٥٥) يذكرنا الله سبحانه بأن الذين مكروا السيئات لا أمان لهم من مكر الله. ولعل ذلك لكي يعالج غرور الاستكبار في النفس. ثم يذكرنا بأن كل شيء في الطبيعة يسجد لله سبحانه، وأن الملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله، بل يخافون ربهم، وأن الله قد نهى عن اتخاذ شريك له، وأمر بالخوف منه وتقواه. أو ليست النعم منه؟ وإذا فقدنا منها شيئاً أولسنا نجار إليه؟ ومع ذلك يشرك كثير من الناس بالله بعد أن يكشف عنهم الضر.

ويستمر السياق في تسفيه فكرة الشرك، والاعتقاد بأن النعم من غير الله، ونسبة الأمثلة السيئة إلى ربهم سبحانه، كأن يكرهون البنت ولكنهم يزعمون أن الله البنات سبحانه.

كلا؛ لله المثل الأعلى، وللمشركين مثل السوء، وأن لهم النار، وأن الشيطان وليهم.

ولعل (الآيات: ٥٦-٦٣) تهدينا إلى ضرورة التسليم بأن النعم من الله، وعدم الانبهار بالنعم، وبمن يملك النعم من البشر، أو بما هي وسيلة للنعم من مصادر الطبيعة، لكي لا ييهبط الإنسان إلى حضيض الشرك، فينسى أن المثل الأعلى لله سبحانه.

وهكذا (الآيات: ٦٤-٧٤) فهي في الوقت الذي تذكرنا بأن الرزق والوحي من الله، تبين لنا مجموعة من النعم؛ مثل الماء الذي ينزله الله من السماء فيحيي به الأرض، ويرزقنا شراباً لذيذاً من بين فرت ودم لبناً خالصاً، ويرزقنا السكر من ثمرات النخيل والأعناب، ويرزقنا شراباً ثالثاً من النحل فيه شفاء للناس.

تلك نعم الله، فلماذا نشكر غيره أو نعبد سواه؟ ويقلب الله البشر من حياة إلى موت، وربما إلى هرم ويفضل بعض الناس في الرزق، فهل نعبد سواه، وهل يملك الرزق غيره؟ وهو الذي جعل للناس من أنفسهم أزواجاً وأولاداً وحفدة، ورزقهم من الطيبات، فلماذا يكفرون بنعمه ويعبدون غيره وهو لا يملك رزقاً، أو يقرنوه بسواه ويضربون له الأمثال سبحانه؟.

ويبدو أن الآيات هذه تخفف من (سورة) الانبهار بنعم الله لكي يخلص المرء لربه عبادته ويمنحه حبه.

كذلك (الآيات: ٧٥-٨٣) تذكر الناس بأن الله وحده يملك ناصية الأقدار، بينما الشركاء المزعومون هم كعبد مملوك لا يقدر على شيء، فمن هو أحق بالعبادة؟ وأن الله يملك

غيب السماوات والأرض، كما يملك أمر الساعة، وهو الذي أنعم على البشر بالعلم بعد أن خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وهذه الطيور في جو السماء ما يمسكهن إلا الله.

هكذا الولاية لله، وأنه السلطان القائم بأمر العالمين. وهكذا نعم السكن الدائم أو المتنقل كالخيم، ونعمة الأثاث والمتاع ونعمة الظلال والأكتان والثياب أيام السلم، والدروع للحرب، أو ليست من تمام نعمة الله؟ فلماذا الكفر وإنكار نعمة الله؟.

ويستمر السياق القرآني عبر (الآيات: ٨٤-٨٩) ينذر الكفار والظالمين والمشركين الذين يعبثون، ولا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون، ولا ينقذهم شركاؤهم، وألقوا جميعاً السلم إلى الله، بيد أن كبراءهم أشد عذاباً. ويؤكد السياق على شهادة الرسول هنالك، وأن الكتاب لا بد أن يقرن بالشاهد على الناس، وأنها لن يفرقا.

ويعود القرآن الكريم في (الآيات: ٩٠-٩٧) يبين واحدة من أهم نعم الله، وهي الكتاب الذي أوحاه الرب لعبده ليتم نعمته على الناس، ويبين السبيل إلى الانتفاع بالنعم. وجملة القول في تنظيم الحياة حتى تكون طيبة؛ هي العدل، والإحسان، وإيتاء حقوق ذوي القربى، واجتناب الفحشاء والمنكر والبغي، وهكذا الوفاء بعهد الله والالتزام بالإيمان. (ويشدد عليها القرآن تأكيداً وربما لأنها أهم منظم للعلاقات الاجتماعية). ورعاية التساوي أمام القانون، لكي لا تستضعف طائفة طائفة ثانية، لما تعتقد أنها أرفع شأناً منها، واجتناب استغلال اليمين استغلالاً سيئاً، ثم الصبر (ولعله لمقاومة إغراء الشهوات).

ويشجع السياق العمل الصالح، لأنه مفتاح الحياة الطيبة. وهكذا يبين الكتاب منهاجاً كاملاً للحياة الطيبة..

ولكن كيف نستفيد من القرآن؟ لأن الشيطان قد يغويننا عنه، أو يجعلنا نحرف آياته، فإن (الآيات: ٩٨-١٠٥) تبين لنا منهاجاً لفهم القرآن:

أولاً: بالاستعاذة بالله حين قراءته من الشيطان.

ثانياً: بالتسليم لكل آياته، لأن روح القدس قد نزل به بأمر الله فلا اختلاف ولا نقص فيه، وشبهات الكفار مرفوضة حيث قالوا بأن رجلاً أعجمياً يعلم الرسول هذا القرآن الذي هو قمة البلاغة.

ثالثاً: اجتناب الاقتراء على الله (الكذب).

إن السبيل إلى الإيمان هو التعالي عن الحياة الدنيا واستحباب الآخرة عليها. وهكذا

تكون النعم في الدنيا نافعة لمن ملكها، وأما من ملكته النعم واستحب الحياة الدنيا على الآخرة، فإن الله لا يهديه، لأنه يكفر بالله وبرسالته.

هكذا تبين (الآيات: ١٠٦-١١٣) الموقف السليم من نعم الله. ويبدو أن الذين يستحبون الحياة الدنيا ويفضلون نعمها على نعم الله في الآخرة هم الذين يشرحون للكفر صدراً، فيسلب منهم الرب أدوات الوعي وأولئك هم الغافلون.

أما من يسمو بنفسه عن الدنيا، ويهاجر بعد أن يُفْتَنَ في الله ويجاهد ويعبد ربه، فإن الله بعدها لغفور رحيم.

إن تساميه عن الدنيا ينفعه يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها.

وإن الكفر بالله يسلب النعم في الدنيا أيضاً، كما ضرب الله مثلاً قرية أسبغ الله عليها نعمة الأمن والرزق فلما كفرت أذاقها الله لباس الجوع والخوف.

وهكذا جزاء من امتلكته الدنيا ولم يستمع لنداء الرسول، وبالتالي لم يستفد من نعمة الوحي التي تحافظ على سائر النعم.

وهذا لا يعني أبداً ترك نعم الله. كلا؛ بل يعني:

أولاً: تنظيم العلاقة معها، بحيث لا تنسينا ذكر الله.

ثانياً: تنظيم الاستفادة منها كما أمر الله.

وهكذا تبين (الآيات: ١١٤-١١٩) حدود الله في الانتفاع بنعمه، وهذا بعد من أبعاد التقوى التي جاءت الآيات الأولى في هذه السورة لتأمرنا بها.

علينا ألا نحرم الطيبات على أنفسنا، بل نأكل منها ونشكر الله عليها.

أما المحرمات؛ فهي الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به (إلا عند الاضطرار).

وحرام الافتراء على الله، والكذب عليه بأن هذا حلال وهذا حرام.

أما اليهود؛ فقد ظلموا أنفسهم فحرم عليهم أشياء بسبب ظلمهم.

أما رحمة الله على هذه الأمة فهي واسعة، حيث أن الله رفع القلم عن عمل سوء أجهالة ثم تاب وأصلح.

ويعطي القرآن الكريم وعبر (الآيات: ١٢٠-١٢٣) أسوة للذين آمنوا من قصة النبي إبراهيم عليه السلام كيف كان شاكراً لأنعم الله، وأن علينا اتباع ملته.

أما قصة السبت وحرمة الصيد فيه؛ فهي خاصة بالذين اختلفوا فيه (الآية: ١٢٤).

والرسول، مهبط وحي الله، يدعو قومه بالحكمة والموعظة الحسنة، وهو المثل الأعلى للعدل والإحسان، وللصبر والاستقامة وسعة الصدر، وسيرة الرسول خير شاهد على صدق رسالته، وأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون (الآيات: ١٢٥-١٢٨).

وهكذا تحدد سورة النحل العلاقة السليمة مع نعم الله، حيث يزداد المؤمن بواسطتها إيماناً بربه وتسليماً لرسالات ربه ونبذاً للشركاء، واستقامة أمام المفسدين.

وعلى الله قصد السبيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ
 ① يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا
 أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ② خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ
 تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ③ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ تُطْنُفٍ فَإِذَا هُوَ
 خَصِيمٌ مُبِينٌ ④ وَالْأَنْثَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ
 وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ ⑥ وَحِينَ
 تُنْزَعُونَ ⑦ وَتَحْمِلُ أَنْثَاهُ كُمٌّ إِنْ بَلَغَ لَرُّ تَكُونُوا بِلِغِيهِ
 إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَمُوفٌ رَجِيمٌ ⑧ وَالْخَيْلَ وَالْإِبَالَ
 وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ⑨ وَعَلَى اللَّهِ
 قَصْدٌ ⑩ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَمَكُمْ أَجْمَعِينَ ⑪﴾

هدى من الآيات:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

باسم الله، برحمته الواسعة الدائمة، بعلمه وحكمته، بقلوبته وتدابيره، تشرع هذه
 السورة.

(١) تريحون: من أراح بمعنى رد الانعام بالعشي إلى المراح وهو محل استراحة الحيوانات.

(٢) تسرحون: ترملونها صباحاً إلى محل الرعي والسرْح وهي مأخوذة من السروح.

(٣) قصد: القصد استقامة الطريق.

يستعجل المشركون دائها جزاء أعمالهم، زاعمين أن التأخير دليل العدم، كلا.. فهذا هو أمر الله المتمثل في تحقيق ما أنذر به الرسول قد أناكم ليجازيكم على شرككم، دون أن يقدر الشفعاء على إنقاذكم من عذاب الله.

وتهبط الملائكة بين حين وآخر من أمر الله، بالروح الذي يحمل رسالة ربه إلى الناس بالإنذار بضرورة التوحيد، والأمر بالتقوى. ولا أحد يفر من الجزاء، لأن خلق السماوات والأرض قائم على أساس الحق، ولا إله ينقذ البشر من عذاب الله. تعالى الله عن شركهم.

ومن الذي يستكبر على الله؟! إنه هذا الإنسان الذي كان أصل خلقه نطفة، فإذا به يديم الجدل وبكل وقاحة في الحقائق، بالرغم من أنه لا يزال بحاجة إلى نعم الله، فهذه الأنعام خلقها الله للإنسان يستدفع بها، ويستفيع منها، ويأكل منها، ويتخذ منها وسائل الزينة، ووسائل النقل إلى بلد بعيد يشق على الأنفس الوصول إليه، كل ذلك آية رحمة الله ورأفته بالبشر، كما خلق الرب الخيل والبغال والحمير لكي يمتطيها البشر ويتخذ منها زينة، هذه نعم ظاهرة، وهناك نعم باطنة لا نعرفها، والله الذي هيأ النعم حدد البرامج التفصيلية للإنتفاع الأفضل منها، حين بين لنا بفضل السبيل المستقيم إليها، ولكن دون أن يفرض علينا السير عبره، ولو شاء الله لهدى الناس جميعا.

بيانات من الآيات:

بين الخلق والأمر

[١] يبدو إن أمر الله هو إبداعه وإنشاؤه الذي يتم بإحداث الإرادة، ويعبر عنها القرآن بكلمة - ﴿كُنْ﴾ - قائلا: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

ويبدو أن هناك فرقا بين الأمر والخلق؛ فالخلق قد يكون بالوسائل المعهودة، وحسب السنن التي أجراها الله، بينما الأمر هو الخلق المباشر الذي لوحظ فيه الإنشاء والإبداع.

وكذلك أمر الله هو بتدبيره المباشر يوماً بيوم وساعة بساعة حيث قال الله سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فالذي خلق أول مرة هو الذي يجري في خلقه سنته الظاهرة وكلماته الباطنة فهو فعال لما يريد، يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء وهو كل يوم في شأن ومن هنا يسأله من في السماوات والأرض. ويستجيب دعاء المضطر إذا دعاه. ويكشف كربة المكروبين.

وعذاب الله للأمم المنحرفة، كما رسالة الرسل أمران إلهيان إبداعيان، لا يخضعان للسنن

الظاهرة.

وحين جاء الرسل بالإنذار استعجل الكفار ما اندروا به، و اتخذوا من التأخير دليلاً على عدم وجود الجزاء، و جاءت الآية تنذرهم باقتراب ساعة الجزاء ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

والواقع أن شركهم بالله، وزعمهم إن هناك آلهة تمنعهم من دون الله، هو الذي جعلهم يطمثون ولا يأخذون الإنذار بجديّة كافية، ونفى ربنا ما أشركوا به.

﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فهو منزّه وهو أسمى من أن تساويه بشريك، وهو خالق كل شيء.

روح رسالات الله

[٢] ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ والله ينزل الملائكة ملكاً بعد ملك، مؤيدون بالروح، والروح - حسبما يظهر من النظر في مختلف الآيات التي تحدثنا عنه - هو: ذلك الملك العظيم الذي يؤيد الله به رسله، والذي يأتي إلى الأرض في ليلة القدر مع الملائكة، وهناك قول آخر يقول: «إن الروح كلمة الحياة التي يلقها الله سبحانه إلى الأشياء فيحييها بمشيئته ولذلك سماه وحياً وعداً إلقاءه وإنزاله على نبيه إجماع في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. فإن الوحي هو الكلام الخفي والتفهم بطريق الإشارة والإيماء، فيكون إلقاء كلمته تعالى - كلمة الحياة - إلى قلب النبي ﷺ وحياً للروح إليه^(١).

وإذا كان الروح ملكاً، فإن الباء هنا تدل على الاستعانة، أي مستعيناً بالروح ومؤيداً، أما إذا كان الروح جوهر الرسالة المركب من نور العلم والهدى، وهو الذي يحيي البشر كما قال سبحانه: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] فإن الروح يكون النور الذي جاء به الملائكة إلى الأرض، وهذا المعنى قريب أيضاً من قوله سبحانه: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥].

﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ والملائكة تصدر انطلاقا من أمر الله، فلا تعمل حسب أهوائها، لذلك فهم يهبطون إلى عباد الله المصطفين ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾؛ فالرسل عباد الله وليسوا أنصاف آلهة، أما محتوى الرسالة وجوهرها فهو التالي: ﴿أَن أُنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ إخلاص العبادة لله في كل الشؤون، والذي يتجسد في التقوى، هو جوهر الرسالات الإلهية.

(١) تفسير الميزان: ج ١٢ ص ٢٠٦.

[٣] وحين ينذر ربنا عباده من الانحراف عن خط التوحيد، فإن ذلك ينسجم مع أساس الخلق، حيث خلق السماوات والأرض بالحق، وإنه هو المهيمن عليها دون شريك، فالبشر إذا شذوا عن سنة الكون، فلا أحد ينقذهم من جزاء إنحرافهم، لأن ربنا تعالى عن الشركاء الذين يدعونهم الكفار أندادا له سبحانه فلا يغنون من عذاب الله شيئا ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

[٤] ومن هو هذا الإنسان الذي يخالف سنة الكون؟! أو لم يخلق من نطفة، فإذا به يتحول إلى مجادل يلقي الحججة بعد الحججة. ويختار رأيه الخاص به، ويفند سائر الآراء بل تراه قد يتحدى سنة الحق بلا استحياء!! ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾.

[٥] والإنسان بحاجة إلى الطبيعة من حوله، يتفاعل معها، فلا بد أن يكيف نفسه مع السنن العامة التي تحكمها، فنرى الأنعام كالغنم والبقر والإبل خلقها الله لكي ينتفع بها البشر من عدة أبعاد:

أولاً: إنها تدفئ جسد الإنسان، بأصوافها وأشعارها ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾.

ثانياً: إن للأنعام (وهي الإبل والبقر والغنم) منافع أخرى في أنها تحمل الإنسان. وليس الإبل سفينة الصحراء أو لم تكن الأبقار أفضل وسيلة للزراعة سابقاً؟! فهي تحرث الأرض وهي تروي الأسرة باللبن ومشتقاته وهي إلى جانب ذلك ثروة عظيمة بسبب سرعة تناسلها ﴿وَمَنْفَعٌ﴾.

ثالثاً: يأكل الإنسان من الأنعام باعتبارها أفضل للغذاء، وأنسب طعام للإنسان، ومن أخصب الحيوانات نسلاً، وأسرعها نمواً.. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

[٦] رابعاً: وهي تشبع حاجة نفسية للبشر، حاجة السيطرة على الطبيعة، وتسخيرها لأهدافه، والتفاعل معها. إن منظر الأنعام حين تعود من مراعيها بالليل ليريحها أصحابها في مراتبها. إن هذا المنظر يملأ العين بهجة والقلب سروراً، ويشبع كل أبعاد النفس البشرية التي تمح إلى أمها الطبيعة. كما أن منظرها وهي تسرح أول الشروق، يطلب أصحابها لها الرزق، يشبع غرور المسؤولية عند البشر.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ إن الحيوانات الأليفة تشبع تقريبا ذات الحاجة النفسية التي يشبعها الأولاد عند أبناء آدم ولكن بدرجة أدنى.

إن خالق الإنسان وجاعل الغرائز في نفسه، هو خالق الأنعام التي تشبع هذه الغرائز، وهذا هو الحق الذي أرسى عليه الله بناء السماوات والأرض.

[٧] خامساً: ويحتاج البشر إلى مراكب في البر كحاجته إليها في البحر، وفي ذات الأنعام وبالذات في الإبل هذه الفائدة الكبيرة.. ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ أي تحمل الأنعام أحمالكم إلى البلاد البعيدة التي يشق عليكم بلوغها.

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وفر هذه النعم جميعاً لكم لأنه ذو رأفة ورحمة، وربما الفرق بين الرأفة والرحمة يكمن في أن الأول يلاحظ النفع الحالي، بينما يلاحظ في الثاني النفع حالاً ومستقبلاً.

[٨] وإلى جانب الأنعام خلق الله للإنسان حيوانات آخر للركوب والزينة، فيها - تقريباً - ذات المنافع ولكن بدرجات متفاوتة لا يعلمها البشر.. ﴿وَالْخَيْلَ وَالْإِبْهَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنواع المنافع المادية والمعنوية التي لا نعلم مدى حاجتنا إليها.

[٩] والله الذي خلق كل هذه النعم فصل لنا كيف نستفيد منها، ووضع البرامج التي تمنع الإسراف أو الإفساد فيها، أو الشذوذ في الاستفادة منها!.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ فقد كتب على نفسه الرحمة فينبى بفضل الطريق القاصد المستقيم إلى الغايات النبيلة، فلأنه الذي خلق تلك الأحياء لفائدة البشر، فهو العليم بمنهاج الإنتفاع بها، فهو الذي يبين لنا السبيل المستقيم في ذلك، ولكنه لم يحبرنا على ذلك جبراً، فمن الناس من يسلكون السبيل الجائر المائل عن الحق ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَنَّاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

لعلكم تهتدون

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالشُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَنْبِتَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَنَّاوِيَالْتَجِمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ ۞

هدى من الآيات:

بعد أن ذكرنا الرب بآياته. من خلق السماوات والأرض، ثم خلق الإنسان من نطفة، وإعطائه النطق ثم خلق الأنعام. والخيول والبغال والحمير. مبتدئ بالخلق الأعظم فالأعظم وأنعمه الأكبر فالأكبر. أقول: بعد أن ذكرنا الرب بها في الدرس السابق لعلنا نخلص العبادة

الله، ونترك الشركاء من دونه.

أخذ السياق - بعدئذ - يتدرج عبر سائر النعم الأقرب منها إلينا فالأقرب. فذكرنا بالمنافع التي جعلها في المطر. وتغيير الأنواء واختلاف الليل والنهار. وما فيها من منافع ونسائل من الذي أنزل المطر من السماء فأخرج المراعي والثمرات ووفر الماء للشرب؟.

ومن الذي أنبت في الأرض زرعاً بقاء السماء، وأنبت أشجار الزيتون والنخيل والأعناب والوانا من الثمرات الأخرى؟.

إنه الله، ولكن المتفكرين من الناس هم الذين يهتدون بهذه الآيات وسخر الليل والنهار للإنسان، وسخر الشمس والقمر كما سخر النجوم. كل تجري في فلك. إن هذه الآيات ينتفع بها من ينتفع بعقله، وهياً في الأرض للبشر ألوان المنافع، فمن تذكر اهتدى بهذه الآيات إلى الله. خالقها ومدبرها.

وجعل الله البحر بحيث يستفيد منه الإنسان لحماً طرياً، كما أودع في قاعه أنواع الزينة، وهياً للسفن التي تمخر فيه، كل ذلك لكي يسعى الإنسان من أجل رزقه ثم يشكر الله عليه.

وإذا خرجت إلى البر رأيت الجبال التي تقوم بدور المراسي^(١) تحافظ على تعادل الأرض وتمنع ميلانها، و أودع فيها مخازن المياه التي تتفجر أنهاراً، كما جعل فيها طرقاً يسلكها البشر ويهتدي فيها بعلمه، ولعله يهتدي إلى ربه بذلك العلم.

والله سبحانه أودع في السماء علامات يهتدي بها البشر، ووراء كل آية حقيقة، ووراء آيات الكون حقيقة الألوهية، فهل الذي يخلق كمن لا يخلق، لماذا لا نتذكر؟.

كل تلك النعم - التي لو عديتها لما أحصيتها - شاهدة على أن الله غفور رحيم بعباده.

بيانات من الآيات:

[١٠] الله الذي قدر الكون بحيث أنزل لكم ومن أجل استمرار معاشكم ماء من السماء تشربون منه، كما ينبت لكم الله به مراعي لأنعامكم، ولولا المطر من أين تأكل الأنعام؟.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ قال الأزهرى: «الشجر ما ينبت من الأرض، قام على ساقٍ أو لم يقم»^(٢). وهذا الرأي أقرب إلى السياق هنا،

(١) المراسي: جمع مرساة بمعنى انجر السفينة الذي تقف به في البحر.

(٢) مجمع البيان: ج ٦، ص ١٤١.

كما هو الأقرب إلى أصل معنى الشجر وهو ظهور الشيء أو اختلاطه ببعضه.

﴿فِيهِ تُسَمُّونَ﴾ الكلمة مأخوذة من الأسامة، وهي الرعي يقال أسمت الإبل أي رعيته. وقال بعض المفسرين إن الآية: «تدل على ماء الشرب إنما هو من السماء فقط». وهو كذلك واقعاً.

[١١] والماء الواحد يهبط على الأرض الواحدة، فإذا بها تنبت به ألوانا مفيدة من الثمرات ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ﴾ وأكثر طعام البشرية من الحنطة والحبوب والخضراوات وبالتالي من الزرع ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾ وهي الثمرات الأكثر نفعاً للجسم البشري، والأكثر انتشاراً في مختلف الأقاليم ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، يوفر الله لكل أرض ما يناسبها، ويناسب حاجة أهلها، ففي ثمرة كل أرض المواد الأشد ضرورة بالنسبة إلى سكان تلك الأرض ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

مراحل العلم وهدف الأنعام

[١٢] تختم هذه الآيات بالكلمات التالية: ﴿يَتَفَكَّرُونَ - يَتَّقُونَ - يَذْكُرُونَ - وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ. وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ - تَهْتَدُونَ﴾ فما هي العلاقة بينها؟ ولماذا جاءت متدرجة. علماً بأن التدبر في نهايات الآيات يفهمنا معاني الآيات ولربما أعطانا علماً جديداً؟ يبدو أن مراحل تكون العلم عند الإنسان هي التالية:

ألف: مرحلة جمع الحوادث وربطها ببعضها والتعرف على علاقتها الثابتة ببعضها، والحصول منها - بالتالي - على قانون عام يحكمها، وهذا يحصل عن طريق التفكير، لأن التفكير - حسبما يبدو لي - هو قلب المعلومات وخلطها وإعادة فرزها جاء في المنجد (الفكر جمعه أفكار: تردد الخاطر بالتأمل والتدبر بطلب المعاني).

والآية الماضية ربطت الحوادث الظاهرة (هطول الأمطار، واخضرار الأرض واختلاف الثمرات) ببعضها، وجعلتها جميعاً آية الخلق عن طريق التفكير، فقال ربنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لأنه بسبب قلب المعلومات نحصل على أنها آية الله.

باء: مرحلة تخزين التجارب والاستفادة منها في فهم الحوادث الجديدة، ويبدو أن هذه العملية تسمى بالعقل - حسبما تدل عليه الكلمة - إذ أن أصل العقل مستوحى من العقال، وهو الذي يحفظ الناقة، وجاء في الحديث: «العقل حِفْظُ التَّجَارِبِ»^(١).

(١) غرر الحكم: حكمة: ١٠١٤٠.

وربطت هذه الآية بين العقل وبين التعرف على سر تسخير الطبيعة للبشر، لأن فهم هذه الحقيقة صعب ويحاجة إلى تجارب مختزنة أكبر. يقول ربنا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ فاختلاف سنن الله في الليل من الظلام والسكون، وركون الطبيعة إلى الراحة. اختلافها عن النهار وما فيه من الضوء والضوضاء، والنشاط في السعي كل ذلك جاء لمصلحة البشر، كما سخر الله الشمس والقمر ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْخَرَاتٌ بِأَمْرِي﴾، وقد لا تكون النجوم جميعا مسخرات للبشر إلا أنها تنفع البشر، وترتبط بتسخير الشمس والقمر، آتت النهار والليل.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فمن طريق تخزين التجارب والاستفادة منها سوف يبلغ البشر درجة من العلم تؤهله لمعرفة سر الطبيعة، وأن كل شيء فيها قد نظم لمصلحة البشر، وأن عليه أن يستفيد منها لحياته، ولكن لا يزال أمامنا مسافة حتى نصل إلى ذروة العلم ما هي تلك المسافة؟ إنها التذكر.

[١٣] بعد العقل يأتي دور التذكر وهو المرحلة المتقدمة في مسيرة المعرفة.

جيم: وهي مرحلة استيعاب التجارب من أجل العمل، فكيف نستفيد من الطبيعة المسخرة لنا؟ هل كل شيء فيها صالح في كل وقت ولكل شخص؟ كلا.. إذ أن حقيقة الأشياء مختلفة، وكل شيء نافع لوقت ولشخص، بالرغم من أنها جميعا خلقت للبشر.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ ما أظهره الله في الأرض وما أنشأ وفطره من أجلكم ولمنفعتكم، ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

[١٤] والله سخر الطبيعة للإنسان، ولكن على الإنسان أن يسعى هو بدوره من أجل إنجاز هذا التسخير في بعض الأحيان، فليس النعم تأتي دائما كما السماء، بل قد نحتاج إلى معالجة جادة وإلى المخاطرة كالصيد في البحر. والسفر عبره للتجارة.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فالبحر مثل مخزن كبير لأفضل أنواع اللحوم تحصل عليها فيه بأقل جهد وكذلك للحلى.

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ﴾ المخر: شق الماء عن يمين وشمال. ويحدث هذا الشق صوتا يشبه صوت العاصفة، وهنا يذكرنا القرآن بمرحلة رابعة للعلم هي:

دال: مرحلة الاستفادة العملية من العلم، تلك التي نسميها اليوم التقنية، وربما يسميها

القرآن بالاكتساب.

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي تسعوا في البحار للحصول على رزقكم الذي هو فضل الله، وبعدها تأتي المرحلة الخامسة وهي:

هاء: مرحلة الرضا النفسي، ذلك الذي يفرزه الشكر فإن إشباع حاجات الجسد عن طريق النعم لا تكفي، إذا ظلت النفس قلقة، تحرص أبداً على شيء مفقود، أما إذا شكر الإنسان ربه، وعرف أن النعمة ليست من حقه، بل هي من فضل الله، وتذكر الأيام التي كان يحتاج إليها وكيف حصل عليها بسعيه أو برزق الله، فإن نفسه تمتلئ سكينته وهدوءاً ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وتبقى أمامنا درجة نخرج فيها إلى ذروة الكمال في درجات العرفان، وهي درجة الهداية التي تذكرها الآية التالية.

[١٥] كما السفينة في أعالي البحار بحاجة إلى مرساة تحفظها وسط الأمواج المجنونة، كذلك الأرض التي تسبح في الفضاء تدور حول محور الشمس، بحاجة إلى ثقل يرسبها ويوقف اهتزازها، والجبال هي تلك المراسي.

﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوًى﴾ أي وضع الله فوق الأرض جبالا عالية.

﴿أَنْ تَبِيدَ بِكُمْ﴾ أي لكي لا تتحرك بكم فتزعجكم إن الجبال متصلة من الداخل ببعضها، لتكون حصناً منيعاً للأرض يمنع الزلازل والهزات التي يتعرض لها كوكبنا بسبب الغازات الداخلية. كما أن الجبال تمنع العواصف الشديدة التي تجوب سطح الأرض باستمرار، وتمتص قوتها وهي - في ذات الوقت - تعطي قوة إضافية للأرض لمقاومة جاذبية القمر، وفجر خلال الجبال عيوناً. بسبب مخازن المياه العظيمة في بطن الجبال.

﴿وَأَنْهَرَا﴾ ولقد كان من الممكن أن تمنع الجبال اتصال البشر ببعضهم، بيد أن الله هباً بينهما سبلاً وهذه من أعظم النعم الإلهية حيث أنك لا تجد سلسلة جبال متراسة كالجدار يفصل بين الأراضي.

﴿وَسُبُلًا﴾ كيف يهتدي الإنسان إلى مآربه في الأرض عبر هذه السبل؟ هكذا ينبغي أن يهتدي إلى الحقائق من وراء الآيات، إذ الآيات هي السبل المؤدية إلى الحقائق ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

[١٦] يهتدي البشر عن طريق معالم السبل إلى غاياته في الدنيا، وهكذا ينبغي أن يهتدي

عن طريق الآيات في الأرض وفي السماوات إلى حكمة الله وقدرته ﴿وَعَلَّمَنَّاكَ﴾ كتلك التي يضعها على السبل.

﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وإذا كان البشر يهتدي بالنجم إلى مسيله في الأرض، والعلاقة خفية بين النجوم في السماء وسبل الأرض، فكيف لا يهتدي إلى الله عبر آياته؟! وآيات الله أوضح شهادة. وأصرح دلالة ومن آياته في الأرض النيون والأوصياء ﷺ يهتدي بنورهم المؤمنون.

افلا تذكرون

[١٧] كيف لا يميز بين الخالق والمخلوق، بين إله السماء والأرض، وبين الأرباب المخلوقين العاجزين؟! ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

[١٨] وأنى ألقينا بنظرنا، وجدنا آية عظيمة من آيات الله تدلنا على أحديته، وأنى تقلبنا فإنها تحيط بنا نعم الله التي لا تحصى، فلماذا الجهل؟ ولماذا الكفر؟!.

﴿وَأَنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن كل سنة إلهية نعمة، وكل موهبة نعمة، وكل قدرة نعمة، وكل عضو بل كل جزء من عضو، بل كل خلية نعمة، إن خلايا المخ تعد بالبلايين وفقدان كل خلية يسبب نقصا.

وربنا الغفور ذو الرحمة، فلو لا غفرانه، إذا لسلبنا بعض النعم بسبب غفلتنا عنها وعن شكرها، كما إنه برحمته، يفيض علينا من نعمه التي لا تحصى.

التكبر أسبابه وجزاؤه

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا
 يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَتَى اللَّهُ يَعْلَمُ مَا
 يُسْرُوكُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ
 لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ
 كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ أَلَا
 سَكَاةٌ مَا يُزِرُّونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَفْ كَفَرُوا
 بِبَيْنَتِهِمْ مِنْ الْفَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمْ
 الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ
 أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْكِنُونَ ﴿٢٧﴾ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ
 أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْآخِرَىٰ أَلْيَمُ وَالْأُولَىٰ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ
 تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا السَّلَامُ ﴿٢٩﴾ مَا كُنَّا نَعْمَلُ
 مِنْ شَيْءٍ إِلَّا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٠﴾ فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ
 جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٣١﴾

(١) أيان: في أي وقت.

(٢) تشاقون: تخاصمون وتنازعون.

(٣) السلم: الاستسلام والخضوع.

هدى من الآيات:

من الذي تحق عبادته؟ الذي خلق وأنعم وغفر ورحم أم الذي لا يخلق ذباباً؟ حول هذا كان الدرس السابق.

ونكرر من الذي تحق عبادته؟ الله الذي يعلم السر وأخفى، أم الذين يدعوه المشركون، من الأصنام التي لا تخلق شيئاً وهم يخلقون؟ وليس فقط لا يعلمون السر، بل ولا يملكون الحياة، ولا شعور عندهم حتى يبعثون يوم القيامة؟!

والله إله الخلق أجمعين، واحد لا شريك له، أما المشركون فهم لا يؤمنون بالآخرة والسبب أن قلوبهم جاحدة للحق لصعوبته عليها، ولأنهم يفتشون عن العلو فهم مستكبرون.

حقاً يعلم الله سرهم وإعلانهم، والله لا يحب المستكبرين الذين يبتغون علواً في الأرض، فيخالفون الحق بوعي وإصرار، لذلك يستصغرون الحق الذي هبط عليهم من الله، ويقولون أنه أساطير الأولين.

وهؤلاء يحملون أثقال ذنوبهم من دون أن تنقص عنهم بالتبرير، ويحملون أيضاً شيئاً من ذنوب الناس الذين يضلونهم ولبس ما يحملون.

وأن المستكبرين يمكرون في آيات الله، ويحاولون منع الناس عنها بشتى الحيل، كما فعل الذين من قبلهم، ولكن الله ينسف بناءهم من الأساس فإذا بالسقف ينهدم عليهم ويهجم عليهم العذاب من حيث لم يحتسبوا.

أما في يوم القيامة فإن الله يذلمهم بأن يقول لهم شئاً: أي الذين كتمت عبدوهم من دون الله وتشقون عصي الوحدة من أجلهم؟! فيسكتون. أما أهل العلم فانهم يقرون للمشركون الخزي والسوء لكفرهم.

ومن هم الكافرون؟

إنهم الذين يظلمون أنفسهم، وعند الموت يتبرؤون من أفعالهم، وينكرونها، ويدعون أنهم لم يكونوا يعملوا شيئاً من سوء، بيد أن الله يخبرهم بعلمه بأعمالهم فيدخل كل منهم في النار، من باب الذنب الذي أرتكبه ويبقى خالداً فيها، وتلحقه اللعنة بسبب تكبره في الأرض.

بينات من الآيات:

من نعبد؟

[١٩] علم البشر محدود ويتكامل عبر مراحل، ويختص بظواهر الأمور، والله محيط علما بالسر والعلن، وبالسر قبل العلقن، لأن كل شيء يقع في السر قبل أن يعلن عن ظهوره ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

[٢٠] ومن يعلم السر والعلن أحق بالدعوة، ممن لا يخلق ولا يعلم!! ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ والسؤال من هم هؤلاء؟.

قالوا: هي الأصنام، ويبدو لي أنهم الطغاة والمستكبرون الذين ترمز إليهم الأصنام، ووفق هذه النظرة نجري في تفسير الآيات التالية.

[٢١] إن أول صفات الآلهة المزيفة هي أنها أموات، لا علم لهم ولا قدرة إلا بقدر ما يهب الله لهم من علمه وقدرته.

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ وربما جاء التأكيد على أنهم غير أحياء، لأن المراد بالأموات ليس حقيقة الموت وإنما المراد بالأموات هو موت المعنوي لذهابهم عن الحق والدين. فوجب التأكيد.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي أنهم ينتظرون الجزاء لكفرهم من دون معرفة يومه، فهم مسؤولون أمام الله.

قال الطبرسي رحمه الله وهو يفسر الآيات: «الأصنام أموات غير أحياء، وأكثر كونها أمواتا بقوله غير أحياء، لنفي الحياة عنها على الإطلاق، وما يشعرون أيان يبعثون معناه: وما تشعر هذه الأصنام متى تبعث للجزاء، وقيل في الآية هم أموات يعني الكفار في حكم الأموات، لذهابهم عن الحق والدين ولا يدرون متى يبعثون!»^(١).

وإذا فسرنا الآيات بالأرباب الذين هم بشر، لا نحتاج إلى هذه التفسيرات والوجوه البعيدة عن ظواهر الآيات.

[٢٢] أما الإله الحق الذي ينبغي أن تخلص العبادة له فهو الله. وليس عدم إيمان البعض به

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ١٤٧.

إلا بسبب نقص فيهم، حيث أن قلوبهم منكرة تستبعد ما يرد عليها من الحق ﴿إِنَّهُمْ كَرِهُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^٤ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ﴿وَسَبِّحْ جُحُودَهُمْ هُوَ طَلَبُ الْعُلُوِّ وَالْاِسْتِكْبَارِ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾.

[٢٣] ولكنهم يخفون السبب الحقيقي لجحودهم وهو الاستكبار، وتكريس عبادة الذات، بينما الله يعلم أسرارهم وإعلانهم، ويكره حالتهم هذه ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُخِيبُ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

كلمة ﴿لَا جَرَمَ﴾ مأخوذة من الكسب (حسباً جاء في المجمع عن أبي مسلم) يعني لا يحتاج معرفة هذا الأمر إلى اكتساب علم، لأننا نفهمه بلا تكلف وبوضوح. وقال البعض إن (الجرم) بمعنى قطع التمر من الشجر وإذا أضيف إليه (لا) فإنه يعني ليس هناك شيء يقطع هذا الأمر أو يخالفه.

[٢٤] ولكي يغلفوا استكبارهم بتبرير مقبول عند الناس، تجدهم يحسبون أنفسهم قدميين، وينسبون الأفكار الصحيحة إلى العصور الماضية، وكأن الزمن يعتق الحق ويجعله بالياً. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ والأساطير جمع أسطورة - في مثل وزن أحذوثة - وهي ما كتب وربما توحى اللفظة بها كتب باطلا.

جزاء الاستكبار

[٢٥] إن المستكبر يرى في الحق عدوه الخطير، لأنه يريد أن يستغل الناس ويبسط عليهم جناح طغيانه، وإذا كان الناس عارفين بالحق فلن يسمحوا له بذلك، لذلك يبث الدعاية تلو الدعاية ضد الحق، ولكن ما هي العاقبة؟.

إن عاقبته تحمل أوزار الذين يضلهم بدعاياته، بالإضافة إلى أوزاره ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ والأوزار هي: أثقال الذنوب، باعتبار أن الذنب لا ينتهي بل سوف يبقى كثقل يتحمله صاحبه يوم القيامة، وقد يشترك اثنان في تحمل وزر ذنب دون أن يخفف أحدهما عن الآخر، وقد جاء في الحديث النبوي الشريف: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقُصَ مِنْ أَجْرِ هُمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١).

(١) الفصول المختارة: الشيخ المفيد: ص ١٣٦.

والآية توحى بأن فرض السيطرة على أحد، إذا لم تكن في طريق يعلم الفرد سلامته، يعتبر جريمة كبيرة.

[٢٦] ولا يكتفى المستكبرون بالدعاية، بل يتأمرّون ضد الحق وجبهته بشتى أنواع المكر والخدع، ومكرهم يشبه مكر الذين كانوا من قبلهم، وكيف أن الله نسف أساسهم حتى وقع عليهم السقف ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بَنَسَنَّهُمْ مِنْ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ﴾ هبط السقف بسبب تزلزل القواعد التي قام عليها ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ وهم تحته، ﴿وَأَنَّهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فهم كانوا يزينون السقف، ويحاولون المحافظة عليه، فإذا السقف ينهدم بسبب نسف قواعدهم.

إن آيات سورة العنكبوت قد تكون افضل تفسير لهذه الآية، حيث أن الكفار الذين اعتمدوا على الماء، وبنوا بناءهم على قواعد الحضارة، غرقوا في البحر فتلاشوا كقوم فرعون، وكذلك الذين ركنوا إلى مناعة بيوتهم كعاد دمرُوا بالريح وبالصخور التي بنوا بناءهم بها وهكذا كل قوم اعتمدوا من دون الله على قواعد مادية أتى عليها الله، ودمرهم بها وهم لا يشعرون أن خطأهم الأكبر كان اعتمادهم على هذه القوة الزائلة.

[٢٧] ثم عذابهم في الدنيا لا العذاب في الآخرة بل إن استكبارهم سوف يجر إليهم العار والحزى ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُكَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ﴾ أن تشقون عصي الوحدة من أجلهم، أو بتعبير آخر كنتم تتعبدون أنفسكم دفاعاً عنهم، تناضلون جبهة الحق من أجلهم، وكان الحزى بكم أن تحاربوهم.

﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْشُّوَاءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فلهم عذاب نفسي هو العار، وعذاب جسدي يسؤوهم، وهذه الآية توحى بقيمة العلم وفائدته. حيث أن أعظم سبب لاستكبار المستكبرين واستغلالهم للناس هو انعدام العلم عند الناس.

[٢٨] وهل الكافرون هم الذين يمحذون بالستهم، أو أن كل مستكبر عن الحق وظالم لنفسه يواجه ذات العذاب؟

﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي في الوقت الذي كانوا يظلمون أنفسهم، أما من تاب قبلئذ فحسابه يختلف.

﴿فَالْقَوُّ أَسَلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ بالرغم من أنهم قبل ذلك كانوا يستكبرون، ويحسبون أنفسهم فوق الحق، وفوق المسؤولية، فوق القانون ويستضعفون الناس فإنهم

يخضعون لقوة إرادة الله ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إن الاستكبار يبدأ من ظلم الناس واستصغارهم وقد يرتكبه واحد من أدنى الناس تجاه من هو أدنى منه. جاء في نص شريف مأثور عفا عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول: «وَمَنْ ذَهَبَ يَرَى أَنَّ لَهُ عَلَى الْآخِرِ فَضْلًا فَهُوَ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّمَا يَرَى أَنَّ لَهُ عَلَيْهِ فَضْلًا بِالْعَاقِبَةِ إِذَا رَأَاهُ مُرْتَكِبًا لِلْمَعَاصِي؟ فَقَالَ: هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا أَتَى، وَأَنْتَ مَوْقُوفٌ مُحَاسَبٌ أَمَا تَلَوْتَ قِصَّةَ سَحْرَةِ مُوسَى عليه السلام؟»^(١).

[٢٩] آنشد يساقون إلى أبواب جهنم، كل جزء منهم يدخلها من الباب الذي اختاره في الدنيا لنفسه، فمنهم من اختار باب الطغيان على العباد، ومنهم من اختار باب طاعة الطغاة، ومنهم من يدخل من باب الفساد في الأرض وهكذا.

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَلْيَتَسَمَّوْا الْمُنْكَرَاتِ﴾ الذين استكبروا عن الحق، واستكبروا في الأرض وكانت قلوبهم منكرة.

وآيات هذا الدرس إذا ما قسناها بآيات الدرس السابق التي كانت حول العلم وأينها تعالج حالة التكبر عن الحق التي هي أخطر أعداء العلم، وتندرج من الإنكار إلى الاستكبار إلى التكبر. كما أن الآيات السابقة كانت تندرج من التفكير إلى التعقل إلى التذكرة إلى الشكر فالهداية.

(١) الكافي: ج ٨، ص ١٢٨.

والعاقبة للمتقين

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ ^(١) مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَاطِ فَإِنَّهُمْ مِّنْ هَدَى اللَّهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾

هدى من الآيات:

في الدرس السابق بين السياق موقف الكفار من الرسالة وأما المتقين فان موقفهم هو

(١) حاق بهم: حل بهم وأحاط.

أنها خير، حيث تهب من هناج الإحسان الذي يؤدي إلى الحسنات في الدنيا، وفي الآخرة جزاءهم الأول في حيث يستقر المتقون فيها بسلام.

هنالك حيث الجنان الخالدة التي يدخلونها، يجدون فيها الأنهار تجري من تحتها، وتتحقق أمانهم وذلك جزاء المتقين الذين تنتهي حياتهم بخير، يسلم عليهم الملائكة التي تتوفاهم، ويبشرونهم بدخول الجنة بأعمالهم الصالحة.

ولا يهتدي الكفار بعقولهم، بل يتظنون هبوط الملائكة لينظروا إليها بأعينهم، أو نزول العذاب الذي يندرون به، ولكن الدنيا دار ابتلاء، فإذا ظهرت الحقائق فإن العذاب لا يرد عنهم، ولا تقبل توبتهم، بأنهم ظلموا أنفسهم ولم يظلمهم الله، هنالك يجدون سيئات أعمالهم، ويأخذهم ذلك العذاب الذي استهزؤوا به.

ومن الكفار من يبرر انحرافه الفكري والسلوكي بالفكرة الجبرية، ويقول: لو شاء الله لمنعنا عن عبادة الشركاء أو اتباع القانون الباطل، وهذا تبرير قديم، ولا يسع الرسل سوى البلاغ الواضح، وبعدئذ تبقى لهم حريتهم واختبارهم، وابتلاء الله لهم، والله لم يأمرهم بعبادة الطاغوت، بل بعث الأنبياء لخلاص الناس من الطاغوت، فمنهم من استجاب لدعوة الرسل فهدي، ومنهم من لم يستجب فأضله الله والمكذبون بالرسل أخذوا بأشد العذاب باعتبارهم أحرارا في تصرفهم وتكذيبهم، فانظروا في آثار السابقين.

والله لا يكره أحد على الهدى، بل لا يهدي من يختار الضلالة، ولا ينصره ولن ينصره أحد.

بينات من الآيات:

جزاء المتقين

[٣٠] تلك كانت نظرة المستكبرين إلى الرسالة، أما المؤمنون الذين اتقوا فلم تحجب الذنوب عقولهم عن فهم الحقائق فإذا سئلوا عن الرسالة قالوا أنها خير ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾.

ولا يذوق حلاوة الإيمان غير المتقين وابرز سمات المتقين هو الإحسان الذي يثمر حسنات في الدنيا والآخرة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

[٣١] أما دار المتقين فهي متمثلة في جنات خالدة ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾.

وهذا الإطلاق يدل على أن أهل الجنة تتحقق أمانهم هناك، فهم راضون عن وضعهم بالكامل، وهذا الرضا لا يتحقق أبدا في الدنيا، حتى قال قائلهم: ما كل ما يتمنى المرء يدركه! وهذا فارق كبير بين أهل الجنة وأهل النار.

﴿كَذَلِكَ يُجْزَى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أما غيرهم من المؤمنين فأنهم يظلون في نار جهنم حتى تذهب آثار الذنوب التي ارتكبوها، وبعدئذ يدخلون الجنة.

[٣٢] والمتقي يبقى في خطر عظيم حتى يأتيه اليقين وهو الموت، إذ يخشى أن تزل قدمه قبل أن يصل إلى نهايته فإذا استمر على الهدى حتى الموت فهو الطيب ﴿ الَّذِينَ تَوْفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وبالرغم من أن هناك مسافة زمنية واسعة بين الموت ودخول جنات الخلد، إلا أن الملائكة تبشر المتقين عند موتهم بأنهم داخلوها حتما، مضافا إلى أنهم يعيشون خلال الفترة في جنات ورياض مماثلة بجنات الخلد، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

[٣٣] أما غير المتقين، فإن أكبر خطأ لهم أنهم ينتظرون إحاطة الخطر بهم حتى يعترفوا به، وأنشد لا ينفعهم إيمانهم، ذلك أن الدنيا دار اختبار وإنما يختبر مدى إيمان الفرد وتقواه، وقوة إرادته وعقله إذا انذر بالخطر وأبلغ بالحقائق قبل أن يراها، أما بعدئذ فكل الناس سواء، وكل شخص يهرب من الخطر الذي يبصره، ولكن العقلاء وحدهم يتجنبون الخطر في الوقت المناسب، وعندما تأتيهم نذره. وتظهر لهم إرهاباته ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أي هل ينتظرون الملائكة حتى يؤمنوا، وإذا نزلت الملائكة انعدم الابتلاء. ﴿ أَوْ يَأْتِي أَمْرٌ رَيْكٌ ﴾ من العذاب، فأنشد يؤمنون، وماذا ينفعهم إيمانهم إذ رأوا العذاب؟.

﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فدمرهم الله شر تدمير، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ إن مثل هؤلاء كمثل رجل يبصر بعينه بئرا فلا يعترف بها حتى يقع فيها وتهشم عظامه، فيقول الآن آمنت أنها كانت بئرا! فلماذا إذا زودت بعين، أو ليس لكي ترى أمامك الطريق؟! وتتجنب البئر قبل الوقوع فيه.

لماذا زود الإنسان بالعقل؟ أو ليس لكي يبصر الغيب، أما الشهود فيحس به حتى الحيوان! ولماذا زود بالإرادة؟ أو ليس لكي يتحدى الشهوات، أما الاسترسال معها فانه ليس بشيء! هكذا الخطر متى يقدر الإنسان على معالجته؟! عندما يتنبه له بسبب علاماته المبكرة، أما

إذا أحدق به فكيف الفرار؟!.

[٣٤] هكذا قامت الدنيا على أساس الانتفاع بالعقل والإرادة، والكفار لم يستفيدوا

منهما.

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي حل بهم الفكر الذي استهزؤوا به، فقد انتقم منهم الفكر الحق الذي سخروا منه، كما أن أفعالهم السيئة، تحولت إلى مشاكل وصعوبات دمرت حياتهم.

[٣٥] إذا فإن انتظار تحول الحق المبلغ به إلى واقع مشهود خطأ كبير ارتكبه الهالكون من قبلنا، وعلينا تجنبه، وخطأ آخر هو القدرية، والاعتقاد بأن الله لم يتركنا أحرارا في تصرفاتنا، إلا لأنه فوض إلينا شؤون الحياة نفعل كما نشاء، ولو كان يريد غير ذلك لأجبرنا على ترك عبادة الطغاة.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فلا عبدنا المال المتمثل في الرأسمالية، ولا عبدنا القوة المتمثلة في الطاغوت، ولا عبدنا التراث المتمثل في الآباء ﴿ لَنَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فقلنا هذا حلال وهذا حرام حسب أهوائنا، كما فعل الجاهليون، حينما حرموا البحيرة والسائبة، وكما يضع الجاهليون اليوم قوانين تكبل طاقات الناس. وبتعبير آخر لم نخضع لسيادة السلطة الفاسدة، ولم نطبق التشريعات البشرية.

﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ عبدوا الطاغوت، وشرعوا لأنفسهم، وادعوا أن الله فوض إليهم ذلك الأمر، ولكن لماذا بعث الله الرسل؟.

﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْحَسِينُ ﴾ فلا الله فوض أمر الحياة إلى البشر، لأنه بعث الرسل، ولا أنه يريد أن يكره الناس على الهداية، فإذا لم يكرههم فهو راض عنهم، لأن مهمة الرسل تنتهي عند البلاغ، لتبدأ مسؤولية الإنسان نفسه.

الكلمة البالغة

[٣٦] وهكذا بعث الله الرسل بكلمة بالغة الوضوح: عبادة الله ورفض الطاغوت.

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ الطاغوت

يفرض نفسه على الناس ولا يكفي السكوت عنه، بل إنه رجس يجب الاجتناب عنه، والتحصن منه، كما يجب التمرد عليه، إذا لم يفوض الله أمر العباد إليهم ليختاروا لأنفسهم حكومتهم وفق

مقاييس بشرية بعيدة عن القيم الإلهية للحكم، أو ليسكتوا إن شاءوا عمن يريد استغلالهم وتضليلهم، كلا.. بل أتم حجته عليهم بأن بعث في كل أمة رسولا يأتمون به، ويتفاعلون مع بعضهم، حتى لا يبقى أحد منهم يقول لم أكن أعلم.

ولكنه لم يشأ أن يكرههم على قبول الهداية ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ الذي يهتدي فإله يهديه ولكن بعد أن يختار ذلك، والذي يفضل فإله يفضل. ولكن بعد أن يختار ذلك، لذلك قال ربنا: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أي وجهت ضلالتة بعد أن اختار ذلك، وكل يتحمل مسؤوليته.

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فلو أن الله يرضى لعباده الكفر، إذا لم يعذب الكافرين؟!.

[٣٧] ومرة أخرى يؤكد ربنا أن الهدى ليس جبرا من الله، ولذلك فلا ينتظر أحد أن يأتي نبي يكرمه على الهداية، ولا يقولن إذا لم يأت من يجبره فما تقصيري. كلا.. أنت مسؤول، والرسول ليس مسؤولا عنك.

﴿إِنْ تَحَرَّضَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ فلا يسألوا أنفسهم بهذه التبريرات، ولا ينتظروا أحدا لينصرهم، كلا لا أحد ينصرهم، الله وحده هو الناصر، وأنت إذا اهتديت إليه حصلت على سعادتك المنشودة.

آثار الإيمان بالآخرة

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ
 بَلْ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لَيْسَ
 لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ
 ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ
 هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ
 الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ
 يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَشَاءُوا
 أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
 الذِّكْرَ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

هدى من الآيات:

ولكي يتهرب الكفار من صعوبة العلم بالآخرة، حلفوا بالله الأيمان المغلظة أن الله لا يبعث من يموت! فأكد الله لهم إنه قد وعد أن يبعثهم فلن يخلف الله وعده، وأكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة.

والهدف من البعثة تبيان الحق في اختلافاتهم، وإثبات كذب الكفار لهم، وليست هناك صعوبة في البعث فإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

وفي المقابل نجد الذين يتحملون مسؤولية إيمانهم بالحق، فإذا هم يهاجرون عن أرضهم حين لا يجدون حرية العمل بالحق، فيعدهم الله حسنة في الدنيا وأكبر منها في الآخرة، حيث أخفيت عنهم نعمها التي لا توصف، لأن هؤلاء يصبرون على الأذى، ويتوكلون على الله في

مقاومة الكفار.

وبعضهم يناقش في صدق الرسول لأنه بشر كسائر الناس، علما بأن الله قد بعث من قبله رجالا لا يميزهم عن غيرهم سوى الوحي، ألا فسألوا أهل العلم الذين ذكروا بالبينات والزبر. والقرآن ذكر أنزل على محمد ﷺ بهدف توضيح الرسالة التي نزلت عليهم تدريجيا، والغاية الأسمى لها إثارة عقولهم، وتحريضهم على التفكير.

بينات من الآيات:

العلم دليل الحقيقة

[٣٨] السياق القرآني يتبع عادة أكثر من خط فكري واحد خلال درس أو سورة، لأنه كتاب الله الذي لا يشغله شأن عن شأن، وإذا تدبرنا في نهايات آيات هذا الدرس الكريم تبين لنا أن السياق يتحدثنا أيضا عن العلم، بالإضافة إلى حديثه عن الإيمان بالبعث، وعن الهجرة في الله، وعن الرسالة، بل يكاد العلم يكون الخط الرابط بين موضوعات الآيات هذه، ذلك أن العلم مسؤولية خطيرة لأنه قرين العمل، ويهتف به فإن وجدته وإلا ارتحل، ولولا العمل بالعلم فإن القرآن لا يسميه علما، ذلك أن العلم - في الإسلام - ليس مجرد تراكم المعلومات في الحافظة البشرية كما تراكمها مثلا في الحاسوب، بل هو انكشاف المعلومات بوضوح أمام العقل النير. وعندما تنكشف الحقائق فإن العمل وفقها نتيجة فطرية لها.

ولكن هل العمل بالعلم سهل؟ كلا.. أو لم يقل الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ حَدِيثَنَا صَعْبٌ مُسْتَضَعَبٌ»^(١).

فإن أمام العمل عقبات نفسية وواقعية لا بد من تجاوزها والتغلب عليها.

ولكي يتهرب البعض من مسؤولية العلم يجهلون، ويحلفون بالإيمان المغلظة على جهلهم.

ومن جهة أخرى فإن العلم بالآخرة يبدو كحجر الزاوية في العلم، لأن فهم الدنيا وما فيها من مسؤوليات وقيم وحقائق لا يمكن دون الاعتراف بالآخرة، وإلا فكل شيء في الدنيا يبدو لغزا وسرا كبيرا.

ومن هنا كان إنكار الآخرة بمثابة جهل مطبق بالحياة الدنيا، هذه التي قد تنتهي في أية لحظة ومن حكمة معروفة.

(١) الكافي: ج ١ ص ٤٠١.

ومن جهة ثالثة: العلم بالآخرة، يجعلنا نؤمن بأن هناك حقاً ثابتاً في هذا العالم، وأنها سوف نعرفه ونحاسب على أساسه في يوم ما لذلك لا بد أن نبحث عنه وأن نجعله هو المحور لتفكرنا وعملنا.

وفقدان محورية الحق يشبه سقوط قاعدة البناء، كل شيء فيه ينهدم، فإذا لم يكن هناك حق وباطل واقعيان، وإذا لم يكن هناك حسن وقبح عقليان - حسب تعبير الفلاسفة - فلماذا ترانا نبحث في العلم؟ وما هو المقياس في الصراعات؟ هل المقياس هو الأنا، أم الأقوى، أم ماذا؟

ويبدو أن الآيتين توضحان هذه الحقيقة:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ القسم فيها لا يعلم الفرد دليل على تأكيده على جهله وفراره من العلم بالحق، وإلا فلماذا التأكيد على القسم على أن الله لا يبعث الموتى؟

﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إن وعد الله حق، وقد وعد أن يبعث من يموت، وأكثر الناس لا يعلمون ذلك.

يقول العلامة الطباطبائي: «أي لا يعلمون أنه من الوعد الذي لا يخلف، والقضاء الذي لا يتغير لإعراضهم عن الآيات الدالة عليه، الكاشفة عن وعده وهي خلق السماوات والأرض، واختلاف الناس بالظلم والطغيان، والعدل والإحسان، والتكليف النازل في الشرائع الإلهية»^(١).

وقال البعض: «إن المعنى لا يعلمون وجه الحكمة في البعث فلا يؤمنون به»^(٢).

ويبدو أن القرآن، ينفي علم أكثر الناس كعلم، لكي لا تتخذ الأكثرية مقياساً، بل يكون المقياس هو الحق الذي يتبين في الآخرة، وتنتهي الآية إلى بيان حقيقة العلم ومقاييسه، والله العالم.

لماذا البعث؟

[٣٩] من أهداف النشور بعد الموت تبيان الحق، وكشف زيف الكفار، وهكذا يكون من حكم الزمان بالآخرة، الإيمان بوجود مقياس ثابت للحق، يرجع إليه الناس، فيحكم بينهم

(١) تفسير الميزان: ج ١٢ ص ٢٤٧.

(٢) مجمع البيان: ج ٦ ص ٤٦٧.

فيما اختلفوا.

﴿لَيْبِنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَاثِرُونَ كَذِبِينَ﴾ فلا يستطيع أحد من أن يبدل الحق بالباطل، ويخدع نفسه أن الباطل قد أصبح حقا، لأن رأي الأكثرية - حسبما يزعم أغلب الناس - هو مقياس فهم الحق والباطل، كلا.. إن وراءنا يوما يميز فيه الحق عن الباطل بوضوح كاف.

[٤٠] ويزعم الكفار أن البعث مستحيل، ولا يعلمون أن الله لو أراد شيئا، قال له: كن فيكون.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وتكرار كلمة (القول) ربما جاء لبيان أن الإرادة ليست نعمة في القلب، أو ترويا في النفس، كما هي لنا نحن البشر، إنما هو كالقول (فعل) يبدعه الله إبداعا، وقد جاء في الحديث الشريف عن أبي الحسن عليه السلام حينما سأله صفوان بن يحيى: «قُلْتُ لِأَبِي الْحَسَنِ عليه السلام أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِرَادَةِ مِنَ اللَّهِ وَمِنَ الْخَلْقِ قَالَ: فَقَالَ: الْإِرَادَةُ مِنَ الْخَلْقِ الضَّمِيرُ وَمَا يَنْدُو لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْفِعْلِ وَأَمَّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَإِرَادَتُهُ إِخْدَائُهُ لَا غَيْرُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يُرَوِّي وَلَا يَهُمُّ وَلَا تَتَفَكَّرُ وَهَذِهِ الصِّفَاتُ مَنفِيَّةٌ عَنْهُ وَهِيَ صِفَاتُ الْخَلْقِ فَإِرَادَةُ اللَّهِ الْفِعْلُ لَا غَيْرُ ذَلِكَ يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ بِلا لَفْظٍ وَلَا نُطْقٍ بِلسَانٍ وَلَا مِثَّةٍ وَلَا تَفَكُّرٍ وَلَا كَيْفَ لِذَلِكَ كَمَا أَنَّهُ لَا كَيْفَ لَهُ»^(١).

واجب الهجرة

[٤١] وكثير من الناس يتركون ما يعلمون، ويعملون بالجهل خشية المجتمع الفاسد والطاغوت، بينما ينبغي أن يتمردوا عليها فإذا ظلموا، ولم يجدوا حيلة، هاجروا من تلك الأرض، وأرض الله واسعة، دعهم يهاجروا لكي يعودوا أقوى إلى بلادهم.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ أي في سبيل الله، ومن أجل العمل بأوامر الله، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا أَنبَوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ فسوف يبعث الله لهم: أرضا رحبة، وحياة حسنة، وحرية وأمانا، ﴿وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وعليهم ألا يبحثوا فقط عن أجر الدنيا، وفائدة العلم أنه ينقلنا إلى رحاب الآخرة وما فيها من أجر كبير.

[٤٢] كل ذلك بشرط أن يتحملوا الأذى في سبيل الله، وألا يستسلموا لضغوط الطاغوت، ولا ينسوا قضيتهم الرسالية ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

(١) الكامي: ج ١ ص ١٠٩.

سبيل المعرفة

[٤٣] إنهم يجادلون في رسالة محمد ﷺ لأنه رجل مثلهم، وهل بعث الله إلا رجالا أهم ما يميزهم عن غيرهم الوحي؟!.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ وعلى الإنسان أن يبحث عن الحقيقة بنفسه، فإذا لم يجدها يبحث عن وجدها من الذين صاغت المعرفة شخصياتهم، فتميزوا عن غيرهم بمعرفة البينات والزبر.

﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإن كنتم تعلمون فلا يحق لكم تقليد الآخرين، كما لا يجوز إتباع من لا يعرف شيئا عن البينات والزبر، أو يعرف ولكن لم ينتفع بها عمليا فلم يتذكر هو شخصيا بالوحي، ولم يتعظ بمواعظه الرشيدة، وهذه الآية والتي بعدها تحدد شروط التقليد، أو بتعبير آخر تحدد شروط اتباع الجاهل للعالم، وهما يشيران إلى حقائق عقلية فطر البشر عليها.

البيانات والزبر

[٤٤] عالم الطبيعة وعالم التاريخ وعالم الطب ومن أشبه، لا يمكن تقليد أحدهم في شؤون الحياة مما يتصل بالدين، بل عالم الدين الذي تذكر بالأدلة وعرف المحتويات.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ البيانات هي الشواهد الواضحة، أما الزبر فإنها الكتب التي تحتوي على العلوم الإلهية. ولأن البيانات قد جاءت في آيات قرآنية أخرى مقارنة بكلمة الهدى، مثل قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. فإن معناها -حسبما يبدو لي- هو التفاصيل الواضحة للتعاليم السماوية، بينما الهدى أو الزبر التي تحتوي عليه، هي البصائر والإشارات (المحكمات).. التي فصلت بعضها فقط.

وبناء على هذا التفسير فإن كلمة بالبيانات والزبر متعلقة بقوله تعالى: ﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ وقال البعض إنها متعلقة بقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾، وقال العلامة الطباطبائي: «أي أرسلناهم بالبيانات والزبر، وهي الآيات الواضحة الدالة على رسالتهم والكتب المنزلة عليهم وذلك أن العناية في الآية السابقة، إنما هي ببيان كون الرسل بشرا على العادة فحسب، فكأنه لما ذكر اختلج في ذهن السامع أنهم بماذا أرسلوا؟ فأجيب عنه فقل بالبيانات والزبر، أما البيانات

فلإثبات رسالتهم، وأما الزير فلهفظ تعليلاتهم^(١).

وأقول: كما أرسل ربنا رسوله بالبينات والزبر، كذلك كان أهل الذكر يتذكرون بها، علما بأن المتعلق أقرب الألفاظ السابقة، والأقرب هنا: الذكر، خصوصا بإضافة الأهل، ولا سيما والكلمة غامضة وأكثر إثارة للتساؤل من كلمة: ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ثم إن المتعلق ينبغي أن يكون حسب رأيهم كلمة الوحي لا أرسلنا، فتدبر.

هدف البعثة

وهكذا أنزل الذكر إلى الرسول ﷺ بهدف تحقيق واحد من أمرين:

الأول: إن يكون الرسول ﷺ قدوة يتبع، وهذا يشبه التقليد.

الثاني: إن يثير عقول الناس ويحرك الراكد من أفكارهم، فيحصلون على العلم مباشرة. والهدف الأول يشمل جميع الناس، بينما يختص العقلاء بالثاني ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

(١) تفسير الميزان: ج ١٢ ص ٢٥٩.

ولماذا يمكرون السيئات؟ لماذا لا يعبدون ربهم؟ أو لا يرون إلى خلق الله أنى نظروا كيف يتحول ظلاله عن اليمين إلى الشمالك، وكل هذا الخلق يسجدون لله خاضعين، بلى، كل ما في السماء وكل ما في الأرض يسجد لله، من الأحياء والملائكة، دون أن يستكبروا شيئاً، وهم يخافون ربهم أن يأتيهم عذابه من فوقهم، ولذلك يطيعون الله في كل ما يأمرهم به.

أما الناس فبعضهم يتخذون الشركاء من دون الله، بينما أمرهم الله ألا يعبدوا الهين اثنين، لأنه لا إله إلا الله إلهاً واحداً، ينبغي أن يرهب جانبه، وأن لله كل شيء في السماوات والأرض، وله الحاكمية الواجبة، فلماذا يحذرون غير الله فيعبدونه؟! بينما النعم منه وعند النعم يستغيثون إليه، ولكنهم إذا كشف الضر عنهم يشركون بالله، كافرين بما آتاهم الله من خير ومن كشف الضر، فدعهم إذا يتمتعون فسوف يعلمون غدا مصيرهم المحتوم.

بينات من الآيات:

الحاكمية الإلهية

[٤٥] الله هو الحاكم، وله الدين الواجب، أما الذين يشرعون لأنفسهم الأنظمة الباطلة، وابتدعونها بقوة خيالهم، من أجل الوصول إلى أهدافهم السيئة التي يخططون للوصول إليها تخطيطاً واعياً، فإنهم لا يأمنون عذاب الله.

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أي مكروا مكرأ يعملون به السيئات، فالهدف كان شيئاً، ولكنهم استخدموا حيلتهم الشيطانية للوصول إليها، فهم أكثر ذنباً ممن يعمل السيئات خطأ أو حسب الصدفة، فهل أمن هؤلاء مكر الله؟ مثلاً: ﴿ أَنْ يَخْصِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ من فوقهم أو من أطرافهم.

يقول العلامة الطباطبائي: «هذه الآية والآيتان بعدها إنذار وتهديد للمشركين، وهم الذين يعبدون غير الله سبحانه، وشرعون لأنفسهم سنناً يستنون بها في الحياة، فما يعملون من الأعمال مستقلين فيها بأنفسهم، معرضين عن شرائع الله النازلة من طريق النبوة، استناداً إلى حجج داحضة (واهية) اختلقوها لأنفسهم، كلها سيئات.

وأضاف قائلاً: السيئات مفعول مكروا بتضمينه معنى عملوا: أي عملوا السيئات ماكرين»^(١).

(١) تفسير الميزان: ج ١٢ ص ٢٦٢.

وكلمة ﴿الَّذِينَ وَاصِبًا﴾ في السياق تدل على ما استوحاه العلامة الطباطبائي من معنى التشريع في الشرك.

[٤٦] والبشر بحاجة إلى الكسب، والاكتساب مخوف بالأخطار، والله سبحانه يحفظ الإنسان حين يسعى لرزقه، ولكنه إذا شرع لنفسه قوانين باطلة لسعيه، فقد يتركه الله فريسة للأخطار.

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي في سيرهم في البر والبحر لاكتشاف الرزق. ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ لا يهربون من ملاحقة العذاب، ولا يفلتون من يد العقوبة.

أنواع العذاب الإلهي

[٤٧] عذاب الله ألوان:

الأول: العذاب الفجائي الذي لا ينتظره، ويأتي من دون سابق إنذار مثل الخسف والزلازل.

الثاني: العذاب الذي يسببه البشر بأخطائه كأن يركب البحر فتقلب به السفينة.

الثالث: العذاب التدريجي كأن يعذب الله أمة بالقحط فيموتوا بالتدريج. ولكل لون من العذاب ألم خاص يدعنا نتحذر منه، وقد حذرنا القرآن منها جميعا. فعن اللون الأول من العذاب والثاني حذرنا الآية الأولى والثانية، أما عن اللون الثالث فيقول سبحانه: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾.

قال الطبرسي: «التخوف والتنقص وهو أن يأخذ الأول فالأول حتى لا يبقى منهم أحد، وتلك حالة يخاف منها الفناء ويتخوف الهلاك، ويقال: تخوفه الدهر»^(١).

وجاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام بوصيته لجابر بن يزيد الجعفي، قوله: إن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «اسْتَعْمِلْ حَاضِرَ الْعِلْمِ بِخَالِصِ الْعَمَلِ وَتَحَرَّزْ فِي خَالِصِ الْعَمَلِ مِنْ عَظِيمِ الْغَفْلَةِ بِشِدَّةِ التِّيَقُّظِ وَاسْتَجْلِبْ شِدَّةَ التِّيَقُّظِ بِصِدْقِ الْخَوْفِ»^(٢).

والواقع أن معنى التخوف الأصلي هو التيقظ اشتقاقا من كلمة الخوف، ولكن يسمى الهلاك التدريجي بذلك، لأن الإنسان يخشاه ويسعى جهده لتجنبه، فلا يستطيع ذلك مما يسبب

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٤٦٩.

(٢) تحف العقول: ص ٢٨٤.

له ألما جسديا ونفسيا، وربما كان هذا اللون من العذاب هو الأكثر ألما، ولذلك طمأن ربنا عباده بأنه رؤوف رحيم ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فبالرغم من استحقاقهم العذاب التدرجي، إلا أنه يتابع نعمه عليهم برأفته ورحمته.

آيات الخلق وحقيقة العبودية

[٤٨] لماذا الشرك بالله العظيم؟ أو ليس الكون كله ساجد لله، خاضع لمشيئته؟!

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ أو لا يرون ناظرين ما خلق الله من أشياء!!.

﴿مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوْا ظِلَّالَهُ﴾ أي يتحرك ظلالة من اليمين إلى اليسار. يقول الطبرسي: «التفويض التفعل من الفيء، يقال فاء الفيء بفيء إذا رجع وعاد بعدما كان ضياء الشمس قد نسخه»، ويضيف قائلا: «الفيء ما نسخه ضوء الشمس، والظل ما كان قائما لم تنسفه الشمس»، ويستنتج من ذلك أن معنى الآية يتميل ظلالة عن جانب اليمين وجانب الشمال ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ وربما جاء السياق بلفظ اليمين مفردا بينما جمع الشمائيل، لأنه قد اتخذ جانب اليمين مبدأ الحركة، بينما جعل جانب الشمال مآلها، والحركة تبدأ من مكان ولكنها تسير في أماكن مختلفة.

﴿سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ كل شيء يسجد لله داخرا خاضعا صاغرا، بالرغم من أننا نراها وكأنها واقفة، حيث لا يتحرك الا ظلالة فقط، ولكنها في الواقع تسجد لله، تسبحه وتستجيب لأوامره، وفي السجود معنى لا نفهمه من الخضوع وهو معنى الفعل.

[٤٩] وكما الأشياء الجامدة التي تتحرك حولها الظلال وهي جامدة ظاهراً، لكنها تسجد لله، كذلك الأحياء في الأرض والملائكة في السماء ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ بالرغم من عظمتهم بالنسبة إلينا نحن البشر الذين نستكبر ونتحدى إرادة الله.

[٥٠] وكل شيء يخشى ربه الذي يشعر أنه فوقه قاهره ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾.

العذاب يأتي من فوق وكذلك الثواب، يقول ربنا: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وهذا هو شعور الفرد أيضا تجاه ربه المحيط به علما وقدره.. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

[٥١] ويبقى الإنسان بين الخلق أجمعين يخضع لما هو خاضع لله، يخضع للشمس والقمر

والنجوم، يخضع للأنوار والأشجار والأحجار، يخضع للثروة، والقوة والدعاية.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ فلماذا نرهب جانب الطبيعة، حتى نعبدها، ولماذا نرهب الطاغوت حتى نستسلم له؟! ألا فلنخش رباً واحداً صمداً ﴿فَأَنبَتُوا فَأَرْهَبُون﴾

عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «مَنْ خَافَ اللَّهَ أَخَافَ اللَّهُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ وَمَنْ لَمْ يَخَفِ اللَّهَ أَخَافَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»^(١).

إن أكثر ما تتم العبادة من جانب البشر للأشياء، إنها تتم بسبب الهيبة والرغبة، ألا فلتسقط هيبة الطبيعة ألا فلنرهب ربها! وخالقها فقط!!

تجاوز الخوف شرط العبادة

[٥٢] وإذا تجاوزنا الخشية من الطبيعة، وتحررنا من رهبتها أسلمنا الوجوه لرب العالمين، وخضعنا لحاكميته وسيادته القانونية، وبالتالي لدينه الواجب ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومن بيده ناصية الطبيعة له السيادة التشريعية ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ قال الطبرسي: «وصب الشيء وصبوا إذا دام، ووصب الدين وجب»^(٢).

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تُنْفِقُونَ﴾ لماذا نتحذر من لا سيادة له؟.

إن السيادة لله، وأن التشريع الذي يعكس هذه السيادة هو الله، وأن مخالفة تشريعه وسيادته هي ما نحذر منه.

[٥٣] وعملياً نحن بحاجة إلى الله في كل صغيرة وكبيرة، فما من نعمة إلا وهي لله، وعند فقدنا نستغيث به ليعيدها علينا. فله السيادة أم لغيره؟!.

﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ الجوار: الاستغاثة برفع الصدمة.

[٥٤] ولكنه ما إن يرفع الضر حتى تعود حجب الشرك تفصل بين قلب البشر وربّه.

﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ والشرك هنا قد يعني

(١) الكافي: ج ٢ ص ٦٨.

(٢) مجمع البيان: ج ٦ ص ٣٦٥.

الخضوع لقانون غير قانونه، إن لحظات الحاجة هي أكبر شاهد على سفاهة الشرك، لأننا آنثذ نرى بوضوح شديد عجز الشركاء، فهل الطاغوت والسلطة السياسية الفاسدة التي تخضع لها هي التي تنقذ من أمواج البحر حين تكاد تبتلع السفينة؟!.

أم أن الثروة والأثرياء تقدر أن تنقذ طفلنا المشرف على الهلاك في غرفة العناية القصوى؟! من الذي نتوسل إليه آنذاك؟ أو ليس الله، فلماذا نعود ونخضع لقانون البشر؟!.

[٥٥] إن ذلك كفر بنعم الله التي وهبها الله لنا ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَنَّهُمْ﴾، والشكر هو الذي يدعم النعم، أما الكفر بها فصاحبه ينتظر اليوم الأسود ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فإن المتعة اليوم، تستتبع ندما طويلا طويلا.

لله المثل الأعلى

﴿وَجَعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَتَّىٰ
 عَمَّا كُنْتُمْ تَفَرِّقُونَ ٥٦﴾ وَجَعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا
 يَشْتَهُونَ ٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ
 ٥٨ يَتَوَارَىٰ ١) مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ
 يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٥٩ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
 مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٦٠ وَلَوْ يَوَازِئُ
 اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
 فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَخْرِجُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ٦١
 وَجَعَلُوا لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ
 لِلْمُسَوِّينَ لَا جُرمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ٦٢ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا
 إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ
 وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾

هدى من الآيات:

إن الشرك يقتضي أن يتنازل البشر عن جزء من نعم الله عليه لمصلحة الألهة التي يزعم أن لها تأثيرا حقيقيا عليه، ولا يحق له ذلك وهذا كذب على الله يتحمل المشرك مسؤوليته غدا.

وينسبون إلى ربهم الأمثال السيئة، فمثلا لأنهم يكرهون البنات، يجعلون لربهم البنات، بينما يجعلون لأنفسهم الذكور الذين يشتهونهم، فحين يبشر أحدهم بمولود أنثى، يبقى وجهه

(١) يتوارى: يستتر حياء وخجلا.

مسودا لزيادة الغضب الذي يكظمه، وتراه يتخفى عن الناس، وهو متردد هل يخفي ابنته في التراب أم يبقي عليها على ذلة وهوان؟.

وساء ما يصفون به ربهم- إنهم لإفتقارهم إلى مقياس الحق، وذلك بسبب كفرهم بالآخرة، يتخذون أسوأ القدوات لأنفسهم.

فدعهم في غيهم -بالرغم من نسبتهم السيئة لله- فإن الله لو أخذ الناس كلما ظلموا أنفسهم، لما ترك عليها من دابة، ولكنه -ولحكمة- يؤخرهم إلى أجل مسمى، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

وتراهم يصفون ربهم بما يكرهون لأنفسهم، ويزعمون أن لهم الحسنى بينما ليس لهم إلا النار، وأنهم مجموعون إليها، وهذا ليس خاصا بهم، فلقد بعث الله الأنبياء بهذه الرسالة للناس، فزين لهم الشيطان أعمالهم، وهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم.

بينات من الآيات:

الشرك عبودية وذل

[٥٦] الشرك عبودية وتقييد، وفقدان لإستقلال البشر وحرية أمام قوى الطبيعة أو القوى الاجتماعية، ويتجسد الشرك في الأغلال التي يضعها الإنسان لنفسه باسم الأنظمة والقوانين ويقيدها حياته، وعادة ما يقدر البشر هذه الأنظمة.

وبكلمة: الشرك هو تنازل طوعي عن رزق الله لمصلحة الطبيعة أو لمصلحة مراكز القوى ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ من الأصنام، ورؤساء القبائل، وقادة التجمعات غير الربانية، وقوى التسلط، وكلما لا يعلم الإنسان أن الله أمر باتباعها، وأن في اتباعها مصلحة الإنسان الحقيقية، يجعل المشركون هؤلاء..

﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي: جزءاً من نعم الله، وذلك بسبب جهلهم بواقع الأصنام الحجرية والبشرية، وإنها لا تملك لهم شيئاً، والله لا يرضى أن يتنازل البشر عن حرية وكرامته وعن حقوقه شيئاً، لأنه هو الذي رزقه له لا لغيره ﴿تَأْتُوا لِنُتَلَّاتٍ عَمَّا كُتِّمْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

[٥٧] للحياة مثلاً، وفيها خطان، الأول: مثل القيم السامية الكريمة، وخط القوة والعلم والحرية، والثاني: مثل الشهوات والأهواء، وخط الضعف والجهل والعبودية.

والمشرك يجعل نفسه محور عقيدته، فيقيس العالم كله بما يشتهي ويهواه، وتنقلب عنده

المعايير، ويتخذ مثله من أرذل المثل، كما يتبع خط الضعف والجهل والعبودية.

إنه يصبح أنانياً إلى درجة ينسب كل خير إلى نفسه وينسب إلى ربه تعالى الكذب، وبالرغم من أن الخير والشر عنده ليسا هما الخير والشر في الواقع، إلا أنه ينسب إلى ربه ما يراه هو شراً. إنك تراه ينسب إلى الله البنات اللاتي يزعم أنهن منقصة لأبيهن ولكنه يرفض أن تكون له البنات، ويبحث دائماً عن الذكور، فإذا اقترضنا -جدلاً- إن البنين خير فلماذا لا تنسب الخير لربك، بل لنفسك فقط؟! ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الأولاد.

مكانة المرأة في الجاهلية

[٥٨] بينما الواحد منهم يشتد غضبه إذا أخبر بأنه رزق مولوداً أنثى.

وهذا مثل من واقع المشرك الذي يحرم نفسه من أفضل نعم الله من ريجائه من الدنيا، من بهجة البيت، من البنت النظرة، بسبب جهله وشركه وخضوعه للأعراف الجاهلية، انه حكم سيئ جداً.

ولقد كانت عادة وأد البنات من أسوأ العادات الشركية، وأول ما بدأ هم ذلك أن بني تميم غزوا كسرى فهزمهم، وسبى نساءهم وذرايرهم، فأدخلهن دار الملك، وأخذ البنات جواري وسرايا، ثم اصطالحوا بعد برهة واستردوا السبايا فخيرن في الرجوع إلى أهلن، فامتنعن عدة من البنات، فاغضب ذلك رجال بني تميم فعزموا ألا تولد أنثى إلا وأدوها ودفنوها حية، ثم تبعهم في ذلك بعض من دونهم، فشاع بينهم وأد البنات^(١) ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ۖ وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يكظم غيظه لأنه لا يجد من ينفس عنه غيظه.

[٥٩] ويتهرب من الناس خجلاً، ولكي يختلي إلى نفسه ويفكر في حل لمشكلته، فهل يدفن أخته حية في التراب، أم يبقيا ويتجرع الهوان والذل على نفسه؟.

﴿يَتَوَرَّيْنِ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيَسْكُمُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي يحتفظ بالمولود بما فيه من ذل وهوان. ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي يخفيه في التراب. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

عبادة الذات جذر الإنحراف

[٦٠] والجاهلي الذي لا يؤمن بوجود مقياس للحق غير ذاته، حيث يجعل أهواءه

(١) تفسير الميزان: ج ١٢ ص ٢٧٧.

وشهواته ونزعاته الفردية والإقليمية، والاستكبار على الناس، وظلمه للضعفاء، ويجعل خيالاته وأساطيره الموروثة، يجعل -بالتالي- كلما يتصل بجانب الضعف والعجز والاستسلام مثلاً أعلى لنفسه، لأنه لا يرى أن هناك يوماً يطبق فيه الحق بلا لبس ولا خداع ولا نقيصة، فلماذا البحث عن الحق؟ ولماذا يجعله أساساً لحياته، ومقياساً لتقييم الأشياء؟.

وشيئاً فشيئاً يرحل عن قلبه ذلك الضوء الذي كان يهديه أبداً للحق، فلا تبقى في قلبه إلا ظلمات الشهوات ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ وهذه الآية الكريمة تشهد بما شهدت به الآية الأخرى في سورة ص: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

فلقد كان نسيان الحساب ويومه سبباً للضلالة.

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ إن أعلى مثل يتطلع لتحقيقه البشر، هو الوصول إلى القوة والفضيلة، لكي يحقق الفضيلة بما يملكه من قوة، والله عزيز وحكيم، ومن يتبع مثل الله فهو يصل إلى العزة والحكمة بإذنه.

والقرآن يهدي بهذه الكلمة إلى ما يجب به كل منا بوجدانه، إذ أن هناك خطين: خط الهدى والعقل، وخط الظلم والطغيان. ومن يؤمن بالآخرة سيصل بإيمانه بيوم الحساب إلى الخط الأمثل.

حكمة الأجل

[٦١] ولكن لماذا يترك الله العزيز الحكيم الناس يخالفون الحق، بل ينسبون إلى الله الأمثال السيئة؟ أفلا يدل ذلك على رضا الله بما يفعلون؟ كلا.. إنها هي حكمته ورحمته.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَلَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ إن كل دابة في الأرض تظلم في أي وقت وبالنسبة إلى أي شيء، تكفي سبباً لعذاب الله، ولأن الله الذي خلق الأحياء للإنسان وسخرها له، فإن ظلم الإنسان يكفي سبباً في هلاك الدواب جميعاً، وهكذا أغرق الله فرعون وجزء من دوابه، وأهلك الله عاداً وثموداً والمؤتفكة وقوم لوط بدوابهم ومواشيهم.

[٦٢] ويكفي الجاهلين ذنباً ما يفترون على الله، أفلا ترى كيف يجعلون لله تلك البنات التي يكرهونها لهم؟! ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ السِّتْنَهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ ويزعمون أن الأولاد الذكور شيء حسن، وأنهم لهم، كلا.. أن الأولاد فتنه، وعدم

الوفاء بحقوقهم يؤدي بهم إلى وسط النار.

﴿لَا جُزْمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ﴾ أي حقا، وبلا حاجة إلى تفكير. ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ أي معجلون إلى النار من قولهم: فرط وإفراط، إذا تقدم، والإفراط الإسراف، وسره أن صاحبه يتقدم الآخرين، ومعنى الآية - على هذا التفسير - إن أصحاب هذه النظرية أول من يدخل النار.

لماذا التسافل؟

[٦٣] ويبقى السؤال: لماذا هبط هذا الفريق إلى هذا الحضيض؟ لماذا افترؤا على الله الكذب؟

لأنهم عملوا السيئات فزين لهم الشيطان أعمالهم، فاصبح الشيطان أقرب صديق لهم، وكان لهم العذاب الأليم ﴿قَالَ لَوْ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ ربما يدل لفظ اليوم على مرحلة ما بعد التزيين، سواء في الدنيا أو بعد الموت، أما هنا فإن انحرافهم عن الحق يجعلهم يبحثون أبداً عن شياطين الأنس لاتباعهم، أما في الآخرة فإن هؤلاء الأشخاص يقودونهم إلى نار جهنم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

القرآن مقياس الحق ومظهر الرحمة

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٦٤) وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّظِيفُكُمْ بِطَوْنِهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيكُمْ وَدَمِيرًا لَنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يُوتَا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٦٩) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُنَوِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَوَّلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَحَفْدةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿ ٧٣ ﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿ ٧٤ ﴾ ﴿

هدى من الآيات:

إن للحق مقياسا يتجسد في الآخرة في الحساب، ويتجلى في الدنيا بالكتاب الذي أنزله

الله لفضل الخلافات، وإيصال الناس إلى صميم الحق، وتوفير الرفاه لمن يؤمن منهم به.

والكتاب مظهر لرحمة الله، كما ماء السماء الذي يحيي به الله الأرض بعد موتها، ومن يسمع حق السمع يستدل بهذه النعمة على رحمة الله، فلا يضرب الله الأمثال الباطلة، بل يهتدي إلى أن لربه المثل الأعلى، أو ليس الله أودع في حياة الأنعام عبرة، كيف يسقي الله من بعض الأجهزة والأعضاء المودعة في بطونها المحتوية على فرث ودم، يسقينا لبنا خالصا هنيئا لمن يشربه ١٩.

ومن رحمته إنه رزقنا من ثمرات النخيل وأنواع التمور، ومن ثمرات الكروم، وأنواع العناب ما نتخذ منه سكرا حلوا، ورزقا حسنا، إن هذه عبر أخرى وآية لقوم يعقلون.

وقد أوحى ربنا إلى النحل لكي تتخذ من الجبال بيوتا، وكذلك تبني بيوتا في الشجر، وفيما يبنيه الناس من العمارات المختلفة، ثم أمرها الله بأن تأكل من كل الثمرات، ثم تتحرك عبر السبل التي جعلها الله لها، فإذا ببطونها تصبح بإذن الله ينبوعا لشراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، وهكذا يصل المتفكرون إلى ما وراء هذه الظاهرة من آثار رحمة الله.

وتقلبات الحياة البشرية كيف أنه يخلقه الله ثم يميتة، والبعض من الناس يطول عمره ويصل إلى وضع غير محمود، حتى لا يعلم بعد علم شيئا.

وهكذا فضل الله بالناس بعضا على بعض فيما رزقهم إياه بحكمته، فلا يستطيع ذوي الفضل أن يعطوا رزقهم لمن هو دونهم، ويملكونهم حتى يصبحوا سواء، ولكن مع كل ذلك نجدهم يكفرون بنعمة الله، ويتخذون من الرزق وسيلة للاستعلاء.

وهكذا جعل الله للناس أزواجا من أنفسهم، ورزقهم الذرية والأولاد، ورزقهم من الطيبات، ومع ذلك يتركون نعمة الله ويؤمنون بالباطل المتجسد في الشركاء من دون الله، الذي لا يملكون شيئا من الرزق من السماوات والأرض، ولا يستطيعون شيئا.

كل هذه الآيات وغيرها تدل على أن الله المثل الأعلى، ولا يجوز لنا أن نقيس ربنا بخلقه، ونضرب له الأمثال الباطلة، فإن الله يعلم الحق ونحن لا نعلم، ولا يجوز أن يحكم الجاهل على العالم سبحانه.

بيانات من الآيات:

الكتاب ميزان الحق

[٦٤] كما أن للحق مقياسا ثابتاً يتجلى في اليوم الآخر على شكل جزاء، فلا تختلط هنالك الشهوات بالعلم، ولا الخرافات المزيفة للنفس بالحق، كذلك في الدنيا أنزل الله كتابا ينطق

بالحق، ويفرق الحق عن الباطل.

﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ ولكن ليس هذا هو الهدف الوحيد، بل لكي يبلغ الإنسان بالكتاب عمق الحق فيهتدي إليه، ثم ينال بتطبيقه على ذاته رحمة ورفاه جم.

﴿وَهُدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن من لا يؤمن بالحق ينتفع بالكتاب فائدة واحدة هي: رفع الخلاف الظاهر بينه وبين الآخرين، كما استفاد الأعراب من الإسلام قبل أن ينفذ الإيمان إلى قلوبهم، فقد خضعوا للإسلام كحكم سياسي، فنفعهم تسليمهم له وحدة سياسية، ولكن بعد أن آمنوا وصلوا بأنفسهم إلى الحق، ونالوا الخير الواسع.

القرآن مطر الرحمة

[٦٥] وكتاب الله كماء السماء يحيي الله به الأرض بعد موتها ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سوف نستمع إلى ثلاث عبارات جاءت كشرط مسبق لاستيعاب عبرة الحياة، وفهم خلفيات الطبيعة وهي بالتدرج: السمع، والعقل، والتفكير، وهي مراحل العلم الذي يهب الله للإنسان نوره، ثم يسلبه إذا بلغ أرذل العمر، وهي مرحلة الإحساس المباشر، أو التجربة البسيطة الآتية عن طريق السمع، وهي أقرب الأحاسيس إلى الشؤون العقلية، كما أنها وسيلة حضارية لنقل تجارب الأجيال لبعضها، ولنقل تجارب الناس المعاصرين لبعضهم، ثم تأتي مرحلة الحفظ وتراكم التجارب التي هي العقل حسبما جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «العقل عِقَالٌ مِنَ الْجَهْلِ»^(١)، وإن «العقل حِفْظُ التَّجَارِبِ»^(٢).

في النهاية تأتي مرحلة التفكير، وذلك بربط التجارب إلى بعضها مما نسميه نحن بالتحليل أو التعقل، ويبدو أن المعرفة الحق لا تحصل من دون اجتياز المراحل جميعا، ولكن القرآن الحكيم ربط بين كل مرحلة وبين آية إلهية لحكمة بالغة قد لا نفهمها إلا بالتدبر.

الأنعام عبرة ورحمة

[٦٦] ويتجلى اسم الرحمة الإلهي في الأنعام التي نعتبر بها عند أدنى نظرة، ونتعرف من خلال النظر إليها على الهدف من خلقها، وما يتصل بهذا الهدف من هدف أسمى لخلق البشرية

(١) مستدرک الوسائل: ج ١ ص ٨٣.

(٢) نهج البلاغة، من وصية الإمام علي عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام.

هو العلم والعمل.

﴿وَلَا تَكُفِّرُ بِلَدُنَا نِعْمَ الْبَعْرَةُ﴾ فمن خلال النظر فيها والتدبر في أمورها، ننفذ إلى الهدف منها، ولكن كيف؟

﴿تَشْفِيكُمْ بِمَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ كيف يميز الله اللبن عن الفَرْث، وهي الزيادة التي تهبط إلى الكرش قبل أن تخرج فتصبح سرجينا، وعن الدم الذي يجري في العروق ليصبح: ﴿لَبَنًا خَالِصًا﴾ من الشوائب والجراثيم، ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ ففيه الفائدة لخلوصه، واللذة لأنه هنيء يحبه الطبع البشري.

[٦٧] وآية أخرى هي الثمار النافعة كالرطب والعنب، وما يتهيان إليه من السكر والتمر والزبيب ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ولا ريب أن ثمرات النخيل والكروم من أفضل الرزق مذاقا، وفائدة طيبة، أما السكر فقد اختلفت كلمات العلماء فيها، وأمثل القول ما جاء مأثوراً عن ابن عباس أنه قال: «السكر ما حرم من ثمرها، والرزق الحسن ما حل من ثمرها»^(١). أي ثمة مقابلة بين ﴿سَكَرًا﴾ و﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ كإشارة لطيفة بإخراج ﴿سَكَرًا﴾ من ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾، تمهيداً لإعلان: (والا وهو محرم وإن لم يعلن ذلك)، وعلى كل فالآية لاتدل على حلية المسكر.

نعم سياق الآيات في إطار الامتنان، مما يوحي عدم سلخ صفة الحسن عن السكر، مما قد يتمسك به بعض بحلية المسكر ولو الدرجة الخفيفة منه (النبيذ)، وقال بعض أن ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ فعل الناس أعم من المسلمين والكفار، فلا يدل على الحلية، إذ هو إخبار عن فعل الناس، وقد يوسع في معنى السكر حتى يشمل الانتعاش، ولا ريب أن العنب والتمر يسببان انتعاشاً، والانتعاش بها لا يبلغ مستوى فقدان العقل (السكر المتعارف) حتى إذا زاد منه الشارب.

النحل آية بينة

[٦٨] وهناك رزق إلهي يختلف عما ينبت من الزرع أو يجري من الضرع هو: العسل الذي هيا الله النحل له، حيث ألهمه أن يبني بيوته السداسية الشكل، البارة والبالغة الدقة، وذلك في كنف الجبال، أو في سوق الأشجار، أو في الأبنية ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ وقال بعضهم أن العرش هو: الكروم التي تقام فوق سابات مرتفع.

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٤٨١.

معنى الوحي

وبدءاً نتساءل: كيف الوحي؟

قبل الإجابة لنعرف معنى الكلمة، والتي يقول عنها اللغوي الراغب: «الوحي الإشارة السريعة ولتضمن السرعة قيل أمر وحي وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، أو بإشارة بعض الجوارح»^(١). وقال العلامة الطباطبائي: «والمحصل من موارد استعماله: أنه إلقاء المعنى بنحو يخفى على غير من قصد إفهامه»^(٢).

١- فالإلهام بإلقاء المعنى في فهم الحيوان من طريق الغريزة من الوحي: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّفْلِ﴾.

٢- وكذا ورود المعنى في النفس من طريق الرؤيا: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٧].

٣- أو ورود المعنى في النفس من طريق الوسوسة: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

٤- ومن الوحي التكليم الإلهي لأنبيائه ورسله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١]. الآيات كاملة.

والوحي من الله إلى النحل يتناسب وجو الآيات العام، الذي يهدينا إلى آيات الله في الحياة، ليرز دور الإلهام في العلم، ابتداء من إنزال الكتاب إلى العلم الذي يسلبه الله عمن يبلغ أرذل العمر.

حيث أن الآية هذه تشير إلى دور الإلهام المباشر من قبل الله في حياة النحل، فكيف بالإنسان، وأن من يتعالى على الوحي المنزل من السماء فإنها يتكبر على أوضاع وأبسط الحقائق التي يعيشها في حياته، وهي النور الذي يضيء له دروب الحياة، وقد يكون ذلك سبباً لتسمية هذه السورة المباركة بإسم النحل.

[٦٩] ثم أمر الله النحل بأن تأكل من زهرة الأثمار، والتي هي خلاصة مواد الثمر قبل بروه، متخذة السبل الإلهية، والأنظمة التي وضعها الله للحياة، حتى تتحول تلك الزهرات

(١) مفردات غريب القرآن: ص ٥١٥.

(٢) تفسير الميزان: ج ١٢ ص ٢٩٢.

إلى شراب سائغ.

﴿ ثُمَّ كُلِّ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ أي الطرق المعبدة التي هيأها الله لك، فقد جعل الله للهواء مبلًا كما للأرض، وهي الأيسر سلوكًا والأقل مطبات هوائية، ويتعرف عليها الطيارون بصعوبة، بينما أوحى الله بها إلى النحل وغيره مما يطير بجناحيه.

﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ ﴾ والعسل يلقيه النحل من فيه، بعد أن يتفاعل في بطنه، ولذلك عبر ربنا عن ذلك بأنه يخرج من بطون النحل ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ من أمراض مختلفة، ويعطي الجسم حيوية ومناعة عن الأمراض ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

إن النحل هذا الحيوان المستهان في الدنيا، يأمره الله بأن يحقق هذا الهدف، وعلمه وسائل ذلك وكيف يبني بيته؟ وكيف يتخذ لنفسه عسوبا، وكيف يتوالد؟ كل هذه السنن الإلهية تستقطب اهتمامنا، وتجعلنا نعرف خاشعين بأن للكون المهيب إلهًا يدبر شؤونه سبحانه، ويبدو أن معرفة أسرار النحل بحاجة إلى بحث مباشر، ولذلك عقب الله الآية بأن النحل آية للمتفكرين، بينما لا تحتاج آية الثمرات إلى ذلك الجهد الفكري، بل إلى حفظ التجارب الزراعية، لذلك بين السياق هناك أن الثمرات آية لمن يعقلون، واكتفى في مراقبة الأمطار بالسماح فقال: ﴿ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾، وهكذا تختلف أسرار الحياة فبعضها تفهم بأقل دراسة، بينما بعضها الآخر تفهم بدراسة معمقة، وتبقى بعضها متوسطة.

دليل التدبير

[٧٠] وتطورات الحياة البشرية تهدينا إلى تلك الإرادة التي توجه حياتنا، لقد خلقنا الله وحين يشاء يسترد أمانته منا فيميتنا، وقد يشاء أن يعمر الفرد طويلا حتى يبلغ سن الكهولة، فإذا به يفقد ما حصل عليه أيام شبابه من علم وخبرة.

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أُولَى الْعُمُرِ ﴾ أي العمر الأكثر هبوطا، كما كان في أيام الصبا والطفولة ﴿ لَكِنِّي لَا يَعْزُبُ عَنْهُ عِلْمٌ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ فأصل علم الإنسان هبة إلهية. ويزداد بالسمع والاعتبار والتعقل والتفكير، بينما علم الله واسع دائم.

حدود الحرية البشرية

[٧١] والإنسان حر في الحياة، ولكن حريته محدودة، مما يهدينا إلى أن يد الغيب تدبر حياته، وأن الحرية المحدودة التي يملكها إنما هي لإختباره وليست من ذاته، لذلك ترى مواقع

الناس في المجتمع والدرجات العليا أو الدنيا التي يتفاضلون عبرها، إنها نفوذ إلى أصول تكوينية صعبة التغيير، أو مستحيلة التغيير، فلقد فضل الله بعض الناس على بعض في الذكاء، أو في النشاط، أو الصحة، وتهيئة فرص التقدم، فهل يقدر هؤلاء على تحويل صفاتهم إلى أولئك؟ كلا.. ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ وهو النعمة التي يهبها الله للإنسان بسعيه، وطيب نفسه، أو امتحانه وابتلاء الناس به مثل: العلم، والعافية، والأمن.

﴿فَمَا آتَيْنَاكَ فَضْلًا إِلَّا بِرِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ فلا يقدر الذين فضلهم الله أن يعطوا رزقهم الإلهي لمن هم دونهم، ولمن هم محكومون لهم.

والتعبير القرآني: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ يوحي بالرقية التي كانت شائعة في أيام نزول القرآن -ويبدو لي- أنه يشمل أيضا كل المراتب الاجتماعية التي يقتضيها التفاضل بين الناس في الكفاءات الطبيعية، ذلك لأن الكفاءة تقتضي -بالطبع- هيمنة صاحبها على من هو دونه فيها، فالعلم والقوة يعلوان الجهل والضعف، وصاحبها يملك ولو بنسبة معينة من لا علم ولا قوة له.

ولا أحد ينكر اختلاف الناس من الكفاءة الطبيعية، وأن هذه الكفاءة لا تقبل التحول من صاحبها إلى من هو دونه، حتى يصبحوا جميعا سواء فيها.

إن نظام الكون قائم على التفاعل بين أجزائه، وقد أمرت سنة الله في الناس أن يتعاون بعضهم مع بعض مثلما تتفاعل أجزاء الكون، ولكي يتعاونوا احتاج بعضهم إلى البعض الآخر، واختلفت كفاءاتهم، ولو تساوت كفاءاتهم واستغنى الناس عن بعضهم، إذن لبقوا كالحیوانات يعيشون أفرادا، ولم يتقدموا ولا خطوة واحدة في طريق الحضارة.

﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ إن نعمة التفاضل التي تنتهي إلى التعاون والتقدم نعمة كبيرة، لا بد من شكرها عن طريق رضا الناس بها وقبولها كواقع، ثم انطلاق كل واحد من موقعه في سبل الخير والفضيلة.

نعمة الأزواج

[٧٢] وإلى جانب نعمة التفاضل الطبيعي، ونعمة الحاجة المتبادلة، وبالتالي نعمة التعاون الذي فرض على البشر فرضا، نجد نوعا آخر من الحاجة المتبادلة والتي تؤدي إلى التعاون وهي الحاجة إلى الزوج ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ فلو لا الحاجة النفسية والجسدية والاجتماعية القائمة بين الزوج والزوجة لما تم هذا

التعاون العميق والواسع بين الزوجين.

إنها نعمة كبيرة، أسبغها الله علينا، إذ جعل لنا من أنفسنا أزواجاً، وكان كل جزء في الذكر انفصل عنه جزء في الأنثى، وانه يبحث عنه حتى يلتقي الذكر بالأنثى، فلتتقي كل أجزاء وجوديهما الجسدية والنفسية والعقلية.

ومن الأزواج ينسل البنين والبنات، أزواج البنات وهم الحفدة، أو أبناء البنين كما جاء في تفسير آخر، أو أبناء البنات كما جاء في حديث كريم، وأصل الكلمة مشتق من لفظة الحفد وهو: «الإسراع في العمل، ومنه قيل للأعوان حفدة لإسراعهم في الطاعة»^(١).

ويبدو أن الحفيد هو الفرد الذي يخدم الشخص، سواء كان ابن ابنه أو ابن بنته أو زوج بنته أو ابنها ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وكلما كثر نسل الفرد زادت نعم الله عليه، بينما يقتضي الحساب البشري أن يتناقص، أو لا يدل على أن الله هو الرزاق؟.

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ ويزعمون أن رازقهم الأغنياء أو الدولة أو الأصنام. ﴿وَيَنْقُصُ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي هؤلاء الذين أنعم الله عليهم، تراهم يكفرون بنعمته، حيث يتوجهون تلقاء الشركاء من دونه.

لماذا الإصرار؟

[٧٣] أترى الغباء والسفاهة؟ كيف يترك البشر خالفه الرزاق، ويتوجه بالعبادة والطاعة لمن لا يملك رزقا، ولا يقدر على أن يسلبه رزقه؟!

﴿رَبِّعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ وربما توحى كلمة الاستطاعة بالقدرة التي يكتسبها البشر اكتساباً، بينما الرزق والمملك قد يأتيان بلا تعب، والأصنام لا تملك ولا تستطيع، أو بتعبير آخر: لا تقدر على شيء من الرزق سعت أو لم تسع في سبيل القدرة.

[٧٤] كيف يشبه البشر ربه بخلقه؟.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ فتقولوا: فلان يرزقنا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الله يعلم أنه الخالق الرزاق، والبشر لا يعلم شيئاً إلا بما علمه الله، فلا يحق للبشر أن يتخيل ربه أو يتوهمه سبحانه، أو يحدد لفعله كيفاً أو مكاناً.

(١) مجمع البيان: ج ٨ ص ٤٨١-٤٨٢.

يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ^(١) لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرْوَا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يَتَّبِعُنَّ إِلَّا اللَّهَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ يُونُسَ كُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَثَمَنًا إِلَى جَنِّينَ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

(١) الذي يولد أخرس لا يفهم ولا يفهم.

هدى من الآيات:

قد يفقد البعض منا القدرة الطبيعية، إما لقانون اجتماعي أو لنقص طبيعي، فيقعده به العجز عن أي عمل، كالعبد المملوك أو الأبكم، ويضرب القرآن بهما مثلاً على واقع الكافر الذي يفقد قدرة الإيثار والعدل والحق.

والله سبحانه الذي يؤمن به المؤمنون عالم، قادر، فعنده غيب السماوات والأرض، وتتجلى قدرته في الساعة، فأمرها مثل خطفة أو أقرب.

والله مصدر العلم، أو لم يخرجنا الله من بطون الأمهات لا نعلم شيئاً؟ ثم وهب لنا السمع والأبصار والقلوب بهدف الشكر له!

والله مصدر القدرة، فهو الذي سخر الطير في جو السماء، لا يستطيع أحد أن يحفظهن إلا الله، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون.

والله مصدر الرحمة، فقد جعل للناس سكناً في بيوتهم، كما وفر لهم من جلود الأنعام بيوتا خفيفة في السفر والحضر، وهباً لهم من أصواف وأوبار وأشعار الأنعام متاع البيت. من فراش ودثار ومعاش إلى حين الانتقال من دار الدنيا إلى دار القرار.

وهو الذي وفر للإنسان الظلال والملابس السلمية والحربية، لتقيه من عارية الطبيعة ومن بأس بعضهم، وأتم نعمته على البشر لكي يسلم وجهه إلى الله، ولكنه يتولى ويعرض، ويكتفي الرسول بإبلاغ الرسالة، لأن الأدلة واضحة إذ يعرفون نعمة الله ولكنهم ينكرونها، وأكثرهم كافرون بربهم.

بينات من الآيات:

ظلم الطاغوت

[٧٥] عندما كانت الملكية المطلقة نظاماً سائداً في المجتمعات قبل انتشار نور القرآن، وكان العبد المملوك لا يقدر على شيء إلا بأذن مولاه. يضرب القرآن بذلك العبد مثلاً على واقع ذلك الإنسان الذي يقيد نفسه بأغلال الشرك، فيجعل نفسه عبداً لغيره وقد خلقه الله حراً.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ ويمكننا أن نصرب ذات المثل من واقع الشعوب التي استعبدها الأقوياء، ولم يتركوا لها شيئاً يتصرفون فيه بحريتهم، هل هم سواء ومن انعم الله عليه بالإيمان، وحرر نفسه من أغلال الشرك وعبودية ذوي الثروة والسلطة والتضليل؟!!

﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ مِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ كلا..

الذي أعطاه الله الحرية وزوده بحب الخير فهو لا يتفق رياء، ولا يكتُم إنفاقه عن الناس خوفاً، بل ينطلق في إنفاقه من إرادته الحرة، يستهدف مرضاة الله، ولا يرجو ولا يخشى أحداً.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي هيا للإنسان كل فرص الخير، ووفر له الحرية الكاملة، وزوده بالأحاسيس الخيرة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والجهل آفة الحرية، ولأن الجهل يتفشى في الأمم الضالة، فانه يسهل استعبادهم من قبل الطغاة.

ظلام الجبوت

[٧٦] كان لك مثلاً ضربه القرآن الحكيم من واقع شخص سلبه الطاغوت حرته، وحوله إلى موجود عاجز، ويضرب الله مثلاً آخر من واقع من يسلبه الجبوت حرته، فإذا به كالأبكم الذي ولدته أمه وأذنه صماء لا تسمع شيئاً، فلم يتعلم اللغة ولم يتفاعل مع الحضارة، وبقيت تجاربه محدودة بحدود ذاته، كالإنسان الذي ينمو في غابة، هل يستوي هو ومن أوتي العدالة والاستقامة؟

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا زَاجِلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ أي ثقيل على من يلي أمره ويشرف عليه.. ﴿أَيْنَمَا يُوْجِهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ كلما يبعثه إلى مكان لا ينفع شيئاً.

﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ فهذا الذي يأمر بالعدل فصيح اللسان قوي الجنان لا يخضع للضغوط ولا يخشى من التهديد ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فهو قادر على أن يحقق أهدافه من أقرب الطرق أن هذان مثالان للمشرك والموحد، فبينما المشرك منغلق على ذاته، لا يكاد يفتح على العالم من حوله، بل يمجّد بآيات الله ويعبد ذاته، ولا يسمع ولا يعقل ولا يتفكر، ولذلك فهو ليس فقط لا يقدر على التخطيط السليم لنفسه، بل إذا خطط الآخرون له شيئاً لا يقدر على إنجازه، أقول: بينما المشرك هكذا، ترى الموحد ليس فقط عادلاً بنفسه، بل ويقود الآخرين نحو العدالة.

وهذان المثالان يمكن تطبيقهما على الجاهل والعالم أيضاً، لأن السياق يتحدث عن العلم أيضاً.

[٧٧] والعلم والقدرة عند الله، والعلم مفتاح القدرة ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولعلمه المحيط بكل شيء ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ فهو يأمر بها في أقل من رمشة العين فتأتمر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن أراد العلم والقدرة، فعليه

أن يؤمن بالله، ويتوكل عليه.

[٧٨] هل العلم من ذواتنا نحن البشر؟ إذا لكننا عالمين منذ الميلاد؟.

كلا.. حينما أخرجنا الله لم تكن نعلم شيئا، ثم هيا الرب لنا وسائل العلم الظاهرة والباطنة، فأعطانا السمع والأبصار، كما أعطانا الأفئدة.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ والسمع هو: الإحساس الذي يتقدم ذكره في القرآن، لأنه الإدارة الأولى لنقل تجارب الأجيال إلى بعضها عبر اللغة، كما أنها تنقل أيضا المفاهيم العامة التي تتجاوز الظواهر الجزئية، ففائدتها أهم والتعبير عنها يأتي بصيغة مفرد (فلا يقال أسماع) لأن المفاهيم العامة أقرب إلى المجردات الكلية، ويلاحظ فيها العموم الذي يتجلى بالأفراد، بينما الجزئيات التي تعرف عن طريق البصر يلاحظ فيها التنوع، فهي أقرب إلى الجمع.

﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ وهي القلوب التي تجمع الأفكار وتحمل المعلومات، ولولاها لما كانت الحواس مفيدة إلا بقدر فائدتها للحيوان أو أقل.

ولعل الآية تشير إلى أن مصادر العلم الحسية كما السمع والبصر لا بد أن تتكامل؛ فقد يرى الإنسان ما لا يصدق سمعه، وقد يسمع ما لا يصدق بصره، وبعد التكامل بين معطيات الحواس تُصب المحسوسات في بوتقة القلب، حيث يتم تحليلها بما أودع الله فيه من عقل وعلم. والله العالم.

لعلكم تشكرون

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الهدف الأسمى لنعم الله على البشر ليس التكامل الجسدي والمادي، بل المعنوي والروحي، والتعرف على النعم وعلى أهميتها، وعلى الفوائد الكبيرة لها، والانتفاع بها فيما أمر الله، وفيما خصصت النعم لها، والتعرف من خلالها بالتالي إلى ينبوع الخير ومعدن الرحمة، إلى الرفيق الأعلى.. كل ذلك أسمى من الاستفادة الجزئية لهذه النعم حسب الحاجات العاجلة، وكل ذلك يجمعه معنى الشكر.

والآية هذه لا تعني أن العقل وبالتالي العلم ينشأ بتكامل طبيعي عند البشر، بل بالعكس تماما، إذ أكدت الآية على أن ربنا جعل لنا الأفئدة التي هي مركز العقل، فمن دون هذه النعمة كيف كان يتسنى لنا العلم؟.

[٧٩] وأشرف العلم معرفة الله، ولا تتم المعرفة من دون الإيمان، إذ تبقى الشهوات وصفة الشرك كالسدود المنيعة التي لا تدع تيار المعرفة ينفذ إلى القلب.

إن الجاحد لا يرى في الطيور التي تسبح في الفضاء إلا ما تسجله أداة التصوير، بينما المؤمن تنفذ بصيرته إلى معرفة الله الذي أمسك الطيور في جو السماء.

﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي في الهواء المحيط بالأرض، ولولا الهواء لما كانت الطيور قادرة على البقاء في الجو، ولولا الجاذبية المحيطة بالأرض لقدفت الطيور بمجرد صعودهن في كرة أخرى، أو في الفضاء اللامتناهي.

[٨٠] وهكذا القلب المؤمن الذي أسلم لله يعرف ما وراء نعم الله من عبر وأهداف.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ أي محلا تسكنون إليه، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ أي بيوت الجلد التي هي خفيفة للسفر والحضر، ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ أي أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز ﴿أَتَشَاءُ﴾ كالفراش والذئار التي يتمتع بها الإنسان لأجل مسمى ﴿وَمَتَّعَنَا إِلَىٰ جَنَّةٍ﴾.

[٨١] تلك كانت نعمة السكن، وأمتعة الإنسان التي تحفظ البشر من اختلاف الحر والبرد، وظلال الأشجار تقي السائر في الصحراء حر الظهيرة، والكهوف تحمي الإنسان من عادية البرد والحر، ومن الوحوش الضارية.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ كالأشجار التي أنبتها الله في الأرض ليستظلها الإنسان، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَاتًا﴾ أي مواقع تستترون فيها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَقِيكُمُ بِالْأَسْكَتِ﴾ فهناك ملابس السلم تقي حر الجو، وملابس الحرب (كالدرع) تقي حر السيف.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ هكذا يحوط الله برحمته الواسعة الإنسان الضعيف، ليعلم حاجته إلى ربه، فيسلم إليه وجهه، ولا يتجبر عليه.

إذا الهدف الأسمى لنعم السكن وما يحفظ البشر من شرور الطبيعة هو: دفعه إلى التسليم لربه، ليحافظ بذلك على نفسه من غضب الله.

الهداية بين الإكراه والاختبار

[٨٢] ولكن لا تبلغ قوة الدفع درجة الإكراه، فالله يريد أن يهدي الإنسان بما يوفر له من نعم، ولكنه لا يريد أن يجبره على ذلك، فإذا أعرض عن الرسالة فليس على الرسول سوى إبلاغ الرسالة إليه ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾.

[٨٣] وليس النقص في الآيات، أو في وسائل المعرفة عند البشر، بل في إرادة الكفر التي عقدوا العزم عليها ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾.

لا يؤذن لهم ولا هم يستعتبون

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ
فَلَا يَخَفُوا عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا
شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ
دُونِكَ فَآلِقُوا إِلَيْنَا الْقَوْلَ إِنَّا كُنَّا لَكَ كَاذِبُونَ ﴾ (٨٦) وَأَلْقُوا إِلَى
اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا
وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذَنْهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا
يُفْسِدُونَ ﴾ (٨٨) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ
وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ
شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٨٩) ﴿

هدى من الآيات:

الذين يتولون ويعرفون نعمة الله وينكرونها - حسبما ذكرهم الدرس السابق - ينتظرون يوم
العذاب الأكبر، حين يبعث الله شهيدا من كل طائفة من الناس ليشهد عليهم، فإذا شهد لهم
العقاب دون أن تجري محاولة لإصلاحهم كما كان في الدنيا، ثم حين العذاب لا يخفف عنهم
شفقة بهم، ولا تعطى لهم مهلة لدخولها، ولا تبقى لديهم حيلة إلا محاولة يائسة لإلقاء مسؤولية
انحرافهم على من أطاعوهم واتبعوهم من دون الله وهم الشركاء يتبرءون - بدورهم - من أمرهم،
وسكت الجميع واستسلموا لله، وتبخرت الأفكار التبريرية التي كانوا يفترونها من دون الله.

ولكن الكفار الذين أضافوا إلى كفرهم جريمة إضلال الناس، وقطع الطريق على من
أراد مرضاة الله، لهؤلاء المزيد من العذاب بسبب إفسادهم في الأرض وإضلال الآخرين.

بينات من الآيات:

من الشاهد؟

[٨٤] كل جيل من البشر، وكل فريق من الناس يعيشون في قرية أو ضاحية، يشهد عليهم واحد منهم، يكون أفضلهم سلوكاً وأقربهم إلى الله زلفى، ابتداء من الأنبياء والأولياء، ومروراً بعباد الله الصالحين والعلماء العدول، وانتهاءً بكل من يسبق من حوله في طريق الله خطوة واحدة، فحتى هذا الأخير شهيد على الآخرين بنسبة تلك الخطوة التي سبق الناس بها إلى الله ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهذا الشهيد هو أمام قومه عند الله، فإن اتبعوه ظاهراً قادهم إلى الجنة، وإن خالفوه ساقهم إلى النار، وشهد عليهم عند رب العالمين.

يقول العلامة الطبرسي: بين سبحانه أنه يبعث فيه (يوم القيامة) من كل أمة شهيداً وهم: الأنبياء والعدول من كل عصر، يشهدون على الناس بأعمالهم. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لِكُلِّ زَمَانٍ وَ أُمَّةٍ إِمَامٌ تُبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ مَعَ إِمَامِهَا»^(١).

﴿ثُمَّ لَا يُوَدِّتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي انهم لا يمكنهم أن يعتذروا، ولا يحاول أحد إرضاءهم أو إصلاحهم كما كان الشهداء يفعلون في الدنيا، فيسمعون من أجل إصلاحهم والاستماع إلى حديثهم.

[٨٥] ويوم القيامة يعرض الظالمون الذين غصبوا حقوق الآخرين، واعتدوا على حرمان الله، يعرضون على النار ثم لا يخفف عنهم العذاب ولا تعطى لهم مهلة. ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أما قبل ذلك في الدنيا فانهم قادرون على تخفيف العذاب عن أنفسهم بالتوبة، وتأخيرها بالدعاء.

مسؤولية الانحراف

[٨٦] ويبدأ يومئذ الصراع الساخن بين المشركين، وبين من عبدوهم من الطغاة ورموز الفساد السياسي والاجتماعي والاقتصادي، فيتبرأ كل فريق من الآخر ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ وطلبوا من الله أن ينزل بهم العذاب ويتركهم، لأنهم كانوا - في زعمهم - مجبورين، كانوا شعباً اعزلاً لا حول لهم في مقاومة الطاغوت، كانوا أبناء قبيلة لا قوة لهم في التمرد على رئيس القبيلة، كانوا

(١) بحار الأنوار: ج ٧ ص ٣٠٨.

جميعا رعا لا علم لهم حتى يتقنوا علماء السوء ووسائل الإعلام المضللة، إذن ينبغي أن يتحمل القادة العذاب عنهم، ولكن الشركاء وهم طغاة السياسة والاجتماع والاقتصاد تبرؤوا بدورهم ﴿فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي ألقوا هذا الكلام.

[٨٧] وخضع الجميع، الشركاء والمشركون بهم، لله رب العالمين ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ فرفعوا أيديهم خاضعين لله، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فقد زالت عنهم نخوة الجاهلية، وتلك الأفكار الباطلة التي زينوا بها شركهم، زالت عنهم الأسماء البراقة، والعناوين، والشعارات، وما برروا به تسلطهم الباطل، وما افتروا على الله كذبا.

عذاب المضل أشد

[٨٨] ولكن لا يعني هذا أن الشركاء متساوون في العذاب مع المشركون، كلا.. القادة الذين ضللوا الناس أشد عذابا، لأنهم أفسدوا عقول الناس، ومنعواهم من ممارسة حريتهم والسير في طريق الله.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأنفسهم.. كفروا بالله، ولم يشكروا نعمة الجاه والمال والعلم، ﴿وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فاتخذوا هذه النعم وسيلة للتسلط على الناس، ومنع الناس من ممارسة عبودية الله وتطبيق مناهجه، ﴿يَزِدُّهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ أي فوق جزائهم الطبيعي من العذاب، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسِدُونَ﴾ لأنهم صدوا الناس عن سبيل الله، وأفسدوا فطرة الناس بتضليلهم وافتراء الكذب عليهم، كما صدوا عن سبيل الله عمليا بالإرهاب، فأفسدوا على الناس حياتهم بسلب الحرية والاستقلال عنهم، والآية هذه تدل على أن التضليل نوع من الإفساد.

[٨٩] ويبعث الله الرسول شهيدا على الناس في عصره والمصور من بعده، بعد أن زوده بكل ما ينفعهم، كتابا.. فيه تفصيل مناهج الحياة، ويهتدي به من أسلم وجهه إلى الله، كما يوفر له أفضل حياة، ويشر بحياة أفضل في الآخرة ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ وامتازت رسالة الإسلام على ما سبقها فإنها ﴿تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، فشرعة موسى ﷺ المنزلة في الألواح ﴿وَكَتَبْنَاهُ فِي الْأَلْوَاكِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، ف﴿مَنْ﴾ تبعية، وأما شريعة عيسى ﷺ ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [النحل: ٣٩] من شريعة موسى ﷺ، ويبدو أن هذه الميزة هي البشري للمسلمين ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيِّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

العلاقات المثلى في المجتمع الإسلامي

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ
وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا
الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ
قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ مِنْ
أُمَّةٍ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُوءُكُمْ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ
فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ
يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾
وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا
الْأَسْوَءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا
تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ
صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا
مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

هدى من الآيات:

لقد بينت الدروس السابقة فضيلة العلم وقيمة التقوى وحاجة الإنسان إلى المدينة بنائها

وأمتعتها وإلى نظام اجتماعي توحيدي بعيد عن الشرك، وإلى قيادة سماوية تتجسد في الرسول، وها هو هذا الدرس يأمرنا بالعلاقات الإسلامية الاجتماعية المثلى بين أبناء آدم. بأن يعطى كل فرد حقه، وأن يزداد له بالإحسان، وأن يبني الحياة الأسرية على أساس العطاء، وأن يتقي الفحشاء والمنكر والاعتداء، تلك هي موعظة الله الهادفة لتوجيه الإنسان.

وأن يحترم الجميع عهودهم وأيمانهم التي أشهدوا عليها الله، وألا ينكثوا أيمانهم التي أكدوها بينهم، كتلك المرأة الخرقاء التي كانت تنقض آخر النهار ما غزلته أوله، فلا تجعلوا اليمين وسيلة للغدر للحصول على نصيب أوفر من الدنيا. ولا لكي يتعالى بعضكم على بعض، أن الله يختبركم باختلافاتكم الطبيعية، وغدا يبين لكم من كان منكم على حق ومن لم يكن، ولو شاء الله لبين ذلك هنا، فنصر صاحب الحق بالغيب الظاهر، ولكنه شاء أن يدعكم أحرارا ليسألكم عن أعمالكم، ولكي يضل من يشاء ويهدي من يشاء حسب حكمته.

فلا تجعلوا الدين وسيلة للغايات المادية، فتحلفوا كذبا وغدرا فتزل بالكفر قدم كانت ثابتة بالإيمان، ويصيبكم سوء الجزاء بسبب انهيار الثقة بينكم، وصدكم عن سبيل الله المتجسد في العهد، كما يسجل لكم عذاب عظيم.

وعهد الله الذي تخونونه أعظم شأنا من المصلحة المادية التي تبيعونه لها، فإن ما عند الله لمن ثبت على عهده خير من مصلحة الدنيا التي تفنى ويبقى ما عند الله فقط، والله يجزي الصابرين بخير ما عملوا.

ذلك الخير هو توفير حياة طيبة لهم، في الدنيا وجزاء حسن في الآخرة.

بينات من الآيات:

العدل سنة اجتماعية وواجب الهي

[٩٠] على كل واحد من أبناء المجتمع الإسلامي أن يكون عادلا، يعطي كل شخص حقه الفطري والقانوني، وليس الحفاظ على العدل مسؤولية الدولة فقط، لأن المجتمع الذي لا يشعر أبناءه بضرورة تطبيق القانون واحترام حقوق الآخرين، لا يمكن للدولة فيه أنى كانت أن تجبره على ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ والعدل لا يتنافى مع اختلاف الدرجات الذي تشير إليه الآية الآتية، إذ قد تكون المساواة أقبح ظلم، فليس سواء الجاهل والعالم، الكسول والنشيط، المضحي

بنفسه والجبان و.. و.. الخ.

وبالرغم من حاجة المجتمع إلى قانون يحدد أبعاد العدالة، وحقوق الطبقات المختلفة، حسب مساعيهم وحاجاتهم وحاجة الناس إليهم، ومما يجعل للعدالة معان مختلفة حسب القوانين والأعراف.

إلا أن العدالة واقع فطري لا يختلف البشر في خطوطه العريضة، وإن اختلفوا في التفاصيل.

ولكن قد يتعاسر الناس في تطبيق العدالة، فنحتاج إلى القضاء الذي لا يرضى عنه كل الخصماء، كما لا يطمئن الإنسان إلى نتائجه مائة بالمائة.

الإحسان ضرورة العدل

ولذلك يأمر القرآن بالإحسان، الذي هو التنازل عن بعض الحقوق للآخرين، والذي يسع رحابه العدالة ويزيد.. فيقول: ﴿وَالْإِحْسَانُ﴾ ويؤكد الإسلام على الإحسان لذوي القربى ليشكل الخلية الأولى في الكيان الاجتماعي ﴿وَالْإِيتَاءُ ذِي الْقُرْبَى﴾ ففضلاً عما تعنيه الآية من التواصل والتعاون المالي بين ذوي القربى لما بينهم من حقوق تفرضها صلة الرحم، فقد جاء في بعض النصوص الإسلامية أن تفسير ذي القربى هو: «أهل بيت الرسول ﷺ»^(١) وإن الإيتاء هو الخمس المذكور في الآية (٤١)^(٢) من سورة الأنفال، وقد نستوحي ذلك من سياق الحديث عن شهادة الرسول على الأمة في الدرس السابق.

﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ الفحشاء كما قال في المفردات: ما عظم قبحه من الأفعال، ويبدو من أصل اللفظة أن الفحشاء هي تجاوز الحد، والذي يتناسب مع الإسراف والتبذير، ومن المعلوم: أن الإسراف أصل كل خطيئة ورأس كل رذيلة.

أما المنكر فهو الذنوب التي ينكرها الناس.

ويبدو أن معناه هو كل فحشاء قبيحة عند الناس، وهي أشد من سائر أنواع الفحشاء،

(١) جاء في كتاب الكافي: ج ٨ ص ٦٣ من خطبة طويلة لأمير المؤمنين عليه السلام: «فَتَحَنُّ وَاللَّهُ عَنِّي بِذِي الْقُرْبَى الَّذِي قَرَنَّا اللَّهُ بِنَفْسِهِ وَبِرَسُولِهِ ﷺ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَقِيلَ لِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَآتَى السَّبِيلَ﴾ فِينَا خَاصَّةٌ ﴿كَأَنَّهُ لَا يَكُونُ دَوْلَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِالرَّسُولِ فَحُدُّوهُ وَمَا هُنَّ عَنْهُ فَأَنْتُمْ هُمْ وَأَنْقَرُوا اللَّهَ﴾»

(٢) ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ قِسْمَهُ لِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾.

بينما البغي هو تجاوز حقوق الناس بصورة علنية، أو عن طريق الغش والخداع ... و...

﴿يُعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ إنها حقائق فطر قلب البشر عليها وهو بحاجة إلى من يذكره ويعظه بها. ومن هنا فإن الإيمان بهذا الدين العظيم لا يتطلب سوى إعادة الناس إلى وجدانهم واستنارة فطرتهم، فإنهم إلا القليل سيرون أنه دين الحق. إن هذا الدين لا يتطلب الكثير من التفلسف في دعوة الناس، نعم الجدل العميق ينفع في دفع شبهات الضالين.

الوفاء لا النقض

[٩١] المجتمع الذي يمتلك أساساً لعلاقاته، وركيزة يعود إليها عند الضرورة، يستطيع أن يتبادل بسهولة، والمجتمع الإسلامي قائم على أساس الالتزام بالعهد واليمين، اللذين يؤكدان اسم الله.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ فلان أبناء المجتمع يتمسكون بقيمة التوحيد، ولأنهم لا يضحون بأيمانهم ابتغاء عرض الحياة الدنيا، فإنهم يعتمدون على بعضهم في أمورهم الاقتصادية، وحتى في شؤونهم السياسية.

إن الثقة المتبادلة هي أعظم رصيد يملكه المجتمع المسلم في معاملته مع بعضه، ذلك لأن شرف التوحيد يأبى لهم أن يغدروا ببعضهم وهم يؤمنون برعاية الله عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

[٩٢] تروي قصص العرب أن امرأة قرشية خرقاء كانت تغزل هي وجواربها عرض النهار، فإذا أمسى نقضت الغزل، وتركته كحالته السابقة أنكاثاً، لا فتل فيه ولا إبرام، فنهى القرآن الحكيم أن تكون مثلها، نتعب أنفسنا في أمر الدين حتى إذا أحكمناه عدنا لنقضه بنكث العهد ونقض القسم ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي مثل (ريطة بنت كعب) خرقاء مكة التي غزلت بقوة، ثم نقضت من بعد قوة.

﴿أَنْكَثًا﴾ جاء في (المجمع): «وكل شيء نقض بعد الفتل فهو أنكاث، حبلاً كان أو غزلاً»^(١).

﴿لَتَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي تستخدمون اليمين وسيلة للغدر، والدخل

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٤٩٤.

- في الأصل - كلما دخل الشيء، وليس منه، ويكن به عن الخدعة والخيانة.

﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْقَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي بهدف أن تكون أمة أعلى من أمة أخرى وتتسلط على أختها وتحافظ على سيطرتها بالخداع.

وما الحلف والعهد، وما نوازع السلطة والاستعلاء إلا ابتلاء إلهي ﴿إِنَّمَا يَبْلُوَكُمْ اللَّهُ بِهِ﴾ ولن يصبح الحق باطلا بتضليل الناس، ولن يصبح السيئ صالحا بتبريره للنفس أو للآخرين، إذ أن هناك يوما يكشف الله فيه الحق لكل الناس ﴿وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

[٩٣] ولكن لماذا لم يبين الله في الدنيا واقع الخداعين، المتسلطين على رقاب الناس؟ إن لهذا حكمتين:

الأولى: ليمنع نعمة الهداية للبعض، ويسلب نور العقل من آخرين حسب اختيارهم هم، لا حسب علمه سبحانه.

الثانية: ليجازي صاحب الخير، وفاعل الشر بالعمل الذي مارسه بكل اختيار وحرية ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

آثار اليمين الكاذبة

[٩٤] وعاد السياق ينهى عن الخداع في اليمين، ويحذر من آثاره الفكرية والاجتماعية.

الف: فمن الناحية الفكرية: حث اليمين ونكث العهد يسبب ضلالة صاحبه، فإذا بتلك القدم الثابتة بسبب الإيمان تزل بالحنث والنكث، وماذا ينفع الثبات في أوضاع عادية، إنما الثبات عندما تهب عواصف المصالح ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾.

باء: ومن الناحية الاجتماعية: لا يمكن أن يستخدم الفرد يمينه (وبالتالي شرفه وحسن سمعته عند الناس) إلا مرة واحدة، وبعدها يكشفه الناس، بل وتشيع عند الناس فكرة خبيثة هي: أن أهل هذا البلد لا يحترمون اليمين، فلا يحترم بعضهم يمين البعض، وإذا سقطت قيمة اليمين الاجتماعية أغلق باب واسع للثقة والتعاون، وبالتالي انهار البناء الاجتماعي، ويزدق الجميع فاجعة تهاونهم باليمين وصددهم عن سبيل الثقة بها.

والآية تشير إلى حقيقة وهي أن اتخاذ الأيمان مدخلاً للعلو عاقبته في نهاية الأمر هو زلل القدم عن موقعها المكتسب بعد ثبوتها فيه، إذ سرعان ما ينكشف الزيف في تدافع الأيام.

﴿وَتَذُقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وسبيل الله هو كل خير، وكل تقدم وعمران ورفاه للناس، ومنع الناس عن سبيل الله. وصدّهم عنه قد يكون بإغلاق طرق التعاون واليمين من أفضلها، إذ لا شيء من القوانين والوثائق والضمانات والرهون بسهولة اليمين ولا بقوته في إشاعة الثقة والتعاون ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

[٩٥] وكما اليمين العهد الذي يشتري به البعض ثمنًا قليلًا، وإن كانت قيمة الثمن الذي يقبضه الفرد بيع شرفه وعهده وإيمانه فإنها ستكون قليلة، لأنها تسقط هبة العهد فيسد باب كبير للرحمة.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فمن يبدل رحمة الله ببضع دراهم يكسبها من نكث العهد أو بسلطة زائلة أو ما أشبهه؟!.

وكانها الآية تحكي حال بعض الطالبين للعلو من أجل خدمة الدين ولو ظاهراً لكن الالتواء في نهاية المطاف يجعل هذا العلو للصد عن سبيل الله. فالبحث عن المكاسب السريعة على حساب القيم لن يكون في سبيل الله مطلقاً، ولن ينفع مرتاديه.

خلود الجزاء

[٩٦] علماً بأن ما عند الله من خير يبقى ببقاء الله سبحانه، بينما حطام الدنيا يزول بزوال العوامل التي أنشأته ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ إن الحق الذي يضمن الله ثباته، أبقى من الباطل الذي يضمّنه غرور الإنسان، وخداع الشيطان، لقد خلق الله السماوات والأرض بالحق، فلذلك تخدم حركة الكون سلطة الحق، بينما الباطل يجري في عكس حركة الطبيعة والتاريخ.

فطرة الإنسان حق، لأن القوانين النفسية والجسمية والاجتماعية السائدة على أبعاد حياة البشر لا تتغير منذ خلق الله آدم وإلى الأبد، فإذا كانت فطرة الإنسان قائمة على أساس الوفاء بالعهد، فإن المجتمع القائم على أساس شرف العهد يكون أبقى، وخير الله أكثر مما يحصل عليه بعض الأفراد بسبب الغدر والمكر.

إلا أن الحق بحاجة إلى الزمن حتى يظهر، ولذلك فإننا بحاجة إلى الصبر حتى نخدمنا

الزمن ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فإن طيبات العمل تنمو في غمق الزمن، بينما يذهب العمل السيئ كما يذهب غناء السيل برغم ظهوره وبروزه، كما في الحديث: «إِنَّ لِلْحَقِّ دَوْلَةً وَلِلْبَاطِلِ دَوْلَةً»^(١).

الحق صلاح

[٩٧] الحق في واقع السعي صلاح، فمن اتبع الحق فإن عمله صالح، ينمو مع نمو الطبيعة، ويزرع بذلك بذور الحياة الطيبة لنفسه في أرض الزمن المباركة، ليحصد جزاء حسنا في الدنيا وأجرا كريما في الآخرة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَزُكَّرْهُ وَأُنْفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهكذا يغفر الله لمن عمل صالحا سيئات عمله، ويحفظ له صالحات عمله ليجزيه بها خيرا.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ قال: «الْقُنُوعُ»^(٢) ولا ريب أنه كنز من كنوز الله التي لا تنفذ، وتطيب الحياة كلما طابت النفس البشرية في مواقفها منها، فإن الرضا أطيب من كل الطيبات.

وكلمة أخيرة: إن العهد ليس فقط أساس التعامل المالي في المجتمع، بل قبل ذلك أساس التعاون السياسي، وإذا انعدم شرف العهد في أمة، فسوف يبدأ بالتشرذم السياسي، وقديما قيل: «لَا وَفَاءَ لِلِّكَ وَأَنَّ الْمُلْكَ عَقِيمٌ». ولذلك أكد القرآن الحكيم في هذا الدرس على حرمة نقض العهد من أجل سلطة قوم على آخر، وأن تكون أمة هي أربى من أمة.

(١) الكافي: ج ٢، ص ٤٤٧.

(٢) بحار الأنوار: ج ٦٨ ص ٣٤٥.

كيف نفهم الكتاب؟

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (٩٨)
 إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ
 (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ
 (١٠٠) وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَاتٍ ءَايَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
 يُزَكِّى قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ
 رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى
 وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا
 يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبْنِي وَهَذَا
 لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا
 يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا
 يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (١٠٥) ﴿

هدى من الآيات:

كان الدرس السابق بعض تعاليم القرآن الاجتماعية الرشيدة التي لا ينكرها إلا الجاحدون، وهي تدل على أن الكتاب من الله، بيد أن الكتاب لا يفهمه إلا من تخلص من سلطان الشيطان، ولا يتخلص منه إلا المتوكلون الذين يستعينون بالله من شره، أما الذين يقولونه ويجعلونه شريكا في أمورهم بطاعته، فإن الشيطان يتسلط عليهم ولا يدعهم يبصرون نور القرآن.

وقد ينسخ الله آية بآية لعلمه بالمصالح العامة التي تتغير وفق الظروف، فأنشد يجد المشركون فرصتهم في إتهام الرسول بأنه مفتر، لجهل أكثرهم بحكم الآيات. كلا.. إن القرآن

كتاب الله الذي أنزله روح القدس بالحق من الله، ليكون تثبيتاً لإيمان المؤمنين، وهدى لهم، وبشرى إلى حياة أفضل.

ويقولون: إن الرسول يتعلم من بعض النصارى المبادرين بالإسلام، دون أن يعرفوا الفرق بين لسان النبي ولسانهم، فبينما ذلك اللسان أعجمي نرى القرآن يحدثنا بلسان عربي مبين، وليس الجدل في القرآن إلا بسبب جحودهم به، ولا يهدي الله قلباً جاحداً، بل يذيقه عذاباً أليماً.

وكيف يفترى الكذب شخص مخلص لمربه، محسن إلى الناس كمحمد ﷺ والذي يعرف أن الكذب أبعد خصلة عن المؤمن، ولا يفترى الكذب إلا الذين لا يؤمنون بآيات الله، وأولئك هم الكاذبون حقاً؟!.

بينات من الآيات:

توكل على الله

[٩٨] القلب البشري يلفه الظلام الآن من طبيعة الضعف والجهل فيه، ومن تأثير جاذبية الطبيعة، وبالرغم من أن هذه النفس قد أوتيت قبساً من نور الحقيقة هو الذي نسميه بالعقل والإرادة، إلا أن على الإنسان أن يتحدى الظلام المحيط بنفسه عن طريق إثارة عقله، ويتحدى ضعفه ويأسه وخوفه بالتوكل على الله.

إن أقوى الحجب التي تمنع النور عن قلب البشر هو: الخوف من الحقيقة، والجبن عن مواجهة القوى الفاسدة والباطلة التي ترفض الحقيقة.

الاستعانة بالله، والطلب المباشر منه لكي يحفظ الإنسان من خطر القوى التي ترفض الحق، إنه العلاج المباشر لمشكلة الخوف من الحقيقة، ومقاومة سلطان الشيطان على القلب.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ لكي نبلغ قمة الحقيقة المتمثلة بالقرآن لابد أن نتجاوز جاذبية الأرض، والقوة التي بها نقاوم هذه الجاذبية المتجسدة في الشهوات هي قوة التوكل على الله، والاستعانة نوع من التوكل، وتفرق عنه في أن الاستعانة طلب ملح من الله بإنقاذ الإنسان من شر محقق، وأي شر أخطر من شر العقيدة الباطلة، أو من شر الجهل بالحقيقة الذي تخلقه وساوس الشيطان في القلب؟!.

وفي طول فترة تلاوة القرآن لابد أن يستعين البشر بربه.

التوكل حصن المؤمن

[٩٩] الشيطان ينفذ إلى قلب الشخص، ويتجسد في شكل القوى السياسية والاجتماعية المحيطة به، ولكن المؤمن الذي يتوكل على الله يحفظه الله من هذا الشيطان الذي يجري فيه مجرى الدم ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ بينما الذي لا يؤمن بالله يتسلط عليه الشيطان، فيضله عن الحقيقة لضعف إرادته.

[١٠٠] الذي يتخذ الشيطان وليا وقائدا مطاعا، فيشرك بالله ويتخذ من الشيطان شريكا مزعوما لله، ويعبد الله حيناً ويعبد ويطيع الشيطان حيناً آخر، إنه يقع في فريسة الشيطان الذي لا يستطيع أن يتخلص من شره إلا بالاستعاذة بالله.

﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ يبدو أن هناك فريقين يتسلط عليهما الشيطان، انسياً كان شيطانها أو جنياً، ظاهراً كالطغاة والمستكبرين، أو باطناً كالعقائد الفاسدة والعقد النفسية.

الفريق الأول: الذين يتخذون الشيطان وليا، ويخلصون الإنتهاء إليه كمثل أئمة الكفر، والملا من حول الفراعنة، والبطانة من حول الطغاة.

الفريق الثاني: الذين يطيعون الشيطان خوفاً وطمعاً وسواء هذا الفريق أو ذاك فانهم جميعاً يصبحون عبيد الشيطان، ويفقدون حريتهم واستقلالهم وثرواتهم التي يصادرها الشيطان.

القوى الإستكبارية في الأرض، لم تفرض بالسيطرة على الناس من قبل الله الحكيم سبحانه، إنما نحن الذين خضعنا لأفكارهم، فأخضعتنا لمصالحهم، أو خضعنا للثروة والقوة رهبا ورغبا، فامتلكت دوننا ناصية الثروة والقوة، واستعبدتنا صاغرين.

والآن كيف نتخلص؟

لابد أولاً من التحرر عن الأفكار الإستكبارية القاضية بالتبعية المطلقة للمال والرجال، ثم العودة إلى الله، والاستعاذة به من شر الشيطان، ذلك لأن الطبيعة ترفض الفراغ، والقلب البشري ينقاد إما لسلطة الله أو لتسلط الطاغوت، فإذا رفضنا ولاية الله استعبدنا الشيطان، ولا حياد بين الحق والباطل، كما لا مسافة بين الكفر بالله ورفض حاكميته على الإنسان، وبين الإيمان بالطاغوت والخضوع لتسلطه واستغلاله.

والسياق القرآني يشير إلى هذه المعادلة، إذ يأمرنا ربنا بالاستعاذة بالله والتوكل عليه، ثم

يبين أن الشيطان عاجز عن التسلط على المتوكلين بالله.

ونتساءل معا: هل تعني الاستعاذة مجرد التوجه القلبي إلى الله؟ أم أن تطبيق مناهج السماء في الوحدة والصبر، والاستقامة والسعي، والقيادة الرشيدة، كل أولئك بعض معاني الاستعاذة بالله، وبالتالي طرق مقاومة العبودية للشيطان الإنسي والجنّي؟.

شيطان الفكر

[١٠١] الشيطان الثقافي أخطر على الإنسان من زملائه شياطين الثروة والإرهاب والزينة؟.

ذلك لأن قدرة الإنسان على التمييز بين الحق والباطل ليست عالية، وذلك لسبب بسيط أن القلب البشري يتعرض لعواصف الشهوات، فيخبر ضوء العقل، ولولا تدخل قوة غيبية هي قوة الإيمان والتوكل، فإن رياح الشهوة تكاد تطفئ مشعل العقل.

من هنا كانت الشبهات خطيرة، ومن هنا أيضا لم يتخلص حتى المؤمنون من وساوس الشيطان، فغفر الله لهذه الأمة المرحومة ما يوسوس به الشيطان إذا لم يعتقد به المؤمن.

ومن الشبهات ما أثاره الشياطين حول تبدل الأحكام الشرعية وفق متغيرات الظروف فقالوا: إذا كان الرسول صادقا إذا لم يأت كل يوم بقانون جديد ومخالف للقانون السابق؟ بل قالوا: إذا كانت رسالات السماء صادقة إذا ما اختلفت شرائعها؟!

ولكن الله أعلم بما ينزل، وهم جاهلون ولا يعلمون أن الحياة تتغير، وكل قانون يناسب وضعاً معيناً، فإذا نزل فيه كان حكيماً، وإذا تخطاه كان سفهاً.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ﴾ فهو عالم بحكم النسخ والتغيير.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وإذا ترسخت هذه الشبهة في قلب فليس من السهل إزالتها، لذلك كان علينا الاستعاذة بالله أبداً حين قراءة القرآن، بل حين دراسة أية قضية علمية حتى لا يختلط الحق والباطل في أذهاننا.

[١٠٢] إن الذين يكذبون ويبدلون آراءهم كل يوم، بل بين ساعة وأخرى إنما يتبعون أهواءهم، بينما الكتاب نزل به الله بسبب روح القدس المعصومة عن الزلل، والمقدسة عن الأهواء، وحكمة هذه الروح التي ترافق الرسول أن تثبت المؤمنين وتعصمهم من غواية الشيطان ومن شبهاته.

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ فالخلق المتمثل في سنن الله، في الآفاق والأنفس، هو باطن آيات الله، كل آية مظهر لسنة إلهية راسخة في ضمير الخلق. والسنن ليست واحدة وكذلك الآيات. والاختلاف بين الخلق موجود، ودليل على وحدة خالقهم، كذلك الاختلاف في آيات الله الكاشفة لتلك السنن موجود، وكاشف عن علم الله سبحانه.

﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فالذين آمنوا يعتصمون بروح القدس، ويظلمهم روح القدس بقبس من نوره ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ فمن أسلم وجهه لله، هداه الله بالقرآن وبشره بحياة طيبة، وإذا تكامل فإنه سوف يصبح مؤمناً، والمؤمن يملك قوة إلهية تحفظه من كيد الشيطان، ومن شبهاته وهذا يسمى بالعدالة، ويقولون خطأ: «أنا ملكة في النفس» ١٩.

من شبهات الشيطان

[١٠٣] وشبهة أخرى يطرحها الشيطان ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي﴾ يلحدون: أي يميلون. فقد قالوا: إن رجلاً اسمه (أبو فكيهة مولى بني الحضرمي) كان أعجمي اللسان، وكان قد اتبع نبي الله وآمن به، وكان من أهل الكتاب، قالوا أنه يعلم الرسول!

وبعض التفاسير تقول: إنه غير هذا الرجل، ولكنه على أي فرض كان أعجمي اللسان، والقرآن نزل بلغة عربية واضحة تعرب عن الحقيقة ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَكَبِيٌّ ثَبِيثٌ﴾.

الرد على الشبهة

إن الترجمة طابعها مهما كانت بلاغة المترجم، لأن كل لغة تعبر عن ثقافة خاصة صيغت تلك اللغة على مقاسها، واللغة العربية لم تكن قادرة على التعبير بدقة عن الأفكار الدخيلة، ولم تكن واضحة بذلك الوضوح المتناهي في البلاغة والنفاذ إلى القلب، لولا أن ملقيها قد تعمق في فهم المحتوى، واهتدى إلى الموضوع الذي يعبر عنه، ووضح أن التعبير المفصل لا يكون من دون فهم عميق للفكرة، فكيف يعبر الرسول عن كل تلك الأفكار المفصلة والدقيقة إذا كان مجرد مترجم؟!.

[١٠٤] ثم إن القلب الذي لا يؤمن بالله لا يقدر أن يعبر عن الله، وأن ينطق باسم الله بهذا الوضوح والصراحة والقدرة، ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِثَابِتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٨﴾

[١٠٥] والمؤمن بالله لا يفترى على الله، خصوصاً ورسول الله أكد بوضوح مدى جريمة الافتراء على الله، فكيف يرتكب بنفسه لو كان مؤمناً هذه الجريمة؟!.

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا نَزَّلَ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾
الذي يؤمن بآيات الله، وشخص رسول الله هو أظهر مصدايقه بلا ريب، فإنه يخشى من الكذب، بل إنه قوي لا يحتاج إلى الكذب، وعالم لا يتورط في الكذب.

ولذلك جاء في الحديث النبوي: عن عبد الله بن جرادة أنه سأل النبي ﷺ قال: «المؤمن يزني؟» قال ﷺ: «قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ»، قال: «المؤمن يسرق؟» قال ﷺ: «قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ»، قال: «يا رسول الله المؤمن يكذب؟» قال ﷺ: «لَا»، - ثم أتبعها نبي الله ﷺ - قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، (١).

عاقبة الإرتداد

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠٦ ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ١٠٧ ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ١٠٨ ﴾ لَا جُرْمَ ١١١ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ١٠٩ ﴿ ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ١١٠ ﴾ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١١١ ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً بِأَنْبِيَآهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ١١٢ ﴿ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ١١٣ ﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ١١٣ ﴿ *

(١) لا جرم: حقاً لا محالة.

(٢) رغداً: طيباً واسعاً.

هدى من الآيات:

في الدروس السابقة حذرنا الرب الكريم من الكفر بعد الإيمان، والزلل بعد الثبات وذلك بمناسبة الحديث عن النكث والحنث. وها هو الدرس يفصل القول في الكفر بعد الإيمان بصفة عامة، فيحذر من غضب الله الذي يحل بمن يرتد عن دينه - قولا أو عملا - إلا الذي أكره على الكفر بطريق لسانه، بينما لا يزال قلبه مطمئنا، وإنما المرتد من استقبل الكفر بصدر رحب وذلك له عذاب عظيم، لأنه فضل الحياة الدنيا على الآخرة، فسلب الله منهم نور الهدى، ويطبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وهم غافلون عن أوضح الحقائق من حولهم، وبالتأكيد سوف يخسرون أنفسهم في الآخرة.

بينما الثابتون على الهدى برغم ما يتعرضون له من مكروه، ويهاجرون إلى الديار الآمنة من بعد الإبتلاء، فإن الله بالنسبة إليهم غفور رحيم، يشملهم برحمته في يوم تأتي كل نفس تدافع عن ذاتها، فلا تعطى إلا جزاء عملها الأوفى، دون أن نظلم من عملها شيئا.

وأما من يكفر بعد إيمانه فإن الله يضرب له مثلا من واقع قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها وسعيا طيبا، من كل مكان، ولكنها كفرت بأنعم الله فشملهم الجوع والخوف بسبب أفعالهم، وكلما حاول رسولهم أن يهديهم لم يسمعوا له، بل كذبوه وكانوا ظالمين لأنفسهم في ذلك.

بينات من الآيات:

الإيمان مسؤولية

[١٠٦] ما هو الإيمان؟ هل إنه مجرد العمل؟ أم مجرد كلام؟.

كلا.. إنها مظهران للإيمان، ولكن الإيمان شيء آخر. أنه موقف الشخص من الحياة الدنيا، ومدى إطمئنانه بها، واستحبابه لها بالقياس إلى الآخرة. فالذي يريد الدنيا بقلبه ويفضلها على الآخرة فإن الله لا يهديه سبيلا.

وإذا كان الإيمان موقفا قلبيا فما هو دور القول؟! أوليس مواقف البشر تتحدد بأقوالهم؟!.

بلى.. ولكن قد يتلفظ الإنسان بلسانه ما ليس في قلبه، كما المنافق الذي يدعي بلسانه أنه مؤمن والواقع أنه كاذب، وكذلك الذي أكره على الكفر بلسانه، بينما بقي قلبه مطمئنا بالإيمان

ثابتاً عليه.

هكذا كان (عمار بن ياسر) الذي تعرض لتعذيب وحشي من قبل كفار قريش، فأعطاهم بلسانه ما أسرههم، حيث مدح آلتهم ونال من رسول الله ﷺ لإنقاذ نفسه، فنزلت فيه الآية الكريمة تقرر تقاته منهم، وأمره الرسول ﷺ أن يعود لمثل ذلك إذا عادوا عليه..

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ وهل يكفر أحد بعد أن آمن؟ أو ليس الإيمان معرفة وعلماً؟ وكيف يتحول الفرد بين لحظة وأخرى من عارف إلى جاهل؟!.

بلى.. الإيمان علم، ولكن العلم وحده لا يكفي، بل للإيمان عنصر آخر هو: اليقين، وعقد القلب والثبات، ومواجهة الضغوط، الإيمان موقف وانتهاء وسعي وفداء..

جاء في حديث شريف: عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «قَامَا مَا قَرَضَ عَلَى الْقَلْبِ مِنَ الْإِيمَانِ قَالَا إِقْرَارُ وَالْمَعْرِفَةُ وَالْعَقْدُ وَالرِّضَا وَالنَّسْلِيمُ بِأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ إِلَّا وَاحِدًا لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ وَالْإِقْرَارُ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مِنْ نَبِيٍّ أَوْ كِتَابٍ فَذَلِكَ مَا قَرَضَ اللَّهُ عَلَى الْقَلْبِ مِنَ الْإِقْرَارِ وَالْمَعْرِفَةِ وَهُوَ عَمَلُهُ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾» (١).

ومن الناس من يتنازل عن موقفه وانتهائه فور ما يتعرض لضغط، فيكفر بعد الإيمان، ومنهم من يصمد، ومنهم من يخلص نفسه باستخدام التقاة، فيكتم إيمانه كما فعل عمار الذي قال ربنا عنه وعن أمثاله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

والحديث المأثور في قصة عمار يقول: «لما أراد رسول الله أن يهاجر إلى المدينة قال لأصحابه: تفرقوا عني، فمن كانت به قوة فليأتني إلى آخر الليل، ومن لم تكن به قوة فليذهب في أول الليل، فإذا سمعتم بي قد استقرت بي الأرض فالحقوا بي».

فأصبح بلال المؤذن، وخباب، وعمار، وجارية من قريش كانت أسلمت (وهي سمية أم عمار حسبما جاء في حديث، وأضيف أيضاً اسم ياسر والد عمار) فأصبحوا بمكة، فأخذهم المشركون وأبو جهل، فعرضوا على بلال أن يكفر فأبى، فأخذوا يضعون درعا من حديد في الشمس ثم يلبسونها إياه، فإذا ألبسوها إياه قال: أحد.. أحد.. وأما خباب فأخذوا يجرونه في الشوك.

وأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية، وأما الجارية فوجد لها أبو جهل أوتاد ثم مدها،

فادخل الحربة في قلبها حتى قتلها^(١)، ثم خلوا عن بلال وخباب وعمار..

فلحقوا رسول الله ﷺ فأخبروه بالذي كان من أمرهم، واشتد على عمار الذي كان تكلم به، فقال له رسول الله ﷺ: كيف كان قلبك حين قلت الذي قلت؟ أكان منشراحاً بالذي قلت أم لا؟ قال: لا.. فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(٢).

هكذا صمد عمار فلم يستجب لضغوط قريش، بل تحداهم بالتقية وظل على موقفه الثابت. وآخرون ينهارون فيقبلون الكفر برحابة صدر، فيتعرضون لغضب الله سبحانه.. ﴿وَلَكِنَّ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ذلك لأنهم أرادوا إرضاء الطغاة فغضب الله عليهم، وأرادوا الحصول على نعم الدنيا فلحقهم عذاب عظيم في الآخرة، ولفظة ﴿فَعَلَيْهِمْ﴾ خبر لفظه من كفر بالله.

جذر المشكلة

[١٠٧] وجذر المشكلة يتصل بموقفهم من الدنيا التي فضلوها على الحياة الآخرة..

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أي بلغ حبهم للدنيا مستوى فضلوها على الآخرة.. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فمن استحب الدنيا على الآخرة، يغضب الله عليه بسلب نور العقل عنه، فيتركه في ظلمات جهله الذاتي، لأنه قد اختار منذ البدء الكفر.

وهذه الآية توحى بأن المعرفة واليقين والهدى، كل ذلك يأتي بعد الاختيار السليم، وتفضيل الآخرة على الحياة الدنيا.

الارتداد انحطاط

[١٠٨] الذي يرتد عن الإيمان لا يهبط فقط إلى مستوى الشخص العادي الذي لما يؤمن، بل يهبط أكثر منه بكثير، إذ يسلب منه الله «جل جلاله» فرصة الهداية إلى الأبد بسبب موقفه الجحودي..

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ بل يصبح هؤلاء

(١) وهكذا قتل زوج هذه الشهيدة ياسر وهما أبوا عمار بن ياسر اللذين كانا أول شهيدين في سبيل الله في الإسلام.

(٢) راجع: الكافي: ج ٢ ص ٢١٩، بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٩٠.

كمن لا شعور له غافلين عن أبسط الحقائق وأوضحها.. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.
 [١٠٩] ولأنهم اختاروا الدنيا على الآخرة فلا ريب أنهم يخسرون الآخرة.. ﴿لَا جَرَمَ
 أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

سبيل المفطرة

[١١٠] كم ينبغي أن نصمد في مواجهة الضغط حتى لا نحسب من المرتدين؟
 يضرب الله لنا مثلاً فيقول: ﴿ثُمَّ إِنْ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا
 ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
 أجل إنها مسؤولية كبرى ينبغي أن يستعد كل مؤمن لها، ويعقد العزم على أدائها بإذن
 الله، الهجرة النفسية والبدنية عن المجتمع الجاهلي بعد التوخي للفتنة (أو تدري إن أصل الفتنة
 إدخال الذهب النار لتظهر جودته!!).

وليست الهجرة نهاية المطاف، بل لا بد من الجهاد للعودة إلى الوطن السليب، وتحريره
 من طغيان المفسدين، والصبر على صعوبات الجهاد..
 وأنشد يغفر الله لهم ذنوبهم السابقة، مثل سكونهم السابق على الظلم، بل خضوعهم
 للظالم وهو أكبر ذنب، بل هو الشرك ذاته، كما يغفر الله هفواتهم اللاحقة.

[١١١] وغفران الله نعمة كبرى يدخرها المجاهدون الصابرون ليوم القيامة، حيث
 يأتي كل فرد وحده لا أحد ينصره أو ينفعه غير عمله.. ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ
 نَفْسِهَا﴾ أي كل إنسان يدافع عن نفسه فلا يجد إلا الحق.. ﴿وَتُؤْفَقُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ
 لَا يُظْلَمُونَ﴾.

عاقبة الارتداد في الدنيا

[١١٢] كل ذلك في الآخرة، أما في الدنيا فإن الكفر بعد الإيمان ينتهي بالمجتمع إلى
 سلب نعم الله، كمثل تلك القرية التي كانت تتمتع بالرفاه والسلام فكفرت، فأنزل الله عليها
 الفقر والحرب.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ
 مَكَانٍ﴾ يبدو من الآية أن للأمن درجات، وهكذا للرفاه الاجتماعي درجات، وأن هذه القرية

كانت تعيش في أمن ظاهر وأمن قلبي، وهو أفضل درجات السلام، كما كانت تعيش على رزقها ورزق ما حولها من القرى، وهذا أفضل درجات الرفاه..

﴿فَكَفَرْتَ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وعبر القرآن عن وضعهم بعد الكفر بأنهم تخلفوا إلى أن أصبحوا يحيط بهم الجوع والخوف كما يحيط بهم اللباس.

وقد لا تكون هذه القرية واحدة عبر التاريخ، فربما تشير الآية إلى آلاف القرى التي تردت إلى هذا المستوى بسبب كفرها، وفي حديث ماثور يقص علينا قصة واحدة من تلك القرى فيقول: «نَزَلْتُ فِي قَوْمٍ كَانَ مِنْهُمْ نَهْرٌ يُقَالُ لَهُ الثَّرْيَارُ وَكَانَتْ بِلَادُهُمْ خِصْبَةً كَثِيرَةً الْخَيْرِ وَكَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِالْعَجِينِ وَيَقُولُونَ هُوَ الْبَيْنُ لَنَا فَكَفَرُوا بِأَنْعَمِ اللَّهِ وَاسْتَحَفُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ فَحَبَسَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الثَّرْيَارَ فَجَدَّبُوا حَتَّى أَخْوَجَهُمُ اللَّهُ إِلَى مَا كَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِهِ حَتَّى كَانُوا يَتَقَاسَمُونَ عَلَيْهِ»^(١).

الحجة التامة

[١١٣] ولقد جاءهم رسول من أنفسهم يدعوهم إلى الشكر، فلم يستجيبوا له حتى أخذهم الله بعذاب شديد..

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْمَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ وفي نهاية هذا الدرس القرآني الكريم ينبغي أن نطرح عدة نقاط هامة:

ألف: إن قصة هذه القرية التي تتكرر عادة في كل عصر، توحى إلينا بضرورة مواجهة المؤمن لضغط قد يكون أشد من ضغط الإرهاب، ذلك هو ضغط الإغراء، فمع الرفاه والأمن يزداد شره النفس وشبقها، وبالتالي احتمالات الغفلة عن الله وعن حقوق الإيمان به.

وإذا كان عمار قد تعرض لإرهاب قريش ومعه أكثر أصحاب النبي ﷺ فتحدوا بإيمانهم ذلك الإرهاب العظيم، فإن بعض أصحاب النبي قد غرهم الدنيا بعد أن فتح الله عليهم، فأخذوا يخوضون في أموال المسلمين، وكما وصفهم الإمام علي عليه السلام: «يَخْضَمُونَ مَالَ اللَّهِ خِضْمَةَ الْإِبِلِ نَيْتَةَ الرَّبِيعِ»^(٢).

(١) مستدرک الوسائل: ج ١ ص ٢٨١.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة الشقشقية.

من هنا أكدت (الآيات: ١١٢-١١٣) على ضرورة مواجهة ضغط الإغراء بعد أن أكدت (الآيات: ١٠٦-١١١) في هذا الدرس على مسؤولية مواجهة الإرهاب الجاهلي.

بإزاء: إن ربنا الرحيم يرسل أنبياء في مراحل هبوط الحضارات لكي يوقفوا تدهور المجتمع، ولكن أغلب المجتمعات تسترسل مع عوامل الإنهيار حتى النهاية الأليمة، وهكذا بعث الله رسول هذه القرية فلما كذبوه أخذهم عذاب عظيم.

جيم: لقد أشرنا في بدايات هذه السورة الكريمة إلى أن سياقها يوحى بمناهج البحث وسبل الحصول على المعرفة، وفي هذا الدرس ذكرنا الله بمعنى الإيمان الذي هو أرفع درجات العلم، كما أشارت آية كريمة منه -هي الأولى- إلى المسؤولية التي تتبع الإيمان، بل هي جوهره، وإلى استثناءات المسؤولية.

ويشير حديث نبوي شريف إلى هذه الآية في هذا الحقل فيقول: «رُفِعَتْ عَنْ أُمَّتِي أَرْبَعَةٌ نَخَصَالٍ: مَا أَخْطَأُوا وَمَا نَسُوا وَمَا أَكْرَهُوا عَلَيْهِ وَمَا لَمْ يُطِيقُوا وَذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﷻ لَا مَنْ أَكْرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ»^(١).

(١) وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ٤٥.

السبيل إلى شكر النعم

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا
 نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ
 الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ
 غَيْرَ بَلَاغٍ (١) وَلَا عَادٍ (٢) فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا لِمَا
 نَصَبْنَا لَكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتِنَا عَلَى اللَّهِ
 الْكَذِبُ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ (١١٦) مَتَّعَ قَلِيلٌ
 وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا فَصَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا
 ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ
 عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَنَّمَ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ
 بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩) ﴿

هدى من الآيات:

لكي يشكر الفرد نعم الله لا بد أن يعرف حدود التصرف في هذه النعم، وبمناسبة الحديث
 عن العلم والإيمان والكفر والارتداد الذي مر في آيات سبقت، ترى هذا الدرس الكريم يأمرنا
 بأن نأكل من رزق الله شريطة أن يكون حلالاً من ناحية المكسب وطيباً من ناحية ذات المأكول،
 ولكن علينا أن نؤدي حقوق النعم فلا نخضع لغير الله ابتغاء الحصول على بعض النعم.

وعلى أن نتفقه في الدين، فلا نحلل ونحرم حسب أهوائنا، كلا.. إنما حرم الله علينا

(١) ناغ: غير طالب للمحرم للذة أو استئثار.

(٢) ولا عاد: ولا متجاوز ما يسد الرمق.

الميتة والدم ولحم الخنزير والذبيحة التي ذكر عليها اسم غير الله، أما من اضطر من دون أن يكون معتديا ومسرعا فإن الله يغفر له، ولا يجوز أن تتحرك ألسنتنا بالخلية والحرمة من قبل أنفسنا، فهذا كذب واقتراء على الله، ومن يفترى على الله الكذب فإنه لا يفلح، لأنه لا يحصل إلا على متاع قليل بينما له عذاب أليم.

وقد يحرم الله أشياء إضافية بسبب ظلم الناس، كما بين لنا في آيات أخرى أنه حرم أشياء على بني إسرائيل لظلمهم.

وقد يعمل الإنسان شيئا بجهالة، ثم يتوب إلى الله، ويصلح ما أفسده بعمله، فإن الله من بعد ذلك غفور رحيم.

بينات من الآيات:

حدود الانتفاع بالنعم

[١١٤] العدالة في المعاش تتحقق بالانتفاع المناسب من رزق الله، أما الذين لا يستفيدون من نعم الله ويزعمون أن ذلك زهد فإنه بعيد عن تعاليم السماء، فرينا يقول: ﴿ فَكُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾.

يبد أن حدودا ثلاثة تحيط بهذا الانتفاع وهي:

ألف: أن يكون الرزق من نصيبك، لا من حق الآخرين حتى يكون حلالا لك.

باء: أن يكون طيبا، فأكل الخبيث كالنجس والحشرات -والخبائث الأشياء المضرة والعفنة- لا يجوز.

جيم: أن تؤدي حق النعمة، بأن تعرف أنها من الله، ثم لا تنسى المحرومين، فإذا قويت بها نشاطت في عمل الخير، بعد أن تذكر ربك بحمده.. ﴿ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.

[١١٥] ولا يجوز أن يحرم الفرد على نفسه الطيبات باسم الدين، بل المحرمات أشياء معروفة.. ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ أي ذبح باسم الأوثان، كالتي كان الجاهليون يذبحونها على أقدام أصنامهم!.

﴿ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَلَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلْيَتَّكِ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ بعد أن استثنى القرآن

الإكراه من المسؤوليات، يبين رفع التكليف عما اضطر إليه الإنسان من خلال حاجته الضرورية التي من دونها يتعرض للهلاك.

كيف نشكر الله؟

[١١٦] ولكي نشكر ربنا لا بد أن نلتزم بحدوده وشرائعه، ولا بد أن نضمن صحة المصادر التشريعية، فلذلك حذر ربنا من إصدار الأحكام من دون تثبيت.. ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ فالذي يسعد الإنسان هو الدين الحق، وليست الأهواء التي تفتري وتسمى ديناً!

جزاء الكذب والبدع

[١١٧] إن نهاية المبدعين والكذابين أليمة، إذ أن متاعهم في الدنيا قليل.. ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يبدو من هذه الآية أن المبتدع لا يغير في الدين إلا الهوى في نفسه أو نفس السلطان، ولتحقيق مصلحة ذاتية، يحذر ربنا منها، ويهدده بعذاب أليم في مقابل تلك اللذة التي يصيبها بسبب التحريف.

[١١٨] ونساءل: إذا كانت المحرمات محصورة بالتي سبقت، فلماذا نرى بني إسرائيل محرم عليهم أشياء كثيرة من الطعام وغيره؟!

ويقول ربنا جواباً عن هذا السؤال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

لقد ضيقوا على أنفسهم وظلموها، فحرم الله عليهم أشياء كانت حلالاً عليهم، وجاء في آية أخرى: ﴿فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦].

التوبة والإصلاح

[١١٩] ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قد يكون وعي الفرد ناقصاً وعلمه محدوداً ولم يؤت فرصة للتوجيه الكافي، فيرتكب بجهالته (وليس بجهله) ذنباً سرعان ما يتوب عنه فور ما يعود إلى رشده ويملك الوعي والتوجيه، فيغفر الله له ما سبق.

والجهالة غير الجهل، فإن الجهل عذر شرعي في الموضوعات وفي بعض الأحكام، فلا يتناسب والتوبة التي وعدّها الله لصاحب الجهالة، بينما الجهالة ليست بعذر شرعي، إذ يكفي أن صاحبها يعلم بصورة مجملة حدود الواجب الشرعي الذي عليه، و يمكنه أن يفتش عنه حتى يجده.

وقد جاءت في آيات عديدة كلمة الإصلاح بعد التوبة للدلالة على أن التوبة الظاهرية لا تنفع شيئاً، إنما ينبغي أن تكون التوبة نصوحاً يتغير حال الفرد بها من سيئ إلى حسن، ومن فاسد إلى صالح، وفي الآية بحوث تتصل بعلم الفقه ندعها إلى الكتب العلمية المتخصصة.

شكر النعمة وبرامج الوحي

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ خَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالْقُرْآنِ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُفْ فِي ضَلُوبٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ۞

هدى من الآيات:

الشكر يزيد النعمة، والمجتمع الكافر يلفه الجوع والخوف، والفرد الشاكر يبعثه الله أمة ويدخله في الصالحين، كما كان إبراهيم الذي حنف عن ضلالة قومه إلى الله الواحد، وشكر أنعم الله فاجتباها الله وهداه إلى صراط مستقيم، وآتاه في الدنيا حسنة، وأدخله في الآخرة في زمرة الصالحين، ثم أمر الرسول بأن يتبع نهجه التوحيدي البعيد عن الشرك.

وأما المجتمع الكافر بأنعم الله، فمثله مثل بني إسرائيل الذين اختلقوا في السبت، فأخره

الله عليهم وحرم عليهم فيه الصيد، وسوف يقضي ربنا يوم القيامة في أمرهم.

وفي نهاية السورة يلخص الله برامج الوحي التي تلخص في ثلاث كلمات هي:

- ١- الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة، دون أن يتكفل الداعية مسؤولية الناس عن إيمانهم أو ضلالتهم، بل الله ولي ذلك.
- ٢- وعند المواجهة يكون العقاب بقدر الذنب، والانتقام بقدر الجرم، والتنازل عن الحق الشخصي في الله أولى.
- ٣- والاستقامة بالصبر على أذى الناس، دون أن يحزن الداعية على مصيرهم، ولا يخشى من مكرهم، ذلك لأن الله مع أهل التقوى والإحسان.

بينات من الآيات:

إبراهيم عليه السلام قدوة الشكر

[١٢٠] على الإنسان أن يشكر نعم الله عليه حتى ولو كفر بها المجتمع الذي يعيش فيه، أو ليس إبراهيم قدوة الإنسانية المثلى، الذي شكر أنعم الله مخالفًا سيرة قومه الجاهليين ١٩.

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ ولو كان رجل آخر في عهد إبراهيم مسلماً لذكره الله، ولكنه وحده تحدى مجتمع الفساد وكان.. ﴿ قَانِتًا لِلَّهِ ﴾ خاضعاً له قلباً.. ﴿ حَنِيفًا ﴾ تنكب طريق الضلالة إلى صراط العزيز العليم. ﴿ وَلَزَيْكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الذين أحاطوا به.

وقد جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «لَقَدْ كَانَتِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا إِلَّا وَاحِدٌ يَعْبُدُ اللَّهَ وَلَوْ كَانَ مَعَهُ خَيْرٌ لَأَضَافَهُ اللَّهُ هَرَزَ وَجَلَ إِلَيْهِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَزَيْكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فَصَبَرَ بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَنَسَهُ بِإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ فَصَارُوا ثَلَاثَةً»^(١). ويبدو أن الحديث عن فترة - قبل الزواج مثلاً - معينة من حياة إبراهيم عليه السلام، حيث كان فتى وقبل أن يؤمن معه أحد، ولعل عبارة ﴿ كَانَ ﴾ إشارة لذلك.

[١٢١] أبرز صفات إبراهيم عليه السلام التي تتناسب والسياق القرآني هنا: صفة الشكر التي انتهت بإبراهيم إلى أن يختاره الله من بين الملايين من البشر المعاصرين له، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم.. ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَيْتُهُ وَهَدَيْتُهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾. وهكذا كل من

(١) الكافي: ج ٢ ص ٢٤٣.

شكر أنعم الله هداه الله الصراط المستقيم.

[١٢٢] ولم يبق إبراهيم عليه السلام وحده، بل أنسه الله بذرية طيبة لم تلبث أن تكاثرت حتى ملأت الدنيا، وأما في الآخرة فهو في عداد الصالحين.. ﴿وَمَا تَيْتَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا تَعْمُرُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ﴾.

[١٢٣] وجعله الله قدوة الأنبياء عليه السلام وإمام الناس، حتى أن ربنا أمر نبيه الأعظم أن يتبع دين إبراهيم وطريقته، لأنه كان مستقيماً معصوماً عن الزلل.. ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ والله لا يأمر باتباع المشرك أنى كانت الظروف.

بنو إسرائيل والإبتلاء

[١٢٤] ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ ماذا تعني الآية في هذا السياق القرآني بالذات؟.

لقد جاء في التفاسير: «إن السبت بمعنى القطع، وسمي السبت بهذا الاسم لأن اليهود كانوا قد كلفوا بقطع العمل في هذا اليوم. ثم قالوا: إن اختلاف اليهود في السبت كان بسبب أنهم خالفوا أوامر الله في الإستراحة فيه، ففرض الله عليهم ذلك، وكان ذلك بمثابة الإبتلاء. وبعضهم قال: بل أنه فرض عليهم يوم الجمعة، وحين اختلفوا أخره الله إلى السبت»^(١).

وبقي السؤال العريض: ما هي علاقة الآية بما سبقناها؟.

ربما الآية توحى إلى أن بني إسرائيل أمروا بأن يعطلوا يوماً يقضون فيه حاجاتهم الخاصة، فلم يتفقوا على يوم، بل كان كل فريق يتنافس وسائر الفرقاء في المكسب، مما جعلهم في الحيرة، وهنا جعل الله عليهم السبت ليقطع خلافاتهم، وكان ذلك إمتحاناً لهم.

وهذا يتناسب مع السياق الذي يدل على أن بعض الأحكام الشرعية تشرع بسبب ظروف خاصة، ثم إذا تغيرت الظروف زال الحكم، وهذا أمر كثير في بني إسرائيل.. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وصايا للدعاة

[١٢٥] وفي نهاية السورة التي خصصت آياتها بالوحي تقريباً، وسميت باسم (النحل) الذي

(١) راجع الميزان: ج ١٢ ص ٣٦٩ فيه تفصيل.

يوحى إليه الله سبحانه ما يشاء، جاءت توصيات إلى الدعاة إلى الله من الذين يحملون الوحي.

الحكمة

الوصية الأولى: الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة وقد ذكرت آيات القرآن في سورة الإسراء القادمة، وفي سورة لقمان، وسور أخرى معنى الحكمة، وقد عرفها البعض بأنها الجانب النظري من العلم، ولكنها في الواقع أكثر من هذا، أنها جماع الصفات النفسية والسلوكية الحسنة التي يذكر بها الله في آيات تأتي..

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾ وتتجلى الحكمة في الحديث الطيب الذي لا وهن فيه ولا خشونة، إنما هو حزم في لين، وبلاغة في وضوح، وجمال في إتقان..

﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾ وحين الجدال ينبغي ألا يثور غضب الداعية، فيصدر أحكاما كاسحة على الناس، ولا يهن أمام الخصم فيتنازل له عن بعض الحقائق طمعا في استجابته للحقيقة..

﴿وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وقد جاء في حديث شريف أن الجدال بالتي هي أحسن هو القرآن، ولا ريب أن تفاصيل السلوك الحسن موجودة في القرآن الحكيم..

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فلا يجوز اتهام الناس بالكفر والزندقة، واتخاذ مواقف سلبية منهم جميعا، بل الله يحاسبهم، إنما على الداعية أن يعمل بواجبه في دعوتهم إلى الله.

وقد بين في حديث طويل أن معنى الجدال بالتي هي أحسن: اتباع الحق في كل المراحل^(١)، فلا ينكر حقا لزعم أنه ينفي حقا أكبر منه، ولا يقبل بباطل لأنه - في زعمه - يثبت حقا أكبر منه، كلا.. ينبغي أن نصل إلى الهدف الحق عبر وسيلة الحق نفسه.

وكلمة أخيرة: إن الآية هذه تدل على ضرورة تحكيم العقل في أسلوب الدعوة إلى الله.

العدل

[١٢٦] الوصية الثانية للدعاة: التزام العدالة في معاملة الأعداء، فلا يسرف في العقوبة، بل يسعى الدعاة في تجاوز أنفسهم، وأن يتنازلوا عن حقوقهم من أجل المصلحة العامة.. ﴿وَإِنْ

(١) راجع بحار الانوار: ج ٢ ص ١٢٥.

عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٠﴾

وجاء في حديث ماثور عن الإمام الصادق عليه السلام لما رأى رسول الله ﷺ ما صنع بحمزة بن عبد المطلب قال: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، وَإِلَيْكَ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا أَرَى» ثم قال: «لأن ظفرت لأمثلن ولأمثلن» فأنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «أصبر أصبر»^(١).

الاستقامة

[١٢٧] الوصية الثالثة: صفات الاستقامة.

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فالصبر بالتوكل على الله، وعدم التأثر بتغير الظروف وأقوال الناس، وسعة الصدر في مواجهة المشاكل..

[١٢٨] وفي نهاية السورة يؤكد القرآن على أن الله يزيد الدعاة بشرطين:

الأول: أن يتقوا الله.

الثاني: الإحسان والطاعة..

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾

نرجو أن نكون من الدعاة إلى الله والقادة في سبيله.. إنه عزيز حكيم.

(١) بحار الأنوار: ج ٢٠ ص ٩٣، تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٧٤.

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

* مكية.

* عدد آياتها: ١١١.

* ترتبها النزولي: ٥٠.

* ترتبها في المصحف: ١٧.

* نزلت بعد سورة القصص.

فضل السورة

في مصباح الكفعمي: عنه عليه السلام أنه قال: «مَنْ قَرَأَهَا فَرَّقَ قَلْبُهُ حِنْدَ ذُخْرِ الْوَالِدَيْنِ أُعْطِيَ قِنْطَارَيْنِ مِنَ الْأَجْرِ.. وَالْقِنْطَارُ أَلْفُ أَوْقِيَّةٍ وَمِائَتَا أَوْقِيَّةٍ، وَالْأَوْقِيَّةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».

(مصباح الكفعمي: ص ٤٤٦)



عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ الْجُمُعَةِ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يُدْرِكَ الْقَائِمَ عليه السلام فَيَكُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ».

(ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٠٧)

الإطار العام

الإنسان ذلك المسؤول عن مصيره

لعل أهم الموضوعات التي تناولتها سورة الإسراء هي مسؤولية الإنسان عن أعماله في إطار الرسالة الإلهية، وتحدث السورة عن طائفة من المسؤوليات تجاه المجتمع، ابتداءً من الوالدين وانتهاءً بسائر الناس.

وتعالج السورة -بتفصيل- قضية الشرك بالله الذي يمثل جذر الفساد، وسبب تهرب البشر عن مسؤولياتهم.

كما تبين بتفصيل أيضاً خطط الشيطان لإغواء البشر وكيفية محاربة تلك الخطط، ويضرب القرآن الأمثلة التاريخية العديدة.

وتبدأ السورة بقصة بني إسرائيل كمثال لمجتمع سعى مرة وتخاذل أخرى، وتنتهي بها. هذه جملة القول في إطار السورة، وتلك هي خلاصة رسالات الله التي هي -في الواقع- واحدة.

فبعد أن أشار القرآن إلى واقعة الإسراء فالمعراج، ذكرنا بأنه السميع البصير، وبالتالي محيط بعباده علماً، مما يوحى بضرورة التقوى منه (الآية: ١).

وخلاصة الكتاب الذي أنزله على النبي موسى ﷺ لبني إسرائيل ألا يتخذوا من دون الله وكيلاً (الآية: ٢)، ذلك أن الشرك بالله، هو جذر كل فساد وضلال.

أفلم يكونوا ذرية الذين حملهم الرب مع النبي نوح ﷺ في السفينة لينجيهم من الطوفان، وكان النبي نوح عبداً شكوراً (الآية: ٣).

بلى؛ ولكنهم قد أفسدوا (أو يفسدون) مرتين في الأرض، ويلاقون جزاءهم (الآية: ٥) إذ يبعث الله بعد أن يحين ميعاد الجزاء في المرة الأولى عباداً له أقوياء فيدمر عرشهم، وبعد أن يعيد لهم الكرة يأتي وعد المرة، ويتبرهم تنبيهاً. لماذا؟ لأن الله يجازيهم بالإحسان إحساناً وبالإساءة جزاءً وفاقاً (الآيات: ٦ - ٧) تلك هي سنة الله في التاريخ، جزاء كل مجموعة لمجمل أفعالهم، أما في الآخرة فإن الله جعل جهنم للكافرين سجناً (الآية: ٨).

إنّ الهدى من الله عبر القرآن، أما الإيمان والعمل الصالح فهو من فعل الشر، وعليها الجزاء الكبير، والكفر قد أعد لصاحبه العذاب الأليم. (الآيات: ٩ - ١٠).

والجزء يتأخر، وكان الإنسان عجولاً، فتراه يدعو بالشر كدعائه بالخير، إلا أن الجزاء لواقع (الآية: ١١).

والآن، ألق نظرة في آيات الكون، ماذا ترى؟

آية الليل التي محأها الرب بحكمته، وآية النهار جعلها مبصرة بحسن تدبيره لكي تسمى لمعاشك وتعد السنوات وتفق الحساب.

إذن كل شيء منظم ومقدر ومدبر، وأن الذي دبر شؤون الليل والنهار ونظمها، فصل لنا القول فيها تفصيلاً.

أفيخرج البشر عن هذا النظام؟ كلا؛ بل هو الآخر محكوم بسعيه، حيث يكتب في صحيفة عمله المعلقة بعنقه كل فعالة، ليلقى كتابه منشوراً يوم القيامة.

ويقال له: اقرأ كتابك وحاسب نفسك فأنت الذي تدين نفسك بنفسك ولو كنت خاطئاً (الآيات: ١٢ - ١٣).

فألهدي بسعيك والضلالة من عندك، ولا أحد يتحمل وزر الآخرين، ولا يبدر الرب عباده بالعذاب إن ضلوا حتى ينذرهم برسول، وهكذا حين يحين ميعاد هلاك قرية يبعث فيها رسولاً ينذر مترفيهم وقيادة انحرافهم، ولكنهم يفسقون عن أمر الله، فهناك تثبت عليهم الحجة فيدمرهم الله تدميراً.

وكذلك أهلك الله كثيراً من القرون من بعد طوفان نوح عليه السلام، وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً. فلا يزعم أحد أن الله غافل عنه (الآيات: ١٤ - ١٧).

والسعي ينتج واقعاً، ولكن حسب نية البشر. فمن أراد الدنيا أعطاه الله منها بقدر

ما تقتضيه سنن الله وحكمته. إلا أن جزاءه في الآخرة سيكون جهنم حيث يصلها مذموماً مدحوراً. أما من أراد الآخرة وسعى من أجلها بقدرها فإن الله يشكر سعيه.

والله يمد للأول في دنياه وللثاني في أخراه، وما كان عطاؤه محظوراً. هكذا يجعل حياة البشر وليدة إرادته وسعيه.

وكما أن رزق الناس في الدنيا متفاضل - بسبب تفاضل سعيهم - كذلك أكثر منه جزاء الآخرة (الآيات: ١٨ - ٢١).

ثم يحذرننا الرب من الشرك، ويبدو أن المراد منه هنا: الاسترسال مع التقاليد وتيارات المجتمع، لأنه ينتمي إلى اللوم والخذلان (الآية: ٢٢).

ويأمرنا بالآ نعبداً إلا آياه (فلا نعبداً الآباء ولا نخضع لضغوط المجتمع)، إلا أن علينا إيجاد العلاقات الإيجابية مع الناس (في إطار التوحيد)، وأهمها الإحسان إلى الوالدين، وبالذات عند الكبر، والرحمة بهم والاستغفار لهم (الآيات: ٢٣ - ٢٥).

وبعد الوالدين؛ يلتزم المؤمن بحقوق الأقارب والمسكين وابن السبيل، ويتقي التبذير، لأن التبذير يجعله في صف الشياطين والكافرين بالله، غير الشاكرين لأنعمه. وفي حالة الاعراض عنهم (مادياً) لا بد أن تحسن إليهم (معنوياً) بالقول الميسور (الآيات: ٢٦ - ٢٨).

ويأمرنا الرب بالاقتصاد في الإنفاق، فلا بخل يغفل البدين ولا سرف ينتهي إلى الملامة والضيق، أو ليس الله يبسط الرزق لعباده ويقدره؟ فلماذا البخل والسرف؟ بل علينا أن نتبع أصول الحكمة في الصرف، ولماذا قتل الأولاد خشية إملاق مادام الرب هو الرزاق؟ (الآيات: ٢٩ - ٣١).

ومثلما نهى الله عن قتل الأولاد في إطار المسؤولية الأسرية - بما يشمل الإجهاض حسب الظاهر - ينهى عن الزنا باعتباره ذنباً كبيراً وساء سيلاً.

وفي إطار المسؤوليات الاجتماعية يحرم قتل النفس إلا بالحق، ويجعل لولي القتل حق القصاص، وينهى عن الإسراف في القتل، ويشره بأنه كان منصوراً (الآيات: ٣٢ - ٣٣).

وتلك كانت مسؤوليات الإنسان تجاه الناس، وتتلخص في كلمات: التوحيد، وعدم الخضوع للتقاليد والاضغوط، والإحسان، واحترام حقوق الآخرين.

وفي (الآيات: ٣٤ - ٣٥) يحرم الله مجرد الاقتراب إلى مال اليتيم (إلا بالتي هي أحسن)، ويأمر بالوفاء بالعهد وإيفاء الكيل والوزن.

و لعل هذه المسؤوليات الاجتماعية وغيرها، تأتي تحصيناً للمجتمع من بعض الثغرات التي يدخل منها الظلم إلى كيانه، فإن إقامة العدل لا يمكن إلا بسد كل أبواب الظلم والمداخل الطبيعية إلى إشاعة الظلم في المجتمع.

وهكذا يأمر الرب بضرورة اتباع العلم، وترك سوء الظن، والابتعاد عن التكبر والاستكبار في الأرض. ويجعل ذلك من الحكمة التي أوحى بها الرب إلى العباد، والتي يجمعها توحيد الله سبحانه (الآيات: ٣٦ - ٣٩).

بلى؛ إن بناء المجتمع الفاضل قائم على أساس التثبت من التهم، والمساواة أمام القانون. وينهى الله عن الشرك، أو ليس الشرك أساس كل جريمة، وتبرير شائع لكل فساد ولا مسؤولية؟

أصحيح أن الله اختار لهم البنين واتخذ من الملائكة بنات؟ إنه بهتان عظيم. وقد صرف القرآن لهم من كل مثل ولكنهم ازدادوا نفوراً (الآيات: ٤٠ - ٤١).

لو كان هؤلاء الآلهة كما يزعمون إذاً، لتحدوا سلطان الرب ذي العرش. كلا؛ سبحانه الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً. إن السماوات السبع والأرض تشهد بقدس مقامه وتسبح له وكل شيء يسبح بحمده، إلا أن البشر عاجز عن فهم تسييحهم، والله حلیم عن العاصين؛ غفور للمؤمنين سبحانه (الآيات: ٤٢ - ٤٤).

أما (الآيات: ٤٥ - ٥٢) فإنها تبين أخطار الكفر بالحياة الآخرة، وكيف أن الله يجعل بين الرسول ومن لا يؤمن بها حجاباً مستوراً، حيث يحيط بقلوب الكافرين بها ستاراً، فلا يفقهون القرآن، ويجعل الله في آذانهم وقراً، حتى أنهم يولون نفوراً كلما ذكر الرسول ربه في القرآن وحده.

إن تراكمات الجهل والضلالة والعصية تجعلهم يستمعون إلى الرسول من وراء شبهات باطلة. فهم يقولون عن الرسول إنه رجل مسحور، فيضلون ولا يهتدون سبيلاً إلى الحقائق. وتراهم ينكرون البعث ويتساءلون: أبعد أن نصبح عظماً ورفاتاً يعقل أن نخلقنا الله من جديد؟!.

وهكذا تصبح هذه الشبهات حجاباً مستوراً بينهم وبين القرآن وفهم حقائقه.

ويردهم الله بقوة؛ حيث يذكرهم بأنهم لو كانوا من الحجارة أو الحديد أو شيء كبير في نظرهم، فإن الله تعالى الذي خلقهم أول مرة قادر على أن يعيدهم. ثم يقولون متى؟ يقول

الله: عسى أن يكون قريباً، ذلك اليوم الذي يدعوهم الله فيستجيبون بحمده، ويزعمون أنهم كانوا في الدنيا أو البرزخ أياماً قليلة.

ولأن الشيطان عدو مبين؛ فعلى عباد الله أن يختاروا كلماتهم لكي لا يتزغ الشيطان بينهم بها، وأن يتركوا العصية لقومهم أو تزكية أنفسهم، إذ أن الله أعلم بهم، يرحم من يشاء ويعذب من يشاء.

هكذا تبين (الآيات: ٥٣ - ٦٠) بعض المسؤوليات الاجتماعية الواجبة على المؤمنين لبعضهم.

ولعل الصراعات الداخلية تنشأ من رواسب الشرك؛ فيعود السياق لبيان زيف الأنداد وأنهم لا يدفعون الضر عن أنصارهم، بل هم بدورهم يبتغون سبيلاً إلى الله ربهم ويرجون به ويخافونه.

وكل القرى معرضة للهلاك قبل يوم القيامة، إما بالعذاب أو الموت. ولقد كذب الأولون بآيات الله، فاستحقوا العذاب، ولأن الله لم يشأ إهلاكهم فإنه لم ينزلهم عليهم كلما طلبوه، إذ لو أوتوه ثم كفروا لهلكوا. فهذه ثمود لما أتاهم الله الناقة آية مبصرة كفروا بها فأهلكهم الله، وإنما حكمة الآيات التخويف، ولعلمهم بهتدون.

وهكذا أرى الله رسوله الرؤيا، وجعلها فتنة لهم، كما أخبره بالشجرة الملعونة، ويخوفهم الله فلا يزدادون إلا طغياناً.

وهكذا كانت الآيات للتخويف، وليس من أجل إنزال العذاب عليهم.

ويبقى سؤال هام: لماذا الشرك أساساً؟ ولم لا يخلص الناس الطاعة لله، ولمن فرض الله طاعته؟ ولماذا تنمو على صعيد مجتمع مسلم شجرة ملعونة كبني أمية يفرضون سيادتهم على الناس؟ في (الآيات: ٦١ - ٧٠) نقرأ الجواب الذي يستوحى منه قصة الخلق وكيف أضحي إبليس عدو بني آدم، وما هي خططه الماكرة.

والقصة بدأت حين أخذته العصية الذاتية وادعى أن عنصره أفضل من عنصر آدم، ورفض السجود لآدم الذي سجد له الملائكة جميعاً.

وأمهله الله ليوم القيامة، وتحدى ربه في السيطرة على ولد آدم، وأخبره الله:

أولاً: أنه سوف يخسر العاقبة هو ومن اتبعه.

ثانياً: أنه لا سلطان له على عباد الله بالرغم من وسائله الماكرة، لأنهم يتوكلون على الله وكفى بالله وكيلاً.

أما خطط الشيطان فهي أربعة:

- ١ - التضليل الإعلامي.
- ٢ - الإرهاب.
- ٣ - إفساد النظام الاقتصادي والتربوي.
- ٤ - والغرور.

ولكن الله هو الذي يزجي الفلك في البحر، وهو الذي يكشف الضر، وهو الذي يُخشى مقامه؛ فإذا أراد أن يخسف الأرض بأهلها، أو يرسل قاصفاً من الريح، فلا أحد ينجيهم من الله سبحانه. وهو الذي كرم بني آدم، وحملهم في البر والبحر وفضلهم على كثير من الخلق تفضيلاً. وهكذا كان كيد الشيطان ضعيفاً، لأن الرلاية لله وله الدين ويده الأمر، وهو يريد كرامة الإنسان، بينما يريد الآخرون إضلاله.

وحبل الإنقاذ من أمواج كيد الشيطان ومكره هو القرآن.

ولكن، كيف نقاوم مكر الشيطان؟ وإلى أين ينتهي الصراع بين بني آدم وإبليس؟ وما هي عبر التاريخ في هذا الحقل؟

يبدو أن (الآيات: ٧١ - ٨١) تدور حول هذه الأسئلة. وتبدأ بالحديث عن القيادة باعتبارها تحدّد مسيرة البشر. ففي يوم البعث يدعو الله كل أناس بإمامهم، ويختلف الناس بين من يؤتى كتابه بيمينه فيقرأه، وبين من يحشر أعمى فلا يهتدي سبيلاً.

ويبين القرآن بعدئذ كيف تعرض الرسول للضغط الإعلامي من قبل الكافرين، ليفتنوه عما أوحى إليه، فتحداهم. ولنا فيه أسوة حسنة، ويعلمنا كيف نقاوم الفتنة بالتوكل على الله كما فعل الرسول ﷺ فثبته الله. كان هذا مثلاً لخطّة التضليل، ويضرب القرآن مثلاً لخطّة الإرهاب حيث كادوا يستفزون النبي ﷺ من الأرض، ولو فعلوا لما بقوا من بعده إلا قليلاً، تلك سنة الله.

ولمواجهة غواية إبليس فرضت علينا الصلوات الخمس، وأمرنا بناقلة الليل التي بعث الله بها نبيه مقاماً محموداً.

ولكي نحافظ على النظام الاقتصادي والاجتماعي والتربوي السليم ولا ندع إبليس

يفسده، فعلينا أن نسأل الله أن يوفقنا للصدق في المدخل والمخرج، وأن يجعل لنا من لدنه سلطاناً نصيراً، وأن نشق بأن الحق مستصر وأن الباطل كان زهوقاً.

ولكي نقاوم مكر إبليس وكيده علينا أن نقوم بأمرين:

١- التمسك بحبل القيادة الإلهية المتمثلة في شخص رسول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام من خلفائه، ومن ثم الأمثل من الفقهاء والأقرب إلى نهج الرسول. وقد بينت الآيات السالفة صفات الرسول في الاستقامة والصبر والتوكل والثقة، وكأنها الصفات المثلى للقيادة التي تعصمنا من مكر الشيطان.

٢- الاعتصام بالقرآن، باعتباره حبل الله المتين. و(الآيات ٨٢ - ٩٣) بيان ذلك، حيث تبين أن القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين، بينما لا يزيد الظالمين إلا خساراً. ويمكننا أن نستلهم من هذه الآيات كيفية الاستفادة من القرآن والتمسك بحبله، ببيان أن الإنسان يغتر بالنعم، فإذا أوتيتها أعرض ونأى، وإن سلبت منه استبد به اليأس.

والناس مختلفون، فكل يعمل على شاكلته، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلاً.

وإنما القرآن من الله، فإذا شاء ذهب به، وإنه لمعجز. فلو اجتمعت الجن والإنس ما استطاعوا تحديه، وفيه من كل شيء مثل، وأنهم ليطالبون ببعض الآيات المادية دون أن يهتدوا إلى أن الرسول بشر وإنما القرآن من الله، وإنما عليه البلاغ.

ولعل في هذه الآيات أهم محاور سورة الإسراء، وهو الذي يدور حول الرسالة، وإن الذي يستفيد منه إنما هو المؤمن بها، أما الظالم الذي يعرض عن نعم الله ويتولى بركنه عنها، وكذلك أصحاب المقاييس المادية فإنهم لا يتفعمون بالروحي.

ولكن لماذا لا يؤمن الناس بالهدى الذي جاءهم؟ وما هي أهم عقبات الإيمان برسالات الله؟

أولاً: زعمهم بأن الرسول ينبغي أن يكون ملكاً.

ثانياً: ارتياهم في البعث.

وهكذا تعالج (الآيات: ٩٤ - ١٠٤) العقبات النفسية التي يضعها إبليس في طريق الإيمان بالرسالة، فيبين أن الرسول يجب أن يكون من جنس من يرسل إليهم. فلو كان سكان الأرض الملائكة لأنزل الله إليهم ملكاً رسولاً.

وبعد أن يبين أن الله سبحانه شهيد على صدق رسالة النبي، وأن بيده الهداية، وأن من

يضله لا هادي له ولا ولي، وأنه يحشر أعمى وأبكم وأصم، وأن عاقبته جهنم التي يستمر سعيها جزاءً على ما عملوا.

بعد كل ذلك، يستنطق وجدانهم ويقول: أليس الله الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم، وإنما لا يؤاخذهم بالعذاب لأنه قدر لهم أجلاً لا ريب فيه ولكنهم لا يستغلون هذه الفرصة.

ولأن الإنسان كفور بطبعه، ويخيل فتور، فهو بحاجة إلى هادٍ ومربٍّ، وهو الرسول الذي يأتيه بالقرآن شفاء لما في الصدور.

ولم يكن النبي محمد ﷺ بدعاً من الرسل، فهذه رسالة الله تنزل على النبي موسى، والله سبحانه يؤتيه تسع آيات بينات فتحدها فرعون واتهمه بأنه مسحور، ويئن له النبي موسى أنها بصائر من الله وأن فرعون مبتور.

وكما جرى لرسول الله محمد ﷺ جرى لرسول الله موسى عليه السلام، حيث أراد فرعون أن يستفز الرسول من الأرض فأغرقه الله ومن معه جميعاً، وأورث الله الأرض لبني إسرائيل من بعده إلى أجل محدود.

هذا مثل لشهادة الله على صدق رسالاته، ومثل لمكر الشيطان وكيدته، ومثل لنصرة الله عباده، وأن الحق منتصر، وأن الباطل كان زهوقاً.

ولقد جاء القرآن بالحق، وما على الرسول إلا إيلاغه، وإنما فرقه الله على أنجم ليثبت به فؤاد رسوله.

هكذا ابتدأت (الآيات: ١٠٥-١١١)، وهي تشير إلى مسألة تفريق القرآن وتنزله عبر سنين البعثة، وتؤكد أن للقرآن أصحاباً يؤمنون به وأنهم يخرون للأذقان سجداً كلما تليت عليهم آياته، ويزدادون إيماناً بوعده الله، ويسجدون ويزيدهم القرآن خشوعاً لربه.

وهذه هي صفات المؤمنين بالقرآن، وهم عباد الله الذين لا سلطان لإبليس عليهم.

ومن صفاتهم أنهم يدعون الله - كما أمرهم - بأسمائه الحسنى، وأنهم لا يجهرون بصلاتهم (رياءً)، ولا يخافتون بها (خوفاً)، إنما يتغنون بين ذلك سبيلاً (لأن مشيهم الهون، وسيرتهم الاقتصاد، وامتهم وسط).

وتختتم سورة الإسراء بحمد الله الذي لا ولد له ولا شريك له ولا ولي له من الدل، كما ابتدأت بحمد الله وتسييحه.

قصة الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى^(١) بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ، لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

هدى من الآيات:

آيات الله تجليات أسماءه الحسنى، ومنها الرحمة الواسعة الدائمة، وبهذا الاسم العظيم خلقنا
وفي رحابه ترعرعنا، وبه حيينا وبه نشاء وبه نعمل وبه نقرأ كتاب ربنا وبه نستفيد من هذا الكتاب.
وبأسمائه الحسنى اصطفى النبي محمداً عبده ورسوله، وبه أسراه وعرج به، ولم يكن
النبي ولدأ له بل كان عبداً مصطفى فهو أول العابدين له.
والله هو السبوح القدوس، وهو السميع العليم حين اختار محمداً بين خلقه فهو أعلم
حيث يجعل رسالته.
وكان إسراؤه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى مروراً بمواطن الأنبياء، وهناك في
الملا الأعلى أراه ربنا آياته الكبرى.

بينات من الآيات:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ ذي القدرة والعظمة، والنور والكمال، والفضل والأنعام ﴿الرَّحْمَنِ

(١) أسرى: سار ليلاً.

الرَّحِيمِ ﴿ ابتدأت السورة بالتسبيح، والتسبيح يدل على التنزيه والتقديس، ومادتها من (سبح) أي نزه، ومعنى ذلك أن نبعده الله عن أي نقص أو عجز أو حد.

إن العقل البشري لا يستطيع أن يدرك إلا الأمور القريبة من ذهنه أو المتعارفة في الطبيعة، ولكنه يعجز عن إدراك ما وراء ذلك، ولو أراد الإنسان أن يتصور الله لتصوره في حدود مفاهيمه ومعارفه. حيث أن بعضهم قال: «إنه تعالى - ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء: ٤٣] - على صورة إنسان أعلاه مجوف وأسفله مصمت، وهو نور ساطع بتلا، وله حواس خمس»^(١).

والتاريخ يدلنا على: أن الأمم الكافرة والمشركة، إنما تصورت الله في حدود معارفها، فالأمة التي كانت بحاجة إلى الزراعة والرعي كانت تقدس الماء أو البقر أو كليهما باعتبارهما آلهة.

والأمة التي كانت بحاجة إلى الأنواء والنجوم لتهدي بها في السفر، كانت تتصور الله نجماً أو قمراً أو شمساً، أما الأمة التي كانت تعيش ضمن القبيلة والتقاليد الموروثة، فإنها كانت تقدس الجد الأكبر لها، وبالتالي فانهم كانوا يتصورون الله شيخاً كبيراً ذا لحية بيضاء.

وقد جاء في بعض الكتب الحديثة التي انطلقت من الغرور العلمي، أحاديث مسهبة خلاصتها: «انه لما كان الله موجوداً في كل مكان وليس له صوت ولا صورة فهو إذا الجاذبية».

وقال بعضهم بأن الله هو الوجود، وروي عن الإمام الباقر عليه السلام: «وَلَعَلَّ النَّمْلَ الصُّغَارَ تَتَوَهَّمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى زَبَانِيَّتَيْنِ»^(٢) فَإِنَّ ذَلِكَ كَمَا هُا، وَيَتَوَهَّمُ أَنَّ عَدَمَهَا نَقْصَانٌ لِّئِنْ لَا يَتَصِفُ بِهَا»^(٣).

ومن أجل أن يقطع الإنسان على نفسه الدخول في هذه الدائرة عليه أن يقول: «سبحان الله» فينزهه لأنه أجل من أن يتصور، وفي حديث عن الإمام الباقر عليه السلام يقول حين سأل ابن أبي نجران عن التوحيد: «أَتَوَهَّمُ شَيْئاً؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: نَعَمْ غَيْرَ مَعْقُولٍ وَلَا مَحْدُودٍ قَمَا وَقَعَ وَفُتِكَ عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ خِلَافُهُ، لَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ وَلَا تُذَرِكُهُ الْأَوْهَامُ، كَيْفَ تُذَرِكُهُ الْأَوْهَامُ وَهُوَ خِلَافُ مَا يُعْقَلُ، وَخِلَافُ مَا يَتَصَوَّرُ فِي الْأَوْهَامِ، إِنَّمَا يَتَوَهَّمُ شَيْءٌ غَيْرٌ مَعْقُولٍ وَلَا مَحْدُودٍ»^(٤).

وبالتالي فإن كل ما نتصوره مخلوق مردود إلينا، والشيء الوحيد الذي يمكن أن نقوله

(١) بحار الأنوار: ج ٣ ص ٢٨٩ نقلاً عن بعض الجهلة.

(٢) زبانيا النمل أو العقرب قرناها.

(٣) بحار الأنوار: ج ٦٦ ص ٢٩٣.

(٤) الكافي: ج ٢ ص ٨٢.

عن ربنا هو «سبحان الله» فإننا متى ما قلنا ذلك اقتربنا إلى الله خطوة.

جاء في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام وقد سأله البعض: «أَيُّجُوزُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ اللَّهَ شَيْءٌ؟» قَالَ عليه السلام: نَعَمْ يُخْرِجُهُ مِنَ الْحَدِيثِ حَدُّ التَّعْطِيلِ وَحَدُّ التَّشْبِيهِ^(١). وهذا معنى الاعتراف بالله، لذلك بدأ القرآن حديثه بالتسبيح فقال:

[١] «سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ، مِنْ مَّيْمَنَتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» ما هي علاقة تقديس الله وتنزيهه بالحادثة التاريخية التي وقعت لرسول الله ﷺ وهي حادثة الإسراء والمعراج؟

قال بعض المفسرين: «إن التسبيح هنا بمعنى التعجب أي عجباً». كيف أسرى الله عبده من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عرج به إلى السماء هذا صحيح. ولكن يبقى السؤال ما هي العلاقة بين التسبيح والتعجب؟ الواقع إننا حين نتعجب من شيء، فإن الشيطان والنفس الأمارة بالسوء يوسوسان لنا بأن ذلك الشيء هو عظيم إلى حد الألوهية، ومن أجل أن نبتعد عن هذا الشرك علينا أن نسبح الله وننزهه لتذكرك بأنه أكبر من أي شيء عجيب قد يهرنا.

وهكذا عندما أسرى الله بالنبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى السماء كان من الممكن أن يعتقد البعض بأن النبي ﷺ هو الإله، لذلك كان يلزم أن تبدأ القصة بـ «سبحان الله».

ولفردات اللغة العربية معان دقيقة فمثلاً: إذا ذهب أحدهم في أول الصباح إلى مكان ما يقال عنه (بكر) وإذا كان بعد ذلك بقليل قيل (صبح) ويعد مدة (غدا) ثم (أضحى) وفي النهار يقال (سرب) وأما في الليل فيقال (سرى).

والقرآن في هذه الآية يقول «سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ» يعني أسرى به في الليل، فلماذا تقول تنمة الآية: «بِعَبْدِهِ لَيْلًا»؟

قد يكون ذلك لما يلي:

أولاً: أسرى بعبده أي ذهب بالليل، ولكن هل كان رجوعه في الليل أيضاً؟ إن كلمة «لَيْلًا» جاءت هنا لتؤكد على أن الذهاب والإياب كان في الليل، تأكيداً لمعجزة الإسراء.

ثانياً: قد يكون تأكيد الآية على أن هذا الحدث العجيب قد تم في الليل، حيث السكون

والهدوء، وحيث لا يتم الانتقال فيها إلا قليلا، ثم إن العروج الإيماني يتم في الليل أكثر من النهار، قال ربنا: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْكَ وَأَاقُومٌ قِيْلًا﴾ [المزمل: ٦].

﴿مَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أما محل انطلاق رسول الله ﷺ للإسراء فقد اختلفت الروايات في ذلك، فمنهم من قال: بأنه خرج من المسجد الحرام، وبعض قال: من بيت أم هاني بنت أبي طالب، ولكن يمكن جمع الخبرين بالقول: إن الرسول ﷺ كان في بيت أم هاني، ثم خرج إلى المسجد الحرام، ومن هناك بدأ رحلته إلى المسجد الأقصى، أي المسجد الأبعد من المسجد الحرام.

وأما العروج فقد كان من المسجد الأقصى إلى السماء، حيث رأى آيات ربه الكبرى، إذ يقول تعالى: ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ أَيْنَأْتَنَّا﴾ وفي آية أخرى يقول: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨]. ولكن ما هي تلك الآيات؟ وأين هي؟

القرآن لا يحدثنا عن هذه الآيات إنما نجد هناك إشارات إلى هذه الآيات في الأحاديث كما سيأتي ذكره.

أما كيف تمت تلك الآيات والحوادث في ليلة واحدة في حين أنها تحتاج إلى مدة مديدة؟ فإن ذلك أثار تساؤلات لدى العلماء، فقال بعضهم: بأن الزمان في الفضاء الأعلى يختلف عما هو عليه في كرتنا الأرضية، ولهم في ذلك بحوث مطولة لا يسع المجال لذكرها، وأساسا هناك تساؤلات حول كيفية حدوث الإسراء لشخص الرسول كالتالي:

١- كيف قطع الرسول المسافة بين المسجدين في ليلة، علما بأنها كانت تقطع في ذلك الزمان في أسابيع؟.

٢- وبعدئذ كيف اخترق جاذبية الأرض إلى الفضاء، ونحن اليوم لا نقدر على مثله إلا بمركبات فضائية متطورة ومعقدة، ومع ذلك فإنها لا تستطيع أن تعمل إلا في حدود ضيقة جدا، بالنسبة إلى رحلة الرسول ﷺ؟.

٣- وإذا كانت السماوات جميعا عرصة رحلة الرسول، فيقتضي ذلك أن تكون سرعة المركبة أضعاف سرعة النور بملايين المرات، لأن الرسول قطع -حسب الروايات- تلك المسافات في ساعات وهو لا يتناسب مع الجسم الكثيف.

وتساؤلات أخرى جعلت طائفة من العلماء يشككون أنفسهم في المعراج، حتى أن بعضهم أوله بأن روح الرسول هي التي عرجت وليس النبي ﷺ بجسمه وروحه.

بيد أن إجماع علماء أهل البيت عليهم السلام قائم على أن العروج كان بالجسم والروح كما يحكيه شيخ الطائفة الطوسي رحمته الله ^(١) والشيخ الطبرسي رحمته الله ^(٢) والعلامة المجلسي رحمته الله ^(٣) وآخرون.

وهكذا ذهب أكثر المحققين من علماء المسلمين إلى ذلك وعليه روايات صحاح مشهورة حسب ما يحكيه المفسر المعروف الرازي ^(٤).

ويدل على ذلك:

أولاً: إن الآية صريحة على أن العروج تم **«بعبديه»** كما جاء في هذه الآية وتصرح آيات سورة النجم بقوله: **«وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۚ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۖ إِذْ يَفْعُشُ السِّدْرَةَ مَا يَفْعُشُ ۚ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۚ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۖ»** [النجم: ١٣ - ١٨]. وهذا التعبير صريح في أن العروج تم به وليس بروحه عليه السلام.

ثانياً: إن الرسول عليه السلام قص على الناس في مكة وأكثرهم كفار قصة المعراج، فكذبوه وأخبرهم بما رأى في الطريق مما ظهر صدقه لهم بعدئذ، ولو أن العروج كان بروحه في مثل النوم، لكان الأمر غير ذي بال، ولا يثير التساؤلات عندهم بل لا يكون معجزة لافتة للنظر.

وعلى العموم لا بد أن نعرف: أن عروج الرسول لم يكن مثل صعود المركبات، بل كان إعجازاً مثل صعود عيسى وإدريس عليهما السلام ومثل ما فعل الله سبحانه وتعالى لأنبيائه عليهم السلام من طوفان نوح، وخمود النيران لإبراهيم عليه السلام وابتلاع عصى موسى عليه السلام لحبال سحرة فرعون وإحياء الموتى على يد عيسى ابن مريم عليه السلام.

وكما القرآن إعجاز تحدى كل العلماء والبلغاء، ولم يستطيعوا أن يأتوا بمثله، كذلك إسرائ النبي عليه السلام ومعرجه.

أما كيف تم ذلك فإن العلم يتقدم، وأمامه طريق طويل حتى يستطيع أن يكشف أسرار هذه الرحلة المادية الروحية العجيبة.

بلى فهذا العلم تقدم خطوات، واطهر أن قطع المسافة بين المسجدين في ليلة واحدة

(١) تفسير البيان: ج ٦ ص ٤٤٤.

(٢) مجمع البيان: ج ٣ ص ٣٩٥.

(٣) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٨٢ وما بعدها.

(٤) تفسير الفخر الرازي في تفسيره للآيات: ج ٢٠ ص ١٤٧.

ممكنة، ثم تقدم وأثبت أن الصعود إلى الفضاء هو الآخر ممكن بصورة إجمالية، بينما كان الأمران محالان عند السابقين حين تمت رحلة الإسراء والمعراج، وسوف يتقدم ويتقدم ليكشف بعض أسرار الرحلة المعجزة.

وأخيرا لنعلم أن عروج الرسول كان رحلة روحية أيضا، بالإضافة إلى أنه كان رحلة مادية، حيث شاهد الملائكة والأنبياء السابقين، والجنة والنار ومن فيها.

حديث الإسراء

في الحديث المروي عن تفسير القمي، عن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «جاء جبرئيل وميكائيل وإسرافيل بالبراق إلى رسول الله ﷺ فَأَخَذَ وَاحِدًا بِاللِّجَامِ وَوَاحِدًا بِالرَّكَابِ، وَسَوَّى الْآخِرُ عَلَيْهِ نِيَابَهُ، فَتَضَعَضَتِ الْبُرَاقُ (أي تحركت) فَلَطَمَهَا جَبْرَائِيلُ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: اسْكُنِي يَا بَرَّاقُ، فَمَا رَكِيبُ نَبِيِّ قَبْلَهُ، وَلَا يَرْكَبُكَ بَعْدَهُ مِثْلُهُ، قَالَ فَرَقْتُ بِهِ (أي طارت) وَرَفَعَتْهُ ارْتِفَاعًا لَيْسَ بِالْكَثِيرِ، وَمَعَهُ جَبْرَائِيلُ يُرِيهِ الْآيَاتِ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا فِي مَسِيرِي إِذْ نَادَى مُنَادٍ عَنْ يَمِينِي، يَا مُحَمَّدُ! فَلَمْ أَجِبْهُ، وَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، ثُمَّ نَادَى مُنَادٍ عَنْ يَسَارِي: يَا مُحَمَّدُ! فَلَمْ أَجِبْهُ، وَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلْتَنِي امْرَأَةٌ كَاشِفَةٌ عَنْ ذِرَاعَيْهَا، عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ زِينَةِ الدُّنْيَا فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ! انْظُرْنِي حَتَّى أَكَلِمَكَ فَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، ثُمَّ سِرْتُ فَسَمِعْتُ صَوْتًا أَفْرَعَنِي فَجَاوَزْتُ، فَنَزَلَ بِي جَبْرَائِيلُ، فَقَالَ: صَلِّ، فَصَلَّيْتُ، فَقَالَ: تَذَرِي أَيْنَ صَلَّيْتُ؟ فَقُلْتُ: لَا، فَقَالَ: صَلَّيْتُ بِطَيْبَةٍ وَإِلَيْهَا مُهَاجِرُكَ، ثُمَّ رَكِبْتُ فَمَضَيْنَا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ لِي: انْزِلْ وَصَلِّ، فَنَزَلْتُ وَصَلَّيْتُ، فَقَالَ لِي: تَذَرِي أَيْنَ صَلَّيْتُ؟ فَقُلْتُ: لَا، فَقَالَ: صَلَّيْتُ بِطُورِ سَيْنَاءَ حَيْثُ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى نَكْلِيًّا، ثُمَّ رَكِبْتُ فَمَضَيْنَا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ لِي: انْزِلْ فَصَلِّ، فَنَزَلْتُ وَصَلَّيْتُ، فَقَالَ لِي: تَذَرِي أَيْنَ صَلَّيْتُ؟ فَقُلْتُ: لَا، قَالَ: صَلَّيْتُ فِي بَيْتِ لَحْمٍ - وَبَيْتِ لَحْمٍ بِنَاحِيَةِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ حَيْثُ وَلَدَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ -، ثُمَّ رَكِبْتُ فَمَضَيْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ فَرَبَطْتُ الْبُرَاقَ بِالْحُلُقَةِ الَّتِي كَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ تُرَبِّطُ بِهَا، فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَمَعِيَ جَبْرَائِيلُ إِلَى جَنْبِي فَوَجَدْنَا إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى فِيمَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ جَمَعُوا إِلَيَّ وَأَقِيمَتِ الصَّلَاةُ وَلَا أَشْكُ إِلَّا وَجَبْرَائِيلُ سَبَقَدَّمْنَا، فَلَمَّا اسْتَوَوْا أَخَذَ جَبْرَائِيلُ بَعْضُي فَقَدَّمَنِي وَأَمْتَهُمْ وَلَا فَخْرَ.

ثُمَّ أَتَانِي الْخَازِنُ بِثَلَاثَةِ أَوَانٍ إِنَاءٌ فِيهِ لَبَنٌ وَإِنَاءٌ فِيهِ مَاءٌ وَإِنَاءٌ فِيهِ خَمْرٌ وَسَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ: إِنَّ أَخَذَ الْمَاءَ غَرَقَ وَهَرَقَتْ أُمَّتُهُ، وَإِنْ أَخَذَ الْخَمْرَ غَوِيَ وَغَوِيَتْ أُمَّتُهُ، وَإِنْ أَخَذَ اللَّبَنَ هُدِيَ وَهُدِيَتْ أُمَّتُهُ. قَالَ: فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ وَشَرِبْتُ مِنْهُ، فَقَالَ لِي جَبْرَائِيلُ: هُدَيْتَ وَهُدِيَتْ أُمَّتُكَ.

ثُمَّ قَالَ لِي: مَاذَا رَأَيْتَ فِي مَسِيرِكَ؟ فَقُلْتُ: نَادَانِي مُنَادٍ عَنْ يَمِينِي، فَقَالَ لِي: أَوَأَجِبْتُهُ؟ فَقُلْتُ: لَا، وَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ذَلِكَ دَاعِي الْيَهُودِ لَوْ أَجِبْتُهُ لَتَهَوَّدْتَ أُمَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ، ثُمَّ قَالَ: مَاذَا رَأَيْتَ؟ فَقُلْتُ: نَادَانِي مُنَادٍ عَنْ يَسَارِي، فَقَالَ لِي: أَوَأَجِبْتُهُ؟ فَقُلْتُ: لَا، وَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ذَلِكَ دَاعِي النَّصَارَى لَوْ أَجِبْتُهُ لَتَنَصَّرْتَ أُمَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ، ثُمَّ قَالَ: مَاذَا اسْتَقْبَلَكَ؟ فَقُلْتُ: لَقِيتُ امْرَأَةً كَاشِفَةً عَنْ ذِرَاعَيْهَا عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ زِينَةِ الدُّنْيَا، فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ! انْظُرْنِي حَتَّى أَكَلِّمَكَ، فَقَالَ لِي: أَفَكَلَّمْتَهَا؟ فَقُلْتُ: لَا كَلَّمْتُهَا وَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَقَالَ: تِلْكَ الدُّنْيَا وَلَوْ كَلَّمْتَهَا لَأَخْتَارْتَ أُمَّتَكَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتًا أَفْرَعَنِي فَقَالَ لِي جَبْرِئِيلُ: أَسْمَعْ يَا مُحَمَّدُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: هَذِهِ صَخْرَةٌ قَدَفْتُهَا عَنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعِينَ عَامًا فَهَذَا حِينَ اسْتَقَرَّتْ. قَالُوا: فَمَا ضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى قُبِضَ^(١).

قصة المعراج

في حديث الإسراء والمعراج كثير من المواعظ والحكم، وفي نفس الوقت هو حديث ممتع، يحمل الإنسان بعيداً عن آفاق الزمان والمكان، ويدعه يسبح في آفاق بعيدة وأشارت إلى ذلك الآية القرآنية تقول: ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ مَّابِنِنَا﴾.

في وقت كان الناس يعتقدون بأن الأرض هي محور الكون، وإن السماء سقفاً، وأن النجوم مسامير وضعت في هذا السقف لكي لا تقع السماء على الأرض، ولتكون زينة، وكان يتصور فريق منهم أن السماوات عقول مجردة لا تحمل الفساد.

في ذلك الوقت تمت حادثة المعراج، ونقلتها الأحاديث، ولا بد أن نعرف أن قصة السماوات تختلف عن موضوع الكبد مثلاً في جسم الإنسان، إذ الكبد شيء خفي لا يهتم كل إنسان به، أما السماء فكل إنسان يزعم أنه يعرف عنها الشيء الكثير، وذلك لعلاقته الوثيقة بها، فهو يرى الشمس والقمر والنجوم يومياً، كما أنه يشاهد تغيرات الأنواء باستمرار، وهكذا فإنه لا بد أن يكون تصوراً معيناً عن السماء في نفسه يكون خاطئاً في الأغلب، وكثيراً ما تحولت الأساطير المرتبطة بعلم الهيئة القديم إلى أفكار مقدسة، فمثلاً: دافعت الكنيسة عن هيئة بطليموس، وأحرقت أو قتلت من تحداهها، كما جرى لجاليليو، حين قال: بأن الأرض التي تدور حول الشمس وليس العكس.

وبالرغم من ذلك فقد جاءت إشارات صريحة في بعض الأحاديث عن طبيعة السماء يقول الإمام الباقر عليه السلام في كلام له لأحد أصحابه: «لَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَلْفَ أَلْفِ

(١) تفسير القمي: ج ٢ ص ٣ معراج رسول الله ﷺ، بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٣١٩.

عَالَمٍ وَ أَلْفَ أَلْفِ آدَمَ أَنْتَ فِي آخِرِ تِلْكَ الْعَوَالِمِ وَ أُولَئِكَ الْأَكْمِيْنُ^(١).

ولقد كان الإمام علي عليه السلام يقف في مسجد الكوفة فيقول بملء فيه: «سَلُونِي عَنْ طُرُقِ السَّمَاوَاتِ فَإِنِّي أَعْلَمُ بِهَا مِنْ طُرُقِ الْأَرْضِ»^(٢).

حديث المعراج

انتهينا في الدرس الماضي من الحديث عن الإسراء، ونواصل هنا الحديث عن المعراج، هذا الحديث يقول: قال رسول الله ﷺ: «فَصَعِدَ جَبْرَائِيلُ وَصَعِدَتْ مَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا (يعني أقرب سماء إلى الأرض، فإن لفظة دنيا مؤنث أدنى، وأدنى مقابل أقصى) وَعَلَيْهَا مَلَكٌ يُقَالُ لَهُ إِسْمَاعِيلُ، وَهُوَ صَاحِبُ الْخُطْفَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَنْ خَلِيفَ الْخُطْفَةِ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصفات: ١٠]. وَتَحْتَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ تَحْتَ كُلِّ مَلَكٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ»^(٣).

فَقَالَ: يَا جَبْرَائِيلُ مَنْ هَذَا مَعَكَ؟ فَقَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ، قَالَ وَقَدْ بُعِثَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَفَتَحَ الْبَابَ (كَأَنَّ لِلسَّمَاءِ بَاباً وَلَكِنْ لَيْسَ كَالْأَبْوَابِ الْمَتَعَارِفَةِ لِدُنْيَا) فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمْ عَلَيَّ، وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ، وَاسْتَغْفَرَ لِي، وَقَالَ: مَرْحَباً بِالْأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَتَلَقَّنِي الْمَلَائِكَةُ حَتَّى دَخَلْتُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَمَا لَقِيَنِي مَلَكٌ إِلَّا صَاحِجاً مُسْتَبِشِراً، حَتَّى لَقِيَنِي مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، لَمْ أَرَ أَكْظَمَ خَلْقاً مِنْهُ، كَرِيهُهُ الْمُنْظَرُ ظَاهِرُ الْغَضَبِ، فَقَالَ لِي مِثْلَ مَا قَالُوا مِنَ الدُّعَاءِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَضْحَكْ وَلَمْ أَرَ فِيهِ مِنَ الْإِسْتِشَارِ مَا رَأَيْتُ مِنْ ضَحِكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرَائِيلُ فَإِنِّي قَدْ فِرَعْتُ مِنْهُ؟

فَقَالَ: يَجُوزُ أَنْ تَفْرَعَ مِنْهُ وَكُلُّنَا نَفْرَعُ مِنْهُ، إِنَّ هَذَا مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ لَمْ يَضْحَكْ قَطُّ وَلَمْ يَزَلْ مُنْذُ وَلَاءِ اللَّهِ جَهَنَّمَ يَزْدَادُ كُلُّ يَوْمٍ غَضَباً وَغَيْظاً عَلَى أَعْدَائِهِ اللَّهِ وَأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ، فَيَسْتَقِيمُ اللَّهُ بِهِ مِنْهُمْ، وَلَوْ ضَحِكَ إِلَى أَحَدٍ كَانَ قَبْلَكَ أَوْ كَانَ صَاحِجاً إِلَى أَحَدٍ بَعْدَكَ لَضَحِكَ إِلَيْكَ، وَلَكِنَّهُ لَا يَضْحَكُ. فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ عَلَيَّ وَيَشْرَنِي بِالْجَنَّةِ، فَقُلْتُ لِجَبْرَائِيلَ وَجَبْرَائِيلُ بِالْمَكَانِ الَّذِي وَصَفَهُ اللَّهُ ﴿مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوير: ٢١] أَلَا تَأْمُرُنِي أَنْ يُرِيَنِي النَّارَ؟ فَقَالَ لَهُ جَبْرَائِيلُ: يَا مَالِكُ أَرِ مُحَمَّدًا النَّارَ، فَكَشَفَ عَنْهَا غِطَاءَهَا، وَفَتَحَ بَاباً مِنْهَا فَخَرَجَ مِنْهَا هَبٌّ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ وَفَارَتْ

(١) بحار الأنوار: ج ٨، ص ٣٧٥.

(٢) بحار الأنوار: ج ٣٩، ص ١٠٨، كشف الغمة: ج ١، ص ١٣٠.

(٣) مكلفون بإدارة السماء الأولى فقط، وهناك أحاديث تصف بعض الملائكة فتقول بأن جناح الواحد منهم يمتد ما بين المشرق والمغرب، أو أن الواحد منهم يحمل ثقل الأرض كلها فوق جناحه، وما هذه الإشارات إلا إلى سعة السماوات.

وَارْتَفَعَتْ حَتَّى ظَنَنْتُ لَسْتَاوَلْنِي بِمَا رَأَيْتُ، فَقُلْتُ: يَا جَبْرِئِيلُ قُلْ لَهُ فَلْيَرُدَّ عَلَيْهَا غِطَاءَهَا، فَأَمَرَهَا فَقَالَ لَهَا: ارْجِعِي، فَرَجَعَتْ إِلَى مَكَانِهَا الَّذِي خَرَجَتْ مِنْهُ^(١).

ثُمَّ مَضَيْتُ فَرَأَيْتُ رَجُلًا أَدِيمًا جَسِيًّا، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِئِيلُ؟ فَقَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ، فَإِذَا هُوَ يُعَرِّضُ عَلَيْهِ ذُرِّيَّتَهُ فَيَقُولُ: رُوحٌ طَيِّبٌ وَرِيحٌ طَيِّبَةٌ مِنْ جَسَدٍ طَيِّبٍ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ سُورَةَ الْمُطَفِّينَ عَلَى رَأْسِ سَبْعِ عَشْرَةَ آيَةً ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ (١٨) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ (١٩) ﴿كِتَابٌ مَرْفُومٌ﴾ (٢٠) ﴿يَشْهَدُهُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (إِلَى آخِرِهَا) [المطففين: ١٨-٢١]. قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَى أَبِي آدَمَ وَسَلَّمْ عَلَيَّ وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ وَاسْتَغْفَرَ لِي، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْإِبْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْمُبْعُوثِ فِي الزَّمَنِ الصَّالِحِ.

قَالَ: ثُمَّ مَرَرْتُ بِمَلِكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جَالِسٍ عَلَى تَحْلِيسٍ وَإِذَا بِجَمِيعِ الدُّنْيَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ، وَإِذَا بِيَدِهِ لَوْحٌ مِنْ نُورٍ سَطَّرَ فِيهِ مَكْتُوبٌ فِيهِ كِتَابٌ يَنْظَرُ فِيهِ لَا يَلْتَفِتُ بَمِثْلٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ مُقْبِلًا عَلَيْهِ كَهَيْئَةِ الْحَزِينِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِئِيلُ؟ فَقَالَ: هَذَا مَلِكُ الْمَوْتِ دَائِبٌ فِي قَبْضِ الْأَرْوَاحِ، فَقُلْتُ: يَا جَبْرِئِيلُ أَذِنِي مِنْهُ حَتَّى أَكَلِمَهُ، فَأَذِنَانِي مِنْهُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، وَقَالَ لَهُ جَبْرِئِيلُ: هَذَا مُحَمَّدٌ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى الْعِبَادِ، فَرَحَّبَ بِي وَحَبَّانِي بِالسَّلَامِ، وَقَالَ: أَبَشِّرْ يَا مُحَمَّدُ فَإِنِّي أَرَى الْخَيْرَ كُلَّهُ فِي أَمْنِكَ، فَقُلْتُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَنَّانِ ذِي النِّعَمِ عَلَى عِبَادِهِ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ رَبِّي وَرَحْمَتِهِ عَلَيَّ، فَقَالَ جَبْرِئِيلُ: هُوَ أَشَدُّ الْمَلَائِكَةِ حَمَلًا، فَقُلْتُ: أَكُلُ مَنْ مَاتَ أَوْ هُوَ مَيِّتٌ فِيمَا بَعْدَ هَذَا يَقْبِضُ رُوحَهُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: وَتَرَاهُمْ حَبْتٌ كَانُوا وَتَشْهَدُهُمْ بِنَفْسِكَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ مَلِكُ الْمَوْتِ: مَا الدُّنْيَا كُلُّهَا عِنْدِي فِيمَا سَخَّرَهَا اللَّهُ لِي وَمَكَّنْتَنِي عَلَيْهَا إِلَّا كَالدُّرْهِمِ فِي كَفِّ الرَّجُلِ يُقْلِبُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَمَا مِنْ دَارٍ إِلَّا وَأَنَا أَنْصَفُهَا كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، وَأَقُولُ إِذَا بَكَى أَهْلُ الْمَيْتِ عَلَى مَيِّتِهِمْ: لَا تَبْكُوا عَلَيْهِ فَإِنِّي فِيكُمْ عَوْدَةٌ وَعَوْدَةٌ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْكُمْ أَحَدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كَفَى بِالْمَوْتِ طَامَةً يَا جَبْرِئِيلُ، فَقَالَ جَبْرِئِيلُ: إِنَّ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ أَطْمٌ وَأَطْمٌ مِنَ الْمَوْتِ.

قَالَ: ثُمَّ مَضَيْتُ فَإِذَا أَنَا بِقَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَوَائِدُ مِنْ لَحْمٍ طَيِّبٍ وَلَحْمٍ خَبِيثٍ يَأْكُلُونَ اللَّحْمَ الْخَبِيثَ وَيَدْعُونَ الطَّيِّبَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِئِيلُ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الْحَرَامَ وَيَدْعُونَ الْحَلَالَ، وَهُمْ مِنْ أُمَّتِكَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ثُمَّ رَأَيْتُ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ جَعَلَ اللَّهُ أَمْرَهُ عَجَبًا يَنْصِفُ جَسَدِهِ النَّارُ وَالنَّصْفُ الْآخَرُ ثَلْجٌ فَلَا النَّارُ تُذِيبُ الثَّلْجَ وَلَا الثَّلْجُ يُطْفِئُ النَّارَ، وَهُوَ يُنَادِي بِصَوْتٍ رَفِيعٍ وَيَقُولُ: سُبْحَانَ الَّذِي كَفَّ حَرَّ هَذِهِ النَّارِ فَلَا تُذِيبُ الثَّلْجَ،

(١) ومن هذا الحديث يبدو أن جهنم ضمن إطار السماء الأولى وهي أقرب سماء إلينا، وقد تكون جهنم مثلاً كرة ملتهبة من هذه الكرات الموجودة في إحدى هذه المجرات، أو شمس من الشموس العتيقة التي تحدث فيها انفجارات هائلة تتجاوز عظمتها ملايين المرات عما هي عليه القنابل النووية في الدنيا، أو يكون ما رآه سيدنا ونبينا محمد ﷺ جانباً من جهنم والله العالم.

وَكَفَّ بَرْدَ هَذَا الثَّلْجِ فَلَا يُطْفِئُ حَرَّ هَذِهِ النَّارِ، اللَّهُمَّ يَا مُؤَلِّفَ بَيْنَ الثَّلْجِ وَالنَّارِ أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِ عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرَيْلُ؟ فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ وَكَلَّهُ اللهُ بِأَكْتَابِ السَّمَاءِ وَأَطْرَافِ الْأَرْضِينَ، وَهُوَ أَنْصَحُ مَلَائِكَةِ اللهِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ يَدْعُو لَهُمْ بِمَا تَسْمَعُ مِنْهُ خَلْقًا.

وَرَأَيْتُ مَلَكََيْنِ يُنَادِيَانِ فِي السَّمَاءِ أَحَدُهُمَا يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ كُلَّ مُنْفِقٍ خَلَفًا، وَالْآخَرُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ كُلَّ مُنْسِكٍ تَلَفًا. ثُمَّ مَضَيْتُ فَإِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ لَهُمْ مَشَافِرُ كَمَشَافِرِ الْإِبِلِ يُفَرِّضُ اللَّحْمُ مِنْ جُنُوبِهِمْ وَيُلْقَى فِي أَنْوَاهِهِمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرَيْلُ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الْهَمَّازُونَ الْكَمَّازُونَ (المغتَابُونَ النِّهَامُونَ). ثُمَّ مَضَيْتُ فَإِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ تُرَضِّخُ رُؤُوسَهُمْ بِالصَّخَرِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرَيْلُ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنَامُونَ عَنْ صَلَاةِ الْعِشَاءِ.

ثُمَّ مَضَيْتُ فَإِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ تُقَذِّفُ النَّارَ فِي أَنْوَاهِهِمْ وَتُخْرِجُ مِنْ أَدْبَارِهِمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرَيْلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿[النساء: ١٠]﴾.

ثُمَّ مَضَيْتُ فَإِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ يُرِيدُ أَحَدُهُمْ أَنْ يَقُومَ فَلَا يَقْدِرُ مِنْ عِظَمِ بَطْنِهِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرَيْلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. وَإِذَا هُمْ بِسَبِيلِ آلِ فِرْعَوْنَ بِمَرَضُونَ عَلَى النَّارِ هُدُودًا وَهَشِيئًا يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَتَى نَقُومُ السَّاعَةَ.

قَالَ: ثُمَّ مَضَيْتُ فَإِذَا أَنَا بِبَنَوَانِ مُعْلَقَاتِ بَنَدِينٍ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرَيْلُ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ اللُّوَائِي بُورَثُنْ أَمْوَالِ أَزْوَاجِهِمْ أَوْلَادَ غَيْرِهِمْ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى امْرَأَةٍ أَذْخَلَتْ عَلَى قَوْمٍ فِي نَسَبِهِمْ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ فَاطْلَعَ عَلَى عَوْرَتِهِمْ وَأَكَلَ خَزَائِنَهُمْ.

قَالَ: ثُمَّ مَرَرْنَا بِمَلَائِكَةٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَهُمُ اللهُ كَيْفَ شَاءَ، وَوَضَعَ وَجُوهَهُمْ كَيْفَ شَاءَ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ أَطْبَاقِ أَجْسَادِهِمْ إِلَّا وَهُوَ يُسَبِّحُ اللهَ وَيُحَمِّدُهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ بِأَصْوَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، أَصْوَاتُهُمْ مُرْتَفِعَةٌ بِالتَّحْمِيدِ وَالْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ فَسَأَلْتُ جَبْرَيْلَ عَنْهُمْ فَقَالَ: كَمَا تَرَى خُلِقُوا؛ إِنَّ الْمَلَكَ مِنْهُمْ إِلَى جَنْبِ صَاحِبِهِ مَا كَلَّمَهُ قَطُّ، وَلَا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ إِلَى مَا فَوْقَهَا، وَلَا خَفَضُوهَا إِلَى مَا تَحْتَهَا، خَوْفًا مِنَ اللهِ وَخُشُوعًا. فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ، فَرَدُّوا عَلَيَّ إِيْمَاءَ بُرُؤِ سِيئِهِمْ لَا يَنْظُرُونَ إِلَيَّ مِنَ الْخُشُوعِ، فَقَالَ لَهُمْ جَبْرَيْلُ: هَذَا مُحَمَّدٌ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى الْعِبَادِ رَسُولًا وَنَبِيًّا، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّ وَسَيَلُّهُمْ أَفَلَا تُكَلِّمُونَهُ؟ قَالَ: فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْ جَبْرَيْلَ أَقْبَلُوا عَلَيَّ بِالسَّلَامِ وَأَكْرَمُونِي وَبَشَرُونِي بِالْخَيْرِ لِي وَلَا مَتَى.

الرسول في السماوات

يقول رسول الله ﷺ: «ثُمَّ صَعِدْنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَإِذَا فِيهَا رَجُلَانِ مُتَشَابِهَانِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَانِ يَا جَبْرِئِيلُ؟ فَقَالَ لِي: ابْنَا الْحَالَةَ يَحْيَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَا عَلَيَّ وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُمَا وَاسْتَغْفَرَا لِي، وَقَالَا: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَإِذَا فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْحُشُوعِ قَدْ وَضَعَ اللَّهُ وُجُوهَهُمْ كَيْفَ شَاءَ لَيْسَ مِنْهُمْ مَلَكٌ إِلَّا يُسَبِّحُ اللَّهَ وَيُحَمِّدُهُ بِأَصْوَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ.

قَالَ: ثُمَّ صَعِدْنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ فَضَّلُ حُسْنِيهِ عَلَى سَائِرِ الْخَلْقِ كَفَضَّلَ الْقَمَرُ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ النُّجُومِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِئِيلُ؟ فَقَالَ: هَذَا أَخُوكَ يُوسُفُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ وَاسْتَغْفَرَ لِي، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ وَالْمُبْعُوثِ فِي الزَّمَنِ الصَّالِحِ، وَإِذَا فِيهَا مَلَائِكَةٌ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحُشُوعِ مِثْلُ مَا وَصَفْتُ فِي السَّمَاءِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ. وَقَالَ لَمْ جَبْرِئِيلُ فِي أَمْرِي مَا قَالَ لِلْآخَرِينَ، وَصَنَعُوا بِمِثْلِ مَا صَنَعَ الْآخَرُونَ.

ثُمَّ صَعِدْنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ وَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِئِيلُ؟ قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ رَفَعَهُ اللَّهُ مَكَانًا عَلِيًّا فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ وَاسْتَغْفَرَ لِي، وَإِذَا فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْحُشُوعِ مِثْلُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ الَّتِي حَبَرْنَاهَا فَبَشِّرُونِي بِالْخَيْرِ لِي وَلَا مُنِي، ثُمَّ رَأَيْتُ مَلَكًا جَالِسًا عَلَى سَرِيرٍ تَحْتَ يَدَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ تَحْتَ كُلِّ مَلَكٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي رَسُولُ اللَّهِ أَنَّهُ هُوَ، فَصَاحَ بِهِ جَبْرِئِيلُ فَقَالَ: قُمْ فَهُوَ قَائِمٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

ثُمَّ صَعِدْنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ كَهَلُ عَظِيمِ الْعَيْنِ لَمْ أَرَ كَهَلًا أَضْطَمَّ مِنْهُ حَوْلُهُ ثَلَاثَةٌ مِنْ أُمَّتِهِ فَأَعْجَبَنِي كَثَرَتُهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِئِيلُ؟ فَقَالَ: هَذَا الْمُحِيبُ فِي قَوْمِهِ هَارُونَ بْنُ عِمْرَانَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ وَاسْتَغْفَرَ لِي، وَإِذَا فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْحُشُوعِ مِثْلُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ.

ثُمَّ صَعِدْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ وَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ أَدِيمٌ (أَيَ اسْمُ اللَّوْنِ) طَوِيلٌ كَأَنَّهُ مِنْ شَبُوءِ^(١) وَلَوْ أَنَّ عَلَيْهِ قَبِيبَصِينَ لَنَقَذَ شَعْرُهُ فِيهِمَا، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: يَزْعُمُ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنِّي أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى اللَّهِ وَهَذَا رَجُلٌ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنِّي (وَأَشَارَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ)، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِئِيلُ؟ فَقَالَ: هَذَا أَخُوكَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ وَاسْتَغْفَرَ لِي، وَإِذَا فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْحُشُوعِ مِثْلُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ^(٢).

(١) شَبُوءُ قَبِيلَةٌ عَرَبِيَّةٌ مَعْرُوفَةٌ طَوَالَ الْقَامَةِ.

(٢) وَهَكَذَا فَإِنَّا نَرَى أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَلْتَقِي فِي كُلِّ سَمَاءٍ بِنَبِيٍّ أَوْ أَكْثَرَ تَعْبِيرًا عَنْ وَحْدَةِ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَةِ وَعَنْ الْأَخُوَّةِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَعَنْ اخْتِلَافِ دَرَجَاتِ الْأَنْبِيَاءِ.

قَالَ: ثُمَّ صَعِدْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَمَا مَرَرْتُ بِمَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ اخْتَجِمْ وَأْمُرْ أُمَّتَكَ بِالْحِجَامَةِ، وَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ أَشْمَطُ الرَّأْسِ وَاللَّحْيَةِ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ، فَقُلْتُ: يَا جَبْرَائِيلُ مَنْ هَذَا الَّذِي فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ الْمُعْمُورِ فِي جِوَارِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَبُوكَ إِبْرَاهِيمُ، وَهَذَا مَخْلُوكٌ وَعَمَلٌ مِنْ أَتَقَى مِنْ أُمَّتِكَ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]. فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْإِبْنِ الصَّالِحِ وَالْمُبْعُوثِ فِي الزَّمَنِ الصَّالِحِ، وَإِذَا فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْخُشُوعِ مِثْلُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ فَبَشِّرُونِي بِالْخَيْرِ لِي وَلَا تُمَيِّزُوا^(١).

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَرَأَيْتُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَحَارًا مِنْ نُورٍ يَتَلَأَلُ تَلَالُؤُهَا يَخْطَفُ بِالْأَبْصَارِ، وَفِيهَا بَحَارٌ مُظْلِمَةٌ وَبَحَارٌ مِنْ ثَلَجٍ تَرَعُدُ، فَكُلُّمَا فَرَعْتُ وَرَأَيْتُ هَؤُلَاءِ سَأَلْتُ جَبْرَائِيلَ فَقَالَ: أَبَشِّرْ يَا مُحَمَّدُ وَاشْكُرْ كَرَامَةَ رَبِّكَ وَاشْكُرْ اللَّهَ بِنَا صَنَعَ إِلَيْكَ، قَالَ فَتَبَتَّنِي اللَّهُ بِقُوَّتِهِ وَهُوَ يَهْدِي حَتَّى كَثُرَ قَوْلِي لِجَبْرَائِيلَ وَتَعَجَّبِي، فَقَالَ جَبْرَائِيلُ: يَا مُحَمَّدُ تُعْظِمُ مَا تَرَى (هل تراه عظيماً) ١٩ إِنَّمَا هَذَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ رَبِّكَ فَكَيْفَ بِالْخَالِقِ الَّذِي خَلَقَ مَا تَرَى وَمَا لَا تَرَى أَعْظَمُ مِنْ هَذَا.

إِنَّ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ تِسْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ، وَأَقْرَبُ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ أَنَا وَإِسْرَافِيلُ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَرْبَعَةُ حُجُبٍ: حِجَابٌ مِنْ نُورٍ، وَحِجَابٌ مِنْ ظُلْمَةٍ، وَحِجَابٌ مِنَ الْغَمَامِ، وَحِجَابٌ مِنَ الْمَاءِ.

قَالَ ﷺ: وَرَأَيْتُ مِنَ الْعَجَائِبِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ وَسَخَّرَ عَلَى مَا أَرَادَهُ دِيكًا رِجْلَاهُ فِي تَحْوِمِ الْأَرْضِينَ السَّابِعَةِ وَرَأْسُهُ عِنْدَ الْعَرْشِ، وَهُوَ مَلَكٌ مِنَ مَلَائِكَةِ اللَّهِ تَعَالَى خَلَقَهُ اللَّهُ كَمَا أَرَادَ رِجْلَاهُ فِي تَحْوِمِ الْأَرْضِينَ السَّابِعَةِ. ثُمَّ أَقْبَلَ مُضْعِدًا حَتَّى خَرَجَ فِي الْهَوَاءِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَانْتَهَى فِيهَا مُضْعِدًا حَتَّى انْتَهَى قَرْنُهُ إِلَى قُرْبِ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّي حَيْثُ مَا كُنْتُ لَا تَذَرِي أَيْنَ رَبِّكَ مِنْ عِظَمِ شَأْنِهِ وَلَهُ جَنَاحَانِ فِي مَنْكِبَيْهِ إِذَا نَشَرَهُمَا جَاوَزَ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ، فَإِذَا كَانَ فِي السَّحَرِ نَشَرَ جَنَاحَيْهِ وَخَفَقَ بِهِمَا وَصَرَخَ بِالتَّسْبِيحِ يَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وَإِذَا قَالَ ذَلِكَ سَبَّحَتْ دُيُوكُ الْأَرْضِ كُلُّهَا وَخَفَقَتْ بِأَجْنِحَتَيْهَا وَأَخَذَتْ فِي الصِّيَاحِ، فَإِذَا سَكَتَ ذَلِكَ الدِّيكُ فِي السَّمَاءِ سَكَتَتْ دُيُوكُ الْأَرْضِ كُلُّهَا، وَلِذَلِكَ الدِّيكُ رَغَبٌ أَخْضَرُ وَرِيشٌ أَبْيَضُ كَأَشَدِّ بَيَاضٍ مَا رَأَيْتُهُ قَطُّ، وَلَهُ رَغَبٌ أَخْضَرُ أَيْضًا تَحْتَ رِيشِهِ الْأَبْيَضِ كَأَشَدِّ خُضْرَةٍ مَا رَأَيْتَهَا قَطُّ.

قَالَ ﷺ: ثُمَّ مَضَيْتُ مَعَ جَبْرَائِيلَ فَدَخَلْتُ الْبَيْتَ الْمُعْمُورَ فَصَلَّيْتُ فِيهَا رَكَعَتَيْنِ وَمَعِيَ

(١) إِنَّمَا نَجِدُ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ فِي حَدِيثِهِمْ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ يَقُولُونَ لَهُ: الْمُبْعُوثُ فِي الزَّمَنِ الصَّالِحِ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْبَشَرِيَّةَ قَدْ تَكَامَلَتْ عِبْرَ رِسَالَاتِ اللَّهِ حَتَّى بَلَغَتْ مَرَحِلَةَ التَّضَجُّعِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْعُهُودِ التَّالِيَةِ لِعَهْدِهِ، وَإِنْسَانُ الْيَوْمِ إِنَّمَا يَتَقَدَّمُ فِي مَدَارِجِ الْكَمَالِ بِفَضْلِ رِسَالَاتِ اللَّهِ.

أَنَاسٍ مِّنْ أَصْحَابِ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ جُدَدٌ، وَآخَرِينَ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ خُلُقَانٌ، فَدَخَلَ أَصْحَابُ الْجُدَدِ وَحُسَّ أَصْحَابُ الْخُلُقَانِ^(١)، ثُمَّ خَرَجْتُ فَانْقَادَ لِي نَهْرَانِ، نَهْرٌ يُسَمَّى الْكَوْثَرُ، وَنَهْرٌ يُسَمَّى الرَّحْمَةُ فَشَرِبْتُ مِّنَ الْكَوْثَرِ وَاغْتَسَلْتُ مِنَ الرَّحْمَةِ^(٢)، ثُمَّ انْقَادَا لِي جَمِيعًا حَتَّى دَخَلْتُ الْجَنَّةَ وَإِذَا عَلَى حَافَتَيْهَا بَيْوتٌ وَبُيُوتُ أَهْلِهَا، وَإِذَا ثَرَايُهَا كَالْمِسْكِ، وَإِذَا جَارِيَةٌ تَنْغِمُ فِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ فَقُلْتُ: لِمَنْ أَنْتِ يَا جَارِيَةُ؟ فَقَالَتْ لِرَبِّ بْنِ حَارِثَةَ^(٣)، فَبَشَّرْتُهُ بِهَا حِينَ أَصْبَحْتُ، وَإِذَا بِطَيْرِهَا كَالْبُخْتِ وَإِذَا رُمَانُهَا مِثْلُ دُلِيِّ الْعِظَامِ، وَإِذَا شَجَرَةٌ لَوْ أُرْسِلَ طَائِرٌ فِي أَصْلِهَا مَا دَارَهَا سَبْعِمِائَةِ سَنَةٍ وَلَيْسَ فِي الْجَنَّةِ مَنْزِلٌ إِلَّا وَفِيهَا قُتْرٌ مِنْهَا فَقُلْتُ مَا هَذِهِ يَا جَبْرِئِيلُ فَقَالَ هَذِهِ شَجَرَةُ طُوبَى قَالَ اللَّهُ: ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَثَابٍ﴾ [الرعد: ٢٩].

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَلَمَّا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي فَسَأَلْتُ جَبْرِئِيلَ عَنْ تِلْكَ الْبَحَارِ وَهَوَئِهَا وَأَعَاجِيبِهَا، فَقَالَ: هِيَ سُرَادِقَاتُ الْحُجُبِ الَّتِي اخْتَجَبَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهَا وَلَوْ لَا تِلْكَ الْحُجُبُ لَتَهَنَّتْ نُورُ الْعَرْشِ وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهِ. وَانْتَهَيْتُ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى فَإِذَا الْوَرَقَةُ مِنْهَا تَظَلُّ أُمَّةً مِّنَ الْأُمَمِ فَكُنْتُ مِنْهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩]. فَنَادَانِي اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فَقُلْتُ: أَنَا مُجِيبٌ عَنْهُ وَعَنْ أُمَّتِي: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، لَا يَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾. وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ فَقَالَ اللَّهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ فَقُلْتُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْلَاْنَا﴾ فَقَالَ اللَّهُ: ﴿لَا أُؤَاخِذُكَ، فَقُلْتُ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ فَقَالَ اللَّهُ: ﴿لَا أُحْمِلُكَ، فَقُلْتُ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا مَلَأَقَةَ لَنَا بِهِ﴾ وَأَعْفُ عَنْنَا وَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: قَدْ أَخْطَبْتُكَ ذَلِكَ لَكَ وَلِأُمَّتِكَ.

فَقَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا وَقَدَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَحَدٌ أَكْرَمُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ سَأَلَ لِأُمَّتِهِ هَذِهِ الْخِصَالَ»^(٤).

(١) والقرآن الحكيم يقول في سورة البقرة ﴿وَتَكَرَّوْذُوا فَلِمَ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾ فلباس التقوى خير لباس، وزاد التقوى خير زاد، وكلما كنت تقياً كان ثوبك في يوم القيامة أجود وأنشد يمكنك أن تدخل مع رسول الله ﷺ إلى البيت المعمور فتصل فيه.

(٢) يعني استنوع رسول الله ﷺ الخير الكثير ولفته الرحمة.

(٣) الذي تبناه رسول الله ﷺ وهو والد أسامة وقد استشهد في معركة مؤتة، التي استشهد فيها عبد الله بن رواحة وجعفر الطيار.

(٤) وتلك هي الآيات الأخيرة من سورة البقرة، وقد جاء ذلك في مضمون حديث عن رسول الله ﷺ حيث قال: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي تِسْعُ الْخَطَاةِ وَالنِّسْيَانُ وَمَا أُكْرِهُوا عَلَيْهِ وَمَا لَا يَعْلَمُونَ...» بحار الأنوار: ج ٧٤، ص ١٥٥.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا رَبِّ أَعْطَيْتَ أَنْبِيَاءَكَ فَضَائِلَ فَأَعْطِنِي، فَقَالَ اللَّهُ: قَدْ أَعْطَيْتُكَ
فِيمَا أَعْطَيْتُكَ كَلِمَتَيْنِ مِنْ تَحْتِ عَرْشِي: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا مَنَاجِي مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ»، قَالَ:
وَعَلَّمْتَنِي الْمَلَائِكَةُ قَوْلًا أَقُولُهُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَأَمْسَيْتُ: «اللَّهُمَّ إِنَّ ظُلُمِي أَصْبَحَ مُسْتَجِيرًا بِعَفْوِكَ
وَذَنْبِي أَصْبَحَ مُسْتَجِيرًا بِمَغْفِرَتِكَ، وَذُلِّي أَصْبَحَ مُسْتَجِيرًا بِعِزَّتِكَ، وَفَقْرِي أَصْبَحَ مُسْتَجِيرًا بِغِنَاكَ،
وَوَجْهِي الْبَالِي أَصْبَحَ مُسْتَجِيرًا بِوَجْهِكَ الدَّائِمِ الْبَاقِي الَّذِي لَا يَفْنَى»، وَأَقُولُ ذَلِكَ إِذَا أَمْسَيْتُ.

ثُمَّ سَمِعْتُ الْأَذَانَ، فَإِذَا مَلَكٌ يُؤَذِّنُ لَمْ يَرَفِي السَّمَاءَ قَبْلَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ فَقَالَ:

اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ.

فَقَالَ اللَّهُ: صَدَقَ عَبْدِي أَنَا أَكْبَرُ.

فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

فَقَالَ اللَّهُ: صَدَقَ عَبْدِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ خَيْرِي.

فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.

فَقَالَ اللَّهُ: صَدَقَ عَبْدِي إِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدِي وَرَسُولِي أَنَا بَعَثْتُهُ وَاتَّجَبْتُهُ.

فَقَالَ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ.

فَقَالَ: صَدَقَ عَبْدِي وَدَعَا إِلَى فَرِيضَتِي فَمَنْ مَشَى إِلَيْهَا رَاحِبًا فِيهَا مُحْتَسِبًا كَانَتْ لَهُ كَفَّارَةٌ
لِمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ.

فَقَالَ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ.

فَقَالَ اللَّهُ: هِيَ الصَّلَاحُ وَالنَّجَاحُ وَالْفَلَاحُ.

ثُمَّ أَكْمَتُ الْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ كَمَا أَكْمَتُ الْأَنْبِيَاءُ فِي بَيْتِ الْمُقَدَّسِ^(١).

وللحديث بقية: «قَالَ: ثُمَّ غَشِيَنِي صَبَابَةٌ فَخَرَزْتُ سَاجِدًا فَتَادَانِي رَبِّي أَنِّي قَدْ قَرَضْتُ
عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ كَانَ قَبْلَكَ خَمْسِينَ صَلَاةً وَقَرَضْتُهَا عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّتِكَ فَقُمْ بِهَا أَنْتَ فِي أُمَّتِكَ، فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَانْحَدَرْتُ حَتَّى مَرَزْتُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمْ يَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى انْتَهَيْتُ
إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ يَا مُحَمَّدُ؟ فَقُلْتُ: قَالَ رَبِّي قَرَضْتُ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ كَانَ قَبْلَكَ

خَمْسِينَ صَلَاةً وَقَرَضْتُهَا عَلَيْكَ وَعَلَى أَمَّتِكَ، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ أُمَّتَكَ آخِرُ الْأُمَمِ وَأَضْعَفُهَا وَإِنَّ رَبَّكَ لَا يَزِيدُهُ شَيْءٌ وَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُومَ بِهَا فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأَمَّتِكَ، فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى فَخَرَزْتُ سَاجِدًا ثُمَّ قُلْتُ: قَرَضْتَ عَلَيَّ وَعَلَى أَمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً وَلَا أُطِيقُ ذَلِكَ وَلَا أَمْنِي فَخَفَّفْ عَنِّي فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ ارْجِعْ لَا تُطِيقُ فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ. وَفِي كُلِّ رَجْعَةٍ ارْجِعْ إِلَيْهِ آخِرُ سَاجِدًا حَتَّى رَجَعَ إِلَى عَشْرِ صَلَوَاتٍ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى وَأَخْبَرْتُهُ.

فَقَالَ: لَا تُطِيقُ، فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي فَوَضَعَ عَنِّي خَمْسًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: لَا تُطِيقُ، فَقُلْتُ قَدْ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي وَلَكِنْ أَضِيقُ عَلَيْهَا فَتَادَانِي مُنَادٍ كَمَا صَبَرْتَ عَلَيْهَا فَهَذِهِ الْخُمْسُ بِخَمْسِينَ، كُلُّ صَلَاةٍ بِعَشِيرٍ، وَمَنْ هَمَّ مِنْ أَمَّتِكَ بِحَسَنَةٍ يَفْعَلْهَا فَعَمَلُهَا كَتَبْتُ لَهُ عَشْرًا، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ كَتَبْتُ لَهُ وَاحِدَةً وَمَنْ هَمَّ مِنْ أَمَّتِكَ بِسَبَّةٍ فَعَمَلُهَا كَتَبْتُ عَلَيْهِ وَاحِدَةً وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهَا لَمْ أَكْتُبْ عَلَيْهِ شَيْئًا.

فَقَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «جَزَى اللَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ خَيْرًا»^(١).

وهناك أحاديث أخرى في هذا المجال يمكن الرجوع إليها في الكتب التي احتوت على النصوص الإسلامية.

(١) بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٣٣٠.

إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم

﴿وَعَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا
تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ۝ (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ
كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝ (٣) وَقَضَيْنَا ۞ (٤) إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ
لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَافِرًا ۝ (٥) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ
أُولَئِهِمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ
الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ (٦) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ ۞ (٧) عَلَيْهِمْ
وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِيكٍ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ (٨) إِنْ أَحْسَنْتُمْ
لنَحْسَنَنَّ لِنَفْسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْئَلُوا
وُجُوهَكُمْ ۞ (٩) وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَلِيُتَبَرَّكُوا ۞ (١٠) مَا عَلُوا نَفِيرًا ۝ (١١) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتُمْ
وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۞ (١٢)﴾

هدى من الآيات:

إن القرآن الحكيم يكرس في الإنسان روح المسؤولية، ويبين له بأن طبيعة حياته ليست
إلا نتيجة لإرادته وسعيه، ويضرب ربنا مثلاً في هذه السورة عن واقع بني إسرائيل، وكيف

(١) وقضينا: القضاء فصل الأمر على إحكام.

(٢) الكرة: الرجعة والدولة.

(٣) ليسوؤوا وحوهكم: يحزنوكم.

(٤) ويتبروا: التبير الاهلاك.

(٥) حصيراً: الحصار الحبس ويقال للملك حصير لأنه محجوب....

أنهم عندما أحسنوا تقدموا، وعندما أساءوا تخلفوا، وشروط السعادة اتباع هدى الله الذي يحمله رسوله في صورة كتاب إلهي، ورسالة الكتاب تلخص في التوكل على الله وحده، ونبد الشركاء والأنداد.

وبنو إسرائيل الذين ذرأهم الله من صلب الناجين عن واقعة الطوفان، وحملهم في سفينة نوح ﷺ ذلك العبد الشاكر لربه، هؤلاء من الله عليهم - مرة أخرى - بكتاب ورسول هو موسى ﷺ.

وقضى الرب إلى بني إسرائيل في الكتاب: إنهم يفسدون - بالتأكيد - في الأرض مرتين، ويطغون فبعد أولى المرتين يبعث الله عليهم عبادا له، ولكنهم يعودون - بفضل الله - أقوياء، ويغلبون أعداءهم، حيث يجعلهم الله أكثر أموالا وأولادا. وبسبب قوتهم أو ضعفهم، إحسانهم أو إساءتهم، وهكذا يعود أولئك العباد إلى سابق قوتهم، ويدخلون المسجد وهذه سنة الله قائمة على أساس الجزاء، ليس في الدنيا فقط وإنما في الآخرة أيضا حيث أن ربنا يجعل جهنم للكافرين حصيرا.

بيانات من الآيات:

ماذا جرى على بني إسرائيل؟ يقول تعالى:

[٢] ﴿وَمَا تَيْنَا مُوسَىٰ أَلَكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ قد جمعت رسالة الله لبني إسرائيل والتي حملها موسى في كتاب التوراة في كلمة (توحيد الله) وأثر التوحيد في استراتيجية العمل ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ هو الاعتماد على الله، والاستفادة من مواهبه العظيمة التي أسبغها على الإنسان، وعدم الاعتماد على الناس وما لديهم من أفكار وأشياء، وبالتالي الاستقلال السياسي، والاقتصادي، والثقافي الذي هو من أعظم ثمرات توحيد الله.

ويبدو أن هذا هو أهم ما توحى به كلمة ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]. إذ التوكل على الله وليس على الناس رمز التقدم، وعكسه عنوان التخلف.

[٣] ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ هناك فرق بين من يدخل مكتبته فيجد الكتب متراكمة فيها، وبين من يستوعب الكتب ويحفظها، فيعرف السقيم منها والسليم، فليس كل من امتلك مكتبة كان عالما، كما أن هناك فرق بين من يستوعب علما،

وبين من يعمل بذلك العلم، فليس كل عالم عامل، وهكذا يوجد فرق بين من يعرف الحقائق الروحية والنفسية وبين من يربي نفسه عليها، فأغلب الناس عالمون غير عاملين، وقليل من العاملين يربون أنفسهم على الأخلاق الفاضلة.

فقد تعرف الشكر خلال لحظات وتعرف حقيقته، ولكن إذا أردت أن تحول هذه الحقيقة إلى سلوك فتكون من الشاكرين فإن ذلك ليس بالأمر الهين، والمسافة بينهما مقدار الإرادة.

معرفة الذات منطلق الشكر

إن الشكر عند الإنسان يتجسد تبعا لأحد موقفين من الطبيعة حوله:

الأول: أن يعتقد بأنه موجود متكامل بالأصل، وأنه يملك بذاته الجوارح، والجوانح، والعقل، والعلم، والسعادة، والرفق، فليس بحاجة إلى أن يشكر أحدا.

الثاني: أن يعتقد بأنه كان قطرة من ماء مهين فصار إنسانا، ثم أعطاه الله الجوارح والنعم وهي ليست ملكا ذاتيا له، وإنما وهبها الله له فتنة، فإن شكره عليها زاده منها، وإن كفر فإنه سيعذبه عذابا شديدا، يقول تعالى ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

وهكذا فإن كل نعمة تستحق الشكر الجزيل والثناء الجميل، فبالعين ترى الأشياء، وبالأذن تسمع، والقلب ينبض بانتظام لتبقى حيا بإذن الله، وما على الإنسان إلا أن يستفيد من كل ما قدره الله له، فلا يعمل إلا صالحا، ولا ينظر إلى ما حرمه الله، ولا يسمع إلا الكلام الطيب. وهذا هو معنى الشكر.

الكثير من الناس بدل أن تكون النعم عاملا يؤكد فيهم صفة الشكر، والتواضع للذي من عليهم بها وهو الله، بدل ذلك يتكبرون لأنهم يشعرون بالكمال، فيقدسون ذواتهم، ويقولون: إنها أوتيناها على علم عندنا كما فعل قارون، أما المؤمنون فإنهم يزدادون إيماننا وشكرا لله.

وفي حديث عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يغيب عن فراشه ويتوجه إلى البقيع، فيتعبد ويبكي ويتضرع فتقول له عائشة: يا رسول الله أَوَلَمْ يَغْفِرْ لَكَ رَبُّكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فيقول: نعم. فتقول له: فلماذا تتعب نفسك؟ فيقول: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»^(١).

هكذا كان نوح عبدا شكورا، وهكذا يأمر الله بني إسرائيل الذين أنقذ آبائهم مع نوح

(١) الكافي: ج ٢ ص ٩٥.

من ذلك الطوفان العظيم أن يشكروا ربهم، وهو بعدئذ من عليهم بكتاب فيه هدى يحمله إليهم نبي عظيم وهو موسى عليه السلام الذي قادمهم بإذن الله من نصر إلى نصر.

فلو أنهم شكروا نعمة الرسالة، ونفذوا تعاليمها، فقد أحسنوا لأنفسهم، وكان هذا في الكتاب مسطوراً كما بيته الآية التالية.

الظالم سيف الله

[٤] ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴿لَقَدْ أَنبَأَ كِتَابُ التَّوْرَةِ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِقَضَاءِ اللَّهِ الَّذِي سَوْفَ يَتَحَقَّقُ﴾ ﴿لَنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿عَلَوْ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَشْبَهُ عُلُوَّ فِرْعَوْنَ الَّذِي يَقُولُ عَنْ رَبِّنَا: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا أَهْلَهَا شِيْعًا﴾﴾ [القصص: ٤].

والعلو هو حالة الغرور بالذات، والاستكبار على الحق، والاستعلاء على الآخرين..

[٥] ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَئِهِمَا﴾ يعني حان وقت الفساد الأول ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ البأس: الشدة والغلظة وهي كلمة تستخدم عادة عند الحديث عن الحرب.

ولكن من هم هؤلاء العباد؟ هل يصدق هذا على بخت نصر، هكذا قال البعض فلقد كان ملكاً على بابل في العراق، فقاد جيشه نحو فلسطين، فأهـى حضارة اليهود، وهدم الهيكل، وقتل سبعين ألفاً منهم، وسبى الآلاف، ثم تأججت الحروب بين بابل وبلاد فارس، والتي كان يرأسها كورش الأول، فانتصر الأخير وحرر المستعبدين من بني إسرائيل، وأعادهم إلى فلسطين، وسمح لهم ببناء الهيكل، وحينما رأى اليهود ذلك علو في الأرض ثانية وأفسدوا فيها.

ولو كان هذا المقصود فهل يمكن أن يسمي القرآن السفاكين كبخت نصر ﴿عِبَادًا لَّنَا﴾؟

بلى، إذ الصالح والفاقد كلاهما عبدان لله، وقد يكون الظالم وسيلة انتقام الرب من العصاة كما قال ربنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُؤَيِّ بِعُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

﴿فَجَاسُوا خَلَلِ الدِّيَارِ﴾ وجاس من التجسس أي دخل بخت نصر وجماعته أعماق البلاد، وتجسسوا عن أحوالها.

﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ فحينما يتزل البلاء قد لا يدفعه الدعاء، ولا الأمر بالمعروف أو

النهي عن المنكر، وحين يولى على الناس شرارهم بسبب تفريطهم في جنب الله، وترك وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يستجاب دعاؤهم. لماذا؟، لان الذنب قسمان، فإذا كنت قد أذنبت أنت، ثم رفعت يديك بالدعاء وتبت إلى ربك فإن الله قد يغفر لك، أما إذا فسد المجتمع كله، فإنه لا ينفعه دعاء فرد واحد، إنما يجب أن يتوبوا إلى الله جميعاً. ويصلحوا ما فسد من أمورهم.

[٦] ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي صارت الكرة لبني إسرائيل على أهل بابل والحاكمين فيها ﴿وَأَمَدَدْنَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ النفير جمع نفر ومعناه العدد المقاتل.

الإنسان قرين عمله

[٧] ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ لقد كان علوكم وقدرتكم بسبب أعمالكم الحسنة. والإنسان قرين عمله حسناً كان أو سيئاً، وقد قيل -مرة- لهرتزل مؤسس الكيان الصهيوني الغاصب في فلسطين: كان اليهود خلال قرون بؤساء محرومين، فكيف تبادر إلى ذهنك تأسيس دولة لهم؟. فقال: قرأت قرآن (محمد) فرأيت فيه آية تقول: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ فعرفت أن البؤس الذي يعانيه اليهود في العالم ليس إلا من عند أنفسهم.

هؤلاء الصهاينة حين غصبوا أراضي الآخرين، وطردوهم من ديارهم، واستبدوا في البلاد ظلماً وبطشاً، لن يتركهم الله، بل سوف يسلط عليهم عبداً له ذوي بأسٍ شديد، فيصيبهم ما أصابهم في المرتين السابقتين إذ أفسدوا في البلاد.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرِ﴾ أي حان وقت الإفساد الثاني. سلط الله عليهم ملك الروم (اسبيانوس) الذي بعث قائده (طرطوز) إلى فلسطين فدخل البيت المقدس، وقتل أهلها، وسباهم، وعمل الفضائع في بني إسرائيل حيث يقول تعالى: ﴿لِيَسْخَرُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بالطبع إن (بخت نصر) غير (اسبيانوس) ولكن القرآن يريد أن يذكرنا بأن الطغاة سواء جاءوا من الشمال أو الجنوب فهم ذوو مسلك واحد وهدف مشترك.

وما ذكرناه سلفاً واحداً من التفاسير المعروفة في هذه الآيات، وهناك من يرى غير ذلك،

مثلاً:

١- إن (القدس) قد بني مرة على عهد داود وسليمان عليهما السلام فهدمه بخت نصر، ومرة أخرى بني على عهد ملوك الفرس من سلسلة (الإخمينيين) وإن قائدا باسم (طيطوس) هدمه وبقي مهتما حتى فتحه المسلمون على عهد الخليفة الثاني.

٢- وقالوا - وهذا القول تؤيده الروايات الكثيرة الواردة -: بأن فساد بني إسرائيل الأول كان في عهد بداية الإسلام، حيث قمعه عباد الله المسلمون. أما فسادهم الثاني فهو الذي نراه في العصر الراهن، وسوف يقمعه عباد الله المسلمون، أيضا. نرجو أن يكون ذلك قريبا بإذن الله.

﴿وَلَيْسَتِ رُؤُوسُ مَا عَلَوُا تَقْسِيرًا﴾ إذ كانوا يقطعون الأشجار، ويحطمون العمران ويهلكون الحرث والنسل.

[٨] ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَلَئِنْ عُدْتُمْ عَدُوًّا﴾ فإذا تركتم الفساد، وتوجهتم إلى تعاليم الله فإنه سوف يغنيكم ويرحمكم. هذا في الدنيا أما في الآخرة فإنه تعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾.

إن بني إسرائيل لم ينتفعوا بهذه الحكمة الإلهية البالغة، فجاءوا إلى فلسطين جبارين بعد أن تحالفوا مع القوى المفسدة في الأرض، وقتلوا، وشردوا، وارهبوا، وارتكبوا أبشع الجرائم بحق الناس الأمنين من أهالي فلسطين باسم حقهم في أرض الميعاد، ولعمري لو كان دينهم يعطيهم شرعية الظلم والعدوان فإنه ليس دين الله، ولا هو ينسجم مع وجدان الإنسان، إنما هي عقد نفسية تراكمت عبر التاريخ، وانفجرت اليوم، ولأن أمهلهم الرب العزيز الحكيم، فليسوف يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

هذا عنهم، أما عنا فلقد جعلنا هذه الآية خلف ظهورنا، ولم ننتفع بحكماتها أيضا، فلقد كسلنا، وتقاعسنا، واختلفنا، ولم نتضرع إلى الله، ونصلح أنفسنا حين أحاط بنا البلاء، وكان بنوا إسرائيل اليوم بالنسبة إلينا كما كان بخت نصر بالنسبة إليهم ظالمين، يتقم الله بهم منا، وثم ينتقم منهم بمن يشاء سبحانه.

الإنسان ذلك المسؤول

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ ^(١) وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ^(٢) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ^(٣) وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ^(٤) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوْنًا آيَةً اللَّيْلَ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَتُهُ تَفْصِيلًا ^(٥) وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَزَمْتَهُ طَائِرُهُ ^(٦) فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ^(٧) أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ^(٨) مَن أَهْتَدَىٰ فَأَنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَلَنَاسِمًا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ ^(٩) وِزْرَ أُخْرَىٰ ^(١٠) وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ^(١١) وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ^(١٢) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ^(١٣) مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاقِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ^(١٤) وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ^(١٥) كَلَّا نُمَدِّدْ هُنَّ وَلَا نُهْزِلُهُنَّ مِن عَطْلٍ رَّبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ

(١) أقوم: الأشد استقامة.

(٢) طائره: عمله المقدر عليه.

(٣) ولا تزر وازرة: ولا تحمل نفس.

(٤) وزر أخرى: إثم أخرى.

مَعْظُورًا ﴿٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ
دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿١٠﴾

هدى من الآيات:

بعد أن بين القرآن الحكيم في الآيات السابقة قصة بني إسرائيل التي تركز البحث فيها حول العلاقة بين أعمالهم وما أصابهم تبعاً لذلك، لخص فكرة القصة وعبرتها في كلمة حين قال: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]. تؤكد هذه الآيات ذات الفكرة، وهي مسؤولية الإنسان الفرد أو المجتمع، وبيّن أبعادها، وكيف أنها اخطر فكرة ينبغي على الإنسان أن يفهمها، في حين أنه أبعد ما يكون عنها، ذلك لأنها تدعوه إلى السعي والعمل الجدي، والتحدي، والصمود، وما إلى ذلك من أسباب التقدم والتي تبدو صعبة على النفس البشرية.

ولذلك فإنه تعالى يضرب لنا مثلاً من التاريخ مرة، ويؤكد مرة أخرى أهمية تحمل المسؤولية في الحياة الدنيا ودور هذا الإحساس في تقدم البشرية، ثم إنه يذكرنا بيوم القيامة ومدى مسؤولية الإنسان عن أعماله فيها.

بيّنات من الآيات:

[٩] لقد أتم الله حجته على خلقه حين أنزل عليهم القرآن الذي يهديهم إلى الصراط القويم ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقَوْمٌ﴾.

﴿يَهْدِي﴾ من أراد الهداية ﴿لِلَّذِي هُمْ أَقَوْمٌ﴾ بعيداً عن الهوى، والضلالة، والخرافة، وفي كل المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية والتربوية و... وبالتالي فهو ينسق بين سعي الإنسان من جهة، وبين فطرته، والطبيعة من حوله، والتاريخ وسننه من جهة أخرى، ويخبره أن الإنسان قرين عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فيقول: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ فلا يكفي الإيمان وحده، بل يجب أن يعمل المؤمن الصالحات، وعندها يكون له عند الله اجر كبير.

[١٠] ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فالإيمان بالآخرة وحده ركن مهم يجعل الإنسان يشعر بالمسؤولية إزاء أعماله، وإنه مجزي عليهما، إن لم يكن ذلك في الدنيا ففي الآخرة. عما يدفعه لتحمل المسؤولية والعمل الدؤوب.

[١١] ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ الخطأ الكبير الذي يرتكبه الإنسان دائماً هو أنه يحسب الشر خيراً، والسؤال: أو ليس له عقل يميز بين الخير والشر؟ بلى له عقل ولكنه عادة ما يكون محجوباً بأهوائه ومصالحه التي يستعجل بها، فيقدم على الكبائر من الذنوب ظناً منه بأنها خير بمجرد أنها توفر له بعض اللذات الآتية، ولا يثور على السلطان الجائر خشية فقدان بعض المصالح العاجلة.

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ وهذه الطبيعة هي التي تجعل الإنسان يتوهم بأن عصفورة في الحاضر خير من عشرة في المستقبل، فيتقرب إلى الدنيا لأنها عاجلة وإن كانت شراً، غافلاً عن أن «كَمْ مِنْ أَكْلَةٍ مَنَعَتْ أَكْلَاتٍ»^(١) بينما يتنازل عن الآخرة ويحيد عن طريقها.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ تعليل لقوله ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ ذلك لأن الخير بحاجة إلى صبر. والمسؤولية لا تنمو في قلب عجول، وإنما في قلب مطمئن صبور، ولعل الآية الكريمة تذكر أيضاً بأن تأخر الجزاء عن وقت العمل قد يغري الإنسان الغافل بارتكاب الجرائم لأن الإنسان كان عجولاً.

والعجلة من ذات الإنسان، حيث أنها نابعة من الجهل بالمستقبل، والاحتجاب عن غيب الزمن، بينما الصبر وليد العقل، والعلم بالنتائج المستقبلية، ومعلوم أن ذات الإنسان جهل، والعلم من الله، وهكذا تكون الآية منتظمة إلى سياق الآيات التي تذكرنا بالمسؤولية.

المسؤولية وعامل الزمن

[١٢] ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾ فالليل وما فيه من سكون وهدوء آية من آيات الله، وكذلك النهار وما فيه من تحرك ونشاط آية أيضاً.

﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي جعلنا الليل سكوناً وهدوءاً - وكان الليل آية محوأة - ذلك لأن الليل لمن ينامه قصير، أما النهار فأيته مبصرة لأنه عامر بالنشاط والتحرك من أجل الحصول على الرزق.

﴿لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَددَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ تعاقب الليل والنهار مبدأ للحساب الزمني - هذا هو ظاهر الآية - أما المغزى منها فهو: أن حركة الزمان تدعو الإنسان إلى تحمل مسؤوليته في الدنيا، وإدراك حقيقة نفسه، فالإنسان الذي يجمد فكره فلا يتحرك فإنه لا ينتج شيئاً سوى العبث وضياع الوقت، وقال الإمام الحسين عليه السلام: «يَا بْنَ آدَمَ

(١) نهج البلاغة: حكمة: ١٧١.

إِنَّمَا أَنْتَ أَبَانٌ فَإِذَا مَضَى يَوْمٌ فَقَدْ مَضَى بَعْضُكَ^(١)، فالذي يعرف أن للزمان قيمة (يحاسب نفسه على الساعات والدقائق) يتقدم لأنه يعلم أن «مَنْ كَانَتْ مَطِيئَتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَإِنَّهُ يُسَارُّ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفًا»^(٢).

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ وَفَصَّلَتْهُ تَفْصِيلًا﴾ فالأيام لها حسابها، واليوم يختلف عن الغد، وهذا الشهر يختلف عن الآخر، وإن كانت كلها لله، وقد فصل الله لنا بيان حقيقة الزمان، والتقدير لكي نتذكر ونعي واقع أنفسنا، والله الذي دبر شؤون الليل والنهار والقمر والشمس، وقدرهما بالسنين والحساب، جعل للإنسان أيضا كتابا وحسابا، فما من عمل يقوم به أو خطوة بخطوها، أو فكرة تجول في ضميره إلا وتسجل في كتابه، ويحاسب عليها يوم القيامة.

[١٣] ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَتْهُ طَبْعُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وهذه الآية دعوة ضمنية إلى تحمل المسؤولية لأنها تذكر الإنسان بمسؤوليته عن عمله والذي يترتب عليه جزاؤه في الحاضر والمستقبل. ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ فللإنسان كتاب عند الله، فيه تفصيل ما عمله في دنياه. ينشره له يوم القيامة ليقرأه.

[١٤] ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ الإنسان يعترف بأعماله، ويحكم نفسه بنفسه، فلا حاجة إلى محكمة تقضي عليه، ولا إلى شهود يشتون عليه جرائمه، بالرغم من وجود تلك المحكمة وأولئك الشهود.

وبعد ذلك يوضح لنا ربنا بعدا آخر من أبعاد المسؤولية وهي مسؤولية الإنسان عن هداه وضلالته كمسؤوليته عن سعيه وعمله، إذ يقول تعالى:

[١٥] ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ وكثيرا ما ترى أناسا يضلون، فيلقون اللوم على عاتق الآخرين كأن يقول: لم يكن هناك من يهديني، أو أن الحكومة ضللتني، أو أن البيئة الثقافية والتربوية لم تكن مساعدة لي على الهداية. كلا.. إن الله أعطى لكل إنسان قدرة الكشف والاهتداء، ووفر له فرصة الهداية، وإنما يتبع البشر هواه لأنه أسهل له واقرب إلى طبيعته الجاهلية العجولة.

ومثلما هو مسؤول عن ضلالته، فهو مسؤول عن أعماله، وحرام أن يلقي اللائمة على الآخرين.

(١) إرشاد القلوب: ج ١، ص ٤٠.

(٢) غرر الحكم: حكمة: ٣٠٢٧.

﴿وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى﴾ فلا يستطيع أحد أن يهدي أحداً إلا إذا أراد الآخر أن يهتدي بهداه، كما لا يستطيع أحد إضلال الآخر إلا إذا أراد هذا أن يضل بضلالته، ولكن القرآن ينفي ذلك ويقول: إن لكل عمله. ولا أحد يقدر على تحمل وزر عملك.

والآية هنا تقول: ﴿وَازِرَةٌ﴾ وهي اسم فاعل للمؤنث، كناية عن النفس البشرية، وهنا تتبين العلاقة بين النفس والمسؤولية العملية للإنسان.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إن التاريخ يحدثنا بأن العذاب لم ينزل على أمة ما إلا من بعد أن يرسل الله إليهم هادياً ينذرهم، ويبلغهم رسالات ربهم.

كلمة ﴿رَسُولًا﴾ عامة تشمل كل من حمل رسالة التوحيد بصورة مباشرة كرسول الله ﷺ أو غير مباشرة مثل الأئمة المعصومين عليهم السلام أو الفقهاء المجتهدين، أو الرساليين والمجاهدين.

كيف تنهار الأمم؟

[١٦] ودليل مسؤولية البشر، هو جزاؤه في الدنيا على سيئات عمله، فينبغي أن نقيس الآخرة بالدنيا، ودليل رحمة الله وحكمته، أنه لا يعذب أحداً حتى يبعث إليه رسولا، إنه سبحانه لم يهلك قرية إلا بعد أن أتم حجتهم عليهم بالرسول ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾.

يربط القرآن الحكيم في هذا السياق بين الإسراف وهلاك القرى، ولكن بماذا أمر الله المترفين؟

المأمور به هنا محذوف وهو معطوف على قوله تعالى: ﴿حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فالله سبحانه وتعالى يأمر الناس بالهدى والخير والتقوى، ولكنهم حين لا يعملون بها بل يفسقون عنها، ويحاربون الله ورسوله، فماذا يحدث آنذا؟.

﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ أي تحققت عليهم المسؤولية وأصبحت لله الحجة البالغة عليهم، فدمرهم بسبب تركهم لها تدميراً، ولعل الآية تشير إلى حقيقة تاريخية هامة هي: إن الله سبحانه يبعث الرسل عادة على القرى التي يتشرب فيها الفساد. ويتسلط عليها المترفون، وذلك لكي يرتدعوا، ولا يستمروا في رحلة الفناء حتى النهاية، وعادة لا يتوبون فيحق عليهم العذاب، وربما تشير الآية أيضاً إلى الدورات الحضارية في التاريخ.

[١٧] ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ فإذا

قلنا بأننا لسنا من قوم نوح، أو قوم عاد، أو ثمود، فإن الله يؤكد لنا بأنه سبحانه أعلم بذنوبنا منا، وليست المسألة محصورة في عنصر ما، بل هي سنة الله في الخلق.

[١٨] قد جاء في الآية (١٢) من هذه السورة المباركة: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾. وهذه الآية تكلمنا وتقول: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ فإذا أراد الإنسان الدنيا فإن الله يؤتیه منها بقدر حكمته ووفق سنته.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ فيذم نفسه، ويذمه الآخرون، ويدحرونه، أي يبعدونه عنهم وكذلك الله يذمه ويدحره.

[١٩] ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ وتشير الآية إلى أن سعي الإنسان في الدنيا مفيد، فإن كان يريد الدنيا إن الله سبحانه يعطيه منها بقدر، ومن أراد الآخرة يشكره الله على سعيه.

ولكسب رضا الله والفوز بالجنة لا يكفي الإنسان أن يحلم بذلك، بل عليه أن يسعى من أجله، وأن يكون مؤمنا بعمله، يؤديه عن خلوص نية.

[٢٠] ﴿كُلًّا نُّنَمِّدُ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِنْ عَطَاؤِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ وقد يتساءل المرء: من أين تأتي قوة الإنسان التي يختار بها طريقه ويسعى بها فيه؟

الحقيقية أن قوة الاختيار، وقوة السعي هي من عند الله، فحتى العصاة يستمدون قوتهم من الله، فليس عطاء الله ممنوعا عن أحد في الدنيا، وهذا منتهى الحرية الممنوحة للبشر.

[٢١] ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فإذا كان الفرق بين إنسان وآخر في الدنيا الأموال الكثيرة، والرفاه الواسع، فإن هذه الفواصل في الآخرة تكون أكبر بكثير، والمسافة بينهما أعرض، فترى إنسانا مؤمنا يخرج من قبره في يوم القيامة، فيجتاز الصراط بسرعة إلى الجنة، وهناك مؤمن ينتظر خمسين ألف سنة في صحراء القيامة حتى يصل دوره للحساب، بينما نجد جارهما المنافق أو الكافر يلقي في نار جهنم مذموما مدحورا.

المسؤولية الاجتماعية للإنسان المؤمن

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا خَرَفْتَقَعْدَ مَذْمُومًا تَخْذُولًا ﴾ (٢٢) ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا (١) وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٣) رَبُّكُمْ أَغْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ (٤) غَفُورًا (٥) وَمَاتَ ذَا الْقَرْنَيْنِ حَقُّهُ وَالْيَسْكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا تُبْذِرْ بَذِيرًا (٦) إِنَّ الْمُبْدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٧) وَإِمَّا تَرَضِنَّ (٨) عَنْهُمْ آيَةً رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهُمَا فَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا مَيِّسُورًا (٩) وَلَا تَجْعَلْ بَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (١٠) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١١) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ (١٢) نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيرًا (١٣) وَلَا تَقْرَبُوا الرِّقَّةَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَسَاءً سَيِّئًا (١٤) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ

(١) ولا تنهرهما: النهر هو الزجر بإغلاظ وصياح.

(٢) للأوابين: الراجعين بعد الذنب.

(٣) تبذيراً: التبذير التفريق بالإسراف وأصله أن يفرق كما يفرق البذر.

(٤) تعرضن: الإعراض صرف الوجه عن الشيء.

(٥) ميسوراً: القول باللطف واللين.

(٦) إملاق: الفقر.

مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ
مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾

هدى من الآيات:

تحدد الآيات الكريمة هذه عدة جوانب من المسؤولية الاجتماعية للإنسان، وكمثل تنفيذي لفكرة المسؤولية ذلك أن القرآن الحكيم لا يتحدثنا عن قضية في جانبها النظري، إلا وتطرق إلى جانبها العملي أيضا، فلا يدع النظريات بلا برامج عملية، كما لا يترك المناهج العملية من دون جذور نظرية.

ولمسؤولية الإنسان في الحياة الدنيا علاقة بالمناهج التي جاءت بها الآيات، ولذلك قال بعض المفسرين بأن سورة (الكذائية) قد خصصت للبرامج العملية وقال بعضهم: بأنها تبحث القضايا النظرية. وكلاهما صادق في تفسيره لأن السورة تحدثنا عن الواقع كواقع، سواء كان نظريا أم عمليا.

فمثلا الآيات: (٢٢) و (٣٩) تبحث في التعاليم الاجتماعية والبرامج العملية، ولكنها تبدأ بقوله تعالى في الآية (٢٢): ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا خَرَفْتُمْ مَذْمُومًا تَحْذُولًا﴾ ونختم البحث الآية (٣٩) بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا خَرَفْتُمْ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْمُورًا﴾.

والسؤال: لماذا تبدأ هذه الآيات وتنتهي بموضوع واحد هو النهي عن الشرك بالله سبحانه وتعالى؟

إن الشرك بالله يشكل جذر كل مشكلة، اجتماعية كانت أو نفسية، فالشرك وجهها النظري بينما وجهها العملي فهو الكذب والغدر والخيانة، وعدم الوفاء، وغير ذلك. وكذلك الإيمان بالله وتوحيده من جهة، والصلاة والصوم والحج وغيرها من مظاهر التعبّد لله من جهة أخرى يعتبران وجهين لقضية واحدة.

وهناك أمر لا بأس بالإشارة إليه وهو أن الله سبحانه وتعالى في سورة النحل (الآية: ٩٠) يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وفي الآيات التالية من سورة الإسراء يؤكد هذه المعاني. إذ أن العدل هو: أن تتحرك في الصراط المستقيم فلا تفرط ولا تفرط، وأن تفي بحقوق الآخرين، أما الإحسان فهو: أن تحسن إلى غيرك في المعاملة، والإحسان أسمى درجة من أداء الحقوق، والبغي هو: القتل، والفحشاء هو: الزنا، والمنكر هو: الكذب، وهكذا

بقية المعاني، ومن أراد التأكيد في مدى تطابق هذه الآيات مع تلك. عليه أن يراجع تفسيرنا لسورة النحل، وهناك ملاحظة: «أن العدل هو إعطاء كامل الحقوق، وأما الإحسان فهو إعطاء الزيادة».

بيانات من الآيات:

الشرك جذر الانحراف

[٢٢] ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ جاء النهي عن الشرك في مقدمة الحديث عن قضايا اجتماعية لأن الإنسان قد يعبد صنما فيتخذها إلهًا، سواء كان هذا الصنم رمزا للرئيس القبيلة أو لصاحب المال أو لصاحب الصولجان أو لأية قوة اجتماعية أخرى، وإذا ما فعل ذلك فانه سيندم، ويذمه عقله، وكذلك العقلاء كما سيكون بعيدا عن نصره الله.

من حقوق الوالدين

[٢٣] ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ فالعبادة يجب أن تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للإنسان أن يحسن لمن يشاء.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ والإحسان هو العطاء بنفس راضية، وهو ممدوح عند الله. بعكس العبادة التي هي الخضوع والتسليم وبالتالي العطاء بإكراه.

﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ فالأب أو الأم عندما يكبران تتغير حالتها النفسية فتكون طلباتها بحيث قد لا يستطيع الابن أن يوفرها لها، فعندئذ يجب ألا ترد طلباتها ولا يؤذيان ولو بكلمة «أفٍّ» وهي تعبير عن الضجر، بل على الابن أن يجيبها بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما وتحفظ لهما كرامتهما.

[٢٤] ﴿وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ على المسلم أن يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع أفراخه، وهذا لا يعني خضوع العقل والإرادة وإنما خضوع الرحمة والشفقة وبالتالي فإن على الابن أن يرفع كفيه بالدعاء: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ فكم يتعب الأب والأم على الابن، فالأم تنهض في الليالي الظلماء من نومها، وترك فراش الراحة من أجل أن تغذي طفلها وتهدهه كما يخوض الأب غمار الأخطار من أجل إطعام ولده ويسهر على راحته، فلا بد أن يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله. والآية تدل على: أن الدعاء بحق الآخرين

نافع لهم كما أن الشفاعة - وهي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين.

[٢٥] ﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا﴾

فالله يعلم بما يجري في نفوس الأبناء من تمنيات وطلبات، فقد ترى الابن يُعقُّ أبويه إذا ما مرضا، ولكن الله يدعونا إلى أبعاد الشيطان ووساوسه عن النفس، بالإحسان والرحمة والاستغفار - وهي التي تنظم علاقة الأبناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات - تعالج عبرها مشكلة صراع الأجيال، إذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي، وبالتالي: ينتقد الجيل الماضي، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه، والسبيل إلى حل المشكلة:

أولاً: بالإحسان، إذ أن جيل الأبناء ذي القوة النامية يجب أن يجعل بعضاً من قدراته للجيل الذي تتلاشى الآن قواه. ليمتص كثيراً من تحفظاته النابعة عن فقدته لمصالحه.

ثانياً: بالأخلاق الحسنة، كالتشاور والاحترام والتذلل رحمة وليس صغاراً.

ثالثاً: بالعفو عن سيئاتهم والاستغفار لهم فَهَبْ إِنَّهُمْ كَانُوا مَخْطِئِينَ أَفَلَا يَسْتَحِقُّونَ الْمَغْفِرَةَ من الله؟ بلى، ولعل الآية الأخيرة تشير إلى أنه ليس من المعلوم من هو المذنب بل الله أعلم بكم فلا تُحْطِئُوا الْآخَرِينَ جِزَافًا.

الإنفاق زكاة المال

[٢٦] ﴿وَمَاتَ ذَا الْقَرْيَةِ حَقُّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا يُبْذَرُ تَبْذِيرًا﴾ الذي لديه

أموال طائلة ولا يعطي حقوقها فإنه لا بد أن يكون مسرفاً، لأن صاحب الدنيا إنما يمنعه من العطاء السرف أو البخل، وما الإسراف إلا استعمال الشيء في غير محله الذي خلقه الله من أجله، وبذلك فإنه انحرف عن مشيئة الله وسنته في الحياة وكل ما خالف أوامر الله وسنته في الخلق فهو نوع من الكفر، والشيطان كافر، يقول تعالى:

[٢٧] ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ والشياطين

من الإنس هم الطغاة ومن يبذر ماله لا بد أن يفتش عن مصادر غير شرعية لجمع المال ولا يجدها إلا بالتحالف مع الطغاة.

[٢٨] ﴿وَأَمَّا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ أَيَّغَاةَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ إذا عرضت

عنهم فليكن إعراضك:

أولاً: ابتغاء رحمة من ربك فلا تعرض إلى فراغ وإنما حيث تعرض عن عمل أو عن

شخص فاتجه إلى عمل آخر أقرب إلى الله رضواناً وأوفر منه رحمة.

ثانياً: قابلهم بالكلمة الطيبة إذ قد لا يسمع الإنسان الناس بهاله، ولكنه يستطيع أن يسمعهم بخلقه الجميل وكلمته الطيبة.

كيف ننفق؟

[٢٩] ١- ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ وهنا يشبه القرآن البخلاء بالذين يربطون أيديهم بأعناقهم فيخنقون أنفسهم. ذلك إنما يجمع الإنسان المال من أجل أن يكون حراً في التصرف. وليسهل عليه الصعاب، فإذا بخل وحرص على المال، فإن الهدف من امتلاك المال سوف يتلوث ويصبح العكس. إذ سيصبح هو خادماً للمال وهكذا يكون البخل هو الفقر الحاضر.

٢- ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ وهناك -على العكس من البخلاء- أناس يبسطون أيديهم بلا تقدير عقلاني إلى درجة إنهم يفقدون كل شيء، فيتحسرون على ما فاتهم ويتأوهون، وبالتالي فإن الناس سوف يذمونهم ويلومونهم على فعلتهم.

وهؤلاء إنما يفقدون توازنهم وحسن التصرف بسبب حُبهم المفرط للمساكين، ولهذا الفريق من الناس يقول تعالى:

[٣٠] ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ فالله يبسط الرزق بحكمة ويضيق ويقدر بحكمة أيضاً. فلا يفكر أحد بأنه سيكون أرحم من الله لعباده. ولعل الآيتين تنظمان سلوك البشر فيما يرتبط بالمال بصفة عامة فعلى الإنسان أن يتوخى القصد في الصرف. فيعطي بقدر، ولا يذر ولا يخل.

الثقة بالله مفتاح السعادة

[٣١] ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ كان بعض الأعراب يقتلون أولادهم خشية الفقر والفاقة فطمأنهم الله بقوله: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ لأن قتلهم يجرمكم من نعمة الولد من جهة ويحرمهم من نعمة الحياة من جهة ثانية وإنما قدم رزق الأولاد، لأن الفقر متوقع في المستقبل بسبب مجيء الأولاد.

[٣٢] ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ الزنا أسوأ طريق يتخذه الإنسان في إشباع غريزته، لأن الزنا ظلم للنفس وتعدي على القانون، فكما إنه من الظلم أن

يقتل الإنسان نفساً حرمها الله، كذلك حرم الله العيب بمصير الأجيال الناشئة من أجل السرف في الشهوات. ذلك أن الزنا يهدم البناء الأسري وبالتالي ينسف قواعد البناء الاجتماعي القائمة على أسس التربية والتكامل والتعاون، وهكذا نجد المجتمعات الجاهلية التي فقدت الأسرة كيف فقدت أكثر القيم الإنسانية وهكذا هو ﴿وَسَاءَ سَيِّئًا﴾، لكنه أيضاً ﴿فَنَحْشَةً﴾ تخرج الإنسان من رفعة وتهذيب وذوقه الجمالي الذين يوطر بهم سلوكه في التعامل مع سائر أموره مما يجعله متميز عن الحيوان في مأكله ومشربه وكذلك في علاقة الذكر بالأنثى.

[٣٣] ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ فالمقتول ظلماً يحق لوليّه أن يقتص من قاتله، ولكن بشرط ألا يتعدى الحدود، وألا يستبد به غضبه، فهو في كل حال منصور من قبل الله.

الإنسان بين الشرك والهروب من المسؤولية

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ
وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ٣٤ ﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ
وَزِنْتُمْ بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٣٥ ﴾ وَلَا تَقْفُ مَا
لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا
٣٦ ﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ٣٧ ﴾ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ
الْجِبَالَ طُولًا ٣٨ ﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ٣٩ ﴾ ذَلِكَ بِمَا
أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ
مَلُومًا مَّدْحُورًا ٤٠ ﴾ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْسَانًا
إِنتَظِرُوا لِقَوْلِ رَبِّكَ قَوْلًا عَظِيمًا ٤١ ﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ٣٨ ﴾ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا
يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ٤٢ ﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُدَّ لَهُمْ إِلَىٰ ذِي
الْعَرْشِ سَبِيلًا ٤٣ ﴾ سُبْحَنَهُ وَقَعْلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ٤٤ ﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ
السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ
تُسَبِّحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا ٤٥ ﴾

هدى من الآيات:

هناك تساؤل: إذا كانت سورة الإسراء تتحدث عن المسؤوليات التي يجب على الإنسان أدائها. فلماذا يتطرق هذا الدرس إلى بيان التوحيد والشرك وأبعادهما؟ وبشكل عام لماذا يحدثنا

- (١) مرحاً: فرحاً وبطراً واختيالاً.
- (٢) أفأصفاكم ربكم: أفخصكم ربكم؟
- (٣) صرّفنا: كررنا بأساليب مختلفة وطرق متنوعة.

ربنا سبحانه وتعالى عن قضية الشرك والتوحيد كلما تحدث عن المسؤولية؟.

الجواب: إن المسؤولية هي ذات التوحيد، واللامسؤولية هي ذات الشرك، بل إن التهرب من المسؤولية والتبرير إنما هما الهدف من وراء الشرك.

النفس البشرية، قوة تسميها بالقوة المسولة عملها تبرير الكسل والجمود، وتسويل الفحشاء والمنكر، وهذه القوة التي يثيرها الشيطان أيضا تزين الاستسلام للذعة والاسترسال مع الشهوات بطرق أبرزها:

١- الحتميات حيث يخيل للنفس عجزها عن مقاومة ضغوط الطبيعة والمجتمع عليه. فيتملص عن المسؤولية باسم الحتمية التاريخية. أو الاجتماعية أو الطبيعية أو ما أشبه.

وهذا نوع من تأليه الطبيعة أو المجتمع. وجعلها فوق قدرة الله. وفوق قدرة الإرادة التي منحها الله للإنسان.

٢- الفداء حيث يزعم البشر إنه إذا كانت أوامر الرب شاقة، ولا يمكن احتمالها إذا دعنا نتصور وجود أرباب آخرين نهرب من الرب الأعلى إليهم لينقذونا عن صعوبات المسؤولية التي يفرضها ربنا الأعلى سبحانه وتعالى.

وهذه هي فكرة الفداء التي تسربت إلى مذهب النصارى.

وسواء فكرة الحتميات أو الفداء فإن الإيمان بالله الواحد الأحد، ينفبها ويجعل البشر وجها لوجه أمام المسؤوليات الكبيرة.

إن من يؤمن بالله ولا يتخذ بينه وبين عقله حجابا يشعر في أعماق ذاته بأن الله قد جعله مستقلا في قراراته حرا فيما يشاء. فإذا وصل إلى هذه الحقيقة تحمل مسؤولياته اعتقادا منه بأن متغيرات حياته كالصحة أو المرض، والاستغلال أو العبودية والغنى أو الفقر وما إلى ذلك إنما هي من عند نفسه أيضا، والإنسان البسيط غير المعقد والبعيد عن الشهوات يشعر دوما بهذه الحقيقة وهذا الإحساس يدفع به نحو تحمل المسؤولية، لأنه حينما يعترف بواقعه يرسم لنفسه خطة حكيمة لكي يصل بها إلى أهدافه.

في المقابل نجد إنسانا يتصور بأن هناك أشياء أخرى فوق عقله، تلك ما يسمونها اليوم بالاحتميات - حتميات التاريخ والاجتماع والاقتصاد وعلم النفس والتربية - فيزعم أحدهم بأن الحتميات هي التي تصنع الإنسان، وليس للإنسان أن يتخذ قرارا نابعا من فكره وإرادته ذلك لأن العقل في نظره ليس إلا صورة متطورة للمادة.

لقد قسم الأطباء قديما الناس حسب أمزجتهم، فهذا مزاجه صفراوي، وذاك بلغمي والآخر سوداوي وهكذا فزعموا أن إرادة الناس تتبع أمزجتهم. أما أحد الفلاسفة الجدد فإنه يقول: بأن إرادة الإنسان نابعة من الغدة الدرقية، فإذا صار أحدهم طبييا والآخر عاملا بسيطا فإن ذلك يعود إلى مقدار ونوع إفرازات الغدة الدرقية في دم الإنسان، حيث تؤثر هذه الغدة في قراراته.

ويقول الفيلسوف البريطاني المعروف (براندراسل): إنك إنما تتطبع بها تأكل، لأن العناصر الكيميائية الموجودة في أنواع الأغذية، تؤثر في مخ الإنسان وقراراته وهكذا سلبت هذه النظريات الشريكية قدرة القرار من البشر وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يقرر لنفسه قرارا، فهو بمنزلة ريشة في مهب الريح، لا يستطيع أن يتحمل مسؤولية، إذا فهو غير مسؤول عن شيء.

أما الفكر اليوناني القديم فإنه يعتقد بتعدد الآلهة، فللحرب إله وللسلم إله، وللمطر إله وللنور إله وللظلمة إله وهكذا.. وكان اليونانيون ينحتون أصناما ويتخذونها رمزا لتلك القوى التي كانوا يتصورون بأن لها تأثيرا حتميا على أعمالهم ونفسياتهم وهكذا جردوا أنفسهم عن مسؤولية أعمالهم حين نسبوها إلى الآلهة وهكذا تربط آيات هذا الدرس بين المسؤولية والتوحيد فتبدأ بالنهي عن أكل مال اليتيم (إشارة إلى حرمة المال) وتأمُر بالوفاء بالعهد (للتذكرة باحترام العهد) وتأمُر باحترام المال، واحترام سمعة الناس وتحري الحقائق، ثم تنهى عن الشرك بالله وتأمُر بتسبيح الله سبحانه، ولعل محرمات هذا الدرس تسد أبواب الظلم، وتضع قوانين اجتماعية تحافظ على حقوق الناس، ابتداء من حفظ حقوق الأيتام (وهم حلقة ضعيفة في المجتمع) واحترام الكيل والوزن واحترام سمعة الناس، وضرورة الوفاء بالعهود وما أشبه.

بيانات من الآيات:

مسؤوليات اجتماعية

[٣٤] ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ يحق لولي اليتيم أن يأخذ مال اليتيم فيستثمره لصالح اليتيم، ولكنه لا يجوز له التصرف في هذا المال إلا في هذا المجال، حتى يبلغ أشده حينما يصل إلى مرحلة البلوغ فتسلم إليه أمواله، ولأن اليتيم ضعيف فاحترام ماله يدل على ضرورة احترام أموال الأقوياء بالطبع.

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا﴾ والعهد ركيزة اجتماعية في الإسلام، ومحور للتعاون والتبادل الفكري والسياسي والتجاري، والإسلام يحث على أداء العهود لهذا السبب

أولاً، ولسبب أخلاقي ثانياً، ولأن الوفاء بالعهود يجري عليه حكم الشرع ثالثاً: والعهد واحد من أخطر مسؤوليات البشر في حياته.

[٣٥] ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ القسطاس المستقيم: هو البع الذي لا غبن فيه ولا غش ولعل احترام الكيل يدل على أكثر من احترام حقوق الناس، حيث يدخل ضمن احترام قوانين البلد وعدم الخروج عليها لمصلحة ذاتية.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ فهذا أمر حسن فطرياً واجتماعياً، وأحسن نهاية وعاقبة، لأن الغش لو ساد مجتمعاً فستحل به كارثة لا يمكن التخلص منها. ثم إنك لو تجاوزت حقوق الناس أفلا تحشى أن تسلب حقوقك ايضاً.

[٣٦] ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي تتبع أمراً لا تعلم مبدأه ومنتهاه ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ حيث تؤكد هذه الآية على مسؤولية جوارح الإنسان التي يجب أن تتحرك حسب مقياس صحيح وأن مسؤولية قلب الإنسان عن أفكاره وهواجسه وظنونه وحسده وحقده وجوارح الإنسان عن غمزها ولمزها، والغيبة والنميمة.

إنها لأعظم مسؤولية اجتماعية ولو سما المؤمن إلى مستوى ضبط فؤاده وسمعه وبصره فيما يخص علاقته بالمؤمنين لكان جديراً بأن يدخل جنات عدن..

[٣٧] ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ الإنسان المرح هو الذي يعيش حياة اللامسؤولية وما يتبعها من ظواهر كالفراغ واللهو واللعب والتكبر على الآخرين.

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ فإنك لن تقهر الطبيعة فتشق الأرض، وتخرقها، أو تبلغ الجبال عظمة.

[٣٨] ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ يبدو أن تفسير هذه الآية إنه ينبغي للإنسان أن يتكبر أحياناً وذلك حينما يقابل الظالم الجائر حتى لا يشعر بأنه ضعيف أمامه، لذلك يؤكد القرآن بأن السيئة (مكروهة) - فيكون ما عدا السيئة غير مكروه - فالتكبر على المتكبر ليس مكروهاً، بل هو مستحب، وفي الحديث: «التَّكْبَرُ عَلَى الْمُتَكَبِّرِينَ هُوَ التَّوَاضُّعُ بِعَيْنِهِ»^(١).

[٣٩] ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ والحكمة هي الجانب العملي من العلم، وهنا تعني السلوك الحسن ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ لا تتخذ لنفسك إلهاً غير الله فتلقى في جهنم. يلومك الناس ولا ينصرك الآلهة، وهذه الآية تشير إلى أن

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٢٠، ص ٢٩٨.

الإنسان هو الذي يجعل من الصنم إلها، ومن الطاغوت إلها وحين يحطم المؤمن الأصنام الثقافية والاجتماعية والاقتصادية فإنه يشعر باستقلاله وحرية ويتحمل مسؤولياته بعزم راسخ.

[٤٠] ﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتِثًا﴾ كان الكفار يريدون النيل من الله سبحانه وتعالى لأنهم يتصورون الملائكة ضعافا، ولأنهم كانوا يعتبرون الأنثى رمزا للضعف فانهم نسبوا الأنوثة إلى الملائكة، ويرد سبحانه قولهم هذا: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

[٤١] ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ فقد ضرب الله الأمثلة في القرآن ليبين لنا آياته ونعرفه بحقائق الإيمان ولكن على العكس من ذلك نرى الكفار لا تزيدهم التذكرة إلا نفورا من الحق.

[٤٢] ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ فلو كانت الآلهة متعددة، إذا لاتخذت طريقها إلى السماء، ولقاومت الإله الكبير كما يدعون وتمردت عليه، ونالت منه واسترجعت حصتها من الألوهية! ولا استطاعت أن تقهر الرب سبحانه علما بأنه لا حول لهم ولا طول فكيف تتخذ آلهة من دون الله.

[٤٣] ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ فالله اكبر من هذه الخرافات التافهة وهو الذي.

[٤٤] ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ ذلك أن السماوات على عظمتها وما فيها من شمس وكواكب ومنظومات، والأرض وما فيها من حجر ومدر فإنها جميعا تسبح لله وحده وتشهد على وحدانيته، ويبدو أن الأشياء كلها ذات شعور بنسبة معينة.

﴿وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ. وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَالِيمًا غَفُورًا﴾ فكل يسبح بحمده ولكننا لا نستطيع إدراك أفاظها وتسبيحاتها لأن لكل شيء لغته الخاصة.

الحجب وضرورة التصحيح

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝١٥ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ۝١٦ أَن يَفْقَهُوهُ
وَفِي مَا ذُنُبُهُمْ وَفَرَّأَ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ
نُفُورًا ۝١٧ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ
يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝١٨ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا
لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝١٩ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا
وَرَقًا ۝٢٠ أَوَنَّا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٢١ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا
۝٢٢ أَوْ خَلْقًا مِّنَّا يَصْكَبُونَ فِي سُدُورِكُمْ فَيَقُولُونَ مَنِ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي
فَطَرَكُمُ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ ۝٢٣ إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ
عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٢٤ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ
وَتَنْظُنُونَ أَنَّ لَيْفَتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢٥﴾.

هدى من الآيات:

حينما يتخذ الإنسان موقفا تجاه فكرة ما، فإنه لا يستطيع أن يعرف الحقيقة لأنه قد ينظر إليها من وراء حجاب. وهذه صفة الكافرين بالحياة الآخرة، وهذه سمة الكثير من الناس، فلا يتلون آيات القرآن إلا من وراء حجاب، ولا يستمعون إليه إلا عبر مجموعة من الأحكام المسبقة التي أصدرتها أنفسهم.

(١) أكمة: أغطية وأغلفة.

(٢) رفاتاً: ما تكثر وبلي من كل شيء.

(٣) فسينغضون: النغض تحريك الرأس باستهزاء واستخفاف.

ويبقى السؤال: كيف يمكن للإنسان أن ينظر إلى رسالة الله نظرة مجردة عن المواقف المسبقة؟

الإجابة على ذلك: إن قوة العقل محدودة عند الإنسان، فإذا تراكمت الشهوات على قلبه، وتكاثفت غيوم الجهل والضلالة والخرافات عليه، فإنه بحاجة إلى عملية صعبة ومجتهدة حتى يتجاوز هذا الركام من الترسبات، كما يحتاج إلى هزة عنيفة ليهدم البناء الفكري الفاسد، ثم يقيم محله بناءً قوياً وليس ذلك بالأمر اليسير.

ونتساءل: كيف تتصلب الإرادة، وينمو العقل. وما هي الهزة العنيفة التي تهدم بناء الأفكار الفاسدة، والمتركمة فوق بعضها في قلب البشر؟

الجواب: بالإيمان بالحياة الآخرة، حيث أنها قوة التعادل، وثقل السكينة عند الإنسان، فمن آمن بالآخرة سلا عن الشهوات، وتعالى فوق الضغوط، وتجاوز العقد النفسية، وكل ذلك يحفظ قلبه عن الأفكار التي تمليها الشهوات والضغوط والعقد.

أما الذي لا يؤمن بها، فإن الله تعالى يجعل بينه وبين القرآن حجاباً لا يراه، ولا يمكنه إذا اختراقه، كيف؟

فإذا قلبه مستوراً أن يفقه، وإذا أذنه ثقيلة بالوقر وإذا به يهرب عن حقيقة التوحيد، ويبحث عن الآلهة الكاذبة، وإذا به لا يستمع - وهم ينجون بعضهم - إن هذا الرسول مسحور، وليس بعاقل، وبسبب هذه الأمثال يضلون الطريق ولا يهتدون إلى سبيل الحق.

وجذر مشكلتهم كفرهم بالآخرة إذ يقولون: هل نحن نعود إلى الحياة بعد أن نكون عظاماً ورفاتاً، دعهم يكونون حجارة أو حديد، أو أي شيء كبير في نظرهم، فإن الذي خلقهم أول مرة يعيدهم. أما متى؟ فإن علمه عند الله فعسى أن يكون قريباً، يوم يدعوهم الله، فإذا بهم يستجيبون لداعي الله وهم يحمدون ربهم، ويزعمون أنهم ما لبثوا في القبر إلا قليلاً.

بينات من الآيات:

[٤٥] ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾

من الطبيعي أن الذين يتذكرون الموت ويؤمنون بالآخرة وما تشتمل عليه من ثواب وعقاب، فإنهم يشعرون بالمسؤولية دائماً، وينظرون إلى القرآن نظرة واقعية بعيداً عن الرؤى والخيال، بل نابعة عن موضوعية كاملة وتدبر، ولذا فإن أفئدتهم بصيرة وبصيرتهم نافذة. أما الذين

لا يؤمنون بالآخرة فإنهم محجوبون عن الواقع بسبب عدم إيمانهم.

وقد قال المفسرون عن ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ إنه لم يكن أحد من الكفار يمكنه رؤية الرسول حينما يقرأ القرآن حتى لا يصيب رسول الله بأذى.

ويبدو أن التفسير الأقرب القول بأن الحجاب المستور، وهو النظرة السلبية التي يتخذها الكفار إزاء آيات القرآن والآيات التالية تفسر - فيما يبدو لي - معنى الحجاب المستور.

[٤٦] ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ لكي لا يفقهوا القرآن، جعل الله قلوبهم في أكنة. ولفظة الأكنة، جمع للفظه كنان وهو الستر وهذا الستر هو ذلك الحجاب المستور الذي ضربه الله بين القرآن وبين قلوب الذين كفروا بالآخرة عقاباً لهم على تكذيبهم بالبعث، واستهانتهم بقدرة الله على إعادة الخلق واستجابتهم لشهواتهم وعصبياتهم.

ونتساءل هل هذا الحجاب هو تلك السنة الإلهية التي جرت في خلقه أن من يتعصب لفكرة فاسدة فإنه لن يرى الحقيقة، أم أنه فعل إلهي جديد، حيث يزيد الله الكافرين ضلالة وكفراً، ويدعهم في ظلمات يعمهون؟.

بلى إنه فعل جديد، إنه حجاب يجعله الله بين الكفار والقرآن. وإنه لعقاب عظيم إن يشاء الله ضلالة البشر، بعد أن كفر بالهدى، وإن علينا الحذر أبداً من هذا العقاب العظيم، ونسأل الله دائماً الهداية، وإلا يضلنا بعد أن هدانا، إنه مجيب الدعاء.

﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ الوقر: هو الثقل. والأذن الوقرة هي الثقلة السمع. وفي هذه الحالة لن يكون باستطاعة الأذن أداء وظيفتها بشكل جيد، كما إنه إذا ما أصيب العقل بضعف فسوف لن يستوعب ما تنقله الأذن ولا سائر الجوارح.

﴿وَإِذَا ذُكِّرَتْ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّ عَلَىٰ أَدْبَرِهِمُ الْقُورًا﴾ ولأن الكفار لم يعتقدوا بوحدانية الله فإنهم كانوا ينفرون من سماع القرآن لأن أفكار القرآن تخالفهم وإنما كان فرارهم بسبب خوفهم من صحوة الضمير.

[٤٧] إن جوارح البشر نوافذ قلبه على العالم الخارجي، وإذا كان القلب قد ران عليه الشهوات والتعصب لأفكار باطلة، فإن الجوارح تشل أو تعمل خلاف المطلوب، ذلك أن القلب المريض سوف يفسر كل الحقائق التي تتوارد عليه عبر الجوارح تفسيراً باطلاً يتناسب وأمراضه التي رانت عليه وكما أن من يضع على عينيه نظارة ملونة يرى كل شيء بذلك اللون، كذلك من وضع على قلبه سماعة مضللة فإنه يسمع كل شيء عبرها، بصورة خاطئة، إنه قد

صنع لنفسه قوالب ثقافية معينة يضع كل معلوماته الجديدة فيها فلا يزداد بالحقائق إلا ضلالا، ربنا يقول: ﴿ثُمَّ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ ولعل (الباء) هنا للاستعانة وتعبر عن تلك الأحكام المسبقة والقوالب الفكرية الجاهزة التي بها يستمعون إلى الحقائق فيفسرونها حسب أهوائهم والآيات التالية توضح تلك القوالب:

﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ كانوا يبررون مواقفهم بحجج واهية يقولون إنه مسحور وليس بساحر يمارس الكذب والدجل بينما كانوا يدعون الرسول ﷺ (بالصادق الأمين) فلم يبق هناك مجال للتهمة سوى القول بأنه مخدوع بسحر الساحرين فهو مسحور. ويسفه القرآن هذه التهمة فيقول:

[٤٨] ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ لأنهم اتهموا رسول الله ﷺ بها واهية وأضلوا الطريق، وانحرفوا عن الجادة، وبذلك صاروا لا يفقهون آيات القرآن ولا يعرفون مغزاها، ولا يهتدون إلى سبيل الحق.

وكما قلنا سلفا: إن الإيثار بالآخرة ضمان للتفكير السليم في الحياة، وإن الكفار لم يكتفوا بإنكار الآخرة، وإنما كانوا يسعون لتبرير اعتقاداتهم بأفكار سخيفة، وشبهات واهية، ومنها الشبهة التالية:

[٤٩] ﴿وَقَالُوا لَوْذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفَقْنَا أَوْنًا لَّعَبُوثُونَ خَلَقًا جَدِيدًا﴾ إذا كان الإنسان مبعوثا يوما ما فلم يصبح رفاتا أي خلقا يتلاشى؟

هذا ما كان يتساءل الكفار عنه مستنكرين فأجابهم الله:

[٥٠-٥١] ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۖ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ فسواء كنتم حجارة أو حديد أو شيء آخر، تتصورونه في أذهانكم كبيرا كالجبال والبحار والصحاري وما إلى ذلك.

﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُمِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ويديهي أن الخلق ثانية أهون من الخلق ابتداء. ولعل الكفار كانوا يزعمون أن الحديد والحجر لا سبيل إلى التحكم فيهما، باعتبارها صلبة، وليس كاللحم والعظم - في نظرهم - أو يزعمون أنها أبعد عن الخلق باعتبارهما جامدين بخلاف البشر المركب من مواد حية.

وأجاب السياق عن شبهتهم بأن كلامهم يخضع لمقاييس المخلوقين أما الخالق فهو على كل شيء قدير.

﴿فَسَيَنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ أي سيهزون رؤوسهم ويمدونها إلى الأمام في هيئة الشخص المتعجب ويتساءلون متى موعدها إن كان لنا موعد؟.

فمن عادة الإنسان أنه إذا احتمل في أمر احتمالين، فإنه يحتمل وقوع الأيسر منهما ويستبعد وقوع الاحتمال الثاني، ويشير هنا ربنا إلى استبعاد الإنسان وقوع الآخرة، ولكنه تعالى يؤكد له هذا الاحتمال فيقول: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ إذ أن مجرد اعتقاد الإنسان بأنه قد يترك الدنيا في أية لحظة وأن القيامة ستقوم متى أراد الله يجعله متقيا لله في أعماله صغيرها وكبيرها.

[٥٢] ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِمَحْمُودٍ وَتَقُولُونَ إِن لَّبِثْنَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ فليست الدنيا من الآخرة إلا قليل، إذ أن معدل عمر الإنسان في الدنيا هو سبعون سنة أو أكثر من ذلك بقليل، وليس هذه السنين قيمة أمام الخلود في الآخرة - أما في الجنة وأما في النار -.

العلاقات الاجتماعية البناءة

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ^(١)
 إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ^(٢) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ
 يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَصِيلاً ^(٣)
 وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ
 وَمَا نَبَأْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ^(٤) قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ
 كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً ^(٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ
 إِلَهَ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ إِلَيْهِمْ أَقْرَبَ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ
 عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ^(٦) ^(٧) وَإِنْ مِنْ قَرِيبٍ إِلَهُ تَحْتُ مَهْلِكُوهَا
 قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْكَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ
 مَسْطُوراً ^(٨) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ
 وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفاً
^(٩) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي
 أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا
 يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً ^(١٠) ۞

هدى من الآيات:

لكي لا يبت الشيطان روح العدا بين عباد الله، عليهم أن يختاروا أفضل القول، ذلك

(١) ينزع بينهم: يفسد ويهيج الشر بينهم.

(٢) محذوراً: يحذر منه ويتقي.

أن الشيطان عدو مبين للإنسان ولا يجوز أن يجعل البشر نفسه وكيلا عن الناس (فيكفرهم حسبما يشاء، ويحكم عليهم بعذاب الله).

والله أعلم بعباده فهو (وليس الداعية) يرحم إن شاء ويعذب إن شاء وقد أحاط علما بمن في السماوات والأرض، وإنما يتفاضل الناس بمشيئة الله، أو ليس قد فضل بين أنبيائه وآتى داود زبوراً؟

ويبدو أن هذه الآيات تبين بعض المسؤوليات الواجبة على المؤمنين تجاه بعضهم وتشمل غير المؤمنين، فالقول الحسن، وعدم التسرع بالحكم على الناس، وترك التحاسد جزء من مسؤولية المؤمن تجاه أخيه.

ولعل عوامل الخلاف تنشأ من عدم خلوص التوحيد، من رواسب الشرك فلذلك يعود السياق إلى قضية الشرك وأن الآلهة الباطلة لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلاً.

بل إن من يدعون من دون الله هم بدورهم يتغنون إلى ربهم الوسيلة، يرجون رحمته ويخافون عذابه.

وبالرغم من وجود الآلهة الباطلة فإن الله يهلك جميع القوى قبل يوم القيامة مما يدل على أنهم لا يملكون دفع الضر عن شعوبهم.

ولقد كذب الأولون بآيات الرب فهذه ثمود كذبوا وظلموا بالناقة وهي آية مبصرة، وآيات الله ليست إلا للتخويف.

والهدف من التخويف هو امتحان البشر وقد أحاط الله بالناس قدرة وعلما، ولقد امتحنهم بالرؤيا التي أراها رسوله، كما جعل الشجرة الملعونة في القرآن فتنة (شجرة الزقوم التي يجسدها في الدنيا المجرمون كبني أمية) إلا أن آيات التخويف لا تزيدهم الا طغيانا كبيرا.

بينات من الآيات:

القول الأحسن

[٥٣] هكذا أثار المشركون الشبهات حول الرسول، فما هي مسؤولية الدعاة إلى الله، في مواجهة تلك الشبهات؟ الجواب إن محتوى رسالة الدعاة إلى الله حق وصواب، يبقى الأسلوب، فلو أنهم اتبعوا أحسن الأساليب في الدعوة لأبطلوا تلك الشبهات. لكن إن لم

يتبعوا أفضل نهج للدعوة، فإن الشيطان يستغل الفرصة، ويضخم الأخطاء في عين المشركين، ويزين في قلوبهم العداوة للمؤمنين ومن ثم رسالة الإيمان بوسيلة الأخطاء التي يرتكبها الدعاة في أسلوبهم كأن يفحشوا في القول، أو يتطرفوا ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ يبدو أن العباد هنا هم عباد الله الصالحين ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ﴾ فالشيطان يمشي بين العباد بالعداوة، ويبث روح العداوة ويستفيد من الكلمات النابية بل من مقطعات اللسان والأخطاء التي يتهاون الناس عادة فيها، في بث روح العداوة بين المؤمنين.

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ فعداوته ليست بجديدة، وليست بخفية، وعلى العاقل أن يحذر العدو العنيد المجاهد بعداوته.

فلماذا نتبع خطوات الشيطان، ونعطيه فرصة التوغل بين صفوفنا وزرع الشقاق بين بعضنا والبعض؟.

كيف تنظر إلى الناس؟

[٥٤] ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْسِلْكُمْ أَزْوَاجًا لِّتُؤْمِنُوا بِهِمْ ثُمَّ يُؤْمِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بِمَا نَزَّلْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْتِفَافِ الْمَثَاقِمْ ﴾ بعض الناس يحكمون على الآخرين أحكاما قاسية دون أن يعرفوا واقع أنفسهم، وهل رضي الله عنهم أم لا، فإذا بهم يكفرون الناس ويفسقونهم ويحصون عيوبهم، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ طُوبَىٰ لِّمَن شَفَّلَهُ عَيْنُهُ عَنْ حُبِّ النَّاسِ»^(١).

والإنسان الذي يدعو إلى الله، ويحمل رسالته إلى الآخرين، هو اقرب الناس إلى هذه الزلة الشيطانية التي ينفذ من خلالها إلى قلبه يدعو لتكفير الآخرين وإسقاطهم من قائمة المؤمنين.

ويعالج القرآن هذه المشكلة بقوله: لا تحكموا على الناس بالباطل لأنكم قد تحكمون على أحد بالانحراف ثم يتوب فيتوب الله عليه، بينما يبقى الذي حكم بينهم بذلك رهين خطاه الذي قد لا يستغفر منه، فلا يتوب الله عليه، وربما يستغفر ولكن الله لا يتوب عليه لأن ذلك الشخص لم يغفر له، وهذا هو الذنب الذي لا يترك في الآخرة.

جاء في الحديث: «أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ وَظُلْمٌ لَا يُتْرَكُ وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَا يُطْلَبُ، فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالشُّرْكُ بِاللَّهِ تَعَالَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء: ١١٦]. وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ (أي الذنوب الصغيرة)، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ (أي في

(الآخرة) لَيْسَ هُوَ جِرَاحًا بِالْمُدَى وَلَا ضَرْبًا بِالسَّيَاطِ وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَضَفَرُ ذَلِكَ مَعَهُ^(١).

أذن قد يدخل الجنة ذلك الإنسان الذي نعتقد بأنه منحرف فاسق، بينما ندخل نحن النار. قال الله سبحانه وتعالى: يصف أهل النار: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ (٦٢) أَخَذَتْهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿[سورة ص] إذا فلا تحكموا على الناس أحكاماً ارتجالية بل ليكن مقياسنا في الحكم عليهم بمدى التزامهم بالقيم.

إذن لا تغتر بحسناتك، ولا تعب على الناس سيئاتهم، ولا تعتبر نفسك أفضل من الناس. ولعل الشخص يعيب على أخيه فعلاً وهو يرتكب ما هو أقبح منه، بل قد يكون ذلك الفرد معذوراً في تصرفه دونه، فلعل ضغوطاً تربوية أو اقتصادية أو اجتماعية تكره الفرد على اقتراف ذلك الفعل القبيح، بينما الذي يعيبه يرتكب ذات الفعل بلا ضغوط فيغفر الله لصاحبه ولا يغفر له.

وما أرسلناك عليهم وكيلاً

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ بعث الرسول بالرسالة شاهداً ومبشراً ونذيراً، ولم يبعث وكيلاً على الناس يدخل من يشاء منهم في رحمة الله، ويخرج منهم من يريد، إنما هذه المهمة هي مهمة الله وحده.

فإذا ليس باستطاعتك أنت أن ترتب الناس ضمن خانات تصنعها حسبما تريد، ألم تسمع هذا الحديث: عن أبي ذر رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ رَجُلًا قَالَ يَوْمًا: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي تَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَخْبَطْتُ عَمَلَ الثَّانِي بِقَوْلِهِ: لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ»^(٢).

[٥٥] ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ربك أعلم بالناس وبأعمالهم ماذا سيفعلون؟ لاحظ وجود (من) الموصولة التي تأتي للعاقل فنستطيع أن نقول: إن ربك أعلم بالذي في السماوات والأرض من الجنس العاقل سواء كان بشراً أم ملائكة.

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ الأنبياء كسائر البشر خلقوا بتفضيل وأفضل من الأنبياء الرسل فأفضل الرسل خمسة: وهم أولو العزم وأفضل أولي العزم رسول الله ﷺ

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٧٦.

(٢) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٣٣٦.

وقد قال رسول الله في حديث له: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّغْبِ وَأُجِلَّ لِي الْمَقْنَمُ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كُلِّهَا وَخَتَمَ بِي النَّبِيُّونَ»^(١).

﴿وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ يبدو أن زبور داود هو كتاب تربوي على شكل دعاء ومناجاة مع الله سبحانه، وكما هو معلوم فإن عدد كتب الله مائة وأربعة وعشرون كتابا، أنزل كل كتاب ليوكب ذلك الظرف الزمني المعين ولعل ذكر زبور داود دون غيره كان للأسباب التالية:

- ١- إن الله بشر فيه بالنبي محمد ﷺ وأنه سوف يورث أرضه عباده الصالحين.
- ٢- إن اليهود زعموا أن الله لم يرسل بعد موسى أحدا وكان داود بعده نبيا مرسلا باعترافهم.
- ٣- إن تفاضل الأنبياء لم يكن بالملك بل بالرسالات، فبالرغم من أن داود كان ملكا لم يذكر الله هنا ملكه بل ذكر الكتاب الذي أنزل عليه وهو الزبور وهو يتميز بين سائر الكتب بأنه كتاب دعاء وكان هذا أعظم ميزة له بين سائر الكتب.

الآلهة الزائفة

[٥٦] ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ لا بد أن نجعل الإيمان بالله محورا لحياتنا وتحركنا، لأن ما دونه من الآلهة لن نستطيع أن ننفعا أو نضرنا، وهم بالإضافة إلى ذلك اعجز من أن يقوموا بما نريد بل يعجزون عن القيام بما يريدون لأنفسهم، فكيف يقومون بحاجات الناس، وهنا نلاحظ من كلمة (زعمتم) أي ادعيتهم وصنعتهم، فالإنسان هو الذي يصنع الطاغوت المتسلط، ويصنع الصنم الجامد، ويصبغ عليه القوة ومن بعد ذلك يخافه، وهو يعلم أنه لا يملك كشف الضر عنه عوضا عن تحويله.

[٥٧] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رِيبَهُمُ الْوَسِيلَةَ أُنْتُمْ أَقْرَبُ﴾ هؤلاء الأولياء الذين يزعمون بأنهم آلهة إنما هم عباد له ضعفاء يبتغون رضا ربهم، ويريدون الوسيلة إليه، فكلهم فقير محتاج إلى رحمته، ويريد الزلفى إليه بفطرته وربما بإيمانه أيضا في هذه الآية، وفي آيات مشابهة تحير طائفة من المفسرين وتساءلوا من هم أولئك الذين يدعون وكيف أنهم يبتغون الوسيلة إلى الله ربهم؟.

(١) الدر المنثور: ج ٣، ص ٢٠٤.

زعم البعض أنهم الأصنام، بينما قال البعض أنهم الملائكة والعباد الصالحون الذين اتخذهم اتباعهم أرباباً من دون الله.

والواقع أن ذاك وهذا بعض معنى الآية، إلا أن المعنى الأشمل هو كل شيء أو شخص يطاع من دون الله، ولأن أغلب أبناء آدم يعبدون من دون الله، ذوي القوة والثروة والجاه، كالملوك والقيادات السياسية والمترفين والأحبار والرهبان.

فإن الآيات فيما يبدو تشمل هؤلاء بل تركز عليهم وتسعى لتحرير البشر من نير عبوديتهم ولعل قراءة سريعة لآيات الشرك توحى إلينا بأن الألهة المعبودة من دون الله هم عادة بشر، يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبُّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ [النحل: ٨٦].

وقال: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقال: ﴿اتَّخِذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرُءُسَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وقال: ﴿أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وهكذا نستوحي من هذه الآيات أن الأرباب والأنداد والشركاء عباد من البشر.

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿ هؤلاء يرجون رحمة الله ويخافون عذابه، ومن الملاحظ أن الرجاء ليس بمرتبة الخوف، فالخوف من العذاب يصلح الإنسان أكثر مما يصلحه الرجاء، جاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فَعَنِ اشْتِاقٍ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَّبَ الْمُحَرَّمَاتِ»^(١).

إن الخوف من النار يمنع الإنسان عن المحرمات وبينما رجاء الجنة يبعد الإنسان عن الشهوات.

سنة العذاب

[٥٨] ﴿وَلَنْ مِنْ قَرِيبٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْكَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ قال بعضهم إنه: عندما يتحدث الله عن بلدة طيبة في القرآن يسميها بلدا أو مصرا، وعندما يتحدث عن بلدة سيئة يسميها قرية مهما بلغت من الضخامة.

وكانت الآية تشير إلى قضية مهمة جدا في حياة القرى التي تشذ عن أمر الله حيث يكتب عليها العذاب منذ بداية انحرافها، ولكن مع وقف التنفيذ، فربما يرسل العذاب في هذه اللحظة وربما لا يعذبهم إلا بعد سنين من المعاناة، ونلمس من هذه الآية: إن الله أعطى الإنسان مهلة، وعليه أن يتحمل تنفيذ الحكم الرباني عليه إن حاد عن طريقه كما أن الآية تشير إلى طبيعة البشر النازعة إلى الانحراف حيث تجلب إليها عذاب الرب.

[٥٩] ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ ليست مشكلة البشر قلة الآيات بل المشكلة هي أن الناس لا يستوعبون الآية ولا يعرفون قيمتها وبالتالي يكذبون وأبرز مثال على ذلك قوم ثمود.

﴿وَأَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ هذه الناقة كانت آية جليلة واضحة إذ خرجت إليهم من الجبل الأصم تستقيهم اللبن، ولكن مع الأسف هذه الناقة سببت لهم مصيبة كبرى إذ ظلموا أنفسهم بسببها.

السياق القرآني يحذرنا من طرف خفي من أن نطالب أبدا بالآيات دون أن نكون مستعدين لها، إذ لو نزلت الآيات ثم كفرنا بها فقد استوجبنا عذاب ربنا الشديد فنكون قد ظلمنا أنفسنا بتلك الآية، كما فعلت ثمود.

وقد جاء في تفسير هذه الآية الكريمة: حديث ماثور عن الإمام الباقر عليه السلام إن محمدا سأله قومه أن يأتيهم بآية، فنزل جبرئيل وقال: إن الله يقول: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ وَكُنَّا إِذَا أَرْسَلْنَا إِلَى قَرْيَةٍ آيَةً فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا أَهْلَكْنَاهُمْ فَلِذَلِكَ أَخْرَجْنَا عَنْ قَوْمِكَ الْآيَاتِ^(١).

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي أن هناك نوعين من الآيات فآية مبصرة مثل ناقة صالح كفروا بها فأتاهم العذاب وآية تخوفهم وتنذرهم بعذاب الآخرة مثل البأساء والضراء.

(١) تفسير القمي: ج ٢ ص ٢١.

ولأن الله ختم بنبيه محمد ﷺ الرسل فقد أرسل الآيات تخويفا بالقيامة ولم يرسلها بحيث يجلب العذاب لو كفروا بها.

الرؤيا

[٦٠] ما هي الرؤيا؟ يبدو أن لدى كل واحد منا حاسة سادسة ونعني بذلك الحس الذي يلتقط الإرهاصات التي يشعر بها مثل النعمة أو المصيبة، وتلعب هذه الحاسة دورا أساسيا أثناء الظروف الصعبة حيث النفوس ملتهبة ولعل الرؤيا هي جزء من هذه الحاسة ذلك لأن الإنسان في حالة اليقظة يحجبه عن رؤية الحقائق وتفهمها ما يشاهده بعينه وما يتلى به في حياته اليومية، بينما في النوم حين الأحاسيس الأخرى هامة تبقى الحاسة السادسة هي الفعالة فيرى الإنسان الأمور، وكثيرا ما يحذر الله الإنسان من المستقبل وأمور عديدة في حالة النوم، إلا أن غالبية بني البشر ولتورطهم بغرور الدنيا ونعم الله فيها، لا يستفيدون من رؤياهم، ولا من إحساسهم بالخطر المحقق بهم، ولعل الآية تشير إلى هذه النعمة نعم رؤيا الأنبياء ﷺ من الوحي.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ علما وقدره ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ يعني تجربة واختبارا لهم ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ أي وجعلنا هذه الرؤيا إشارة للشجرة الملعونة ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ والله تعالى يقول في الآية التي تليها: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

إن حالة الغرور والتكبر والاستعلاء على المؤمن وعلى آيات الله المحذرة والنذيرة، كل ذلك نابع من خطأ قديم ارتكبه أبونا آدم، دفعه إلى ذلك إبليس الذي تكبر على السجود لله تعالى وهذا لا يزال يزيد الإنسان غرورا وكبرا.

الشجرة الملعونة

ما هي الشجرة الملعونة في القرآن؟.

لقد اختلفت التفاسير في معنى هذه الآية فيين من قال أن الشجرة هذه هي شجرة الزقوم أو اليهود ولكن من بين الأقوال تفسير ارتضيته، وقد وردت فيه روايات كثيرة ومن كافة المذاهب الإسلامية وقبل بيان هذا التفسير ورواياته هناك فكرة هامة علينا بيانها لا ريب أن رسالة الإسلام هي أعظم وأكبر ظاهره شهدها كوكبنا الأرضي. ولا ريب أن ما جرى على هذه

الظاهرة الكونية الكبرى من تغيرات هائلة هي الأخرى تتسم بأهمية كبرى ايضاً، وأهم تغيير جرى على هذه الظاهرة هو تغيير القيادة الإسلامية من الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض نزا عليه الأمويون، وهذا التغيير هو أكبر انحراف حدث في الأمة الإسلامية. ومن الطبيعي - والإسلام رسالة غيبية-، أن لا يسكت عن هذه الانحرافة الكبرى، وهذا التغيير الخطير في رسالة الله، والله الذي يحب رسالته ورسوله والأمة الإسلامية لم يترك الأمر إلا وقد أشار إليه بطريقة أو بأخرى، ولم تكن هذه الإشارة واضحة كأن يذبح الرسول ﷺ قادة بني أمية جميعاً، لأن هذا ليس من شأن الرسائل الإلهية لأن الله يريد اختبار الناس وامتحانهم، وفي نفس الوقت لا يدع الله الأمر من دون حجة بينة بل يشير إلى الحق والباطل، ثم يترك المجال مفتوحاً لاختيارهم الحق أو الباطل.

والتفسير المختار هو أن الرؤيا هي رؤيا الرسول ﷺ في منامه أن قرودة ينزون على منبره ويتواثبون عليه، والرسول قال هذا الكلام للناس ولكن من الذي عقله؟.

أهل الذكاء والفطنة، وأهل التوسم الإيماني هم فقط الذين عرفوا بأن منبر الرسول ﷺ مركز قيادته، وأن هناك فئات من الأمة سوف تسعى لهذا المركز دون حق، هم بنو أمية أما الآخرون فقالوا إن طيف الرسول كطيفهم لا أثر له. وحقيقة الأمر أنه يختلف تماماً، ونبي الله إبراهيم عليه السلام أراد أن يذبح ابنه بسبب رؤيا.

﴿قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ فقال له ابنه نبي الله إسماعيل ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. وهكذا كانت رؤيا الأنبياء وحياً.

من هنا جاء في الحديث أن ذلك رؤيا رآها النبي ﷺ في منامه أن قروداً تصعد منبره وتنزل فساءه ذلك واغتم به وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام^(١).

وعن سهل ابن سعيد عن أبيه قال: «رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَنِي أُمَيَّةَ يَنْزُونَ عَلَى مِنْبَرِهِ نَزْوُ الْقِرْدَةِ فَسَاءَهُ، فَمَا اسْتَجْمَعَ ضَاحِكاً حَتَّى مَاتَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾»^(٢).

وقالوا: «على هذا التأويل فإن الشجرة الملعونة بالقرآن هي بني أمية أخبره الله تعالى

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ١١٩.

(٢) بحار الأنوار: ج ٣١ ص ٥٣٦.

بتغلبهم على مقامه وقتلهم ذريته»^(١).

وروي عن المنهال ابن عمر قال: دخلت على علي بن الحسين عليهما السلام فقلت له: كيف أصبحت يا ابن رسول الله ﷺ، قال عليهما السلام: «أَصْبَحْتُ فِي قَوْمِنَا بِمَنْزِلَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي آلِ فِرْعَوْنَ، يُذَبِّحُونَ الْأَبْنَاءَ وَيَسْتَحْيُونَ النِّسَاءَ، وَأَصْبَحَ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا ﷺ يُلْعَنُ عَلَى الْمَنَابِرِ، وَيُعْطَى الْفَضْلُ وَالْأَمْوَالُ عَلَى شَتْمِهِ، وَأَصْبَحَ مَنْ يُحِبُّنَا مَنَقُوصاً بِحَقِّهِ عَلَى حُبِّهِ إِيَّانَا»^(٢).

وقيل للحسن البصري: «يا أبا سعيد قتل الحسين بن علي. فبكى حتى اختلج جنباه (أي تحرك كتفاه) ثم قال: واذلناه لأمة قتل ابن دعيها ابن بنت نبيها»^(٣).

(١) بحار الأنوار: ج ٩، ص ١١٩.

(٢) بحار الأنوار: ج ٧٣، ص ١٦.

(٣) مجمع البيان: ج ٦، ص ٢٦٦.

الإنسان بين كرامة الله وغرور الشيطان

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝ (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۝ (٦٢) قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ كُلِّ جَزَاءٍ مَوْفُورًا ۝ (٦٣) وَأَسْتَفْزِزُ مَنِ اسْتَعْطَفَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ (١) عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝ (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝ (٦٥) رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي (٢) لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنْ كُنْتُمْ رَاجِعِينَ ۝ (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَلَغْنَا الْبَرَّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ۝ (٦٧) أَفَأَمْسَرْتُمْ أَنْ يَخْشِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ۝ (٦٨) أَمْ أَمْسَرْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا (٣) مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ۝ (٦٩) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝ (٧٠)﴾

(١) أجلب: الإجلاب السوق، يجلبه من السائق والجلب شدة الصوت.

(٢) يزجي: الأزجاء سوق الشيء حالاً بعد حال.

(٣) قاصفاً: القاصف الكاسر بشدة قصفه.

هدى من الآيات:

لماذا يتمرد البشر عن مسؤولياته، وما هو جزاء المتمردين، وما هو جذر الشرك بالله؟.

لنعد إلى قصة الخلق الأول: فمن عرف البداية هدى إلى العاقبة، نتذكر قول الله للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس استكبر وعلا بغير حق فقال أنا نار ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ فلما لعنه الله، قال: سترى كيف أضل ذرية هذا الذي كرمته علي إن أخرتني إلى يوم القيامة، إلا قليلا منهم وأنذره الله ومن تبعه إن جزاءهم جهنم جزاءً وافياً.

وبالرغم من أن الشيطان سوف يستفزهم بالتضليل. ويرهبهم بجيشه، ويتداخل معهم فيشاركهم في الأموال والأولاد ويحذرهم بوعود كاذبة، فإن عباد الله سوف يتحدونه بعون الله، وبالتوكل عليه وكفى بالله وكيلا. والله يملك كل شيء ومن يعرفه ويتوكل عليه فهو حسبه.

فهو الذي يزجي السفن في أعالي البحار لمصلحة البشر، رحمة بهم أما إذا أحسوا بالضراء في البحر وغاب عنهم أهنتهم التي كانوا يشركون بهم فإن يد الله تنجيهم من ورطتهم بالرغم من أنهم يعرضون عنه إذا وصلوا إلى الشاطئ آمين، ويقابلون رحمة الله، بالكفر إن بدل الشكر، دون أن يتذكروا أن الله قادر على أن يخسف بهم جانب البر، أو يرسل عليهم ريحا تقلّفهم بالحجارة، فلا يجدون وكيلا يدافع عنهم، أو يخشوا العودة إلى البحر فتحيط بهم عواصف تفرقهم بكفرهم ولا أحد يطالب بثأرهم.

لقد كرم الله بني آدم، واسجد لهم الملائكة وحملهم في البر والبحر، ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلا ووعدهم بالنصر في مواجهة الشيطان الذي يقف لهم بالمرصاد!

بينات من الآيات:

إبليس يتحدى سلطان الحق

[٦١] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أشرنا في سورة البقرة أن سجود الملائكة يرمز إلى إخضاع الطبيعة للإنسان، وعللنا ذلك: أن كل طبيعة في الكون لها ملك موكل بها، فهناك ملك للمطر، وهناك ملك للريح، وآخر للبحار وملائكة للنهار وملائكة لليل و... والمطلوب من الإنسان هو أن يخضع نفسه وقوى الشر في الطبيعة.

﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ يبدو أن إبليس كان عنصريا لأنه حيث زعم أن العنصر الناري افضل من العنصر الترابي، ولم يعلم بأن العنصر الترابي ليس بشيء، لولا تكريم الله له

بتلك القدسية التي نفخها الله فيه، منحه العقل والإرادة، وكذلك عنصر النار بقيمته مستمدة من الخلق الإلهي ليس إلا. ولئن رأى في النار مجداً، ففي التعليم الإلهي الذي هو سبيل إخضاع الطبيعة ميزة في هذا المخلوق الترابي.

[٦٢] ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ قالوا: معنى هذه الكلمة أخبرني، ولعل معنى الكلمة هل ظننت أنك تغلبنى وفيها نبرة التحدي والتعرد وكان أسلوب اللعين بعيداً جداً عن مقام رب العالمين إذ كان أسلوبه أسلوب تحد على من كرم الله وكأنه كان يقول: ستعلم ما أفعل بهذا الذي كرمته علي وأمرتني بالسجود له!!.

﴿لَيْنَ أَخْرَجْنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي أمهلتنى حتى يوم القيامة لترى ماذا اعمل!!.

﴿لَأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ ما هي غاية إبليس؟.

هدف إبليس أن يحتك بني آدم، والاحتكاك^(١)، كما قال المفسرون له معنيان:

أولاً: الأخذ من العنق أي سوف أقود بني آدم سوق البهائم.

ثانياً: الاستتصال أي لاستولين عليهم بالكامل (إلا قليلاً) ممن يتمرد علي ويتبع عقله وهذا قول الشيطان، ويبدو من هذا الحوار أن إبليس يقول: أنا أقوى من آدم، أنت كرمته علي بيد أنى سوف ادخله النار.

[٦٣] ﴿ قَالَ أَذْهَبَ ﴾ أعطيتك الفرصة والمهلة، ﴿فَمَنْ يَمُوكَ مِنْهُمْ فَأَتِ جَهَنَّمَ جَزْأً وَكُزَّ جَزْأً مَوْفُورًا﴾.

إن الله خلق الجن والإنس ليعبدوه وكرم بني آدم وأهله لعبادته، أما إذا خرج عن حده ووقع في خط الشيطان، آنئذ يسحب الله الكرامة منه ويدخله جهنم هو وجنود إبليس أجمعين. وهكذا إبليس من أشد الأعداء خطورة على ولد آدم جاء في الدعاء «إِلَهِي أَشْكُو إِلَيْكَ عَدُوًّا يُضِلُّنِي، وَشَيْطَانًا يُغْوِينِي، قَدْ مَلَأَ بِالْوَسْوَاسِ صَدْرِي وَأَحَاطَتْ هَوَاجِسُهُ بِقَلْبِي، يُعَاضِدُ لِي الْهَوَى وَيُزَيِّنُ لِي حُبَّ الدُّنْيَا وَيَحْوِلُ بَيْنِي وَبَيْنَ الطَّاعَةِ وَالرُّقَى»^(٢)، إلا أن الله سبحانه وتعالى زود الإنسان بالإرادة والعقل وأعطاه مزايا عدة كيف؟ تعالىوا نستمع إلى هذا الحوار.

عن زرارة عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لَمَّا أُعْطِيَ اللَّهُ إِبْلِيسَ مَا أُعْطَاهُ مِنَ الْقُوَّةِ قَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ سَلَّطْتَ إِبْلِيسَ عَلَيَّ وَلَدِي وَأَجْرِيئَهُ مِنْهُمْ مَجْرَى الدَّمِّ فِي الْعُرْوِقِ، وَأَعْطَيْتَهُ مَا أُعْطِيَتْهُ

(١) قالوا: احتك فلان ما عند فلان من مال: استقصاه وأخذه بالكلية، واحتك الجراد الزرع: أكله بالكلية.

(٢) بحار الأنوار: ج ٩١ ص ١٤٣، ب ٣٢ باب أدعية المناجاة.

فَمَا لِي وَلَوْلَدِي؟

قَالَ -عز وجل-: لَكَ وَلَوْلَدِكَ السَّيِّئَةُ بِوَاحِدَةٍ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَلِهَا؟

قَالَ -آدم-: يَا رَبِّ زِدْنِي.

قَالَ: التَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ إِلَيَّ أَنْ تَبْلُغَ النَّفْسُ الْحُلُقُومَ.

قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي.

قَالَ: أَغْفِرُ وَلَا أُبَالِي^(١).

هكذا يُمَكِّر إبليس

وخطورة الشيطان إنه يستخدم أمكر الخطط من أجل إغواء بني آدم ولولا يقظة ابن آدم، وعزمه الراسخ للتخلص منه، فإن إبليس بصرعه بوحدة من خططه العديدة.

وكم يكون عظيماً ذلك الإنسان الذي يتحدى كل خطط الشيطان ويصل إلى الجنة بعد تجاوز المواقع والعقبات الشيطانية العديدة ويذكر السياق القرآني بخمسة خطط:

- التضليل الإعلامي.

- الإرهاب.

- إفساد الاقتصاد.

- إفساد التربية.

- الترغيب.

الأولى التضليل الإعلامي

[٦٤] ﴿وَأَسْتَفْزِزُ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ والاستفزاز بمعنى الاستنهاض، يقال

فزت الدابة، أي قامت وتحركت.. أي حرك منهم من تريد واستنهاض من شئت بإعلامك المضلل. ويشمل الصوت الدعاية والموسيقى والغناء وكل أساليب الغواية المنطوقة.

ويعتبر التضليل الإعلامي أمضى أسلحة الشيطان، حيث ترى بداية الخلق إن إبليس

(١) وسائل الشيعة: ج ١٦، ص ٨٨.

أغوى آدم وزوجته، وأخرجهما من الجنة، بالقسم الكاذب وعلى امتداد التاريخ استخدم الشياطين أبواقهم الدعائية لمحاربة الحق، وكان حول الطغاة أبدا جيش من أدعياء الفكر والدين يؤيدون سلطانهم ويغنون عباد الله.

ولا تزال شبكات المستكبرين التضليلية تقوم بأسوأ دور في مد سيطرتهم الشيطانية على المستضعفين وهكذا ينبغي أن يكون الإنسان على أعلى مستوى من الوعي حتى يقاوم هذا التضليل، وإلا فإن الجزارين سوف يقودونه إلى المذبحة بهدوء بعد أن يخدعوه ويغروه.

الثانية الإرهاب

﴿وَأَجَلِبْ عَلَيْهِمْ بِخِيَلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ الإرهاب وسيلة شيطانية يستنجد بها أعوان الشيطان متى تحرك الناس تجاه دينهم، أو بدأوا بممارسة حقهم في التفكير، أو بدأوا يستخدمون عقولهم.. ﴿بِخِيَلِكَ﴾ هم الخيالة أو بمعنى آخر هم القوة المحمولة للشيطان و﴿وَرَجِلِكَ﴾ إشارة إلى جيش المشاة.

الثالثة إفساد الاقتصاد

﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ وهذا هو الأسلوب الثالث الذي يعتمد عليه الشيطان وهو إفساد النظام الاقتصادي وحين يكون الاقتصاد فاسدا بسيطرة الرأسمال الكافر فإن من الصعب جدا عبادة الله، لأن الشيطان يقطع رزق المؤمنين بعد سيطرة أجهزته على المال.

الرابعة إفساد التربية

أما المشاركة في الأولاد فتعني التربية الفاسدة للطفل، فالشيطان يشارك الأب في تربية أبنائه فمنذ نعومة أظفارهم يأخذهم ليرزقهم فكره، ليكونوا حملة لرسالته.

والمعنى العميق لهذه الآية: إن الإنسان لو ترك وفطرته، لاستفاد من حياته، ولكن الشيطان يدخل مع الإنسان في كل شيء ويصير معه شريكا، فيمتص جهوده، فلا يستفيد الإنسان من حياته لحياته الأخرى، بل تكون حكرا للشيطان.

الخامسة الترغيب

﴿وَعِدُّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهذه هي النقطة الأخيرة التي يعتمد

عليها الشيطان وزبانيته وهي أسلوب الترغيب، ولخطورة هذه النقطة سبها الله سبحانه وتعالى، لأن الإنسان تغريه رنة الدينار حتى يعمي بصره فيصبح لا يرى الحق الأبلج.

الغرور هو التغرير، قال: الراغب في مفرداته: «الغرور هو كل ما يغر الإنسان من جاه وشهوة وشيطان، وقد فسر بالشيطان إذ هو أخبث الغاوين»^(١).

عبادة الله عصمة وهداية

[٦٥] ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ إن عبادة الله سبحانه وتعالى، والاتصال به عصمة للإنسان لئلا يقع في حبائل الشيطان إن عبادة الله هدى في البصيرة، وقوة في الإرادة، وغوث في الكربة والذين يكفرون بالله ولا يتمسكون بحبله فإن الشيطان يضلهم بغروره ويرهبهم بجيشه، ويشاركهم في الأموال والأولاد.

وهكذا لا يمكن لأحد أن يتخلص من برائن الشيطان، من دون الاعتصام بحبل الله المتين. وكما أن أمضى أسلحة إبليس الاستفزاز بالصوت، فإن أعظم حصن للمؤمن هو الذي يقيه تضليل الناس.

وذلك ببصائر الوحي وضياء العقل، وهكذا تكون الصلاة والصيام وسائر العبادات وسيلة للتفكير السليم ومقاومة عوامل الانحراف الفكرية. ويفسر هذه الآية قوله سبحانه وتعالى في سورة النحل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾.

(السلطان) هو القدرة

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ من الطبيعي جدا أن إرادة الشيطان لا تستطيع أن تقف أمام مشيئة الله، لأن وعد الله هو الحق وإن يعد الشيطان إلا غرورا، وقد وعد الله عباده بأنه وكيلهم في صرف الشيطان عنهم، وتقطيع مصائده وهدم مكائده.

إن مقاومة أسباب الانحراف في النفس تسير جنبا إلى جنب مع التيار العام للخلق والفطرة والذي تمثله سنن الله وقوانين الطبيعة. أما الانحراف فهو السير ضد هذا التيار، فلذلك فإن الانحراف يحمل في جوفه عوامل انهياره، حتى لو تذرع بالأساليب الملتوية من

(١) مفردات غريب القرآن: ص ٣٥٩.

إرهاب أو إغراء.

[٦٦] ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ﴾ هذه مقارنة بين غرور الشيطان ونعم الله، فإذا كان الشيطان يرمي إلى تلك المقاصد التي ذكرها الله، فإن الله سبحانه وتعالى ينقذ الإنسان من براثن الشيطان ويساعده على تسخير الطبيعة حيث يزجي السفن في البحر لمصلحة البشر.

والإزجاء: هو الدفع والتحريك، ولا يتم الإزجاء إلا بخلق عوامل مؤثرة تساعد على هذا الإزجاء سواء بالرياح التي تحرك المياه وتحدث الأمواج أو بالقمر الذي يصنع المد والجزر، أو بخلق العوامل التي تساعد على تحريك السفن فوق سطح المياه.

﴿لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهٗ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فلم تزل السفن أفضل وسيلة للتجارة، ونقل فضل الله المتمثل في ألوان البضائع من بلد إلى بلد وبالرغم من تقدم الوسائل الأخرى للنقل البري، كالطائرات والسيارات والقطار، فإن نسبة نقل البضائع عبر البحار أعظم من غيرها بما لا قياس. وبالإضافة إلى ذلك فإن البحار مستظل أفضل وأعظم مصدر للطعام البشري الطيب.

[٦٧] أسلوب القرآن الحكيم يعتمد على إبلاغ الحقيقة إلى غور الفكر، وعمق القلب، بأن يرفع الحجب التي بينه وبينها حتى يشاهد بذاته الحقائق. فهذا هو العلم الحق أنه كشف وشهود واتصال مباشر بين القلب والحقيقة (عبر جسر المعرفة). وهنا يذكرنا الرب سبحانه: بذاته عبر منهاج وجداني يعتمد على رفع الحجب وشهود الواقع. ولعل الحديث التالي يبلور في نظرنا هذا الأسلوب.

جاء رجل إلى الإمام الصادق عليه السلام وقال له: يا بن رسول الله دلني على الله ما هو؟ فقد أكثر على المجادلون وحيروني. فقال له: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَلْ رَكِبْتَ سَفِينَةً قَطُّ؟ قال: نعم، قال عليه السلام: فَهَلْ كُسِرَ بِكَ حَيْثُ لَا سَفِينَةٌ تُنْجِيكَ وَلَا سَبَاحَةٌ تُغْنِيكَ؟ قال: نعم. قال: فَهَلْ تَعَلَّقَ قَلْبُكَ هُنَالِكَ أَنَّ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ وَرَطَتِكَ؟ قال: نعم. قال الصادق عليه السلام: فَذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ اللَّهُ الْقَادِرُ عَلَى الْإِنْجَاءِ حَيْثُ لَا مُنْجِيٍّ وَ عَلَى الْإِغَاثَةِ حَيْثُ لَا مُغِيثٌ^(١).

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا﴾ في لحظات الخطر يتذكر العبد ربه، ويتعلق قلب الإنسان بالله وليس بذاته التي يعبدها أو بالطاغوت الذي يخضع له.

وهكذا يستدل بها الله على ذاته، فلا أحد منا يخلو من لحظات الحرج والشدة، حيث

تحيط بنا الأخطار ونعرف بفطرتنا أن أولئك الآلهة المزيفة، التي تعبد من دون الله لا تغني عنا شيئاً فتتصل القلوب برب الأرياب، وتبدا بالمناجاة الحارة، ويفتح الرب أمامنا أبواب رحمته وتستقبلنا بشائر فضله وتنقذنا يد عونه وغوثه ﴿فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ فبدل أن يزداد شكرا تراه يزداد طغيانا وكفرا بنعمة الله، و﴿كَفُورًا﴾ صيغة تدل على الاستمرار.

[٦٨] ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ أين تهرب من قدرة الله؟! صحيح أنه نجاك من هذا البحر الغاصب، لكن من الذي يضمن لك أن لا تخسف بك الأرض، أو ينفجر عليك بركان منها، وهذه الآية إشارة إلى إمكان حدوث التغيرات الجيولوجية في أي لحظة.

﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ الحاصب الريح المحملة بالحصى وذرات الرمل.

عندما كانت قوافل العرب تسير في الصحاري التي تتحرك رمالها كانت الرياح تسوق كثبان الرمل فتبتلع القوافل بما فيها وبمن معها، ولعلمهم كانوا يسمونها بالحاصب.

هذه طبيعة الإنسان بدل أن يشكر ربه على النعم أولاً وعلى خلاصه من البلاء ثانياً بدل ذلك يكفر.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَصِيلاً﴾ سبق وأن ذكر الله سبحانه بأنه وكيل عن المؤمنين في دفع الشيطان عنهم، ولكن من هو وكيل الكافرين في دفع الموت والضرر هذه الآية تشير إلى ضرورة الرجوع إلى الله لأنه القوي، ولا قوة أعلى من قوته.

عندما ذكر الله أساليب الشيطان صغرها وبين أن عباد الله أقوى منها بفضل الله فإذا كان الشيطان يستطيع إغواء اتباعه فإن الله قادر على إهلاكهم رأساً بأن يغرقهم في اليم، أو يخسف بهم الأرض، أو يرسل عليهم ريحاً لا تبقي ولا تذر.

بعد البلاء أما العذاب أو الرحمة

[٦٩] ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ أي يعيدكم في البحر، فيرسل عليكم القاصف (القاصف) هي: الأعاصير البحرية الهائلة، هذه الآية تشير إلى غباء الإنسان، فأنى له أن يهرب من عذاب الله؟! فحتى لو أسكرته الفرصة وأذهله تنابع النعم عن شكر ربه، فهل ينفعه ذلك؟! الله قادر على أن ينسيك ما أصابك، وهذا ليس من صالحك، إذا قد تلدغ من الجحر الذي لدغت منه في المرة السابقة! إنما عليك أن تتذكر ما أصابك من البلاء ليذكرك بالله سبحانه

وتعالى حينها لن تلدغ من جحر مرتين.

إن الله سبحانه وتعالى عندما يتلي أمة فإنها يتليهم بما كسبت أيديهم ويهدف إنقاذهم من السيئات التي كانت سبب البلاء كما أن الألم علامة المرض فكذلك البلاء علامة الذنب فإذا كفروا وتمادوا في الغي فإن الله عندما يتلي أمة فإن ذلك مؤشر إنذار لهم بأنهم مذنبون، وأن الله لا ينجي من هذا البلاء إلا عند خلوص النية.

والخلاصة هي: أن الله سبحانه وتعالى يتلي الإنسان بالبلاء ليعمق روح الإيمان فيه، ولكنه قد يكفر إذا نجي منه وقد يتحول البلاء إلى عذاب.

قال الله سبحانه وتعالى لعيسى عليه السلام: ﴿يَا عِيسَى! لَا يَغُرُّكَ الْمُتَمَرِّدُ عَلَيَّ بِالْعِصْيَانِ، يَأْكُلُ رِزْقِي، وَيَعْبُدُ غَيْرِي، ثُمَّ يَدْعُونِي حِينَ الْكَرْبِ فَأَجِيبُهُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، فَعَلَى يَتَمَرَّدُ؟ أَمْ يَسْخَطُنِي يَتَمَرَّدُ؟ فَبِي خَلَفْتُ لَا أَخُذُّهُ أَخْذَةً لَيْسَ لَهَا مِنْهَا مَنَجَى وَلَا دُونِي مَلْجَأٌ^(١)﴾.

إذا البلاء ميزان العبد فقد يهتدي به فيرحمه الله، وقد يظن فيحول الله البلاء إلى عذاب، لقد رفع الله فوق بني إسرائيل الطور وهددهم بأنه سوف يسقطه عليهم، ولكنهم أخلصوا نيتهم فتاب الله عليهم، وعندما عادوا إلى غيهم عاد الله عليهم العذاب، إذ علينا أن نعرف أبدا أن البلاء جرس إنذار، فنصحح انحرافنا ونتجه إلى الله قبل أن يصبح عذابا شاملا.

[٧٠] ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ بالعقل والإرادة وباستواء الخلقة، وقدرة الجسم على الحركة باستقامة ووجود أجهزة دقيقة له تساعد على التحكم في الطبيعة. وهكذا كرمهم بالهدى وبأن الأنبياء والصديقين منهم حيث أنزل لهم رسالاته، وكرمهم بتسخير الطبيعة لهم، وتوطئة ظهور الأشياء لهم.

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ حملهم في البر: فالأرض جعلها صلبة يستطيعون التنقل عليها وسخر لهم الخيل والبغال والحمير ليركبوها. وسخر لهم سائر وسائل الانتقال في البر بفضله كما حملهم في البحر فوق السفن التي تمر المحيطات.

﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الطيبات: الرزق الحلال وكل ما في الأرض حلال إلا ما استثنى، وتفضل الله على الإنسان ليس لذاته وإنما ليتحمل به مسؤولية أكبر، لأن لكل شيء زكاة فزكاة المال بذله، وزكاة العلم نشره وكذلك فإن زكاة التفضيل أن تتحمل مسؤوليتك بحجم هذا التفضيل.

(١) الكافي: ج ٨، ص ١٣١.

كيف نواجه خطط إبليس؟

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ
 بِئْسَ لَهُمْ قَاوِلُكُمْ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَتْلُونَ فِتْيِلًا ﴿٧١﴾
 وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾
 وَلَئِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ^(١) عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا
 غُبْرًا وَإِذَا لَاتُخَذُوكَ خَبِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن تَهْتَنَّاكَ لَفَدَّتْ
 تَرَكَكُ ^(٢) إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ
 وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِنْ كَادُوا
 لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ
 خِلَافَكَ ^(٣) إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا
 وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ
 اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ
 فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ
 رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ
 سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ
 زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

(١) ليفتنوك: يزلومك ويصرفونك.

(٢) تركن: تميل.

(٣) خلافاً: بعدك.

هدى من الآيات:

في درس مضى بين القرآن الكريم مكر الشيطان وكيدته، وهامو يبصرنا كيف نقاومه، ويثبت أفئدة المؤمنين بالحدِيث عن سنة الله التي اتبعها النبيون فانتصروا.

عندما يدعو الله كل أناس بإمامهم. فهل تريد أن يكون إمامك الشيطان؟ وعندما تتطايّر الكتب. فهل تحب أن تستلم كتابك بالشمال؟.

هنالك من يؤتى كتابه بيمينه، ويعطون البصيرة، يقرءون كتابهم دون أن ينقص من أجرهم شيء، فلا يظلمون بقدر فتيل، بينما هنالك من يؤتى كتابه بشماله وهم عمي لا يهتدون سبيلا. بل إنهم كانوا في الدنيا لا يبصرون، فجزأؤهم أن يكونوا في الآخرة كذلك.

إن العاقبة الحسنی إنما هي من نصيب أولئك الذين يقاومون خداع الشياطين.

والذين ضغطوا على رسول الله ليغيروا بعض ما أوحى إليه، وأنشد يتخذوه خليلا، وعصمة الله هي التي تحفظ البشر من السقوط في شرك إبليس، ورسول الله معصوم عن الميل إليهم بأذن الله، ولو أنه ركن إليهم شيئا قليلا لأذاقه الله - إذا - ضعف الحياة وضعف الممات، ثم لا ينصره الله شيئا.

هكذا يستقيم المؤمنون أمام مكر إبليس وشياطينه، المهادف تضليلهم، أما عن قوتهم وإرهابهم فإنهم أرادوا أن يستفزوا رسول الله من أرضه، ويخرجوه منها، ولكنهم إن فعلوا أطبق عليهم العذاب. تلك سنة الله في الماضين، ولا تجد لسنة الله تحويلا.

ولكي نقاوم ضغوط الشياطين علينا أن نقيم الصلاة لدلوك الشمس (وقت الظهيرة والعصر) إلى غسق الليل (المغرب والعشاء) وقرآن الفجر (صلاة الصبح) إن قراءة القرآن تشهد الملائكة، وأن نقوم الليل للتهجد نافلة، إن ذلك وسيلة التقرب إلى الرب ولبلوغ المقام المحمود، وأن ندعو الله لكي يجعل مدخلنا مدخل صدق، ونخرجنا مخرج صدق، وأن يجعل لنا من لدنه سلطانا نصيرا، وأن نحبي الحق ونميت الباطل.

تلك كانت مناهج الرسالة لتحدي خطط إبليس، ونلخصها في خمسة بنود، إقامة الفرائض، والتهجد في الليل، والصدق في جميع المواقف، والتوكل على الله، وأخيرا الثقة بنصره. وهذا هو محتوى رسالة الله التي أوحاها إلى عبده محمد بن عبد الله ﷺ.

ولأن سورة الإسراء تبين حقائق الوحي الإلهي تحدثنا عنها في أغلب دروسها، وضمن

بيان حقائق أخرى تتناسب معها كقضية مكر إبليس الذي يريد إغواء بني آدم، فيوفر الله لهم حبل الخلاص برضالاته التي أوحى بها.

بينات من الآيات:

إمامة القرآن هداية وفلاح

[٧١] ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسمِهِمْ﴾ في ذلك اليوم يدعو الله سبحانه كل أمة بإمامها، والإمام يعكس قيم أمته، وهو تجسيد لكل فرد في الأمة، وهكذا يجب أن تتبع القيادة من صميم الأمة، وتعيش واقعها، وكل قيادة لا تتبع من صميم الأمة فإنها لا تملك مبرر البقاء لأنها تتنافر طبيعياً مع كل فرد في هذه الأمة. والإمام هو القرآن الموحى به، وهو الذي يجسد القرآن ويكون قرآناً ناطقاً بالفكرة الرسالية هي القائدة وإنما يمثلها ذلك الإمام الناطق بها، ويجب على الإنسان أن يتبع الفكرة قبل أن يتبع الشخص، وأن يعرف خط القائد قبل شخصه، فإذا أردت اتباع قيادة فلا بد أن تعرف خطها أولاً.

جاء في الحديث طويل عن القرآن عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: **مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ** ^(١).

وكيف يمكن أن تجعل القرآن أمامك، من دون أن تختار قيادته حسب موازينه.

﴿فَمَنْ أَوْفَىٰ وُعدِهِ بِعِصِيَّتِهِ، فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ هؤلاء الذين اتبعوا القرآن يدعون بالقرآن، وبذلك الإمام الذي اتبعوه باسم القرآن وصاروا قرآنيين: أما وانهم صاروا قرآنيين، فإن الله يعطيهم حقهم غير منقوص، دون أن يظلمهم فتيلًا، والفتيل هو الخيط الدقيق في شق نواة التمرة، ولعل نهاية الآية تدل على أن الوهم الذي يشهه الشيطان في روح اتباعه بأن عمل الخير لا جزاء له باطل.

وليس معنى هذه الآية أن الله يظلم من لا يؤتى كتابه بيمينته، بل الله عادل ولو يؤاخذ الناس بعدله لما نجى أحد من البشر، ولكن الله سبحانه لا يتعامل مع الناس إلا بفضله، وقد ورد في الدعاء: **اللَّهُمَّ إِنْ تَشَأْ تَغْفُ عَنَّا بِفَضْلِكَ، وَإِنْ تَشَأْ تُعَذِّبُنَا بِعَذْلِكَ فَسَهِّلْ لَنَا عَفْوَكَ بِمَنِّكَ، وَأَجِرْنَا مِنْ عَذَابِكَ بِتَجَاوُزِكَ، فَإِنَّهُ لَا طَاقَةَ لَنَا بِعَذْلِكَ، وَلَا نَجَاةَ لِأَحَدٍ مِنَّا دُونَ عَفْوَكَ يَا غَنِيِّ الْأَغْنِيَاءِ** ^(٢) والله سبحانه لا يظلم الناس، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، فإذا عاقبهم الله

(١) الكافي: ج ٢ ص ٥٩٨.

(٢) الصحيفة السجادية: من دعائه عليه السلام في اللجأ إلى الله.

في الآخرة فإننا يعاملهم لقاء ظلمهم لأنفسهم.

[٧٢] ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ غير الله سبحانه مسار الحديث، فبدل أن يقول مثلاً: ﴿مَنْ أَوْقَى كِتَبَهُ بِشِمَالِهِ...﴾ [الحاقة: ٢٥]، قال: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى...﴾ ولو أنه قال مثل ذلك لما وضحت صفتهم الرئيسية، وعلى كل حال فإن هناك صفة مميزة جعلت بعض الناس أصحاب يمين والبعض الآخر أصحاب شمال، وإن ذكر هذه الصفة في أحدهما يعني وجود عكسها في الآخر، فصفاة أصحاب الشمال العمى، فإذا تكون صفاة أصحاب اليمين الأبصار، ولعل العمى في القرآن يرادف اللاوعي.

إن الوعي في الحياة الدنيا هو ضمان السلامة في الآخرة، لأن الوعي لا يعمل إلا وفق تقدير وحكمة، فلذلك تقل نسبة أخطائه ومعاصيه، ومن لا يمتلك وعياً في الحياة الدنيا يحجزه عن المعاصي فهو في الآخرة أعمى عن النظر إلى رحمة الله، وكلمة ﴿أَضَلُّ﴾ اسم تفضيل على وزن افعل أي أشد ضلالاً.

إن الله وفر الفرصة للإنسان للهداية، فإن هو لم يتقبلها، وكفر بالله، وتغافل عن دواعي الهداية في نفسه، فإنه لن يكون أقل عمياً في الآخرة عما هو عليه في الدنيا، بل هو أضل سبيلاً، ذلك لأن «الجزاء من جنس العمل» فمن أطفأ شعلة الهداية في نفسه، ولم يهتد إلى الصراط المستقيم، هكذا تكون عاقبته، وهكذا ينبغي أن يسعى البشر نحو الهداية في الدنيا حتى لا يحشر أعمى، ويبدو من الآية أن الشيطان يسعى من أجل حجب بصيرة البشر، وذلك بتضليله الذي عبرت عنه الآيات السابقة بـ ﴿وَأَسْتَفْرِزُّ مِنْ أَسْطَفَظَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]. وعلى الإنسان أن يتحداه ولا يخضع لغروره، وأن يسعى نحو أسباب الهداية، ويتجاوز العقبات التي وضعها إبليس في طريقه. ذلك لأنه مسؤول عن إبقاء بصره سليماً. ولا يجوز له أن يسمح لأحد أن يجعله أعمى.

الرسول يتحدى الضغوط

[٧٣] وكل إنسان مسؤول عن بصيرته ألا يحجبها الشيطان، وعن هداه ألا ينحرف عنه تحت وطأة الضغوط، وهكذا كان الرسول يتحدى الضغوط التي يمارسها اتباع الشيطان لتغيير الرسالة. والتعبير القرآني بليغ في بيان مدى كثافة الضغوط التي يتعرض لها صاحب الهداية، حتى أنها تكاد تؤثر في الرجل العظيم الذي يصفه الإمام علي عليه السلام بقوله: «صَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى الدَّلِيلِ إِلَيْكَ فِي اللَّيْلِ الْأَكْبَلِ، وَالنَّاسِكِ مِنْ أَسْبَابِكَ بِحَبْلِ الشَّرَفِ الْأَطْوَلِ، وَالنَّاصِحِ الْحَسَبِ فِي ذُرْوَةِ الْكَاهِلِ الْأَعْبَلِ، وَالثَّابِتِ الْقَدَمِ عَلَى زَحَالِفِهَا فِي الزَّمَنِ الْأَوَّلِ، وَعَلَى آلِهِ الْأَخْيَارِ»^(١).

(١) بحار الأنوار: ج ٨٤، ص ٣٣٩. من دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام.

يقول ربنا: وهو يشير إلى تلك الضغوط: ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ يسعى الكافرون والمشركون أن يفتنوا الرسول، ويبعدوه عما أوحى إليه بالتشكيك، أو بالإرهاب، أو بالضغوط الاجتماعية، والنفسية ﴿لِنَفْتَرِيَ عَلَيْكَ غَيَرَهُ﴾ ليس فقط يريدون أن يبعدوك عن رسالتك، بل يريدون أن تسخر هذه الرسالة لصالحهم، لأنهم يفكرون لو أنهم أبعادوك عن دينك، فإنه من الممكن أن ترجع إليه، ولكن عندما تفتري على رسالتك، وتكذب فيها أنتذ ستفهم هذه الرسالة بشكل مشوه، وبالتالي ستبتعد عن دينك، وهذا ما يفعله الكفار ومن شايعهم اليوم، حين يصيغ الإسلام كما يريد، ويحرفه عن مساره، يحوله إلى دين الطقوس والشكليات المجردة بعد أن يفرغه من جوهره، ويختار لذلك بعض أدعياء الدين.

﴿وَإِذَا لَأَتَّخِذُوكَ خَلِيلًا﴾ إذا كيفت رسالتك حسبها يريدون فأنت إذا مخلص لهم وما جزاء المخلص لهم إلا أن ترفع مرتبته عندهم، وهكذا يجب على الداعية أن لا يتنازل عن مبادئه في أي ظرف من الظروف، وأن يضحى من أجل أداء رسالات ربه.

[٧٤] ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ لولا اتصال الرسول بنبوع القوة، لكانت الضغوط تجبره على التنازل عن رسالته، وحاشا الرسول أن يتنازل عن مبادئه، وينقل الرواية إن سبب النزول هو: أن المشركين جاءوا إلى الرسول وقالوا له: «كف عن شتم آلهتنا، وتسفيه أحلامنا»، واطرد هؤلاء العبيد والسقاط الذين راثحتهم الصنان (الصنان: تنن الإبط) حتى نجالسك ونسمع منك، فطمع الرسول في إسلامهم، فنزلت هذه الآية، وجاء في حديث العياش عن الإمام الصادق عليه السلام «انه سئل عن هذه الآية فقال: لما كان يوم الفتح أخرج رسول الله ﷺ أصناما من المسجد وكان منها صنم على المروة، وطلبت إليه قريش أن يتركه وكان مسخا، فلم يتركه، ثم أمر بكسره فنزلت الآية»^(١).

ولعل الآية توحى بأن الداعية قد يهيم لتغيير بعض بنود رسالته طمعا في إدخال الناس في الدين وهذا بدوره خطأ، وينبغي أن يتجنبه الداعية.

إن عصمة الرسول التي تدل عليها الآية (٧٤) بصراحة تشهد على أن الرسول لم يعزم أبدا على تقديم تنازل للمشركين، وروي عنه أنه عليه السلام قال بعد نزول الآيات «اللَّهُمَّ لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ أَبَدًا»^(٢).

[٧٥] ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي لأذقناك ضعف العذاب

(١) تفسير الصافي: ج ٣، ص ٢٠٨.

(٢) مجمع البيان: ج ٦ ص ٢٧٩، بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٢٠٤.

في الدنيا والآخرة، ونظرا لمقام الرسول وعظم مسؤولياته فإنه يحاسب بقدر تلك المسؤوليات فكلما ارتفعت مسؤولية الإنسان، كلما حوسب أكثر بعكس الذين لا يحملون مسؤولية كبيرة، لأن انحراف القيادة يعني انحراف قطاع كبير من الأمة.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ هذه الآية هي جواب على الآيات الأولى ﴿وَلَا تَكَادُوا لِيَفْتَنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَةً وَإِذَا لَا تَجِدُكَ خَلِيلًا﴾ أي لو انحرفت فقد تجد من ينصرك في الدنيا، ولكن من الذي ينصرك من عذاب الله.

[٧٦] ﴿وَلَا تَكَادُوا لِيَسْتَفْزِنُوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِخُرُوجِكَ مِنْهَا﴾ الإنسان الذي يحمل الرسالة لابد أن يضع في اعتباره أنه سوف يتعرض للضغوط الاجتماعية، والمادية، ومن ضمن هذه الضغوط (الإخراج والتهجير والمقاطعة الاجتماعية والإيذاء). ومن يقرأ ما عانى رسول الله من الإيذاء لا يمتلك دموعه، وخاصة عندما فقد عمه وزوجته في عام الأحزان، ولم يجد أحدا يمنع المشركين عن أذاه، فاشتد إيذاؤهم له، وتولى أبو لهب سيادة قريش، ويزداد أذى له وهو عمه وأقرب الناس إليه، وإذا كان عمه هكذا فكيف يكون المشركون؟!.

ثم بعدما ضاقت عليه الأرض بما رحبت هاجر إلى الطائف، ولقي من العنت مثلما لقي في مكة، فإذا بصبيانها يدمون رجلي الرسول بالحجارة، وعندما تأزمت الأمور أكثر بين الرسول وأهل مكة حاولوا إخراجهم، ومن ثم تأمروا على قتله، فهاجر إلى المدينة ليفتح بذلك صفحة جديدة أطلت على التاريخ ببوارق الأمل.

﴿لِيَسْتَفْزِنُوكَ﴾ أي يخرجوك وينفرونك، وهذه ثانية خطط إبليس وشياطينه حيث إنهم حين يفشلون في تغيير الرسالة لتوافق مصالحهم، ولا أقل لكي لا تضرها رغم إغرائهم لصاحب الرسول بأنهم سوف يدخلون في دينه لو فعل ذلك - أقول بعد فشلهم هذا يتوسلون بالإرهاب، ويحاولون طرد صاحب الرسالة - من أرضهم.

ونلاحظ أن القرآن أشار إلى هاتين الخطتين في الآية (٦٣) حيث قال: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَظَّتْ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ جَحِيلُكَ وَرَجَلُكَ﴾ وكأن السياق هنا يذكرنا بفشل إبليس مع نبينا، وأن علينا ألا ندعه ينجح معنا أيضا، أولسنا أتباع ذلك الرسول؟!.

﴿وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لن يستطيعوا أن يواجهوك بعدما يخرجوك. لعل الآية تشير إلى سنة إلهية، قضاها الرب لعباده: إن رسل الله، والذين هم يسرون على نهجهم، أوتاد الأرض، فمن دونهم تسيخ بأهلها، بهم يحفظ الله العصاة أن يدمرهم شر تدمير، فإذا طغى الناس وأخرجوا هؤلاء من بلادهم فإن العذاب يصب عليهم صبا. ولو لا

أن نبينا ﷺ اختار الهجرة إلى المدينة لكان أهل مكة يتعرضون لعذاب شديد، بل إنك ترى أنهم تعرضوا للقتل والأسر، وفتح بلدهم لأنهم هموا بإخراج الرسول.

[٧٧] ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ سنة الله لن

تتغير حتى يوم القيامة، فهذه من الحتميات الإلهية، والتحويل هو تحويل الشيء إلى غيره، وسنة الله المتمثلة بنصر الرسل، سنة أبدية محتومة، كما الظروف الطبيعية تحتمها، لأن الكفر يسير ضد التيار العام للطبيعة، بينما تنصّر رسالات الله، لأنها تتحرك باتجاه التيار الطبيعي للحياة، كما أنها تتوافق مع الفطرة.

الصلاة

[٧٨] كيف يقاوم المرء ضغوط الشيطان؟ يجب السياق القرآني عن هذا السؤال بعد

أن بين خطط إبليس في إغواء بني آدم، وسوقهم إلى النار ويتلخص الجواب في إقامة الصلوات المفروضة، والتهجد بالليل، والصدق في المدخل والمخرج، والتوكل على الله، والثقة بنصره، فهذه خمسة برامج يتحدى بها المؤمن مكر الشيطان وكيد.

[٧٨] ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ ذلوك الشمس أي زوالها، وسمى الذلوك ذلوكا،

لأن الإنسان يدرك عينه عنده لشدة شعاعها آنذا، وقال البعض إن الذلوك هو الميل، وسمى الزوال ذلوكا لأن الشمس تميل عنده إلى جهة المغرب، كما أن المغرب سمي به أيضا لأن الشمس تميل إلى الغروب.

﴿إِنِّي غَسَقٌ أَلِيلٍ﴾ غسق - دلجة، ظلمة - بمعنى واحد وهو شدة الظلام، وشموله،

ولعله يتم عند منتصف الليل.

﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قرآن الفجر هو صلاة الصبح،

وصلاة الصبح مشهودة من قبل ملائكة الليل وملائكة النهار، لذلك استحباب استحبابا مؤكدا صلاة الفجر في أول وقتها.

نلاحظ أن الله سبحانه حدد أوقات الصلاة بثلاث أوقات بدل أن تكون خمسة أوقات،

نظرا لتقارب وتداخل وقتي الظهر والعصر، والمغرب والعشاء.

[٧٩] ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ نافلة الليل هي الصلاة غير المكتوبة،

ولو كتب على المؤمن غير الفرائض الخمس لكان المكتوب صلاة الليل لما فيها من الثواب،

ومباهات الله ملائكته بمن يصليها.

التهجد: السهر لصلاة الليل، وأخذت الكلمة من الهجود وهو النوم، وكان التهجد يغالب نومه.

﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ هذه فائدة صلاة الليل والمقام المحمود للرسول الشفاعة، وللمؤمنين درجات الكمال، حيث جاءت الأحاديث تؤكد على صلاة الليل، وتوضح فوائدها، فهي تزيد في الرزق، وتزيد في العمر، وترفع عذاب القبر وهي نور في القبر، ونور يوم القيامة، وترفع اسم الإنسان، وتزيد في بهاء وجهه، وتزرع الخشية في قلبه، وتحببه إلى إخوانه وعشرات من الفوائد العظيمة.

شفاعة الرسول في أمته

في تفسير آية: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قال رجل الإمام الصادق عن قول الرسول ﷺ: «أَنَا سَبْدٌ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»، قال عليه السلام: «نَعَمْ يَا أَخْدُ حَلَقَةً بَابِ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُهَا، فَيَخِرُّ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: اللَّهُ اارْفَعْ رَأْسَكَ.. اشفع تُشفع.. اطلب تُعطَ فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ ثُمَّ يَخِرُّ سَاجِدًا، فَيَقُولُ اللَّهُ: اارْفَعْ رَأْسَكَ.. اشفع تُشفع.. اطلب تُعطَ، ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ فَيُشفعُ فَيُشفعُ، وَيَطْلُبُ فَيُعْطَى»^(١).

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام رواها عنه الإمام الكاظم عليه السلام: «يَقُومُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِقْدَارَ أَرْبَعِينَ عَامًا، وَيُؤَمَّرُ الشَّمْسُ فَيَرْكَبُ عَلَى رُؤُوسِ الْعِبَادِ، وَيُلْجِئُهُمُ الْعَرَقُ، وَيُؤَمَّرُ الْأَرْضُ لَا تَقْبَلُ مِنْ عَرَفِهِمْ شَيْئًا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَسْتَفْعُونَ مِنْهُ فَيَدُلُّهُمْ عَلَى نُوحٍ، وَيَدُلُّهُمْ نُوحٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَيَدُلُّهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَلَى مُوسَى، وَيَدُلُّهُمْ مُوسَى عَلَى عِيسَى وَيَدُلُّهُمْ عِيسَى فَيَقُولُ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ خَاتَمِ الْبَشَرِ».

فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ: أَنَا لَهَا فَيَنْطَلِقُ حَتَّى يَأْتِيَ بَابَ الْجَنَّةِ فَيَدُقُّ، فَيَقَالُ لَهُ: مَنْ هَذَا وَاللَّهِ أَعْلَمُ، فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقَالُ: افْتَحُوا لَهُ، فَإِذَا فُتِحَ الْبَابُ اسْتَقْبَلَ رَبَّهُ فَيَخِرُّ سَاجِدًا فَلَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى يُقَالَ لَهُ: تَكَلَّمْ وَسَلَّ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشفعُ فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ فَيَسْتَقْبِلُ رَبَّهُ فَيَخِرُّ سَاجِدًا فَيَقَالُ لَهُ مِثْلُهَا، فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيُشفعُ مَنْ قَدْ أُخْرِقَ بِالنَّارِ فَمَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ أَوْجَهَ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾^(٢).

(١) بحار الأنوار: ج ٨، ص ٤٨.

(٢) تفسير العياشي: ج ٢، ص ٣١٥، بحار الأنوار: ج ٨، ص ٤٨.

وبالرغم من أن الآيات تحاطب النبي ﷺ، وفسرت في أكثر النصوص الماثورة عن علماء المسلمين جميعاً بالشفاعة التي خص بها الرب حبيبه محمداً ﷺ - بالرغم من ذلك - إلا أن القرآن نزل على لغة «يَا أَيُّهَاكَ أَغْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةٌ»^(١) حسب النصوص الماثورة.

وهكذا نعرف أن نافلة الليل هي معراج المؤمن إلى الكمال، إنها تطهر القلب عن عقده وأحقاده، واهتماماته بصغائر الأمور، وتوسع الصدر لاستقبال المسؤوليات العظام، وتشحذ العزيمة لتحدي العقبات، وتنهض الإرادة الحاملة، وتعطي النفس قوة دفع ذاتية، وكل ذلك بفضل القرب إلى الرب، ولعل كلمة ﴿عَسَى﴾ في هذه الآية كما لفظة لعل في آيات أخرى تذكرنا بأن هذه الحقائق ليست مثل الحقائق الفيزيائية التي تقضي بحتمية النتائج بعد الأسباب، بل إنها حقائق فوق مادية تتبع مشيئة الله، والله سبحانه لا يتقبل العمل إلا بالتقوى والإخلاص، وهو ينظر إلى روح العمل قبل مظهره، فعل الإنسان أن يستمر في الاجتهاد، ويرجو رحمة الله، فعسى أن يبلغه الله النتائج وبذلك يحرض القرآن المؤمنين على المزيد من العمل والمزيد من التضرع إلى الله ليبلغوا المقام المحمود بفضله.

نصرة الله

[٨٠] ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ الالتزام بالصدق في المواقف، في كل مدخل ومخرج منها هو أهم واجبات الرسول والرسالي، ولأن الإنسان يحتمل أن يدخل فيها بكرهه الله، أو يخرج عما يحبه الله، فهو بحاجة إلى حاجز يمنعه عن الانحراف، وهذا الحاجز إنما هو من عند الله سبحانه، والمراد من هذه الآية: يا رب ادخلني في الأمور إدخالا صادقا، وأخرجني منها إخراجا صادقا.

﴿وَأَجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾ إذا التزم الإنسان بالواجبات الشرعية، وجسد الشخصية القرآنية آنئذ يصبح تحت ظلال رحمة الله في الأرض، فيصبح سلطانا من قبل الله، بالطبع ليس سلطانا ماديا، بل سلطانا ريانيا رحانيا، ويبعث الله من ينصره من المؤمنين والملائكة. إذا أردت أن تكون قائدا اصلح نفسك وكن مع الله، لأنه من كان مع الله كان الله معه.

جاء في وصية الإمام الحسن عليه السلام لجنادة بن أبي أمية: «...وَإِذَا أَرَدْتَ عِزًّا بِلَا عَشِيْرَةٍ وَهَيْئَةً بِلَا سُلْطٰنٍ فَاخْرُجْ مِنْ ذٰلِكَ مَعْصِيَةِ اللهِ إِلَى عِزِّ طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢).

(١) الكافي: ج ٢، ص ٦٣٠.

(٢) مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ٢٥٨.

ولو عمل المسلمون بهذه الآية الكريمة لأغتهم عما في أيدي أعدائهم، وهيات لهم استقلالاً اقتصادياً، وثقافياً، وسياسياً، كيف؟.

لقد أودع الله في الإنسان معادن لا تنفذ ولا تحدد، وسخر له الطبيعة بما أعطاه من علم وإرادة وقوة. ومن أعظم المواهب التي أتاها الرب للخلق الطموح، فكل واحد يتطلع إلى العظمة، ويحب الكمال وهذا التطلع هو جناح المرء في تحليقه في فضاء التقدم. إلا أن الشيطان يغويه، ويوجه طموحه في الاتجاه الخاطئ، إنه يلوي مقود سيارته عن الشارع المعبد الذي يمهد الجهد الصادق باتجاه الصخور الوعرة، ويهمس في أذنه هذا هو طريق المجد، الكذب، الغش، السرقة، وانتهاك ثروات الآخرين، واستغلالهم، أو استجداء العون منهم، وهكذا يخدعه مرتين حين يسلب عنه عزيمته، وحين يخيل إليه أن الآخرين ينفعونه.

أما المؤمن فإنه يعلم أن قوة ساعده، ونفاذ بصيرته، ومضاء عزمه كل أولئك كفيل بتقدمه، وإن رزقه موجود في الطبيعة، في الأرض التي يزرعها، في المعادن التي يستخرجها ويسخرها، وبالتالي في التعامل الشريف مع الناس.

وهكذا يبني بناءه على الصدق، فإن دخل في عمل، في مشروع، في حركة، في شركة، دخل بنية صادقة لم يدخل ليستغل جهد الآخرين، ولا ليستريح من بذل الجهد، ثم لا يخرج إلا بصدق فيكمل مسيرته حتى النهاية، ويتم عمله بأحسن وجه دون أن يخدعه الشيطان، فيدفعه لترك العمل. متى ما رأى فيه صعوبة.

ولعل صدق العمل في المدخل والمخرج هو التحدي المناسب لخطة إبليس في مشاركة الأموال والأولاد، حيث قال الله سبحانه في آية مضت بينت مكر إبليس في تضليل البشر قال: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

إذ أن صدق المؤمن لا يدع مجالاً لمشاركة إبليس الذي يهدف لإفساد الاقتصاد والتربية، وكيف يفسد اقتصاد قوم لا يأكلون الحرام، ولا يسرقون جهد بعضهم، ولا يتعاملون بغش، أو تطفيف، أو تغرير، أو كذب!.

ونستوحي من تواصل بداية الآية وخاتمها أن الصدق في الدخول والخروج وسيلة لنزول نصر الله، وبلوغ القوة (السلطان) والعزة (النصر).

والصدق في البداية هو خلوص العمل، بينما الدعاء في الخاتمة هو التوكل وهما العمل الصادق والتوكل على الله يتكاملان فلا توكل من دون عمل، ولا ينفع العمل من دون التوكل.

[٨١] ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ سبب ارتفاع الباطل هو خفوت نور الحق وتفرقه، متى ما وجد الحق غاب الباطل.

وهذه الآية تعطي الثقة بالمستقبل ولعلها تعالج غرور الشيطان الذي أشير إليه، وقول ربنا سبحانه: ﴿وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

فبينما الشيطان يخدع الإنسان، ويمنيه بالمستقبل كذبا، فإن الله سبحانه يعده صادقا، إذ أنه يبشره بأن العقابة للمتقين، وأن الحق متصّر وأن الباطل كان زهوقا.

وهكذا يقاوم المؤمن كل مكر شيطاني بخطة رشيدة، وعمل مبارك:

- ١ - يتحدى صوته المضلل ببصائر الوحي.
 - ٢ - خيله ورجله وبالتالي إرهابه بالصلاة والتهجد.
 - ٣ - مشاركته في الأموال والأولاد بالتصدق والتوكل.
 - ٤ - وعوده وغروره بالثقة بوعد الله والأمل في المستقبل.
- أعاذنا الله من شر الشيطان وكيد ومكره.

القرآن بلسم الحياة وشفاء الإنسان

﴿ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ٨٢ ﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بَعَائِدَهُ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَفُوسًا ٨٣ قُلْ كُلُّ بِعْدٍ عَلَى شَاكِلِيهِ. فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ٨٤ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ٨٥ وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَنَنْدَهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ٨٦ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ٨٧ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ٨٨ ^(١) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ٨٩ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ٩١ أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا ^(٢) أَوْ تَأْتِيَ بَالَهُ وَالْمُتَلَبِّكَةُ قَبِيلًا ^(٣) ٩٢ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه قُلْ مَسْبُحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ٩٣ ﴾

(١) ظهيرا: الظهير المعين وأصله من الظهر.

(٢) كسفا: وهي جمع كسفة بمعنى القطعة.

(٣) قبيلًا: مقابلة وعيانًا.

هدى من الآيات:

يبدو أن آيات هذا الدرس تتركز في بيان الموضوع الرئيسي لسورة الإسراء، وهو الوحي، وتعالج الموقف السلبي الذي اتخذته الكفار من القرآن.

كلما نزلت آية من القرآن كانت شفاءً عن داء، ورحمة للمؤمنين، بينما الظالمون لا تزيدهم إلا خساراً. لماذا؟.

لأن الإنسان يتكل على النعم، ويغتر بها، فإذا أنعم الله عليه بنعمة أعرض عن ربه واستكبر، فلما زالت النعمة عنه استبد به اليأس، ولعل هذا أعظم سبب للجحود والكفر بالقرآن، كما يظهر من خاتمة هذا الدرس.

وكل إنسان يعمل حسب ما بنيت شخصيته عليه، والله أعلم بمن هو أهدى سبيل، ولعل هذا هو السبب الثاني الذي يجعل الكفار يخسرون نعمة القرآن، ولا يستفيدون منه، لا شفاء ولا رحمة.

والوحي نعمة من الله وليس من الرسول نفسه ولو شاء الله لذهب به دون أن يقدر أحد على المطالبة به، وأنه لرحمة من الله، وفضل عظيم، ولعل زعمهم بأن الوحي من الرسول سبب ثالث لكفرهم وهو معجز لأنه لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يقدرّون على ذلك حتى ولو تعاون بعضهم مع البعض الآخر.

وهو يحتوي على أمثلة الحياة التي لو ساروا عليها لاهتدوا ولكن أكثر الناس يكفرون بهذه النعمة، وتراهم يطالبون الرسول بأن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً حتى يؤمنوا به، أو تكون له جنة من نخيل وعنب فيفجر الأنهار خلالها تَفْجيراً.

وقد يطالبونه بالعذاب كأن يسقط السماء عليهم كسفاً، أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً، أو يقولون له لو كان لك بيت من زخرف، أو رقيت إلى السماء، وأنزلت معك كتاباً نقرؤه لأمنّا بك وهم يغفلون عن حقيقة هامة هي أن الرسول بشر مثلهم يوحى إليه، وأن القرآن ليس منه إنما هو من الله سبحانه.

بينات من الآيات:

شفاء القرآن

[٨٢] القرآن شفاء ورحمة، شفاء يطهر القلب والبدن والمجتمع من الجراثيم، ورحمة تنمي فيها الخير والفضيلة.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ كل القرآن شفاء الأمراض، وبعض القرآن شفاء لذلك المرض الذي جاء من أجل شفائه، ولأن القرآن نزل حسب الظروف تنزيلاً فقد كانت آياته شفاء للأمراض التي نزلت لعلاجها، ولعل كلمة ﴿مِنَ﴾ تدل على ذلك.

والسؤال هنا هو: كيف يكون القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين؟

اختلف المفسرون حول معنى الشفاء وإبعاده، ولكن الشفاء المقصود به هنا هو: شفاء عام لكل جوانب الحياة.

القرآن شفاء القلب والمجتمع والبدن

أولاً: بين الإنسان ومعرفة الحقائق حجب متراكمة من ضغوط الشهوة، وعقد النفس، وقيود المجتمع، وتخلص الإنسان من هذه الحجب لا يكون إلا بإثارة دفائن عقله، وهزة ضميره، والقرآن يقوم بهذا الدور، إذ أنه كالصاعق الكهربائي الذي يهز ضمير الإنسان ووجدانه من الصميم، فيتحرك العقل من الداخل ليخترق حجب الجهل والضلال، والغرور هو أعظم حاجز بين الإنسان والحقيقة، لذلك تصب هذه الآيات حمم الإنذار من خلال تصوير مشاهد يوم القيامة، وهلاك السابقين، ليقطع الاسترسال في الغفلة وأحلام اليقظة، وفي هذا السبيل يضع شرائع مفصلة لتنمية المواهب الخيرة في القلب بعد تطهيره من أمراض الاستكبار، والحسد، والحقد، والعجب، والغرور و.. و..

إذ القرآن يعالج تفكير الإنسان لئلا يقع في الأخطاء المنهجية لفهم الحقائق، وذلك عبر تقديمه للمنهج الصحيح.

ثانياً: والقرآن الحكيم شفاء للأمراض الاجتماعية حيث يعطينا برنامجاً في الاقتصاد، والسياسة والتربية، والأسرة لنحل به جميع المشاكل، ولا يدع شاردة أو واردة بلا حكم واضح.

ثالثاً: ويقدم القرآن لنا نصائح توجيهية للحفاظ على الجسد، فهو يؤكد على ضرورة الطهارة والنظافة، وضرورة العمل، ورفع الكسل والتواني، وينظم للإنسان حياته الاجتماعية، والاقتصادية، وغيرها ليجنبه الأمراض الروحية والجسدية.

ونحن عند أصابتنا بأي مرض في أي مجال نحتاج إلى التسلح بالإرادة والحيوية، وحينما نخلص نيتك لله، فإنه سيعمن عليك بشفائه من حيث تعرف أو لا تعرف.

وهكذا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّمَا الشِّفَاءُ فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ»

لقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ﴿لِأَهْلِهَا لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ وَ أَهْلُهُ الْأَيْمَةُ الْهُدَى الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴿[فاطر: ٣٢]﴾^(١).

وجاء في حديث آخر، مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام: «مَا اشْتَكَى أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ شِكَايَةً قَطُّ، فَقَالَ: يَا خَلَّاصَ نَبِيِّ وَمَسَحَ مَوْضِعَ الْعِلَّةِ، وَيَقُولُ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿إِلَّا عُوفِيَ مِنْ تِلْكَ الْعِلَّةِ، آيَةٌ عَلَيْهِ كَانَتْ، وَمُضْدَاقُ ذَلِكَ فِي الْآيَةِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿^(٢).

السعادة وأبعادها

للسعادة جزءان الأول: (رفع النعمة) وهو الشفاء و(جلب النعمة) وهو الرحمة، ويعني الأول رفع الألم والفقر والمرض، ومنع حدوث الفتن والحروب وما شابه.

أما الجزء الثاني للسعادة فهو: السكينة والاطمئنان ببلوغ الإنسان غاياته. وهكذا كان القرآن شفاء ورحمة.

﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ إن في القرآن منهاجك الذي يصل بك إلى أهدافك، ولكن لا يستفيد من هذا المنهج إلا المؤمنون الذين يطبقون القرآن بوعي واستقامة وإخلاص، أما الظالمون الذين يغيرون معاني آيات القرآن حسب مصالحهم فإن القرآن سيكون لهم شقاء في الدنيا، وخسارة في الآخرة، فهو لا يدع مناسبة إلا ذم فيها هؤلاء الظالمين بانهي الحق، وعبد الشيطان والهوى، ونساءل: لماذا خصت الآية الظالمين بالذكر والجواب:

أولاً: إن الظلم ظلام القلب، وحجاب وظلمات يوم القيامة.

ثانياً: لأن الظالم يفسق عن حدود الله، ويعبد شهواته فإنه يفسر آيات القرآن حسب أهوائه، وبدل أن تدله آيات الذكر على صراط الجنة تهديه إلى سواء الجحيم، لأنه هو الذي حرفها، وغير معانيها ويكون مثله كمثل الذي يغير علامات الطريق، فتضله عن الجادة، ولو لم يشع هواه إذا لاهتدى إلى الجادة.

[٨٣] كيف لا يتنفع الظالمون من القرآن إلا خساراً؟.

يبدو أن السياق يحيب عن ذلك في الآيتين التاليتين، حيث أن الآية الأولى تبين طبيعة

(١) بحار الأنوار: ج ٢٤، ص ١١٢، تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٦٣.

(٢) بحار الأنوار: ج ٩٢، ص ٥٤.

الإنسان والتي لا تقضي استقبال النعم، والانتفاع بها أما الآية الثانية فتوضح اثر العادة في سلوك البشر وحيث أن ما تعود عليه الظالمون وهم سائر الناس غير المؤمنين من الذين انزل عليهم القرآن فلم يستجيبوا له أقول: إن سائر الناس قد جبلوا على الأعراض عند النعم، كما إنهم يعملون على الشاكلة التي ساروا عليها سابقا، فلا يتركونها بسهولة إلى القرآن، بلى المؤمنون وحدهم يتجاوزون هذه الحالة، ويرتفعون إلى مستوى الإيمان.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِجَانِبِهِ﴾ قالوا: بأن معنى الآية إنه يعرض عن ذكر ربه عند النعمة، ويبتطرب بها ويتولى، فالآية حسب قولهم نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

ولعل الأقرب إلى السياق أن نقول: إن هذه الآية تبين صفة أخرى للإنسان وهي الاستهانة بالنعم، وعدم الاستفادة منها، وعدم تقديرها حق قدرها، والأعراض هنا عن النعم ذاتها وليس عن الله، بلى إن الأعراض عن الله وعن نعمه ينبع من صفة واحدة، ذلك لأن من يعرض عن ربه ولا يشكر نعمه، ويزعم إنها أوتي النعم بعلمه وجهوده، بل يرى أن النعم جزء من ذاته، وأن له طبيعة مميزة عن غيره بدليل إنه خص دون غيره بالنعم فعنصره أفضل من سائر الناس.

أقول: إن مثل هذا الفرد يستهين أيضا بالنعم ويعرض عنها، وبالتالي فإن هاتين الصفتين تنتهيان إلى طبيعة واحدة.

ولأن الإنسان يعرض عن النعمة، ويتعالى عليها، ويتولى بركته، وينأى بجانبه، فإنه لا ينتفع بالقرآن الحكيم، ولا يكون القرآن بالنسبة إليه شفاء، وهذا أكبر ظلم ذاتي أن يترك المرء الاستفادة من أكبر النعم استهانة بها.

بلى يبذل المؤمن جهدا كبيرا حتى يستفيد من نعمة الوحي، لأنه يتواضع له، ويسمع ويطيع ويقنت لله بخضوعه لكتابه، فيكون الكتاب شفاء له، وهكذا سائر النعم في الحياة.

أوليس العلم نعمة، ولكن من الذي ينتفع به، هل الذي يستهين به أو يتعالى عليه أم الذي يقدره ويكرم مقامه. وحتى الثمرة الناضجة لا ينتفع بها إلا من يقطفها وينظفها ثم يطعمها، أما من يتولى عنها فهل يستفيد منها؟!.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ لأن الإنسان يرى النعم من ذاته فإنه يرى استمرارها، فيتكل عليها، فإذا زالت تصيبه الصدمة وينهار لأنه قد سقط متكأه ومعتمده، وهكذا يستبد به اليأس.

أما المؤمن فيشافيه الله بالقرآن الذي يكمل هذا النقص من طبيعة الإنسان، ويجعله يعتمد على الله، ويلهمه الصبر والأمل.

الشخصية ونهج العمل

[٨٤] ويختلف الناس في مدى انتفاعهم بالوحي، وينبع الاختلاف من شخصياتهم الداخلية، التي تكونت بالصفات والعادات المتبانية.

وبالرغم من أن الله قد وهب للإنسان من القدرة والمعرفة ما يمكنه من صياغة شخصيته حسب ما يشاء، إلا أنه لو لم يفعل ذلك فسوف يقاد بلجام شخصيته، وستكون أعماله في تجاه شخصيته، حتى مواقفه من المعارف الإلهية سوف تتأثر بنوع شخصيته، وصفاته، وعاداته وملكاته.

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ الشاكلة مشتقة من كلمة (الشكل). ويبدو أن المعنى المناسب لهذه الكلمة بالنظر إلى أصل معناها اللغوي وسياق ذكرها هنا هو الطريقة والمذهب، أو الطبيعة أو السجية، وبتعبير آخر الملامح والصفات الباطنة للإنسان التي تتحكم في سلوكه وما ينتج عنه من أفعال ومواقف وأقوال، فيكون معنى الآية كل شخص يعمل حسب طريقته وطبيعته، وبالتالي فإن مظهر عمله ينبى عن غبر ضميره ونيته، وهكذا تكون أعمال الناس تعبيرا عن طرائقهم، ومذاهبهم، وطبائعهم، وعاداتهم، وعلينا أن نكتشف من خلالها نياتهم، ونصبغ أعمالهم بها.

من هنا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «وَالنِّيَّةُ أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِ، أَلَا وَإِنَّ النِّيَّةَ هِيَ الْعَمَلُ، ثُمَّ ثَلَا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ يَعْنِي عَلَى نِيَّتِهِ»^(١).

وقد تكون الأعمال متشابهة إلا أن اختلاف النيات، وشخصيات العاملين، وأهداف العمل يجعلها متناقضة، فالصلاة والصيام والحج قد يقوم بها المخلص فتكون معراجا وجنة وجهادا أكبر، وقد يقوم بها المرائي فتكون وبالا على صاحبها.

والله سبحانه وتعالى هو الحكم الذي يقضي بسلامة النية أو الغل فيها.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ وإذا كنت تحب عملا، أو تهوى طريقة أو تعودت على سلوك ومذهب فلا يعني أن كل ذلك حق، بل مقياس الحق والباطل هو الله الذي أوحى

(١) الكافي: ج ٢، ص ١٦.

بالكتاب ليكون فرقانا، ويهديننا إلى سبيل السلام، فلا ترك نفسك، ولا تجعلها مقياس الحق والباطل.

قل الروح من أمر ربي

[٨٥] من أنزل القرآن من عند الله على قلب الرسول؟ ومن يسدد الأنبياء ويؤيدهم بإذن الله؟

أوليس هو الروح الذي قال عنه ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴾ (١٣٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿ [الشعراء: ١٩٣].

فما هو الروح ومن أين يأتي ومن يسوقه؟

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ وهذا الروح ملك من ملائكة الله، مخلوق مدبر، وهو الذي ينزل في ليلة القدر حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿ نَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر: ٥]. وهو الذي يسدد الله به الأنبياء وهو أعظم من جبرئيل وميكائيل، وكذلك جاء في الأحاديث وأضاف بعضها: «لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ وَجْهِ لِكُلِّ وَجْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ لِسَانٍ يُسَبِّحُ اللَّهَ بِحَمْدِهِ ذَلِكَ»^(١).

ويرى بعض المفسرين: أن الروح هنا هو روح الإنسان، والكائنات الحية، بيد أن سياق الآية يدل إلى أن المراد منه هو روح القدس، أوليس الحديث لا يزال عن القرآن وهو الذي نزل به الروح الأمين، بلى لا يمكننا أن نقول روح الإنسان، وجميع الإحياء بل حتى أرواح الملائكة تقتبس الحياة من ذلك الروح، والروح واسطة بين الإنسان والحياة، وهناك العقل هو ظل من ظلال الروح، والعلم الإنساني جزء من علم الروح، ذلك الملك العظيم، وهكذا اختلفت الأحاديث المأثورة عن مصادر الوحي في معنى الروح هنا، فبينما نجد بعضها يؤكد على أنه الملك العظيم، يقول: بعضها بأنه روح الإنسان، والواقع أنها معا من مشكاة واحد، تعال نقرأ معا بعض تلك النصوص:

١- يروي حمران عن أبي جعفر (الباقر) وأبي عبد الله (الصادق) عليهما السلام بعد السؤال عن قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾. قَالَا: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَحَدٌ صَمَدٌ، وَالصَّمَدُ الشَّيْءُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ جَوْفٌ، وَإِنَّمَا الرُّوحُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ لَهُ بَصَرٌ وَقُوَّةٌ وَتَأْيِيدٌ يَجْعَلُهُ فِي قُلُوبِ الرُّسُلِ وَالْمُؤْمِنِينَ»^(٢).

(١) بحار الأنوار: ج ٥٦، ص ٢٢٢.

(٢) تفسير العياشي: ج ٢، ص ٣١٦.

٢- وروى أبو بصير عن أحدهما (الباقر أو الصادق عليه السلام) قال: سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ قَالَ: «الَّتِي فِي الدَّوَابِّ وَالنَّاسِ، قُلْتُ: وَمَا هِيَ -الروح-؟ قَالَ عليه السلام: «هِيَ مِنَ الْمَلَكُوتِ مِنَ الْقُدْرَةِ»^(١).

٣- وروى أبو بصير ايضاً قال: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ قَالَ عليه السلام: «خَلَقَ أَكْثَرُ مِنْ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم، وَهُوَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ وَهُوَ مِنَ الْمَلَكُوتِ»^(٢).

وهكذا نجد الروح من الملكوت، سواء الذي يؤيد الله به الرسول أو الذي يحيي به الله البشر والاحياء، إلا أن الله يعطي منه لمن يشاء كيف يشاء بقدر ما يشاء، وهو اعلم بحقيقته لذلك قال ربنا: ﴿وَمَا أُوْنِشِرْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾.

[٨٦] ﴿وَلَيْنَ شَيْئًا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا وَكِيلًا﴾
إن القرآن ليس من صنع الرسول ولا غيره من البشر، إنما أوحى إليه عن طريق الروح، والدليل على ذلك: إن باستطاعة ربنا سبحانه أخذ هذا الرُوح من نبيه، ولا يستطيع النبي أن يفعل شيئاً، وهذا دليل على قدرة الله.

[٨٧] ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَكَبِيرًا﴾ ومن رحمة الله بعباده تنزيله الوحي عبر الروح على رسوله، وهذه هي أكبر النعم على أمة الرسول حيث يتبعون منهاجه ويستضيئون بقبسات هديه، والعقل والعلم ظلال لتلك الروح ومثل هذه الروح لا تقهر، ومثل هذا القرآن لا يهزم.

القرآن يتحدى

[٨٨] ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ لو قام جميع سكان المعمورة بالاجتماع من أجل صنع آية كآيات القرآن لما استطاعوا ذلك، والقصص التاريخية كثيرة في هذا المجال، فذات مرة اجتمع ثلاثة من كبار بلغاء العرب وزنادقتهم وفيهم ابن أبي العوجاء الملحد المعروف، وقرروا في اجتماعهم تأليف آيات يضاهون بها القرآن، وطال بحثهم لمدة سنة كاملة فما رجعوا إلا بالخيبة والخسران^(٣)، وهاهو القرآن بعد أكثر من أربعة عشر قرناً عام يتحدى الغرب والشرق، فهل

(١) بحار الأنوار: ج ٥٨، ص ٤٢، تفسير العياشي: ج ٢، ص ٣١٧.

(٢) الكافي: ج ١، ص ٢٧٣، تفسير العياشي: ج ٢، ص ٣١٧.

(٣) راجع الخرائج والجرائح لقطب الدين الراوندي، ج ٢، ص ٧١٠.

من منافس؟! كلا.

[٨٩] ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ومن معاجز القرآن إنه يحدثنا عن كل شيء، ويضرب لنا الأمثلة في كل ناحية، لذلك كان القرآن واقعي التشريع، صحيح المنهج، فواضعه علام الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية في السماوات والأرض.

﴿فَأَيُّ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ فبدل شكر النعم تراهم يكفرون بها، لماذا؟.

لأن منطلق الناس في تقييم القرآن هو منطلق مادي بحت، وهم يظنون أن القرآن يجب أن يوزن بمقدار الذهب، ومكاييل الفضة، ومساحات العقار، وهذا هو نمط تفكيرهم المنحرف.

حوار العاجزين

[٩٠] ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ يبدأ المعارضون في طرح أفكارهم التبريرية، وشروطهم التعجيزية في محاولة يائسة للتوصل من مسؤوليات الإيمان بالرسالة، فبدل أن يسألوا عن تطلعات الرسالة، وبرامجها في الحياة يطلبون من الرسول أن يفجر لهم ينبوعا من الماء، وما قيمة ينبوع أمام منهج الحياة، وتنظيم السلوك والمجتمع؟.

[٩١] ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ وهنا تتجلى بوضوح مادية النمط التفكيرى للكفار، فهم يطلبون بالماء والنخيل والجنان والأنهار لتكون شواهد على صدق الرسالة، ولكن السؤال الذي يطرح على أمثال هؤلاء هو: ماذا يعني تفجر الينابيع بالنسبة للرسالة؟ وما علاقة مبدأ الرسالة وأحقيتها بهذه المطالب المادية؟ وهل تصلح هذه لكي تكون شواهد صدق على عصمة الرسالة وعظمتها؟.

[٩٢] ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ ويستمر السفه الفكري، والخواء الثقافي التابع من المنطلقات المادية للمجتمعات الكافرة، فهم تارة يطلبون ينابيع الماء، وفي أخرى يطلبون بالجنات والأنهار، ويبلغ بهم السفه حدا يطلبون بحضور الله وملائكته عندهم ليتأكدوا صدق الرسالة (!!) إنهم قوم لا يؤمنون إلا بالمحسوس، وأما غير ذلك فهم به كافرون، والقرآن يدعوهم لإثارة عقولهم، والتخلي عن هذه المنطلقات السخيفة في تقييم الأفكار وأبعاد الحياة.

[٩٣] ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذُرْهُهُ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه﴾ ومن مقومات الرسالة والرسول عند أمثال هؤلاء: امتلاك الوسائل

المعيشية كالبيت الجميل، والمكانة الاجتماعية الرفيعة، والكلمة النافذة، وأن يكون فوق البشر انطلاقاً من نظرتهم المادية القاصرة، وهم يطلبون صعود الرسول للسماء، وأخذ رسالة من الله مكتوبة في ورقة.

إن كل رسالة إن لم تكن مختومة بختم الواقع، ومدموغة بدمغة الحق الإلهي هي باطلة بلا جدال، وهذا هو المعيار الحق لتقييم الرسالات وليست تلك المنطلقات الهزيلة.

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ إن مشكلة الناس هي وقوفهم عند نقطة بشرية الرسول، واختلاط المقدمات بالنتائج في شكل غير صحيح في تقييمهم للرسالة مما يؤدي إلى نشوء معايير ومقاييس غير سليمة، فمصدر الرسالة هو الله وإليه المرجع والمصير، وما الرسول إلا بشير ونذير، يبلغ رسالات الله، وأمره ونواهيه، قد تم اختياره من البشر، ومن مجتمعه بالذات لا اعتبارات ذاتية واقعية، وأخرى نفسية، واجتماعية وغيرها مما لا يلم به إلا علم الله الواسع.

التكذيب أسبابه ونتائجه

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ ﴾ (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يمشونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿ ٩٥ ﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿ ٩٦ ﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُنَابًا وَيُكْفَأُ وَصْنًا مَّاؤُنُهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ ^(١) زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿ ٩٧ ﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا لَوْ كُنَّا عِظَمًا وَرُقْنًا لَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿ ٩٨ ﴾ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿ ٩٩ ﴾ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكُمْ خَشْيَةُ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ^(٢) ﴿ ١٠٠ ﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ يَسْعَ مَا يَنْتَظِرُ فَنَسِيَ بَقِيَّةَ إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿ ١٠١ ﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرَعَوْتُ مَشُورًا ^(٣) ﴿ ١٠٢ ﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿ ١٠٣ ﴾

(١) خبت: الحبو سكون النار عن الالتهاب.

(٢) قتورا: القتر التضييق وهي مبالغة في البخل.

(٣) مشورا: هالكا.

وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

هدى من الآيات:

ما الذي منع الناس عن الإيمان برسالات الله؟ يجب القرآن عن هذا السؤال ويعالجه.

أولاً: تساءلوا مستغربين ومنكرين ابعث الله بشراً رسولاً؟ وأجابهم الوحي بلى، أوليس النبي ينهي أن يكون من جنس من يرسل إليهم، فلو كان سكان الأرض ملائكة إذا كان رسولهم ملكاً مثلهم.

ثانياً: إن الله هو الذي يشهد على صدق الرسالة وكفى به شهيداً، وإن عليه الهدى، أما من يضلله فلن تجد لهم أولياء لأنهم سيحشرون على وجوههم عمياً، وصماً، وبكماً، وجزأؤهم جهنم لماذا؟ لأنهم كفروا بآيات الله، وأنكروا البعث والنشور.

نستوحي من السياق أن معالجة الكفر بالرسالات تكون بالتذكير بالجزاء الموفور الذي ينتظر الكفار في يوم القيامة وهكذا نجد القرآن يدفع هنا شبهة الكفار حول البعث، ويتساءل أوليس خالق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم؟

وبعد أن يبين طبيعة الشك عند الإنسان (ولعلها سبب من أسباب الكفر بالرسالات) يبين قصة موسى عليه السلام كيف واجه فرعون الذي قال: إني لأظنك يا موسى مسحوراً، فأجابه إن الوحي بصائر، وقال له: ﴿وَأِنِّي لَأَظُنُّكَ يَكْفُرَعُونَ مَثْبُورًا﴾ [الاسراء: ١٠٢] ولخصت هذه القصة كثيراً من حقائق سورة الإسراء حيث أراد فرعون استغزاز موسى وقومه فأغرقه الله ومن معه جميعاً، وأورث بني إسرائيل أرضهم إلى أجل محدود.

بينات من الآيات:

[٩٤] من أهم الموانع التي تصد طائفة كبيرة من الناس عن الإيمان بالرسالات شبهة عميقة الجذور تقول: لماذا الرسل بشر، ولعلها تعود إلى إحساسين شاذين:

ألف: استصغار الإنسان نفسه مقارنة مع ما في عالم الطبيعة من عجائب خلق الله، ولذلك يزعم أن الله سبحانه وتعالى أعظم من أن يتصل بالإنسان بصورة مباشرة أو يبعث من

(١) لفيفاً: اللفيف الجماعات، والمعنى قد لف بعضكم في بعض.

البشر رسولا ١.

باء: عدم معرفة الوسيلة التي يتم عبرها اتصال الله بأهل الأرض، فهل ينزل من السماء ملك إلى الأرض؟ من هو إذن؟ وكيف يكون؟.

وقبل كل شيء لابد أن نعرف:

إن التعجب نوع من الجهل وإنه سيكون حجابا بين المرء والحقيقة، وإن الكثير من الناس يكذبون بالحقائق لاستغرابهم منها، وعدم إحاطة علمهم بأبعادها، كما يقول ربنا ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩]. كذلك يؤكد ربنا بأن سنة الله قضت بأن يرسل الرسل من نفس جنس المرسل إليهم، ولو كان سكان الأرض ملائكة إذا لبعث منهم رسولا إليهم.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ إن الحجاب الذي حجب الناس عن الإيمان برسالات الله هو عدم تصديقهم بهذه الحقيقة: إن يبعث الله بشرا رسولا، وكان الرسالة مرتبة عالية لا يمكن إن يصل إليها بشر أو كان اتصال الغيب بالشهود محال.

[٩٥] ﴿قَدْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَشْهَدُونَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ لو كان سكان الأرض ملائكة لبعثنا إليهم رسولا منهم ومن جنسهم، وهكذا فإن الرسول، أي رسول هو من نفس القوم الذي بعث إليهم قال ربنا سبحانه:

- ﴿رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]..

- ﴿بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّتِينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

- ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥، هود: ٥٠].

- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿٥٢﴾ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٤٢].

وهناك تفسير آخر لهذه الآية يقول: إن ربنا سبحانه وتعالى يذكر بأن من طبيعة الإنسان حاجته للتذكير، لأن مادته ترابية تجذبه نحو الشهوات، كما أن فيه ومضة روحية ترفعه نحو القيم لذلك فهو بحاجة إلى عامل خارجي يقوي شعوره بالومضة الروحية حتى يعلو، فكانت هذه حاجته إلى الرسالة: ولو خلق الله الملائكة كما خلق الإنسان من طبيعة ترابية تقوم بالفساد كما

قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]. إذا لبعث الله إليهم رسولا ملكا منهم، وهذا التفسير يتبناه العلامة الطباطبائي رحمته (١)، ويستدل على ذلك بكلمة ﴿يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾، دلالة على جاذبية الأرض للإنسان التي تسبغ على حركته فوق الأرض طمأنينة وتوازنا ولولاها لصعد في الهواء، أو لاضطرب في مشيه وحركته.

شهادة الله

[٩٦] ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاَللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ اِنَّهُ كَانَ يَعْبَادُوهُ خَيْرًا بَصِيرًا﴾
تلك كانت شبهات تحول بين تصديق الناس للرسالات، ولكن صدق الرسالات يتجلى عبر عدة مظاهر جعلها الله شواهد على صدق الرسالة، وكفى بالله شهيدا.

أولاً: لقد أودع الله في عقل الإنسان مجموعة قيم وتعاليم ترشده إلى الحق، والرسالات السماوية حين تأتي للبشرية تدعو الإنسان إلى ذات القيم والتعاليم وهكذا يطمئن الإنسان إلى صدق تعاليم الرسالة وقيمها، لانطباقها على القيم والتعاليم التي يحملها في نفسه، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً وَلِكُلِّ صَوَابٍ نُورًا» (٢).

وجاء في حديث الإمام الكاظم عليه السلام لهشام بن الحكم: «... يَا هِشَامُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ حُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ وَحُجَّةٌ بَاطِنَةٌ فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأَئِمَّةُ عليهم السلام وَأَمَّا الْبَاطِنَةُ فَالْعُقُولُ» (٣).

وهذه شهادة بأننا لو تجردنا من الضغوط والأهواء والعادات والأفكار المسبقة، لرأينا بوضوح انطباق تعاليم القرآن مع التعاليم التي تكنها عقولنا وفطرتنا.

ثانياً: رغم كل الصعوبات والعراقيل التي وضعها أعداء الرسالة ولا يزالون نجد أن الإسلام قد اجتاح الأرض كلها، ولولا تأييد الله سبحانه للمسلمين في حروب بدر وحنين والأحزاب وغيرها إذا لاندحر الإسلام والمسلمون منذ البداية. ومن ذلك نصره الله للمسلمين في معاركهم المفصلية مثل عين جالوت، ولولا ذلك لانطفأت شمعته الإسلام، ولولا تأييده للمؤمنين عبر التاريخ في مواجهة التحديات المصيرية لما انتعش الأمل بتحقيق وعد الله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ

(١) راجع تفسير الميزان: ج ١٣، ص ٢٠٨.

(٢) مستدرک الوسائل: ج ١٧، ص ٣٤٤.

(٣) بحار الأنوار: ج ١، ص ١٣٧.

الْمُشْرِكُونَ ﴿[التوبة: ٢٣]. واستمرار التأييد الغيبي لدينه دليل على صدق النبي وصدق رسالته، وما أكثر الشواهد الغيبية، والألطف الخفية والظاهرة التي أنعم الله بها على عباده المؤمنين في جهادهم.

ثالثاً: عظم درجة رسول الله ﷺ ومنزلته الخصيصة عند الله فقد جرب بعض أصحابه كيف كان يشفع لهم عند الله في تحقيق مسائلهم، فيستجيب الله لهم، بل لا تزال الشفاعة إلى يومنا هذا، فالله يستجيب لكل مؤمن إذا توسل إليه بجاه رسوله، وقد جاء في الحديث فيما روى الطبراني في الأوسط عن علي عليه السلام موقوفاً قال: «كُلُّ دُعَاءٍ تَحْجُبُ عَنِ السَّمَاءِ حَتَّى يُصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ»^(١).

وهناك الكثير من الشواهد التي يوجزها الله سبحانه بقوله: ﴿كَفَى بِلِلَّهِ شَهِيداً﴾. هذا وقد ذهب البعض في تفسيره لهذه الآية ﴿قُلْ كَفَى بِلِلَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بأنها قطع للجدل والصراع بين الرسول ﷺ وقومه حينما غضب عليهم لعنادهم، فقال: ﴿كَفَى بِلِلَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: ٤٣]. وهذا تفسير بعيد، بل هذه شهادة من الله على صدق الرسالة كما فعل الله لآبائنا السابقين عليه السلام، حيث حول نيران نمرود إلى برد وسلام على إبراهيم، وكانت حجة على صدق إبراهيم عليه السلام، وإغراق فرعون، ونصر موسى، وإحياء الموتى على يد عيسى عليه السلام وكثير من الحجج التي حدثنا عنها القرآن من هذا القبيل معاجز عاجلة أو آجلة تشهد.

على صدق الرسالات

[٩٧] ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ ثم يبين القرآن إن الله هو الهادي الذي يهدي العباد إلى الرسالة والإيمان بها، وسبق أن أوضحنا أن الهداية مرحلة متقدمة من التكامل البشري، لأن الإنسان لن يبلغ مرحلة الهداية إلا بعد رحلة شاقة، ولن يصل إليها الضال الذي حجبته المعاصي عن رؤية الحق وأولئك لا ينفعهم أحد من أوليائهم شيئاً.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عَمِيًَّا وَبِكَا وَصَمًّا﴾ لأنهم لم يستفيدوا من نعم الخواص والعقل، لذلك سوف يسلبهم الله تلك النعم يوم القيامة، وهذا جزاء من عطل وظيفة عينيه وأذنيه ولسانه.

(١) وسائل الشيعة: ج ٧، ص ٩٦.

﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ كلما ضعفت نار جهنم باعتبارها مادة، يزودها الله سبحانه بالوقود لتزداد سعيرا - والعياذ بالله - فالعذاب دائم والنار تتجدد، ولا منقذ لنا من عذابها سوى أخلاق الإيمان، ومحض الطاعة، وانتهاز الفرص واختلاس لحظات العمر، لنقضها في عبادة الله، وأمامنا فرصة عند كل منعطف في مسيرتنا. فرمضان ربيع المؤمنين، والحج معراج الصالحين، فيجب أن لا نفوت تلك الفرص، والحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «مَنْ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ إِلَى قَابِلٍ إِلَّا أَنْ يَشْهَدَ عَرَفَةَ»^(١).
فلننقذ أنفسنا من نار جهنم التي لا بد من ورودها كما قال: ﴿وَإِنْ يَنْكُرُهَا لَا وَارِدُهَا﴾
كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿[مريم: ٧١]. فمن استطاع إنقاذ نفسه، وتدرع ضد جهنم بلباس التقوى فقد فاز.

[٩٨] ﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِعَايِنِنَا﴾ فعذاب جهنم الدائم جزاء من يكفر بآيات الله، لا شفقة ولا عطف عليهم لأنهم كفروا، إن حجب العصبية وحب الذات واتباع الشهوات تغطي قلوبهم ومن دون التخويف الذي يوقظ القلب، وينشط فيه العقل والإرادة لا يمكن اختراق تلك الحجب المتراكمة، وأي تخويف أعمق أثرا من تخويفهم بعذاب جهنم، هكذا يعالج الكتاب أمراض القلب، ويوفر للإنسان أفضل فرصة للخلاص من حجب قلبه.

البعث من جديد

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ وكأننا هذا الإشكال سينقذهم! إن الله قادر على البعث، وسيرون العذاب بعد حين، وحالة الاستغراب والتعجب التي حالت بينهم وبين الإيمان بالآخرة لن تفيدهم.

[٩٩] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾

أو لا تكفي الطبيعة بكل روعتها وبهائتها وما بها من جبال، ووديان، وبحار، وأنهار، ومنظومات، ومجرات شهادة على قدرة الله سبحانه! وهل خالق كل هذا يعجزه خلق الإنسان من العدم، وما دام الفرد قد خلق لا من شيء فهل يعجزه أن يعيد خلقه مرة أخرى؟!.

﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ للإنسان أجل لا ريب في ذلك، وأموره جميعا بيد الله، بقاؤه، حياته، موته، وحياته من جديد وإذا أخر الله سبحانه عذابهم فإنها رحمة بهم، وتنفيذا لأجل مقدر سلفا، ولعلمهم يرجعون، ولكنهم بدل أن يشكروا نعمة الله ويتفعلوا بهذه الفرصة

(١) الكافي: ج ٤، ص ٦٦.

الأخيرة التي منحت لهم تراهم يكفرون بالله، ويكفرون بنعمة الأجل، بل يتخذون من تأخير الأجل دليلا على عدم العقاب، أفلس ذلك منتهى الكفران بالنعمة؟!.

بلى، والسؤال لماذا هذا الكفران؟.

الجواب: لأنهم ظلموا أنفسهم. وظلموا الناس، وتجاوزوا حقوق الله وحقوق الناس.

﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّوا﴾ كلما ازدادت الجرائم حجبت القلوب عن الإيمان فيكفرون، وهذه فكرة طالما تكررت في القرآن الكريم، وهناك تجربة شخصية يمكن لأي شخص أن يلاحظها في نفسه فعندما يدفع الشيطان الإنسان إلى ارتكاب معصية ما تجدد قلبه معرضا عن ذكر الله، وخلال صلاته يكون مشغول البال، أما حينما يكون القلب نظيفا فإنك تجدته متصلا بنور الله سبحانه حتى في غير الصلاة.

[١٠٠] ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ الحاجز الآخر الذي يحجز الإنسان عن الإيمان هو (البخل) فالإنسان مجبول على الشح سواء كان غنيا أو فقيرا، فلو كان يملك خزائن الله، وخزائن رحمته التي وسعت كل شيء لقبض يده خشية الإنفاق.

لقد تكررت في سورة الإسراء المباركة مثل هذه الآية التي تذكرنا بطبائع الإنسان كقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. وقوله ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]. وقوله: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِنِعْمَتِنَا وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [المعارج: ٢٠]. ولعل السبب يكمن في أن هذه السورة تبين فوائد الوحي ومن أعظم فوائده: شفاء البشر من طبائعه الضعيفة والمنحرفة، ومن هنا ذكرت السورة ببعض هذه الطبائع.

[١٠١] ﴿وَلَقَدْ مَآئِنَا مُوسَىٰ قِشْعَ مَا يَنْتَبِهُ قَسَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ لقد كذبوه لأنهم نظروا إليه بمثل نظرهم إلى نبيكم، فقد كان راعيا، ذا ملابس بسيطة وحين قال: إني رسول رب العالمين إليكم اتهمه فرعون بالجنون.

﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ يبدو أنه زعم أن موسى قد ابتلي بالسحر لأنه كان شائعا في مجتمعه، ولأن عواقب هذه الدعوة كانت تضر موسى، ولا يقدم على مثلها عاقل.

هكذا كان يزعم فرعون ذلك الجبار الكافر بجبار السماوات والأرض سبحانه.

والواقع أن تحدي أنبياء الله لسلطات عصرهم وفساد مجتمعهم كان عظيما وشاملا

وجذرياً، إلى درجة كانوا يتهمون بالجنون لولا أن كل تصرفاتهم وأقوالهم كانت تفيض بالحكمة والمعرفة، فلو لم يكونوا متصلين بالغيب، وواثقين من نصر الله لهم، ومخلصين لقضيتهم فهل كان تحديهم غير الجنون، إذا ذات التحدي كان أعظم شهادة على صدق رسالاتهم، ولعل القرآن ينقل لنا تهم الطغاة للأنبياء بالجنون لنعرف هذه الحقيقة.

ولم يكن موسى مسحوراً بل كان رسولاً، وعلامة رسالته تحديه لسلطة فرعون، وإرهابه وتضليله لذلك قال:

[١٠٢] ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرْعَوْتُ مُثْبُورًا ﴾ إنك هالك يا فرعون فأنت تعلم أن الحق معي، إلا أن فرعون ما كان يعلم عن نبوة موسى علم إيمان، وإنما كان يعلم علم حجة، بمعنى أن الحجة ثبتت عنده، ولكن لم يؤمن، وتلك الآيات العظام لا تجري على يد إنسان غير نبي لذلك قال ربنا: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ يا فرعون أن الآيات التسع وهي: خروج اليد بيضاء من غير سوء - والعصا - والسنون - ونقص الشمرات - والطوفان - والجراد - والقمل والضفادع - والدم إنما هي من عند الله ولم تجر على يد إنسان عادي.

وقرئ: (لقد علمت) بالضم يعني موسى هو الذي علم كما يؤيد ذلك حديث يروى عن الإمام علي عليه السلام يقول: فيها معناه: «كَلَّا لَمْ يَعْلَمْ فِرْعَوْنُ أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُوسَى بِتِلْكَ الرِّسَالَةِ، إِنَّمَا مُوسَى هُوَ الَّذِي عَلِمَ فَهُوَ وَاثِقٌ مِنْ أَمْرِهِ»^(١).

والقرآن جعل الكتب السماوية بصائر تساعد الناس على رؤية الحقائق، ولما كذب فرعون بتلك الحقائق كلها بصره موسى عليه السلام بخاتمته ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرْعَوْتُ مُثْبُورًا ﴾ ١.

[١٠٣] حينئذ ثارت ثائرة فرعون ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ حيث أراد أن يزعم موسى عليه السلام بطرده مع بني إسرائيل، ونفيهم من البلاد إلا أن الله سبحانه وتعالى وقف له بالمرصاد ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴾.

[١٠٤] وهذا أحد معاني شهادة الله على صدق رسالات الأنبياء، فقد أخذ الله سبحانه وتعالى فرعون وملاؤه، ونبذهم في اليم فابتلعهم الماء كما يتلع النهر الحصاة ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ إِنَّا جَعَلْنَا لَكَ فِي هَؤُلَاءِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

(١) ذكر الطوسي في التبيان بعد ذكر وجوه قراءة ﴿ عَلِمْتَ ﴾، أن علمت بضم التاء قراءة الكسائي رويت هذه القراءة عن أمير المؤمنين عليه السلام التبيان ج ٦، ص ٥٢٦. ونسب صاحب تفسير الصافي القول المذكور «كَلَّا لَمْ يَعْلَمْ فِرْعَوْنُ... إلخ» إلى صاحب مجمع البيان (تفسير الصافي ج ٣، ص ٢٢٥ الفيض الكاشاني).

إِسْرَؤِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿ قالوا في معنى اللفيف إنه بمعنى متلاحم بحيث يلف بعضه ببعض، فلا يميز البعض عن الآخر لشدة اندكاكهم ببعضهم.

وهكذا ذهب فرعون وبقي منه عبرة للعالمين!.

و بالحق أنزلناه وبالحق نزل

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٠٥﴾
 وَقَدْ آتَيْنَاكَ فُرْقَانًا لِنُقَرِّمَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ ^(١) وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ۝١٠٦ قُلْ
 ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ
 لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨
 وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝١٠٩ قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ
 أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِهَا يَسْمَعُ سَمْعًا وَلَا
 تَخَافُ مِنْهَا عِوَاءًا يَنْبَغُ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١١٠ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا
 وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرُهُ كَبِيرًا ۝١١١﴾

هـدى من الآيات:

هذا هو الكتاب، وتلك هي رسالات الله التي فيه، إنه الحق الذي أنزله الله وسوف يحفظه، وأما الرسول فإن هو إلا مبشر ونذير، وإنما نزل على دفعات، لأنه أبلغ أثرا حيث يستوعبه الناس وأن للقرآن فنة من الناس يؤمنون به أيما إيماناً، فهم يخرون للأذقان ساجدين كلما تليت عليهم آياته، ويسبحون الله ويثقون بوعده، ويسجدون له ويبكون ويزيدهم القرآن خشوعاً.

إن هؤلاء الذين يصوغهم الوحي مثل حي للقرآن وشهادة مبينة على صدقه، وعلى أنه من الله أوليس القرآن يهدي الناس المؤمنين إلى ربهم ويأمرهم بدعائه وبأسمائه الحسنى، يأمرهم بالصلاة دون الجهر من القول ويختتم القرآن سورة الإسراء المباركة بحمد الله، كما بدأها

(١) مكث: مهل وتأن.

بتسبيحه، ذلك الله الواحد الأحد، الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الدن.

التسبيح والحمد والتكبير هو نسب الله وصلة العبد به سبحانه وتعالى.

بيانات من الآيات:

[١٠٥] ما هو محتوى الرسالات؟ إنه الحق الذي أنزل الله به القرآن، وإنه الحق الذي بقي القرآن عليه دون أن تمده إليه يد التحريف، ولكن ما هو الحق؟.

١- وجود الكون والإنسان حق.

٢- قوانين الطبيعة، تلك السنن الإلهية التي أجراها الله في كل شيء حق.

٣- عقل البشر الذي أودعه الله قلب كل إنسان وبه يستوعب واقعيات الأشياء حق. والقرآن حقيقة واقعة وقد نزل ليعكس الحقائق ويهدي إلى السنن ويثير العقول كمحتواه حق لا ريب فيه.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾ لقد قدر الله أن ينزله بالحق ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾، وتحقق هذا التقدير ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾.

وأن محتواه حق ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ وثمراته حق ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾.

وأن الحق الذي أنزله الله به ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ سوف يستمر ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾.

أو لم يقل ربنا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، فلم ولن يقدر أحد على تغييره، هكذا ينبغي أن تفهم هاتان الكلمتان.

قال بعض المفسرين: إن نزول القرآن كان مصاحبا للحق، كما أن الحق كان مصاحبا للقرآن، ونسأله ما هو معنى الباء في قوله بالحق؟.

الباء: حرف جر للاستعانة فإن قلت: اكتب بالقلم، أي استعن بالقلم في الكتابة وهذا المعنى يصح في الآية، إذ أن الحق محتوى القرآن وجوهره بل إن كل آية فيه دليل حق، لأن القرآن جاء لإحقاق الحق كله.

قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّطَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقَطَّعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الرسول بالنسبة إلى من أرسل إليهم لا يعدو أن يكون مبشرا لهم بالخير أن هم آمنوا، ونذيرا لهم بالعذاب إن هم كفروا ولم يكن الرسول كفيلا أو وكيلا عليهم ولم يؤت صلاحية تغيير القرآن، وقد عصمه الله من أن يغير فيه شيئا.

[١٠٦] ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ للقرآن عدة أسماء فمرة يقال: إنه كتاب لأنه يكتب، ومرة يقال: إنه فرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل، ومرة يقال: إنه ذكر لأنه يذكر، وهكذا يسمى القرآن قرآنا لأنه يقرأ، وهكذا تختلف المسميات. والمسمى واحد ولعل ذلك من أجل ألا يعتقد الإنسان أن أهمية القرآن تكمن في كتابته أو في قراءته، ولكن أهمية القرآن تكمن في جوهره. وما هذه الأسماء إلا تلخيص لأهداف القرآن وإشارة إليها.

﴿فَرَقْنَاهُ﴾ أي فصلناه وفرقناه ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾: أي بتأن وتؤدة، بين فترة وأخرى حتى يستوعبه الناس، ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾.

في الآيتين السابقتين قال الله كلمة واحدة باختلاف بسيط، فقال مرة: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، ومرة ﴿نَزَّلْنَاهُ﴾، فما هو الفرق بين الكلمتين؟

الفرق هو أن كلمة: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي أنزلناه جملة واحدة و﴿نَزَّلْنَاهُ﴾ أي على أقساط وهذا يؤكد ما قيل: أن القرآن نزل مرتين على قلب الرسول ﷺ مرة في ليلة القدر، والمرة الأخرى خلال ثلاث وعشرين سنة حسب المناسبات والظروف لكي ترسخ آياته وتعاليمه في ضمير المؤمنين وفي واقع الحياة الاجتماعية.

[١٠٧-١٠٨] إن النفس العالمة لا تستطيع أن تصبر أمام النور الباهر المنبعث من القرآن، ويخر صاحبها سجوداً.

ولكن من هم الذين أوتوا العلم؟

الذين أوتوا العلم هم أحد اثنين:

١- أما أولئك الذين أعطاهم الله العلم من أهل الكتاب عن طريق الرسالات الإلهية السابقة، وعندما سمعوا الآيات القرآنية استوعبوها ورأوا أن هذه الآيات مصدقة لما أتوه، بل هي أعظم فسجدوا للحق وخضعوا له.

٢- وأما أن يكونوا من العرب الذين غمرت نفوسهم بزخات العلم، فكانوا غير أولئك الجهال الذين يبحثون عن الأمور التافهة لذلك فهم عندما يستمعون إلى صوت الحق، ويرون

النور الباهر يؤمنون به، ويستجيون لندائه.

كان أويس القرني يعيش في الصحراء عيشة العز والشرف، فعندما سمع بالرسول وبقرآنه، آمن به وبقرآنه من دون أن يراه فصار بذلك من المقربين إلى رسول الله ﷺ، وأسلم وأحسن إسلامه فكان يقضي نهاره بالصوم وليله بالعبادة، ومثل أويس أبو ذر والمقداد وكثيرون آخرون.

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ لا يهمنا أن تؤمنوا أو لا تؤمنوا، فلسنا محتاجين إلى إيمانكم، إذا كان الله يريد أن يضلكم، فهناك من يؤمن بالقرآن إيمانا عميقا، وهم أهل المعرفة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي أوتوا العلم من قبل نزول القرآن ﴿إِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ الخروء: هو الوقوع السريع. خروا بسرعة على وجوههم، ولعلهم نسوا أنفسهم أمام القرآن ووقعوا على أذقانهم ولم يقعوا على جباههم، لأنهم وقعوا من دون اختيار، فوقعوا على أذقانهم ثم سجدوا بوجوههم.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ يبدو من هذه الآية أنهم كانوا يتوقعون شيئا وقد تحقق في القرآن أو أنهم عبروا - بهذه الكلمة - عن غاية إيمانهم، ومنتهى يقينهم حيث نزهوا الله عن خلف الوعد، وأكدوا أن وعده في الكتاب بنصر المؤمنين في الدنيا، وحسن جزائهم في الآخرة حق. وسيحقق أكيدا. وهذا أحد معاني الحق الذي جاء في الآية السابقة ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾.

إن مخففة وليست شرطية فهي بمعنى (إنه كان وعد ربنا لمفعولا).

[١٠٩] ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ يبدو أن للإنسان أمام الحالات

الغريبة، حالتين متدرجتين:

الأولى: الانصعاق والدهشة.

الثانية: الانبهار الواعي.

وقفنا ولعل الآية التالية تشير إلى هاتين الحالتين حيث يقول سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

في البدء يرتجف الإنسان ويصعق، ثم يستوعب الصعقة وهكذا المؤمنون فهم يخرون أولاً لقوة النور، وما يلبثون أن يتعودوا على قوة النور، فيخرون خشوعاً لله سبحانه.

توحيد الله

[١١٠] ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ كتب العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان^(١) بحثاً مطولاً في هذه الآية فقال ما محتواه: أن البوذيين والمجوس وغيرهم من اتباع الأديان، ومن تأسى بهم يعتقدون أن لله مظهراً وجوهرًا، وأن مظهر الله يختلف عن جوهره، فمظهره هي أسماؤه وهي منفصلة عن جوهره، أو بمعنى آخر منفصلة عن ذاته، ويعتقدون بأن الله أجل من أن يسمى بهذه الأسماء، وأسماءه إنما هي الملائكة، فكل ملك من الملائكة يحمل صفة من صفات الله، فأحد الملائكة يمثل العلم، وآخر يمثل العزة، وآخر يمثل القدرة، فهم يعبدون الملائكة ويحسمونها بتجسيات مختلفة، وبالتالي فهم لا يعبدونها إلا لتقربهم إلى الله زلفى، فصنعوا لله ثلاثمائة وستين إلهاً، كل إله يختلف عن الآخر، فجعل الله يختلف عن عمله وعلمه يختلف عن جلاله، وجلاله يختلف عن قدرته وهكذا..

هذه هي الوثنية، أما عقيدة التوحيد فترفض ذلك وترى أن أسماء الله تشير إلى الحق الواحد فالله رحيم عزيز، ويبد أن العزة والرحمة تشيران إلى ذات واحد، وهكذا جبار وكريم، ورؤوف.. إلخ، وهذه الأسماء مجرد آيات تشير إليه سبحانه فعندما نقول: سميع بصير، فهو سميع بصير بدون آلة سمع أو بصر، وقد قال الشاعر:

عباراتنا شتى وحسنك واحد وكل إلى ذاك الجمال يشير

قال كفار قريش عن الرسول ﷺ مرة: انظروا إلى هذا الصابني يأمرنا أن نعبد إلهاً واحداً وهو يعبد إلهين، يقول: الله، الرحمن، فجاءت الآية لتقول: سواء قلت الله أو الرحمن أو الرحيم أو الواحد أو القهار فإن ذلك يدل إلى شيء واحد، وأن الأسماء الحسنى كلها لله وهي ليست بعيدة عنه، فهي صفات له، وهي غير ذاته.

جاء في الحديث عند سؤال هشام بن الحكم الإمام الصادق عليه السلام عن اشتقاق كلمة (الله) فقال له: «يَا هِشَامُ! (الله) مُشْتَقٌّ مِنْ (إِلَهٍ) وَ (إِلَهِ) يَقْتَضِي مَأْلُوهَا، وَالْإِسْمُ غَيْرُ الْمُسَمَّى فَمَنْ عَبَدَ الْإِسْمَ دُونَ الْمَعْنَى فَقَدْ كَفَرَ وَلَمْ يَعْبُدْ شَيْئًا، وَمَنْ عَبَدَ الْإِسْمَ وَالْمَعْنَى فَقَدْ كَفَرَ وَعَبَدَ اثْنَيْنِ، وَمَنْ عَبَدَ الْمَعْنَى دُونَ الْإِسْمِ فَذَاكَ التَّوْحِيدُ، أَفَهَمْتَ يَا هِشَامُ؟» قَالَ: فَقُلْتُ: زِدْنِي، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

(١) تفسير الميزان: ج ٣ ص ٢٤١.

إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، فَلَوْ كَانَ الْإِسْمُ هُوَ الْمُسَمَّى لَكَانَ كُلُّ اسْمٍ مِنْهَا إِلَهًا، وَلَكِنَّ اللَّهَ مَعْنَى يُدَلُّ عَلَيْهِ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ، وَكُلُّهَا غَيْرُهُ، يَا هِشَامُ! الْحَبِزُ اسْمٌ لِلْمَأْكُولِ، وَالْمَاءُ اسْمٌ لِلْمَشْرُوبِ، وَالثُّوبُ اسْمٌ لِلْمَلْبُوسِ، وَالنَّارُ اسْمٌ لِلْمُحْرَقِ، أَفَهِمْتَ يَا هِشَامُ فَهَبَا تَذْفَعُ بِهِ وَتُنَاضِلُ بِهِ أَعْدَاءَنَا، وَالْمُتَخَذِينَ مَعَ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ غَيْرُهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَقَالَ عليه السلام: نَفَعَكَ اللَّهُ بِهِ وَثَبَّتَكَ يَا هِشَامُ. قَالَ هِشَامُ: فَوَ اللَّهِ مَا قَهَرَنِي أَحَدٌ فِي التَّوْحِيدِ حَتَّى قُمْتُ مَقَامِي هَذَا^(١).

﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تَخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «الْجَهْرُ بِهَا رَفْعُ الصَّوْتِ، وَالتَّخَافُ مَا لَمْ تُسْمِعْ نَفْسَكَ، وَاقْرَأْ مَا بَيْنَ ذَلِكَ»^(٢). ولعل الآية تشير إلى فكرة هامة هي إنه لا ينبغي الصراخ في الصلاة لأن الصراخ ليس من آداب الدعاء ولا يجوز الإخفات إلى درجة بعيدة صحيح أن الله بعيد عنك بعلوه وجلاله إلا إنه قريب منك بلطفه وعلمه، وكما جاء في الدعاء: «الَّذِي بَعْدَ فَلَا يُرَى وَقَرَّبَ فَشَهِدَ النَّجْوَى»^(٣) ولذلك شرع في الصلوات الإخفات في الصلاة النهارية، والجهر في الصلاة الليلية.

الله يتجلى في كتابه

[١١١] لم نحر البشرية في مسألة كحيرتها في الرب، لأن عقل الإنسان محدود فبالرغم من أن الله علمه الأسماء كلها قَصُرَ عن معرفة كنه وجود الله سبحانه، إذ أن علمه وعقله، وكل وجوده أقل من أن يحيط برب السماوات والأرض، فكيف يحيط بكنهه وهو لم يحيط بنفسه علما. بل الإحاطة بكنه الطبيعة من حوله إلا أن الله سبحانه ما ترك الإنسان سادرا في حياته تلك، فقد عرفه نفسه وتجلى له مرتين: مرة في آفاق العالم ومرة في نفسه عبر الذكر الحكيم. وآيات الذكر تذكرونا بآيات الطبيعة.

فنحن إذن أحوج ما نكون إلى القرآن لكي نعرف ربنا، ونعرف أسماءه الحسنى. وإن معرفة الله سبحانه أعظم فائدة يستفيد بها الإنسان من خلال قراءته للقرآن، لو قرأها من دون حجاب بينه وبينها، وهي بالتالي أعظم شهادة على صدق رسالات الرب.

جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «لَقَدْ تَجَلَّى اللَّهُ لِحَلْقِهِ فِي كَلَامِهِ وَ لَكِنَّهُمْ لَا يُنْصَرُونَ»^(٤) فهذا القرآن أنزل الله فيه ما لو نزل على جيل لفته فتا، فقال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا

(١) الكافي: ج ١، ص ٨٧.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٦، ص ٩٨.

(٣) مصباح الكفعمي: ص ٥٧٨، دعاء أول يوم من شهر رمضان.

(٤) بحار الأنوار: ج ٨٩، ص ١٠٧.

هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾ [الحشر: ٢٢].

هذا هو حال الجبل الأصم من عبر القرآن ودروسه فكيف بالإنسان.

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾؛ الحمد لله على أنه لم يتخذ ولداً، لعل أحد معاني هذه الكلمة إنه سبحانه لم يفضل عنصراً على عنصر ولا جوهرًا على جوهر إلا بالتقوى، مما أعطى للجميع فرصة التعالي إليه، والكمال بفضله، والآية تفضح ما يعتقده الوثنيون من أن لله أولاداً هم الملائكة.

جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلِدْ قَبُورَتْ وَلَمْ يُولَدْ قُبُورَتْ»^(١). وحيث نفى الولد، فإن سبحانه قد نفى عنه الشريك، فإن من لم يلد فإنه لن يكون مولوداً، لأنه صمد لا أجزاء له، ومن لم يكن مولوداً لا يكون شبيهاً بشيء، فلا كفو له ولأنه لا شريك له لا ولي له من الذي ينصره لأنه غني بذاته فكيف يستعين بغيره..

﴿وَلَوْ كَانَ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ لَكُنَّا لَنَرَاهُ يَرْفُئُ فِي الْعَرْسِ الْمَرْفُوعِ﴾ قيل: «إن هذه الآية جاءت ردّاً على اليهود والنصارى حين قالوا: اتخذ الله ولداً، وعلى مشركي العرب حيث قالوا: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، وعلى الصابئين والمجوس حين قالوا: لولا أولياء الله لذل الله»^(٢).

وقد جاء في الدعاء المأثور: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا فَيَكُونَ مَوْرُوثًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ فَيُضَادَّهُ فِيمَا ابْتَدَعَ، وَلَا وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ فَيَرْفِدُهُ فِيمَا صَنَعَ»^(٣).

لم يكن عند الله شريك فيضاده أو يساعده، لأنه لو كان له شريك يضاده لتزعزع النظام، ولو كان له شريك يساعده فالأول قوي والآخر ضعيف فما هي حاجتنا إلى الضعيف.

في الحديث المأثور عن هشام بن الحكم في حديث الزنديق الذي أتى أبا عبد الله عليه السلام وكان من قول أبي عبد الله عليه السلام: «لَا يَخْلُو قَوْلُكَ إِنَّهُمَا اثْنَانِ مِنْ أَنْ يَكُونَا قَدِيمَيْنِ قَوِيَّيْنِ، أَوْ يَكُونَا ضَعِيفَيْنِ أَوْ يَكُونَا أَحَدُهُمَا قَوِيًّا وَالْآخَرُ ضَعِيفًا، فَإِنْ كَانَا قَوِيَّيْنِ فَلِمَ لَا يَدْفَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ وَ يَتَفَرَّدُ بِالتَّنْذِيرِ، وَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّ أَحَدَهُمَا قَوِيٌّ وَالْآخَرُ ضَعِيفٌ، ثَبَتَ أَنَّهُ وَاحِدٌ

(١) الكافي: ج ١، ص ٩١.

(٢) مجمع البيان: ج ٣، ص ٤٤٥.

(٣) بحار الأنوار: ج ٩٥، ص ٢١٨، دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام.

كَمَا نَقُولُ لِلْعَجَزِ الظَّاهِرِ فِي الثَّانِي فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّهُمَا اثْنَانِ لَمْ يَخْلُ مِنْ أَنْ يَكُونَا مُتَّفِقَيْنِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ أَوْ مُتَفَرِّقَيْنِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ فَلَمَّا رَأَيْنَا الْخَلْقَ مُنْتَظِمًا وَالْقَلْبَ جَارِيًا، وَالتَّذْيِيرَ وَاحِدًا، وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، دَلَّ صِحَّةُ الْأَمْرِ وَالتَّذْيِيرِ وَاتِّتِلَافُ الْأَمْرِ عَلَى أَنَّ الْمُدَبِّرَ وَاحِدٌ ثُمَّ يَلْزِمُكَ إِنْ ادَّعَيْتَ اثْنَيْنِ فُرْجَةً مَا بَيْنَهُمَا حَتَّى يَكُونَا اثْنَيْنِ فَصَارَتِ الْفُرْجَةُ ثَالِثًا بَيْنَهُمَا قَدِيمًا مَعَهُمَا فَيَلْزِمُكَ ثَلَاثَةٌ فَإِنْ ادَّعَيْتَ ثَلَاثَةً لَزِمَكَ مَا قُلْتَ فِي الْإِثْنَيْنِ، حَتَّى تَكُونَ بَيْنَهُمْ فُرْجَةً فَيَكُونُوا خَمْسَةً ثُمَّ يَتَنَاهَى فِي الْعَدَدِ إِلَى مَا لَا نِهَآيَةَ لَهُ فِي الْكَثَرَةِ^(١).

إن ما يتوهمه المتوهمون هو مخلوق لهم، مردود عليهم، فالله لا يوصف بتمثيل ولا يشبه بنظير فبدل أن يفكروا في ذات الله يجب عليهم أن يتفكروا في خلقه الذي يقودهم إليه.

﴿وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا﴾ ليس من الصحيح أن نقول أن الله أكبر من كل شيء، فهل هناك شيء يحتمل أن يكون أكبر منه؟! وإنما نقول هذا الشيء أكبر من هذا الشيء لوجود تقارن بينهما، ولكن الأصح أن الله أكبر من أن يوصف، لا أن نقول الله أكبر من الشمس فهناك إذ ليست هنالك مقارنة بينهما، كيف تضع الحقير المخلوق بجانب الخالق الكبير؟! ولكن يمكنك أن تقول: إن الشمس أكبر من القمر.

جاء في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال لجميع بن عمير: «أَيُّ شَيْءٍ اللهُ أَكْبَرُ؟ فَقُلْتُ: اللهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَكَانَ ثُمَّ شَيْءٌ فَيَكُونُ أَكْبَرَ مِنْهُ؟ فَقُلْتُ: قَمَا هُوَ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اللهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ»^(٢).

وجاء في حديث آخر: عن أبي عبد الله عليه السلام قال رجل عنده: «اللهُ أَكْبَرُ». فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اللهُ أَكْبَرُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟ فَقَالَ: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: حَدِّثْنِي، فَقَالَ الرَّجُلُ: كَيْفَ أَقُولُ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قُلِ اللهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ»^(٣).

(١) الكافي: ج ١، ص ٨٠.

(٢) الكافي: ج ١، ص ١١٨.

(٣) المصدر السابق: ص ١١٨.

المحتويات

| | |
|----|---|
| ٧ | سورة هود |
| ٩ | الإطار العام: الاستقامة طريق الجنة |
| ١٣ | كتاب أحكمت آياته ثم فصلت (الآيات ١ - ٤) |
| ١٦ | إحاطة علم الله (الآيات ٥ - ٨) |
| ١٩ | الإنسان بين اليأس والفخر (الآيات ٩ - ١٤) |
| ٢٣ | الإنسان بين الدنيا والآخرة (الآيات ١٥ - ١٦) |
| ٢٥ | الخسارة عاقبة الكفار (الآيات ١٧ - ٢٢) |
| ٣٠ | أنؤمن لك واتبعك الأرذلون (الآيات ٢٣ - ٢٨) |
| ٣٤ | وما أنا بطارد الذين آمنوا (الآيات ٢٩ - ٣١) |
| ٣٧ | وما أنتم بمعجزين (الآيات ٣٢ - ٣٩) |
| ٤١ | بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (الآيات ٤٠ - ٤٤) |
| ٤٥ | إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (الآيات ٤٥ - ٤٩) |
| ٤٩ | هود: إني توكلت على الله (الآيات ٥٠ - ٥٧) |
| ٥٣ | أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ (الآيات ٥٨ - ٦٠) |
| ٥٥ | صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ينذر قومه (الآيات ٦١ - ٦٤) |
| ٥٩ | أَلَا بُعْدًا لثَمُودَ (الآيات ٦٥ - ٦٨) |
| ٦٢ | أتعجبين من أمر الله؟ (الآيات ٦٩ - ٧٣) |
| ٦٥ | جعلنا عاليها سافلها (الآيات ٧٤ - ٨٣) |
| ٧٠ | شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: أوفوا المكيال والميزان (الآيات ٨٤ - ٨٧) |
| ٧٤ | شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: لا يجرمنكم شقاقى (الآيات ٨٨ - ٩٥) |
| ٧٨ | وما أمر فرعون برشيد (الآيات ٩٦ - ١٠٣) |
| ٨٢ | عاقبة البشر بين شقاء النار وسعادة الجنة (الآيات ١٠٤ - ١٠٩) |

| | | |
|-----|---|--------------------|
| ٨٥ | فاستقم كما امرت | (الآيات ١١٠ - ١١٢) |
| ٨٨ | لكي نضمن الاستقامة | (الآيات ١١٣ - ١١٧) |
| ٩٢ | وجاءك في هذه الحق | (الآيات ١١٨ - ١٢٣) |
| ٩٥ | سورة يوسف | |
| ٩٧ | الاطار العام: الحاكمية لله | |
| ٩٩ | أحسن القصص | (الآيات ١ - ٣) |
| ١٠١ | رؤيا تبشر بالمستقبل | (الآيات ٤ - ١٠) |
| ١٠٦ | مؤامرة الحاسدين | (الآيات ١١ - ١٨) |
| ١١٠ | يوسف يتحدى الفساد | (الآيات ١٩ - ٢٣) |
| ١١٤ | مراحل التحدي | (الآيات ٢٤ - ٢٩) |
| ١٢٠ | وكبرت دائرة التحدي | (الآيات ٣٠ - ٣٤) |
| ١٢٤ | رب السجن أحب إلي | (الآيات ٣٥ - ٤١) |
| ١٢٩ | الكفاءة مقدمة التمكين في الأرض | (الآيات ٤٢ - ٤٩) |
| ١٣٤ | الملك من بعد | (الآيات ٥٠ - ٥٧) |
| ١٣٩ | فتنة إخوة يوسف <small>عليه السلام</small> | (الآيات ٥٨ - ٦٦) |
| ١٤٣ | إني أنا أخوك | (الآيات ٦٧ - ٧٥) |
| ١٤٧ | يوسف <small>عليه السلام</small> خطة حكيمة | (الآيات ٧٦ - ٨٢) |
| ١٥٢ | ولا تيأسوا من روح الله | (الآيات ٨٣ - ٩٣) |
| ١٥٨ | من الرؤيا الى الحقيقة | (الآيات ٩٤ - ١٠٢) |
| ١٦٤ | في قصصهم عبرة | (الآيات ١٠٣ - ١١١) |
| ١٦٩ | سورة الرعد | |
| ١٧١ | الإطار العام: آيات الطبيعة سبيل الإيمان | |
| ١٧٥ | أسماء الله وتجلياتها | (الآيتان ١ - ٢) |
| ١٧٩ | عظمة الله تتجلى في الطبيعة | (الآيات ٣ - ٧) |
| ١٨٦ | ينابيع الايمان وعوامل الشرك | (الآيات ٨ - ١٤) |
| ١٩٣ | هل يستوي الأعمى والبصير | (الآيات ١٥ - ١٨) |
| ١٩٧ | المؤمنون.. صفات وتقييم | (الآيات ١٩ - ٢٤) |
| ٢٠٣ | الكافرون.. صفات وتقييم | (الآيات ٢٥ - ٢٩) |
| ٢٠٨ | لله الأمر جميعا | (الآيات ٣٠ - ٣٥) |

| | | |
|-----------|--|------------------|
| ٢١٥ | حكما عربيا | (الآيات ٣٦ - ٣٨) |
| ٢١٨ | يمحو الله ما يشاء | (الآيات ٣٩ - ٤٣) |
| ٢٢٣ | سورة إبراهيم | |
| ٢٢٥ | الإطار العام: النبي إبراهيم عليه السلام رمز وأسوة | |
| ٢٢٧ | من الظلمات إلى النور | (الآيات ١ - ٥) |
| ٢٣١ | طاعة الرسل.. هداية ونجاة | (الآيات ٦ - ١٢) |
| ٢٣٧ | وخاب كل جبار عنيد | (الآيات ١٣ - ٢٠) |
| ٢٤١ | لا تلوموني ولوموا أنفسكم | (الآيات ٢١ - ٢٧) |
| ٢٤٧ | الشكر بين الصلاة والزكاة | (الآيات ٢٨ - ٣٤) |
| ٢٥١ | إبراهيم عليه السلام أسوة في الشكر والدعوة الصالحة (الآيات ٣٥ - ٤١) | |
| ٢٥٥ | وبرزوا لله الواحد القهار | (الآيات ٤٢ - ٥٢) |
| ٢٦١ | سورة الحجر | |
| ٢٦٣ | الإطار العام: البشرية بين المادة والقيم السماوية | |
| ٢٦٥ | الأمل الذي لم يسعده العمل | (الآيات ١ - ٨) |
| ٢٦٨ | هكذا يحفظ الله رسالته | (الآيات ٩ - ١٨) |
| ٢٧٢ | قدرة الله وحكمته ينبوع العطاء | (الآيات ١٩ - ٢٥) |
| ٢٧٥ | كيف يتحدى المؤمن غواية الشيطان | (الآيات ٢٦ - ٤٤) |
| ٢٨١ | النهاية بين المتقين والمجرمين | (الآيات ٤٥ - ٦٠) |
| ٢٨٥ | العذاب حصاد الظالمين | (الآيات ٦١ - ٨٤) |
| ٢٩١ | فاصدع بها تؤمر | (الآيات ٨٥ - ٩٩) |
| ٢٩٧ | سورة النحل | |
| ٢٩٩ | الإطار العام: آفاق التعامل مع النعم الإلهية | |
| ٣٠٥ | وعلى الله قصد السبيل | (الآيات ١ - ٩) |
| ٣١٠ | لعلكم تهتدون | (الآيات ١٠ - ١٨) |
| ٣١٦ | التكبر أسبابه وجزاؤه | (الآيات ١٩ - ٢٩) |
| ٣٢٢ | والعاقبة للمتقين | (الآيات ٣٠ - ٣٧) |
| ٣٢٧ | آثار الإيمان بالآخرة | (الآيات ٣٨ - ٤٤) |
| ٣٣٣ | إنها هو إله واحد | (الآيات ٤٥ - ٥٥) |

| | | |
|-----------|---|--|
| ٣٣٩ | لله المثل الأعلى | (الآيات ٥٦ - ٦٣) |
| ٣٤٤ | القرآن مقياس الحق ومظهر الرحمة | (الآيات ٦٤ - ٧٤) |
| ٣٥٢ | يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها | (الآيات ٧٥ - ٨٣) |
| ٣٥٨ | لا يؤذن لهم ولا هم يستعتبون | قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْذِنُ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ |
| ٣٦١ | العلاقات المثلى | |
| ٣٦٨ | كيف | |
| ٣٧٤ | | (الآيات ١٠٦ - ١١٣) |
| ٣٨١ | سحر النعم | (الآيات ١١٤ - ١١٩) |
| ٣٨٥ | سحر النعمة وبرامج الوحي | (الآيات ١٢٠ - ١٢٨) |
| ٣٩١ | سورة الإسراء | |
| ٣٩٣ | الإطار العام: الإنسان ذلك المسؤول عن مصيره | |
| ٤٠١ | قصة الإسراء | (الآية ١) |
| ٤١٦ | إن أحستم أحستم لأنفسكم | (الآيات ٢ - ٨) |
| ٤٢٢ | الإنسان ذلك المسؤول | (الآيات ٩ - ٢١) |
| ٤٢٨ | المسؤولية الاجتماعية للإنسان المؤمن | (الآيات ٢٢ - ٣٣) |
| ٤٣٤ | الإنسان بين الشرك والهروب من المسؤولية (الآيات ٢٢ - ٣٣) | |
| ٤٣٩ | الحجب وضرورة التصحيح | (الآيات ٤٥ - ٥٢) |
| ٤٤٤ | العلاقات الاجتماعية البناءة | (الآيات ٥٣ - ٦٠) |
| ٤٥٤ | الإنسان بين كرامة الله وغرور الشيطان | (الآيات ٦١ - ٧٠) |
| ٤٦٣ | كيف نواجه خطط إبليس؟ | (الآيات ٧١ - ٨١) |
| ٤٧٤ | القرآن بلسم الحياة وشفاء الإنسان | (الآيات ٨٢ - ٩٣) |
| ٤٨٤ | التكذيب أسبابه ونتائجه | (الآيات ٩٤ - ١٠٤) |
| ٤٩٣ | وبالحق أنزلناه وبالحق نزل | (الآيات ١٠٥ - ١١١) |
| ٥٠١ | المحتويات | |